

الرقم الدولي: 2321-7928

بدأ صدورها في 2012م

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 8 العدد: 4

أكتوبر-ديسمبر 2019م

العدد الخاص

بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى

(الجزء الخامس)

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

د. مثنى حارث الضاري (العراق)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دأنش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحكيم

د. فيضان الله الفاروقي (الهند)	د. بشري زندان (مصر)
د. حسن يشو (قطر)	د. صاحب عالم الأعظمي (الهند)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معتصم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	د. محمد عمران علي ملا (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكاتب)

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
 - أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ب. أن يلتزم بالمنهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
 - ج. أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - هـ. الأفضل أن يتناول البحث موضوعاً جديداً ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
 2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Sakkal Majalla) على حجم 14.
 3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
 4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
 5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
 6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
 7. تحتفظ المجلة بحقوقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.
- تعبّر الآراء العلمية المنشورة عن آراء كاتبها، واجتهاداتهم الشخصية

في هذا العدد

الصفحة

6	- د. أرنك زيب الأعظمي	الافتتاحية
		مقالات وبحوث:
8	- الإمام عبد الحميد الفراهي	حياتي
9	- العلامة تقي الدين الهلالي	ترجمة الإمام الفراهي
11	- مولانا عبد الماجد الريبادي ترجمة: د. هيفاء شاكري	المفسر الفراهي
14	- الشيخ السيد محمد عبد الغفار الندوي المجددي القادري ترجمة: د. عظمة الله الندوي	الإمام الفراهي كما شاهدته
17	- د. محمد فضل الله شريف	الإمام عبد الحميد الفراهي وخدماته العلمية خلال إقامته في مدينة كراتشي
31	- د. حسن يشو	الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه، دراسة نظرية تحليلية تطبيقية 4
130	- أ.د. أحمد بن حسن فرحات	معاجم مفردات القرآن، موازنات ومقترحات

183	- د. أياز أحمد الإصلاحي	النظر في طريق الاستدلال للقرآن الكريم في ضوء كتاب "حجج القرآن"
223	- د. محمد أكرم الندوي ترجمة: محمد شفاء الرحمن	الإمام الفراهي وموقفه من الحديث النبوي
247	- البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي ترجمة: أبو سعد الأعظمي	مباحث السيرة النبوية في مؤلفات الفراهي
268	- د. محمد قاسم العادل	أسلوب الإمام الفراهي في ضوء كتابات
287	- د. أورتك زيب الأعظمي	الشعر العربي للإمام الفراهي، دراسة تحليلية
322	- د. محمد فضل الله شريف	الإمام عبد الحميد الفراهي وإدارة مدرسة الإصلاح
340	- د. أورتك زيب الأعظمي	"أولى به" و"أولى لك" في القرآن الكريم
354	- الأستاذ نسيم ظهير الإصلاحي الغازي ترجمة: د. محمد معتصم الأعظمي	أهمية النظم في فهم القرآن
380	- أبو الأعلى السيد بن محمد عناية الله	"تدبر قرآن" للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، أول تفسير كامل على منهج الإمام الفراهي

الافتتاحية

بين أيديكم الجزء الخامس للعدد الخاص بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) ونحمد الله على أنه أعاننا وسهل لنا الأمور لبيان مآثر شخصية إسلامية وقفت حياتها لخدمة القرآن الكريم وعلومه، نحمده تعالى على توفيقنا لهذه الخدمة.

هذا العدد، كسوابقه، يحتوي على مقالات وبحوث علمية، مقالات تحيط بمختلف جوانب حياة الإمام ومراحلها، وبحوث توضح أفكاره ونظرياته المختلفة عن تفسير القرآن وأصول تأويله ومستوى تعيين بلاغته ومحكم نظامه المعجز، وكذا يحوي الجزء مقالات تقارنه بغيره من المفسرين وتسلط الضوء على نظريته التعليمية التي ظهرت في صورة مدرسة قرآنية (مدرسة الإصلاح) وتعرف بالمعهد العظيم الذي يهتم بنشر أفكاره وأعماله. ومعظم هذه المقالات كتبها كبار علماء الهند وخارجها.

ومن ميزات هذا الجزء أنه يحوي بين دفتيه سيرة ذاتية للإمام الفراهي كتبها على طلب من العلامة تقي الدين الهلالي المغربي، وترجمة الإمام بقلم العلامة المغربي، ومشاهدة عالم معاصر لسلوكه الروحي المتميز.

قفينا بهذه المقالات بحوثاً علمية تتناول مختلف أفكار وأعمال الإمام الفراهي بالبحث والموازنة كما نشرنا في هذا الجزء مقالات تسلط الضوء على مساهمته في إكمال بعض الأعمال الهامة وتقديم نماذج عملية وعلمية تواصل أفكاره وآراءه القيمة.

ومن ميزات هذا الجزء أيضاً أنه يشتمل على مقالات كتبت لمواصلة ما بدأ به الإمام الفراهي من الأعمال التي لم يوفق لإكمالها، ومن المسيرة العلمية التي يرجع

فضل شروعها إليه. ولقد وعدنا من قبل أننا سننشر مقالات تعتبر امتدادًا ومواصلة لأفكار الإمام الفراهي، فالمقالات "أولى به وأولى لك في القرآن الكريم" و"أهمية النظم في فهم القرآن" و"تفسير تدبر قرآن" حلقات ثلاث من هذه السلسلة الذهبية التي ستستمر إن شاء الله تعالى. وندعو الباحثين الناهجين منهج الإمام الفراهي أن يرسلوا إلينا مقالات أمثالها لنقوم بإتمام ما بدأ به وبتكليـل ما شرع فيه الإمام بالنجاح.

نشكر الله عزّ وجلّ على أن وفقنا لنشر وترويج أفكار الإمام الفراهي الذي يليق بأن يعدّ من أكبر علماء الإسلام وأبرز مفسّريه.

د. أورك زيب الأعظمي

حياتي¹- الإمام عبد الحميد الفراهي²

إني وُلِدْتُ في قرية "فريه" من قرى أعظم كره في 1280هـ في شهر جمادى الثانية وحفظت القرآن المجيد وأنا ابن عشر سنين أو بقرب منها، وتعلّمت اللغة الفارسية في مدة تسعة أشهر ولكن لم اشتغل بها إلا بعد عامين لتتابع الأسقام وشرعت في تعلّم اللغة العربية وأنا ابن أربع عشرة سنة، وقرأت أكثر كتب الدرس النظامي على ابن عمتنا العلامة شبلي النعماني ثم تلمذت على بعض مشاهير علماء الهند مثل مولانا عبد الحي الفرنجي محلي في لکنؤ والأديب الشهير مولانا فيض الحسن السهارنفوري في بلدة لاهور ثم كابدت الأمراض ولم اشتغل بتحصيل علم مدة سنة

ثم شرعت في تعلم اللغة الإنكليزية وفنونها المتداولة وبعد ذلك بقيت سنتين، أحصل علم القوانين الجارية مع كراهيتي الاشتغال به فنبذته وتولّيت خدمة التعليم في مدارس عديدة فكنت المعلم (بروفيسر) في كلية عليكره وكلية إله آباد والصدر (برنسپل) في كلية حيدر آباد دكن.

ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد لا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن، فتركّت الخدمة ورجعت إلى وطني وأنا بين خمسين وستين من عمري. فبا أسفى على عمر ضيّعته في أشغال ضرّها أكبر من نفعها ونسأل الله الخاتمة على الإيمان.

¹ نشرت هذه الترجمة في مجلة الضياء في مقالة كتبها الشيخ أبو الليث الإصلاحي الندوي عن سيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي، وقد نشرنا هذه المقالة في الجزء الأول للعدد الخاص بسيرة وأعمال الإمام الفراهي (مدير التحرير)
² الشخصية القرآنية التي يخصّ بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

ترجمة الإمام الفراهي

- العلامة تقي الدين الهلالي¹

1. زرت العلامة الأوحّد الشّيخ حميد الدين الفراهي الأعظمكروهي رحمه الله رحمة الأبرار في سنة 1342 هـ بقرية بهريا، فذكر لي ترجمته حتى انتهى إلى تأسيسه لمدرسته، فقال لي: إني منذ زمان قد وقفت ما بقي من حياتي على خدمة القرآن، فأُسستُ هذه المدرسة لتعليم القرآن وما يتعلق به من علوم اللغة العربية، فإنهم في حاجة إلى تعلّم اللغة العربية تعلّمًا صحيحًا يمكنهم من الوصول إلى كنوز القرآن الكريم، وبَيّنتُ لهم بطلانَ ما كانوا يتوهمونه من أنهم قد انتهوا من تحصيل علوم اللغة العربية.

ثم قال لي رحمه الله: إن شئت أن تشاركنا في هذه الخدمة الشريفة فعلت، فاعتذرتُ له بأني أريد أن أتمّ سياحتي في بلاد الهند، وبعد إتمامها أنظر. فلم يُقدّر لي لقاءه بعد ذلك إلا في سنة 1345 هـ بالمسجد الحرام، ثم كان ذلك آخر العهد به رحمه الله رحمة واسعة.²

2. وللشيخ المذكور ديوانٌ شعر سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين، وبتّ الحياة في قلوبهم، وذكر عداء الإفرنج لهم، وذكر حرب طرابلس والحرب الكبرى.

والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلًا عن علماء الهند. وسنّه تخمينًا 70. وقد أسّس مدرسة سمّاها "مدرسة الإصلاح"، لا يدرس فيها

¹ علم من أعلام اللغة العربية.

² نشر النص الأول في مقالة عنوانها "علة الثانية من علل التعليم في المدارس الإسلامية بالهند" نشرت في مجلة "الضياء"، رجب 1351 م. وأما النص الثاني فهو مذكور في مقالة الشيخ أبي الليث الإصلاحي الندوي التي نشرناها في الجزء الأول للعدد الخاص بسيرة وأعمال الإمام الفراهي.

إلا القرآن الذي هو ضالته المنشودة. وسمعتُه منه خطبةً تفسيره للقرآن
اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقّيتها.

وهو عارف بمسألة الخلافة، محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً
للأهل الهند.

مجتهد فى العقائد والعمليات، لا ينتمى لمذهب لكنه يتعبد على مذهب
الحنفية لأنه نشأ عليه، ويعتقد أنّ الأمر فى مثل ذلك سهل. أسمر اللون،
حسن الملامح، طويل القامة، لحيته مستديرة، بيضاء ناصعة. ماهرٌ فى
الإنكليزية والعربية والأردوية. قد تقلّب فى وظائف عديدة، منها أنه كان مدرّساً
عالياً فى عليكره.

المفسر الفراهي

(المتوفى عام 1930م)

- مولانا عبد الماجد الدريبادي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

تعرفت على اسم الشيخ الفراهي أول ما تعرفت إليه من خلال مجلة "الندوة" خلال عام 1905م حسب ظني، وكان الشيخ شبلي وهو ابن عمه الفراهي رئيس تحرير المجلة في تلك الفترة. موطنه أعظم جره، من منطقة "بهريا" بين مدينة أعظم جرة وشاه غنج. و"الفراهي" معرب لـ"بهريا".

ولعله تعلّم الفارسية على يد الشيخ (شبلي). كان شخصاً وقوراً كثير التفكير، وما تعلّمه من علوم، تعلّمها بالجهد والرغبة في التعليم. ولذلك تفوّق على معاصريه وربما على الشيخ شبلي أيضاً في الأدب الفارسي والعربي. كان قادراً على الفارسية والعربية كأهل اللغة. وله ديوان شعر باللغة الفارسية. أما في العربية فكان حافظاً للشعر الجاهلي. ولكن أسلوبه بالعربية كان معقداً، فكانت النتيجة غياب السلاسة من عباراته. كان أستاذاً للفارسية والعربية في كراتشي وجامعة إله آباد. وفي الأخير مديراً لدار العلوم النظامية في حيدر آباد لسنوات عديدة.

التقيت به عند الشيخ شبلي في لکناؤ، كان قليل الكلام لا يخالط الناس كثيراً. وفي ذلك الزمن كنت ملحدًا، أما هو فشديد التدين. ولكني صاحبه لشهور في حيدرآباد في سنة 1917م أو 1918م. واكتشفت حذاقته ودقة نظره، وكنت أصحبه في المشي مساءً، فكان يأتي بنكات فريدة في كل قضية. كانت هذه فترة

¹ مفسر القرآن الكريم باللغتين الأردوية والإنجليزية، وصاحب أسلوب شهير بالأردوية

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي

تأسيس الجامعة العثمانية، وكان يشارك في اجتماعات وضع المصطلحات، ويناقش القضايا المرتبطة بالجامعة.

وكان لديه اطلاع واسع وعميق في مجال الفلسفة، فبالإضافة إلى قراءته لأرسطو، كان يطالع كتب المنطق والفلسفة الغربية الحديثة، ولم يكن يكتفي بالقراءة بل كان يتدبر فيها، ويناقشها وينتقدتها. عدت من حيدرآباد عام 1918م. وكان الشيخ قد عاد إلى موطنه "بهريا" بعد التقاعد قبلي، وقد تعينت له نقود قليلة للمعاش. وكانت بساطته وقناعاته معروفة، ولكنها ظهرت بعد عودته حيث اقتنع بالملئات بعد أن كان راتبه بالآلاف. ولكنه استطاع العيش بكل قناعة ويسر.

بدأت رحلاتي إلى أعظم جره عام 1919م بشأن "دار المصنفين"، وكان الشيخ يأتي من "بهريا" وكنا نمكث معًا ليوم أو يومين، وكان شديد التدين كما ذكر، فكان يحرص على أداء الصلاة في أول وقتها، ولم أر مثله إلا عند شخص آخر وهو السيد "أكبر إله آبادي". ولم يكن الشيخ وحده ملتزمًا بالصلاة، بل كان الآخرون أيضًا يصلّون امتثالًا به، وكان الصلاة موضوع الحديث دائمًا في الأيام التي كان يمكث فيها الشيخ في دار المصنفين.

كان متعودًا على الكتابة بالعربية وليست الأردية. وكان مجاله الحقيقي هو دراسة القرآن منذ سنوات عديدة. وخاصة من ناحية الأدب والبلاغة. ولم يكن يذكر الروايات في التفسير إلا قليلًا. وكان يركّز كثيرًا على سياق الآيات.

كان غيورًا على الدين، وكان الشيخ شبلي أحيانًا بسبب طبيعته الفكاهية ينتقد الدين بطريقة خفيفة، ولكن الفراهي لم يكن يتحمل ذلك، وكان يكتب مقالة أو كتيبًا للرد على ذلك بطريقة جدية. وكان يشعر وكأنه أصيب بالحمى إلى أن ينتهي من الكتابة!

إن كلّ ما كتبه في عصره، كان بالعربية، وعن القرآن الكريم. وكان حديثه أفضل من الكتابة، يفهمه كلّ من يسمعه، بدون نقد أو تعقيد. وللأسف أنه لم يتدرب

على الكتابة بالأردية. ولكن الآن بدأ بعض من تلاميذه بترجمة كتاباته العربية إلى الأردية المفهومة ونشرها في مجلدات صغيرة. وترجمت الكثير من السور إلى الأردية. وقد طبع له قاموس في كلمات القرآن. وتلميذه المقرب أمين أحسن الإصلاحي الباكستاني يؤلف الآن وبحمد الله التفسير الكامل للقرآن الكريم على حسب الأصول التي وضعها أستاذه. وقد نشر منه مجلدان إلى الآن.

لم يمر في حياتي شخص أكثر صبراً، وضبطاً لنفسه، وقانعاً، ومتوكلاً، ونقي السيرة منه إلا قليلاً.

الإمام الفراهي (كما شاهده)

- الشيخ سيد محمد عبد الغفار الندوي المجددي القادري¹
ترجمة من الأردوية: د. عظمت الله الندوي²

تشرفت مرتين، بأن التحق بمدرسة الإصلاح ببلدة سرائ مير، كمتعلم، الأول عندما سجّل اسمي في هذه المدرسة بعد التخرج من مرحلة المتوسطة، وذلك برفقة الشيخ عبد الرحمن الندوي النكرامي رحمه الله في عام 1921م، ولكني رجعت بعد فترة لا تزيد عن بضعة أشهر. ثم حصلت على القبول في الصف الرابع من مرحلة العالمية عملاً بمشورة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، فتلمذت على كل من الشيخ شبلي الندوي رحمه الله لدراسة كتاب "بداية المجتهد"، والشيخ محمد سعيد الندوي الذي كان يدرسنا كتاب "المفصل" والمواد الأخرى بما فيها الإنشاء والتعبير وتاريخ دول العرب، والشيخ محمد عبد الصمد الندوي لدراسة "ديوان الحماسة"، والحكيم محمد أحمد للقرآن الكريم، والشيخ عبد الأحد القاسمي لدراسة كتاب "قطبي"، وقد حصلت على درجات جيدة في الامتحان السنوي، ثم حصلت على القبول في الصف السادس لدار العلوم التابعة لندوة العلماء (بلكناؤ)، ومن المؤسف أنني لم أحظ بفرصة التلمذ على الإمام الفراهي رحمه الله.

في تلك الأيام، كان الإمام الفراهي رحمه الله، يلقي دروساً خاصة للقرآن الكريم للطلاب المتخرجين فقط وذلك ثلاثة أيام في الأسبوع، في حين كان يسكن في غرفة بشمال شرق المبني القديم، وإنني شاهد، بناء على مشاهداتي خلال تلك الفترة، بأن

¹ أحد أبرز المتخرجين من دار العلوم التابعة لندوة العلماء بلكناؤ

² مدرّس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيودلهي

الإمام كان رجلاً تقيّاً، ووليّاً من أولياء الله، حيث لاحظت بأنه كان يتوضأ ويغتسل كلّ يوم عقب الساعة الثانية عشرة ليلاً، باستخدام مياه الأواني الموجودة في جهة غرفته شرقاً. ثم يصليّ النوافل، بعدها كان يعكف على التدبر في القرآن الكريم في غرفته حتى صلاة الفجر، وكان ينهك فيه انهماكاً يشغله عن أي شخص موجود حوله. لأن الشيخ أمين أحسن كان يجهز له الشاي في غرفته كلّ يوم بعد صلاة الفجر ولكنه لم يكن يحسّ بوجوده، فكان يسأل: ألم يأت أمين؟

وأنا على يقين بأن جميع مؤلفات الإمام حول تفسير القرآن إلهامية، ولا مرأى في أن هذه الآية الكريمة تنطبق عليه: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٥١﴾". (سورة يوسف). على كل، كنت أسمع توجيهاته وإرشاداته وأنا ملتصق بجدار غرفته. وذات مرة ألقى الإمام بعض أبياته الشعرية باللغة الأردية على طلبته المقربين، وحفظتها، والآن لا أتذكر إلا ثلاثة منها، وهي خير دليل على كونه عارفاً بالله:

هو نہ غفلت تو کچھ نہیں جز حق در حقیقت یہی ہے باطل ایک
باتیں دو چار پوچھنی تھیں مجھے کہیں پاتے جو مردِ کامل ایک

ترجمة: إذا لم نغفل فليس هنا سوى الحق

في الحقيقة إنما (الغفلة) هي الباطل

كنا بحاجة إلى الاستفسار عن أشياء

لو وجدنا في مكان، إنساناً كاملاً

(وقال أيضاً:)

میں جو بے خودی میں فنا ہوا تو وہ حسن جلوہ نما ہوا

مری حیرت آئے بن گئی تھی نگاہ خانہ ناز میں

ترجمة: سرعان ما انعمست في غفوة إذ طلع جمال(ه)

لقد أصبحت حيرتي كمرآة في عين الحبيب.

أدعو الله العلي القدير أن يوفقنا والأمة الإسلامية للاستفادة من أعمال الإمام الفراهي

الإمام عبد الحميد الفراهي

وخدماته العلمية خلال إقامته في مدينة كراتشي

-د. محمد فضل الله شريف¹

الملخص

في هذه المقالة ألقى الضوء على حياة الإمام عبد الحميد الفراهي خلال إقامته في مدينة كراتشي، فقد عُيِّنَ الفراهي مدرّسًا بعد التخرج من الجامعة بعامين أنفقهما في دراسة القانون، درّس أولًا في مدرسة كراتشي في الفترة ما بين 1897م و1906م، وقد أنشئت هذه المدرسة على أهداف تشبه أهداف حركة علي جراه، أقام بها الفراهي في السكن المدرسي في منزل ذي طابقين، وكانت داره في الطابق الأول، وكان يرافقه خادم له من "فريها" يسمّى "شكور دهنيا"، وزوجته التي تسمّى "غلشن"، وهما كانا يسكنان معه في الطابق الثاني، واشتملت أسرة الفراهي على سبعة أفراد، وكان يرسل بعض الأموال من كراتشي لحلّ النزاع حول الأراضي، وخلال هذه الفترة تم تعيينه كمترجم في دار الترجمة في أفغانستان 1899م، ثم طبع كلامه الفارسي عام 1900م، وكذلك جعل يكتب في اللغة العربية عام 1902م، إنه جعل يتدبر القرآن الكريم على منهج غير منهج القدماء، وبدأ يؤلف تفسيره "نظام القرآن" في عام 1903م، خلال هذه الفترة ألقى العلامة شبلي نظريته على تفسيره، ولكن لم يطمئن به، وفي عام 1903م تعارف الفراهي ورشيد رضا المصري، ويأتي خلال تلك الإشارة إلى معاناته بالمرض عام 1903م، وخلال تلك الفترة أظهر شبلي طمأنينته حول تفسير القرآن الكريم وفهم أهمية فلسفة الربط

¹ أستاذ مساعد، كلية إيه كيه إيم الشرقية التابعة للجامعة العثمانية، غاتشي غوره،

حيدر آباد

بين الآيات، حسب القواعد التي أشار إليها الفراهي، ففي هذه المدة أَلَفَ الفراهي تفسير سورة اللمب، وصنّف كتاب "جمهرة البلاغة"، فأمعن شبلي النظر في كل من تفسير سورة أبي لمب، وأجزاء جمهرة البلاغة، وهنّا على كليهما، وفي عام 1906م أكمل تفسيره لسورة الشمس وسورة القيامة، كما قام الفراهي بالرحلة إلى خليج فارس وسواحل العرب مع مبعوث الحكومة البريطانية في الهند، فتعلّم الفراهي في هذه الرحلة اللغة التركية، إلا أننا لا نعلم جيّدًا حتى كم مدة أقام الفراهي بكراتشي، ومتى ودّعها، ولكن يكتب العلامة سيد سليمان الندوي مخمّنًا أنه أقام بكراتشي حتى عام 1906م، يخمّن من ذلك أنه ودّع كراتشي في أواخر شهر يناير 1907م.

الكلمات المفتاحية: كراتشي، مدرسة الإسلام، شراء الكتب، دار الترجمة، كلامه الفارسي، بداية الكتابة، بداية كتابة التفسير، الانطباع الأول لشبلي عن تفسير الفراهي، رشيد رضا المصري، نظام القرآن، استفادة شبلي بنظام القرآن، تفسير سورة أبي لمب، وجمهرة البلاغة، تفسير سورة الشمس، تفسير سورة القيامة، رحلة الفراهي إلى خليج فارس وسواحل العرب.

المدخل: للإمام عبد الحميد الفراهي مؤلفات ورسائل عديدة، معظمها مكتوبة بالعربية وقليل منها بالفارسية والأردية، وعندما بدأ مهنة التدريس في مدرسة الإسلام بكراتشي، التي كانت تجري نشاطاتها العلمية على منوال كلية علي جراه، أقام بها في الفترة ما بين 1906م و1987م، هذه المدة تجدر بالذكر في حياة الفراهي، لأنه بدأ فيها بكتابة تفسيره "نظام القرآن"، وكتابة مؤلفاته الأخرى مثل "جمهرة البلاغة"، وأنهى تلك الكتب وتفسير سورة أبي لمب، وسورة الشمس، وسورة القيامة من تفسيره الشهير، وهذه الفترة مهمة كذلك لكونه بدأ فيها بإلقاء الدروس بعد الفراغ من العلوم الدينية والعصرية، والتضلع والتسلح بكلا السلاحين المهمين، وشرع يؤلّف الكتب المختلفة، وجعل يقرض الشعر، وبدأت

تطبع كتبه من دور النشر المختلفة، وقد تأثر أولاً أخوه شبلي بكتابات ومؤلفاته المختلفة، ومن هنا ظهرت مواهبه الشتى، واكتشفت جداراته الكتابية، في العربية والأردية والفارسية من الشعر والنثر، ولهذه الكتب صيت ذائع في الأوساط العلمية، التي جعلته عالماً يشار إليه بالبنان، وحظي بالقبول الفائق بين الناس بأعماله العلمية المختلفة.

بداية التدريس: عيّن الفراهي مدرساً بعد تخرجه من الجامعة بعامين ولكنه أمضى هذه المدة في قراءة القانون، وذلك لأنه كان ينحدر من أسرة متمولة كانت تنفر عن الوظائف الحكومية، إلا أنه اختار من بين الوظائف مهنة التدريس، يقول ابنه محمد سجاد: "إنه كان يحب أن يكون بروفييسوراً".¹

قطع الفراهي أشواطاً كبيرة في العلم والفكر خلال طلبه للعلم، ففي جانب كان يؤلف الكتب وفي جانب آخر كان يفكر في الموضوعات العديدة، إنه كان يحسب التدريس ملائماً ومناسباً لنفسه، وأنسب الأعمال العلمية والفكرية، ولذا انسلك بمعهد علمي عندما كان موظفاً، ولما ترك الوظيفة اشتغل بإدارة شؤون "مدرسة الإصلاح"، وكان له شغف بشراء الكتب منذ نعومة أظفاره، فلما جُعِلَ مدرساً في مدرسة الإسلام، شرع في شراء الكتب واقتنائها، وكان يفضل أن يشتري الكتب على أن يشتري الأسباب الضرورية.

مدرسة الإسلام بكراتشي 1897-1906م: يقول العلامة سيد سليمان الندوي عن وظيفته في مدرسة الإسلام بكراتشي:

"فلما انتهى من التعليم تم تعيينه كمدرس في مدرسة الإسلام بكراتشي".²

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بهذا الشأن:

¹ مجلة الضياء، نوفمبر: 260، 1933م.

² ياد رفتغان (ذكريات المتوفين)، ص 132.

"جُعِلَ بروفيسورًا للعربية في مدرسة الإسلام بكراتشي، وأمضى بها أعوامًا".¹

التعريف بمدرسة الإسلام: أنشئت هذه المدرسة على أهداف تشبه أهداف حركة علي جراه، وذلك لأن مؤسس مدرسة السند، خان بهادر حسن علي أفندي به مجيدي الذي كان محاميًا مشهورًا في كراتشي، التقى عام 1885م بالسير سيد أحمد وأعوانه ومساعديه من الإنجليز، وألحق ابنه بمدرسة علي جراه، فلما رجع منها أنشأ هذه المدرسة في أغسطس عام 1885م في السند.

في بداية الأمر كان أساتذتها يأتون من علي جراه، أو كانوا تعيّنهم علي جراه، فمن أبرز طلاب هذه المدرسة محمد علي جناح، شيخ عبد المجيد السندي، السير عبد الله هارون، الدكتور يو إيم داؤد، مير أيوب خان، حسن علي عبد الرحمن، أيوب كهورو، إين إيم عقلي، إيه كيه يرودي، شاه نواز بهتو، السير غلام حسين، هدايت الله، حسين جي جهاغله وغيرهم.²

والأمر الذي يثير العجب أنه كيف مهّد له الطريق للوصول إلى كراتشي، فيقول ابنه محمد سجاد:

"طلب أهل المدرسة من السير سيد أن يرئ لهم أستاذًا في مدرستنا، فأرسل السير سيد مولانا حيمد الدين على هذا الطلب".³

إنه احتاج إلى توصية من السير سيد فكتب إلى شبلي في هذا الصدد، فأجابه 18 نوفمبر 1896م:

"محبي، وصل إلي رسالتكم، عليك أن تكتب رسالة بنفسك لكتابة التوصية إلى السير سيد، فاذا ذكر له ترجمة طبقات ابن سعد، وبدأ الإسلام".⁴

¹ مجموعة تفاسير فراهي، ص 26.

² تاريخ كراتشي، ص 31-33.

³ المحادثة الشفوية، فيها، 10/مارس، 1980م.

⁴ مكاتيب شبلي، 2/2.

لا نعلم جيداً أنه كتب رسالة للتوصية إلى السير سيد أم لا؟ ولكن العلامة سيد سليمان الندوي يقول:

"إنه حاول للتوظيف في مدرسة الإسلام في كراتشي، فمنحه السير سيد توصيته".¹
فسافر إلى كراتشي عام 1897 م، فذكر الباحث ممتاز البخاري في دراسته عندما يذكر فهرس الأساتذة عنه:

42- حميد الدين، البكالوريوس، 1896 م ... إلى عام 1910 م.²

ولكن أخطأ الباحث في التاريخ حيث ذكره عام 1896 م على الرغم من أنه وصل إلى كراتشي عام 1897 م، وإذا أمعنا النظر في الشواهد والسجلات، نتوصل إلى هذه النتيجة بأنه انسلق في التدريس في مدرسة الإسلام بكراتشي في 1/ يونيو عام 1897 م. كيف كان الفراهي يقضي أيامه في كراتشي؟ كيف الفراهي يمضي أيامه، وما هي الظروف التي مرت بها، وما هي الأشغال اليومية التي كان يشتغل بها يشير إلى كل هذه ابنه محمد سجاد:

"هناك في السكن المدرسي منزل ذو طابقين، وهو كان يسكن في طابقه الأول، ويرافق معه خادم له من "فريها" شكور دهنيا، وزوجته غلشن. وهما كانا يسكنان معه، وكذا كانت تشتمل أسرتنا على سبعة أفراد، إن مولانا كان يتقاضى مرتباً قدره 100 روبية شهرياً، ويمضي حياته بكل عيش رغيد، ويرسل من هذا الراتب ثلاثين روبية على مرزا صدر الدين لتصفية النزاع في المحكمة".³

¹ ياد رفتهغان، ص 133

² رسالة الدكتوراه عن مساهمة مدرسة الإسلام في تاريخ السند العلمي والأدبي والسياسي التي قدمها سيد ممتاز حسين شاه في جامعة السند في 1979 م، ص 621.

³ محمد سجاد، فريها، 10، مارس، 1980 م.

شغفه بشراء الكتب: وكان له شغف بشراء الكتب منذ نعومة أظفاره، فقد اشترى في صغره كتاب "قصص الأنبياء" يسمعه على عمته، فلما كبر، وازداد شوقه ورغبته في الكتب جعل يشتريها، ولما كان طالباً في علي جراه، ألف كتابين، فلما ازدادت أشغاله العلمية، وحمل مسؤولية التدريس، جعل يتحمل الأعباء بنفسه، فجعل يشتري الكتب، إنه كان يشتري الكتب من راتبه قبل شراء حوائج بيته، فيكتب رسالة في 4 فبراير عام 1898م إلى شبلي:

"أنا أطلب الكتب من مصر بكل سهولة فأرسل أسماء الكتب".¹

دار الترجمة في أفغانستان 1899م: أسست دار الترجمة تحت إشراف والي كابل الأمير عبد الرحمن خان من قبل حكومة بريطانيا، لتتم ترجمة الكتب من الكتب العربية والإنجليزية إلى الفارسية، فبدأ العمل من ترجمة كتاب ابن خلدون، وخص لذلك مبلغ عشرة آلاف روبية، فعينت أسماء جهابذة العلماء مثل شبلي، وحالي، والدقي نذير، ولكن اعتذر كل منهم لضعف قواهم وقلة فرصتهم، ولم تتم الترجمة سوى لسبعة آلاف صفحة أو أكثر، وكذلك صعب الحصول على من له قدرة على تلك الألسنة، فقدّم شبلي اسم الفراهي، وقرّر بأنه يقوم بهذا العمل تحت إشراف شبلي، وجرت المناقشات عن هذا العمل لقراءة عام، ولكن توقف العمل.²

طباعة كلامه الفارسي عام 1900م: طبع كلامه الفارسي على إشارة من رسالة العلامة شبلي في بداية عام 1900م. يكتب العلامة شبلي رسالة إلى النواب حبيب الرحمن الشيرواني:

"طبع كلام عزيزي المولوي حميد الدين، أرسل نسخة إلى حضرتكم، فلاحظ القصيدتين الأخيرتين، هذه هي اللغة الفارسية".³

¹ مكاتيب شبلي، 3/2.

² المصدر نفسه، رقم الرسالة: 11.

³ المصدر نفسه، رقم الرسالة: 10-11.

بداية الكتابة باللغة العربية 1902م: حاول الفراهي أن يجعل العربية وسيلة لإبلاغ ما يجيش في قلبه، وما يخطر بباله، فبدأ يكتب في العربية بكراتشي، يكتب شبلي في 22/ فبراير 1902م رسالة إلى الفراهي:

"علمت من رسالتك أنك جعلت تكتب باللغة العربية، فقد أرسلت رسالة في العربية إلى الأخ داؤد، إنك تكتب العربية، وترضى بها، وهل تريد أن تنولد حريري آخر، فأني فائدة لتلك؟ ليس المسلمون في حاجة إلى حريري وامرئ قيس في هذه الأيام".¹

وطبع ديوانه الفارسي "ديوان حميد" عام 1903م.

بداية كتابة التفسير 1903م: سبق أن ذكرنا أنه جعل يتدبر القرآن الكريم على منهج غير منهج القدماء، وجعل يكتب تفسيراً باسم "نظام القرآن" ولكنه متى بدأ هذا التفسير؟ يكتب عنه شبلي في 9/ مارس عام 1903م في إحدى رسالاته الموجهة إليه:

"وصل خطابكم، أتمني منكم بمثل هذه الرسائل، وأجيبه بكل رغبة، وما تولد فيك رغبة نظام القرآن فأهناكم على ذلك".²

ثم يكتب رسالة بعد شهر في أبريل عام 1903م:

"سألقي النظر على "نظام القرآن" إن شاء الله بكل شوق ورغبة، ولكن بدّل اسمه باسم "نظم القرآن" لأن الجاحظ وعبد القاهر صتفا في هذا الموضوع، وسمّيا كتابهما باسم "نظم القرآن" لأن لفظ "نظام" لا يحلولي".³

انطباع شبلي عن هذا التفسير: نرى الرابطة العلمية بين الأستاذ والتلميذ وطيدة فكلما يكتبانه يرسله البعض إلى الآخر، فلما جعل الفراهي يكتب الأجزاء

¹ المصدر نفسه، رقم الرسالة: 11.

² المصدر نفسه، رقم الرسالة: 11.

³ المصدر نفسه، رقم الرسالة: 13.

التفسيرية أرسلها إلى أستاذه شبلي، فأعاد شبلي النظر فيه، وقدم آراءه، فيقول في إحدى رسائله في 11 مايو 1903 م:

"فألقيت النظر على "نظام القرآن" من البداية إلى النهاية، لا أجد أي حلاوة في الأسلوب والعبارة، ولكن لا أتمكن أن أقدم الرأي، فما أردت من الرابط بين الآيات وهو ينسجم بالمعني البعيد، وأنت كتبت الروابط بالأرقام التسلسلية، ولكن لم تنقل الآيات القرآنية، ولذا أحتاج إلى الرجوع إلى القرآن الكريم.

والأمر الآخر المهم أنك تأخذ الآيات المربوطة، وتترك الآيات غير المربوطة، وهي التي تفرق المطالب، وتشئت المعاني. فأرسل إليّ أجزاء أخرى، فما حصلت من النجاح وهو مغنمة، وإن صرفت هذه الجهود في أمر يمكن الحصول عليه بكل سهولة، فبلغت إلى مبلغ لم يبلغ إليه أحد".¹

التعرف على العلامة رشيد رضا المصري 1903 م: كان الفراهي ورشيد رضا يعرف بعضهما البعض إلا أن الروابط بينهما قامت بسعي عبد الحقي حقي الذي كان يعمل لبيع الكتب وشراؤها، وكان الفراهي يتصل به، فأرسل الفراهي إلى رشيد رضا كتبه، فأشاد بها رشيد رضا المصري، ولكن لا يعلم أحد هذه الحقيقة بأن الفراهي كان يقرأ مجلة "المنار" التي كان يدير تحريرها رشيد رضا، وكذلك قرأ الفراهي تفسير المفتي محمد عبده، وكان أسلوب تفسيره يوازي أسلوب الفراهي. فيكتب عبدالحق حقي في فبراير عام 1905 م رسالة إلى الفراهي:

"وقد كتبت إلى مصر أطلب لك جزء عم (للأستاذ الإمام) الشيخ محمد عبده، وعندما يصل إليّ أرسله إليك بالفور".²

ويكتب رسالة بعدها في مارس 1905 م:

¹ المصدر نفسه، رقم الرسالة: 14.

² الرسالة القلمية.

"اليوم أرسلت لجنايبكم نسخة من تفسير (جزء عم) للأستاذ الإمام، وقيمته مع المصارييف رويتان ونصف، أرجو أن ترسلوها في القريب العاجل، وترسلوا مع بقية حسابنا المتخلف عندكم، وقيمة الاشتراك في المنار عن سنة الذي لا يزال في ذمتكم".¹ ففي هذه الفترة طلب منه رشيد رضا المصري أن يرسل إليه كتبه، إنه يكتب إلى حقي في 4 صفر عام 1321هـ، الموافق لشهر مايو 1903م:

"هذا، والرجاء التعجيل بإرسال مقدمة التفسير، فقد وردني كتاب من صاحب المنار يستبطن إرسالها، كذلك كتاب "النحو الجديد" لو يمكنكم إرسالها سريعاً".² معاناته من المرض عام 1903م: من رأى مولانا في أواخر عمره عن كتب قال إنه يتمتع بالصحة والعافية، ولكن تأتي أمراضه في حياته في حين لآخر، وإن هذه الأمراض قد تابعت له لسنتين، لا نقدر على الإحاطة بظروفه كلها خلال إقامته بكراتشي، ولكن نجد ذكر مرضه في تلك الفترة أيضاً، يكتب له عبد الحق حقي البغدادى رسالة في مايو 1903م:

"لقد ساءني جداً خبر مرضكم، فالحمد لله أزال عنكم المرض ونسأله سبحانه وتعالى أن لا يلحق فيما بعد بجوهر جسمكم هذا العرض".³

تغيير رأي شبلي عن نظام القرآن: يقول العلامة شبلي في رسالة موجهة إليه: "فلما ألقى النظر لأول مرة ما فهمت الأعداد، ولكن الآن رأيته حسب إرشادك بالأعداد، ثم ألقى النظر على أجزاء نظام القرآن، لا ريب إنني علمت الروابط بين الآيات، ولكن أنت تقوم بالربط بين الآيات، ولكن فصل الآيات الأخرى بين تلك

¹ الرسالة القلمية.

² الرسالة القلمية

³ الرسالة القلمية.

الآيات، سوف لا يضيع هذا الجهد إن شاء الله، وتحل العقد بعد اللقاءات الأخرى إن شاء الله عز وجل".¹

استفادة شبلي بنظام القرآن: إن الفراهي قد وضع أسسًا جديدة، وأسلوبًا حديثًا في التفكير في القرآن الكريم، وقد تبعه العلامة شبلي على ما أرشده إليه في هذا الشأن، يكتب شبلي رسالة إليه في 1/يونيو:

"نعم، الآن، أقرأ القرآن وأطالعه بالربط بين الآيات، ثم أطلعك عليه".²

المساعدة العلمية في مجلة "الندوة": جعلت تصدر مجلة "الندوة" تحت رئاسة حبيب الرحمن الشيرواني والعلامة شبلي، يقول العلامة شبلي للفراهي أن يكتب فيها: "أخي! اكتب لمجلة "الندوة" حينما سنحت لك الفرصة".³

تفسير سورة أبي لهب: كما سبق أن نظام القرآن يأتي ذكره في رسائل شبلي، ولكن لا يمكننا ذكر جزء خاص منه سوى تفسير سورة أبي لهب.⁴ فقد كتبه قبل يونيو عام 1905م، وأرسله إلى شبلي، فيكتب شبلي بعد قراءته:

"أمعنت النظر في تفسير سورة لهب، وأجزاء جمهرة البلاغة، فأهنتك على التفسير، فلك منة على سائر المسلمين".⁵

جمهرة البلاغة 1905م: يظهر من الجزء الثاني لمجموعة رسائل شبلي أنه أصر على الفراهي خلال إقامته بكراتشي، أن يلتفت إلى النقد والتحقيق، خاصة لما

¹ مكاتيب شبلي، المصدر نفسه، رقم الرسالة: 20

² المصدر نفسه، رقم الرسالة: 21

³ المصدر نفسه، رقم الرسالة: 19 و21

⁴ لا بد هنا من ملاحظة أن تفسير نظام القرآن لم يراع فيه كاتبه الترتيب، وكذا لم يكتمل هذا التفسير، وهو تفسير بعض سور القرآن الأخيرة.

⁵ مكاتيب شبلي، المصدر نفسه، رقم الرسالة: 28

رغب في نظم وبلاغة القرآن الكريم، فكتب رسالة "جمهرة البلاغة" كما يذكرها شبلي من قبل.

دراسة تحليلية لشبلي لكتاب "جمهرة البلاغة": فقام شبلي بدراسة تحليلية لكتابه "جمهرة البلاغة" و"نظام القرآن" في الندوة. نقتبس فيما يلي من هذه الدراسة: موضوع الكتاب هو البيان لأصول البلاغة، ولكن المؤلف ناقش خلال البحث فصاحة القرآن وبلاغته، لأنه يعلم الكتب المؤلفة في بلاغة القرآن وفصاحته، فرأى أن هذه الكتب لا يبلغ المقصود، لأن ما رتب من الفن في الفصاحة والبلاغة غير تمام، وهم أثبتوا في ضوء هذا الفن فصاحة القرآن وبلاغته.

ولذا عطف المؤلف عنان فكره إلى هذا الفن، فرتبه في أسلوب جديد، ووضع أصولاً جديدة للفصاحة والبلاغة، وهكذا فجاء بكتاب جديد باسم "جمهرة البلاغة".¹

دراسته التحليلية لتفسير نظام القرآن 1905م: وكذا كتب دراسة تحليلية في ديسمبر عام 1905هـ لبعض أجزاء تفسير "نظام القرآن"، نقتبس منها ما يلي

"فما أريد أن أقوم باستعراض هذا الكتاب، كما لا نتبع فيه أمانى مؤلفه، إن هذا الكتاب مهم جداً للمسلمين كاحتياج العاطش إلى الماء، وإنا نود أن نكتب له دراسة شاملة، ولكن الأسف إن المؤلف ألف هذا الكتاب في اللغة العربية، ولذا لا يتمكن كل فرد من التمتع به".²

تفسير سورة الشمس 1906م: يذكر العلامة شبلي في 4/ أغسطس عام 1906م عن تفسير سورة الشمس في رسالة تدل على أن هذا التفسير ألف في هذه الفترة، يقول شبلي:

¹ مجلة الندوة، شوال: 1323هـ، ديسمبر 1905م: 4.

² مكاتيب شبلي، المصدر نفسه، رقم الرسالة: 20 و28.

"أنا مقيم في ممبئي، ما وجدت بحثًا مهمًا في الشمس، ولكن وجدت فوح الشؤم في بعض المواضع، بأنك جعلت شهادة عثمان والإمام حسين سببًا لعقاب المسلمين، هذا ما يوافق طبيعتك".¹

تفسير سورة القيامة 1906م: وكذا كتب الفراهي تفسير سورة القيامة خلال هذه الفترة، ذكره العلامة شبلي في إحدى رسائله في 4/ أغسطس، 1906م: "رأيت تفسير سورة القيامة، فتوارد المعاني في باب "لا" وأنا أيضًا أفكر في ذلك منذ مدة طويلة، هذه محاوراة عامة".²

طباعة تفسير سورة أبي لهب: كما سبق عن تفسير سورة أبي لهب، أن هذا الجزء طبع في 1906م كما صرح بذلك سيد سليمان الندوي قائلاً: "وعلاوة على أقسام القرآن طبع تفسير سورة أبي لهب وسورة القيامة وغيرهما في أغسطس عام 1906م".³

رحلة الفراهي لخليج فارس وسواحل العرب: لما ارتحل الفراهي مع اللورد كرزن مبعوث الحكومة البريطانية في الهند، ودّع في سواحل كراتشي ابنه محمد سجاد، فسافرت هذه القافلة بالباخرة، ولكن الفراهي لم يستخدم الأسلوب الغربي في الأكل والشرب والقيام وغيرها، وأنه مع ملازمة هؤلاء الأصحاب الإنجليز كان يراعي السنن النبوية بكل اهتمام، لأن الإنجليز يأكلون باليد اليسرى، ويستخدمون السكين للقطع، وإنه لم يكن يستوجب هذا الأمر، وكان يراعي في كل شيء السنن النبوية.⁴

¹ المصدر نفسه، رقم الرسالة: 24 و34.

² المصدر نفسه، رقم الرسالة: 24 و35.

³ ياد رفتهغان، ص 136.

⁴ محمد سجاد، فريها، مارس، 1980م.

وتعلم الإمام الفراهي خلال هذه الرحلة اللغة التركية، ولولا نعرف مدى تضلعه بالتركية، ولكن هذه حقيقة أنه كان يعلم اللغة التركية ويفهمها.

وداع كراتشي: لا نعلم قطعاً فترة إقامته المحددة بكراتشي كما لا نعلم فترة وداعها المحددة، ولكن يكتب العلامة سيد سليمان الندوي مخمناً أنه أقام بكراتشي حتى عام 1906 م.¹ يدلي بنفس الرأي الدكتور ممتاز البخاري في مقالته² كما تشير إليه سجلات مكتب مدرسة السند، ولكن نقدره بتوظيفه في جامعة علي جراه التي تقول سجلاتها بأنه عيّن فيها في 1/فبراير عام 1907 م.³ فيخمن من ذلك أنه ودّع كراتشي في أواخر شهر يناير عام 1907 م.

¹ ياد رفتغان، ص 133.

² فليراجع ضميمة المقال القلعي، رقم 7، في فهرس أساتذة مدرسة السند.

³ نذكر المرجع في ذكر علي جراه.

المصادر والمراجع

1. الإمام عبد الحميد الفراهي، مجموعة تفاسير فراهي (ترجمة أردية: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، مركزي مكتبة إسلامي، باكستان، د.ت.
2. الدكتور عظيم الشان حيدر، تاريخ كراتشي، تفاصيل الطبع لا توجد
3. رسالة الدكتوراه عن مساهمة مدرسة الإسلام في تاريخ السند العلمي والأدبي والسياسي التي قدمها سيد ممتاز حسين شاه في جامعة السند في 1979م
4. السيد سليمان الندوي، ياد رفتهغان (ذكريات المتوفين)، مكتبة الشرق، آرام باغ، كراتشي، 1955م
5. العلامة شبلي النعماني، مكاتيب شبلي (مجموعة رسائله، جمع وتدوين: السيد سليمان الندوي)، المجلد الثاني، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1937م
6. مجلة الضياء، نوفمبر: 260، 1933م، الصادرة من ندوة العلماء بلكناؤ.
7. مجلة الندوة العدد: شوال: 1323هـ، ديسمبر 1905م: 4، الصادرة من ندوة العلماء بلكناؤ.

الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه
دراسة نظرية تحليلية تطبيقية



-د. حسن يشو¹

الفصل الثالث والعشرون: التكميل في أصول التأويل

تمهيد:

إن هذا الكتاب تناولنا بعض مقاصده ومراد المؤلف رحمه الله خلال حديثنا عن أصول التأويل عند الفراهي، والآن نعرض للكتاب كما هو، وفق المباحث الآتية:
المبحث الأول: ملابسات الكتاب:

إن الإمام الفراهي رحمه الله أورد أصولاً راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه تفادياً للتأويل المستبعد والمنحرف عن مقاصد القرآن الكريم.

موضوع الكتاب: هو الكلمة والكلام من حيث دلالته على المعنى المراد.

وغايته: فهم الكلام وتأويله إلى المعنى المراد المخصوص؛ بحيث تنجلي عنه الاحتمالات. وكان الباعث على تأليفه ما رآه الإمام من اختلاف العلماء في فهم القرآن اختلافاً كثيراً، وذهبوا في تأويله مذاهب شتى، حتى جعلوه كتاباً مشتبهاً، ملتبساً، فلاح له أن ذلك ما كان ليكون لولا عدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن، فاجتهد في تأسيس هذا الفن على أصول راسخة، بنيت على قواعد اللسان وأساليب القرآن، غير أن الإمام لم يتيسر له إتمامه، ومع ذلك فقد أحاط سماحته بأكثر ما يقتضيه هذا الفن.

¹ أستاذ مساعد، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة قطر

المبحث الثاني: لماذا التكميل؟

إن المتأمل يجد طرقاً منه في أصول الفقه ولكنه غير تمام؛ ما حمله على تكميل هذا الفن من أجل أن يكون هو المعتمد في فهم كتاب الله، وكل كلام حكيم؛ من هنا اختار له اسم "التكميل في أصول التأويل".

وقد أشار إلى أن العلماء جعلوا طرقاً من أصول التأويل جزءاً لأصول الفقه أي فروع الشرائع. فلكونه صار غير مستقل، ثم لكونه مستعملاً للفروع لم يعط من التيقظ والاحتياط ما يعطى لأصول الدين، ومعلوم أن الاختلاف في فروع المسائل هيئ فهاً أمره، فلو جعل هذا الفن من علم التفسير لعظم محله في الدين، ولأفرغ له الجهد التام والاحتياط من الآراء الضعيفة، وبعد ذلك يكون استعماله في الحديث وسائر الكلام من باب النافلة.

المبحث الثالث: تكميل ثلاثة علوم:

لقد بين سماحته رحمه الله الخلل في قصر التأويل في علم الفقه والشرائع فقط، إذ لا يخفى أن الدين معظمه ترقية النفوس وتربية العقول وإصلاح الأعمال الظاهرة أي الأخلاق والعقائد والشرائع، والقرآن قد تكفل كل ذلك بأحسن ما يكون، وكل ذلك متصل بعضها ببعض، وبجميعها تحصل التزكية وهي الغاية والمطلوب، ولهذه الثلاث نشأت ثلاثة علوم:

1- علم الأخلاق والمواعظ.

2- علم الكلام.

3- وعلم الفقه.

وإذ جعل علم التأويل مقصوراً على الفقه، بقي علما الأخلاق والكلام فارغين عنه، فلا نجده مستعملاً فيهما، ولم يعتمد أهلها على أصول راسخة.

فإن جعلنا القرآن أصلاً لكل هذه العلوم، صار من الواجب تأسيس أصول التأويل؛ بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن.

المبحث الرابع: الغاية منه:

ألمعنا إلى الغاية باقتضاب لكنه رحمه الله يبين هنا أن غاية هذا العلم هو المنع من التفسير بالرأي، والرأي الممنوع منه هو الرأي المذموم والتفسير بالهوى، ولا يحمل ذلك على ترك النظر في دلالة القرآن وحمل الآية على نظائرها، والجمود على المنقول المحض، وعدم التفريق بين صحيحه وسقيمه، وتسويته في الاعتماد، فالتدبر في كتاب الله تعالى مطلوب حتمًا، وواجب شرعًا، والدلائل عليه من الكتاب المجيد نفسه كثيرة معلومة.¹

إن من غاية الكتاب كما نص عليه الإمام هو "معرفة الأصول التي تعين على فهم القرآن الحكيم حسب أفهام البشر"، وهذه الأصول تنقسم إلى قسمين:
الأول: ما يعصم عن الزيف في التأويل.

والثاني: ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله.

والأمر الجامع لهذين الأمرين هو التفكير في نظم القرآن، فالنظام هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيف، وهو السراج المنير الذي يدل على الحكم؛ فإن الآيات إنما تنتظم بما تتضمن من الحكمة فإنها هي الجامعة".²

المبحث الخامس: هل الصحابة لم يشتغلوا بهذه العلوم؟

لقد أورد شبهة أن الصحابة ﷺ لم يشتغلوا بهذه العلوم القائمة على علم البيان والنظر والاستدلال. وأجاب عنها مفندًا لها، وذكر أن ذوقهم وسلامة عقولهم قد أغناهم عن ذلك، فإن كثيرًا من العلوم المدونة ليست إلا كالدواء للمرضى.

¹ انظر التكميل في أصول التأويل، ص 215 وما بعدها.

² المصدر نفسه، ص 223.

ولا شك أنّ كثيرًا من الصحابة إذا فسروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر والسحاب الهائل، يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علمًا وحكمة، ولكن مع ذلك لم يستطع السامعون أن ينقلوه للخلف إلا نبأً منه يسيرة.

المبحث السادس: بين التأويل والتحريف والتفصيل:

لقد بين رحمه الله معنى التأويل من خلال فهمه لقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾ [سورة يوسف: 100]. فقال رحمه الله:

"فعلّمنا ثلاثة أمور:

- 1- أن التأويل ما يكون حقيقة لأمر، أخبر عنه بمتشابه له على طريق التمثيل.
- 2- وأن الأمر إذا كان تأويله حقًا فهو أيضًا حق، فإن يوسف عليه السلام، رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا أنهم سجدوا له، فصارت هذه الرؤيا حقًا بوقوع ما أخبر عنه.
- 3- وأن الله تعالى يستعمل هذا الطريق لكشف بعض الأمور تبشيرًا أو لحكمة أخرى كما شاء".¹

ثم فرق فضيلته بين التأويل والتحريف والتفصيل فقال:

- التأويل: حمل الكلام على ما يحتمله نقلًا أو عقلاً.
 - والتحريف: حمله على ما لا يحتمل.
 - والتفصيل: ذكر أجزاء لم تذكر لجامع يحتملها.
- والفرق بين هذه الثلاثة من أشد الأمور وجوبًا لفهم القرآن والتمسك به. والضرر من تخليط التأويل بالتفصيل أهون من ضرر تخليط التحريف بهما، فإنه باطل محض، وافتراء على الله، وهدم لدينه.²

¹ المصدر نفسه، ص 226.

² المصدر نفسه، ص 226 - 227.

المبحث السابع: تفسير الرازي والتأويل:

لقد ظهرت الفلسفة واختلفت الآراء في العقائد، فصنفوا الكتب على نمط الكلام وأرخوا عنان الخيال، وتشبث كل فرقة من الروايات والفلسفة بما أعجبها فكثرت وجوه التأويل حتى صار الأمر الواضح مشتبهًا، وأظلمت سبل التفسير، وأغلق باب القرآن، ولكثرة الآراء وتشاجر الروايات ضاع الحكم الفيصل.

وتفسير الرازي رحمه الله أصدق شاهد على ما نقول... لما جاء بوجوه كثيرة حيث لا يحتمل الكلام إلا سمًا واحدًا، فلا تراه إلا يغادر بين سبل متفرقة لا تدري أيها تسلك؟ ومن ذلك قوله في آية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: 1]: المراد من الفتح فتح مكة، فتح خيبر، فتح الطائف، فتح عام، فتح العلوم، فتح المعقولات...".

وما علمت دواء لهذا الداء العضال إلا التمسك بالقرآن ورد الروايات والآراء إلى كتاب الله، وهذا لا يكون إلا أن نؤمن بأن القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا.

المبحث الثامن: ما هي الأصول التي تهدي إلى معنى واحد؟

لقد ذكر الإمام الفراهي أصولًا على أنها تهدي إلى معنى واحد منها:

- 1- إذا كان لتأويل الآية أكثر من وجه، فننظر في موقعها، كما نفعل في اللفظ إذا كان له أكثر من معنى.
- 2- العلم بخصائص أسلوب القرآن وأساليب كلام العرب.
- 3- عدم تأويل الكلمة بمعنى تكون هناك كلمة أخرى أولى به من الكلمة الأولى؛ إذ القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه.
- 4- الموافقة بالآيات الأخرى، وبالكتب السابقة، وبالعقل والبرهان، وبما ثبت من تاريخ الأمم الخالية وسنة الله تعالى بعباده، ولا نعبأ بالشاذ من ذلك.

المبحث التاسع: طرق الفهم للمعنى المراد:

لقد حدد الإمام الفراهي طرق الفهم للمعنى الواحد؛ وذكر فيها واحدًا وعشرين طريقًا؛ هي:

- 1- تأويل القرآن بالقرآن.
- 2- رعاية نظم الكلام.
- 3- النظر في وجوه الكلمة والكلام ولا بد من تعيين المراد في كل موضع.
- 4- اللفظ يسع نطاقه أو يضيق كمًا وكيفًا وزمانًا ويعرف المراد بالنظر في النظم.
- 5- والنظر في المعنى الجامع لوجوه والتفريق بينه وبين المشترك.
- 6- والنظر في وجوه الألفاظ من الإثبات والنفي، والخبر وأقسام الإنشاء، والاسمية والفعلية، ثم من كون الفعل ماضيًا وجاريًا ومستقبلًا.. وغير ذلك، ثم النظر في دلالات هذه الوجوه.
- 7- والنظر في وجوه الإثبات والنفي.
- 8- والنظر في مفهوم الإثبات من النفي وبالعكس، فإذا كان بين الأمرين تضاد وتناقض فما يثبت لأمر ينفي من ضده.
- 9- والنظر في وجوه إطلاق الفعل، فقد يطلق الفعل على بدء الفعل، وقد يطلق على نتيجته وهكذا.
- 10- ومراعاة الفرق في إطلاق الاسم والصفة والفعل، فالاسم يطلق على الأكمل، ثم الصفة، ثم الفعل.
- 11- والنظر في إطلاق الحكم على العام، هل المقصود به العموم من حيث مجموعهم، أو يتناول كل فرد فيهم، أو يخص فردًا بعينه.
- 12- والنظر في إطلاق الحكم على ذي صفة، فالحكم على الأشخاص ليس كالحكم على الذي ذكر بالصفة، فإن الحكم يتعلق به من حيث تلك الصفة.
- 13- والنظر فيما يتعلق بالكلمات المطلقة الجامعة.

14- ومراعاة الفرق بين الحقيقة المطلقة والحقيقة المصطلحية، فرب مجاز في الحقيقة المطلقة صار حقيقة في اللغة، والناس إنما يخاطبون بحسب لغتهم.

15- والنظر في وجوه الكلام وتأويله، فللكلام وجوه من الوصل والفصل، والتقديم والتأخير، والزيادة والحذف، والإجمال والبيان، وكل ذلك دلالات.

16- والاجتناب عن الإيهام؛ فلا يؤخذ بمعنى محتمل من جهة الأسلوب الممكن، إذا كان الأصلح لذلك المعنى غير العبارة مثلاً: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ يَظْلِمُ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: 131] أي بظلم منهم، ولم يرد ظلماً، ولو أراد ذلك لقال ظلماً.

17- والنظر في تقدير المحذوف، فقد أخطأ كثير من أهل التأويل في تقدير ما لم يذكر.

18- والنظر في حمل الكلام على غير الظاهر المحسوس، وإنما يتضمن ذلك؛ لأن من سنة اللسان استعمال المجاز؛ ولأن الكلام المؤثر لا بد له من استعمال فنون المجاز من التمثيل وجعل المعقول محسوساً.

19- والنظر في أن الزيادة على الشيء ربما تكون تكميلاً.

20- والنظر في ترتيب الكلمات عند العطف فإنه لا يخلو من دلالة وتأمل.

21- والنظر في القرائن والنظائر والمتقابلات فإنها مواضع تدبر وتأمل.

المبحث العاشر: الأصول الأولية:

ولقد قسم الإمام الفراهي أصول التأويل إلى ثلاثة أقسام:

- 1- الأصول الأولية.
 - 2- الأصول المرجحة.
 - 3- الأصول الكاذبة.
- وأما الأصول الأولية: فهي ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى؛ ومنها:
- 1- التمسك بنظم الكلام وسياقه، فالكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورباط معانيه.

- 2- عدم الالتفات إلى المعنى الشاذ.¹
 - 3- فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظر على النظر؛ وذلك هو التأويل بالقرآن.
 - 4- لا بد من النظر في المخاطب، ومن هنا يتبين وجه الكلام ولهجته من التسلية، والرافة، والغضب، والوعد، والوعيد.. وغيرها.
- المبحث الحادي عشر: الأصول المرجحة:
- الأصول المرجحة: هي ما يتمسك بها إذا احتمل الكلام معاني مختلفة وتأخذ الراجح ونترك المرجوح. ومنها ما يأتي:

- 1- عند اختلاف الوجوه والاعتبار يؤخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام.
- 2- إذا كان الكلام ذا احتمالات تؤخذ منها ما كان لها نظير في باقي القرآن فما لم يوافق القرآن يترك.
- 3- إذا كان المعنى مقتضياً لعبارة غير ما في الكلام فذلك المعنى مرجوح.
- 4- الأخذ بأحسن الوجوه؛ والمراد به ما كان أولى بمعالي الأمور ومكارم الأخلاق وأوضح إلى القلوب وأوفق بمحكمات القرآن وأحسن ظناً بالله ورسوله وأظهر بياناً من جهة العربية.
- 5- الأخذ بأثبت الوجوه لغة؛ فإن المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي؛ ومثال "الشوى" في قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [سورة المعارج: 16]؛ فإنه لحم الساق عمومًا في كلام العرب.²

¹ قال الفراهي: "وإنما لم نجعله من المرجحات فإن اللفظ الحسن المصون، ربما يستعمل عوض الظاهر العامي، ولكن اللفظ إذا استعمل، لا بد أن يدل على مفهومه المعلوم الثابت، فإن أريد به مفهوم ينكره الناس، ويدعيه مدع ولا سبيل إلى إثباته، فهذا تعمية، والقرآن أنزله الله عربياً مبيناً، فلا شيء يترك الإقصاص؟ وأما المطالب العالية فليست من هذا الباب، فإن الكلام فيها واضح في مفهومه، والمطالب العالية إنما هي منطوية تحت المفهوم غير المضاد ولا المناقض للمفهوم" انظر التكميل في أصول التأويل، ص 262-263.

² انظر تفصيل ذلك في مفردات الإمام الفراهي، ص 200-204.

المبحث الثاني عشر: الأصول الكاذبة:

الأصول الكاذبة: ليست بشيء وإنما تذكر لاجتنابها. فقال رحمه الله: "فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك، ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث، فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادئ الرأي، أوّلته إلى كلام الله فإن تطابقا فقرت عينك، وإن أعيك فتوقف في أمر الحديث، واعمل بالقرآن، وقد أمرنا أولاً بإطاعة الله ثم بإطاعة رسوله ﷺ، ولا شك أن الأمرين واحد، فإن لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روي عن الرسول ﷺ فماذا أراد بهذا الحكم؟"¹

المبحث الثالث عشر: بين القرآن والسنة:

قال رحمه الله: الظن بأن الأحاديث مفسرة للقرآن حمل الناس على أن يؤولوه بها ولكن:

- 1- اتفقت العلماء أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فهذا لا بد أن يكون راجعًا.
- 2- وإذا تعارض حديثان فيأخذون بأثبتهما، فلم لا يفعل كذلك إذا تعارض القرآن والحديث؟
- 3- أو يوافقون بين المتعارضين إذا تساويا في السند، والقرآن أوثق سندًا، فلا بد أن تؤول الأحاديث بالقرآن.
- 4- والتفسير بحديث يناسب المقام، إذا لم يقرر عقيدة ومذهبًا مأمون، ولكن مع ذلك ظني، فأخذ به مع إمكان غيره... أما تصديقًا لآيات القرآن، فنقل الأحاديث فيه أحسن شيء.²

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 275 - 276.

² المصدر نفسه، ص 278 - 279.

الفصل الرابع والعشرون: أساليب القرآن

تمهيد:

لقد تركزت عناية الإمام الفراهي باللغة العربية بتراكيبها وألفاظها ومعانيها، ببلاغتها وأساليبها، وانتهى إلى أنها في خدمة القرآن الكريم؛ ما جعله يفرد رسالة بعنوان: "أساليب القرآن" كما أفرد غيرهما ومنها: "جمهرة البلاغة"، و"دلائل النظام" وغيرهما. نحاول أن نكشف عن حقيقة الكتاب، ومحاوره، وأهميته وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول: ملابسات الكتاب:

لقد اعتنى الجامع لرسائل الإمام الفراهي وهو الشيخ بدر الدين الإصلاحي؛ وهو مدير الدائرة الحميدية فقدم كتاب: "أساليب القرآن" الذي ورد في (60) صفحة، وقد أوضح في المقدمة أن الإمام الفراهي كان ينوي تأليف هذا الكتاب وقد اختزن له بعض الإشارات هنا وهناك؛ ولأنه لم يتيسر له جمعها في الكتاب المنشود، فإن الجامع قام بذلك، وأشار إلى أن الأساليب لها مكانة عظيمة في كل لسان، لأثرها الخاص في تأدية المعنى، وهي ذاتها ما سمّيت بعلم المعاني عند علماء البلاغة، والغرض منه أن يحيط العلم بما يدل عليه الكلام من المعاني، حتى يحفظ عما لا دلالة له عليه، وهو سبيل للوقوف على بعض صور الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ابتداء من الإمام الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، وأشار إلى أن هذا المجموع أول خطوة للإمام الفراهي يرحمه الله في هذا الميدان، وما حقق فيه من أساليب القرآن فقد قام على أساس متين مأخوذ من كلام العرب الخالص والقرآن العظيم.¹

¹ انظر الإمام الفراهي وجهوده في التفسير لسالم العلوي، ص 164.

المبحث الثاني: موضوع الكتاب والغاية منه:

لقد أشار المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [سورة إبراهيم: 4]، واللسان ليس الألفاظ وحدها، بل يشمل أساليب الكلام والإشارات.

وقد أورد موضع الكتاب من العلم، فأشار إلى أنه متضمن لفن برأسه يجري حكمه في عموم أساليب العرب، مشيراً إلى أن "العلامة عبد القاهر الجرجاني مهّد لفن المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وزعم أن إعجاز القرآن ليس إلا من هذه الجهة، وكان ذلك غلوّاً منه رحمه الله ولكنه مصيب في تفخيم أمره".

كما أشار إلى غاية الكتاب؛ وهي إحاطة العلم بدلالات الصور والأساليب، ومواقع استعمالها، ولا تكفي المعرفة بالأسلوب دون تخصيص الموقع، فذلك قد يفتح باباً لسوء التأويل.

المبحث الثالث: أساليب القرآن:

لقد أشار رحمه الله إلى أنّ أساليب القرآن منها ما شارك القرآن فيها كلام العرب، ولم يكن من هدفه استقصاء مسائله كلها في الكتاب، بل ما ليس منه بد فقط؛ فقال: "ومن الأساليب ما هو مختص بالقرآن من حيث إنه كلام جاء به النبي ﷺ، وأنزل عليه وعلى الناس، وفهمه مبني على صحة الفطرة، فهو بين عند المتقين، ومستور على الكافرين، وهذا مما لم نطلع عليه في كتب القوم، والحاجة إلى العلم به شديدة، والأصل في هذا الباب: معرفة صفات الله، ومعرفة صفات النبي ﷺ، ونسبة النبي إلى ربه وأمته، ومعرفة تدبيره في الخطاب ودعوة الناس، وفي الباب نستدل بالعقل الصريح، ونظم القرآن، والصحف الأولى".

المبحث الرابع: القرآن والوصل:

وفيه دلالة على اشتراك القرنيين في معنى كلي كما في قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾ [سورة الرحمن: 5-6]. فبوضع الجملتين

متصلتين دل على كونهما مسخرتين ومعبدتين، وفي هذا الأسلوب دلالة أيضاً على كون أحد القرينين توضيحاً وتأكيذاً للآخر؛ كقوله تعالى: ﴿عزیز مقتدر﴾ أو ﴿العزیز الجبار﴾ أو ﴿عزیز ذو انتقام﴾ وفيه دلالة أيضاً على كشف أمرين متقابلين كقوله تعالى: ﴿العزیز الغفار﴾ أو ﴿العزیز الرحيم﴾ أو ﴿العزیز الحكيم﴾ أو ﴿العزیز العليم﴾ فارتباط صفة الغفار والرحيم والحكيم والعليم بصفة العزیز يتبين لنا أن هذه المختلفة تحت أمر كلي.

المبحث الخامس: الخطاب والالتفات:

يقول رحمه الله: "فإذا جاء الخطاب إلى واحد وليست هناك قرينة ظاهرة، تبادر إلى عامة المفسرين أن المراد به النبي ﷺ، وهذا يوردهم على خطأ عظيم، وحقيقة الأمر أن الخطاب ربما يوجه إلى النبي ﷺ، من حيث كونه إمامهم ولسانهم وإنما المراد به الناس، إما عامتهم أو طائفة منهم، فالخطاب في الحقيقة إلى الناس، وربما يوجه إلى الناس مستقلاً".¹

وأما بخصوص الالتفات فهو معلوم في القرآن الكريم؛ ذلك وكأن القرآن وقف خطيباً فيلتفت يميناً وشمالاً ويخاطب هذا ويخاطب ذلك، قال تعالى يخاطب نبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: 43]، ثم التفت إلى الناس وقال: ﴿فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۚ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [سورة النحل: 43-44]، ثم التفت إلى النبي ﷺ وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [سورة النحل: 44].

المبحث السادس: الحذف بإسقاط الفضول من الكلام:

وقد تناول الحذف في كلام العرب وكلام الله تعالى مؤكداً أن الحذف هو إسقاط الفضول عن القول، والفضول ما يفهم الكلام بدونه، وأشار إلى أن هذا طبع

¹ أساليب القرآن (ضمن المجموعة في علوم القرآن)، ص 160 - 161.

المبحث السابع: العود على بدء:

المبحث الثامن: ذكر الأثر لما يخفى:

المبحث الثامن: الاعتراض:

المجلد: 8 ————— العدد: 4

المبحث التاسع: الاستفهام:

إنه يدل على معان كثيرة بطريقة الكناية.. من فوائده: التأكيد، والإقرار، والتنبيه، والزجر، والأمر، والتحقيق.

فمن الأمر ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة هود: 14].

ومن التحقيق ما جاء: ﴿أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُضْذِقِينَ﴾ [سورة الصافات: 52]، وأيضاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّيِهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الصافات: 85-86].

الفصل الخامس والعشرون: القائد إلى عيون العقائد

تمهيد:

إن من كتب الإمام عبد الحميد الفراهي "القائد إلى عيون العقائد" وقد نسج مسائل كثيرة في العقيدة في ضوء القرآن الكريم، بعيداً عن خرافات الفلاسفة، وهرطقة بعض المتكلمين، فناسب أن نخصص فصلاً في موضوعه لأهميته حتى تكتمل الصورة عن شخصية الإمام من كل جوانبها؛ وهذا ما يتولى الفصل بحثه في المباحث الآتية:

المبحث الأول: ملابسات الكتاب:

إن الإمام الفراهي كتب جملة من مشاريعه المفتوحة، ومات قبل أن يستكملها ليتركها خداجاً غير تمام، وقد كانت له إفادات مهمة على مستوى العقيدة في ضوء القرآن الكريم، ولم يتيسر له ترتيب الكتاب، ووضع أفكاره في مواضعها، فبقيت ماثورة في مخطوطاته؛ إذ يرى رحمه الله أنه لما شاعت الفلسفة بين العلماء ذهبت حكمة القرآن عنهم، ثم إن انشغالهم بالملاحدة حملهم على الاعتماد على العقل

الخالص، وتأويل النقل ليساير العقل. ما جعل إمامنا الفراهي يتناول مسائل العقائد في ضوء القرآن الكريم.

يقول الإمام الفراهي: "أما بعد فهذا كتاب مسمى بالقائد في عيون العقائد؛ وهو جزء من مقدمة نظام القرآن وإنما أفردناه اجتناباً عن تكرار البحث في أصل كتابنا، وجمعنا فيه من العقائد ما دل عليه القرآن بالتصريح ويطمئن به القلب الصحيح، ولم نتعرض للبحث عما نشأ في العقائد من المسائل المبتدعة التي أثارت اختلافاً، ولم تمس بها حاجة في الدين، وإنما نذكرها في آخر الكتاب لنحذر منها لا لنشغل بها، ولتعلم أن الولوع بها والاختلاف فيها مضر ومنهي نهياً شديداً".¹

المبحث الثاني: محتويات كتاب "القائد إلى عيون العقائد":

وقد أورد لها مقدمة وثلاثة أبواب:

أما الباب الأول فمن محتوياته:

- 1- وبعد المقدمة شرع في تحديد النقاط التي تدخل ضمن الأمور الكلية في العقيدة؛ وهو الباب الأول من كتابه.
- 2- تحدث عن موضع الاعتقاد المطلوب من المسلم.
- 3- حدد مثار الزيغ في العقائد، وهو مثار الاختلاف والنزاع.
- 4- تحدث عن موضع العقل والنقل والعقائد والشرائع.
- 5- تحدث عن الحكم وأنه يكون بالحق أحياناً وبالباطل أحياناً أخرى.
- 6- بين طريق الراسخين وطريق الزائغين والفرق بينهما.
- 7- تكلم عن العقيدة عند السلف الصالح.
- 8- بدأ في الباب الأول وهو الألوهية.²

¹ القائد في عيون العقائد (المقدمة)، ص 11.

² فأشار رحمه الله إلى طرق الاستدلال على صحة العقيدة من القرآن، وأبلغها وأوضحها طريق التسمية، أي أن نعرف الله تعالى من خلال فهم أسمائه سبحانه، ثم طريق الوصف بصفة

- 9- شرع يتكلم عن الطريق الأول وهو المعرفة من أسمائه سبحانه وتعالى.
 - 10- وعن الطريق الثاني وهو المعرفة من صفاته سبحانه وتعالى.
 - 11- ثم عن الطريق الثالث وهو المعرفة من نسبة الأفعال إلى الله تعالى وقد أطلال النفس فيه.
 - 12- ثم الطريق الرابع وهو معرفته من جهة النظم؛ وهو يعم الطرق الثلاث، ويزيل كثيرًا من الشبهات والحجج الباطلة بالاستدلال القرآني.
- وأما الباب الثاني في الرسالة فمن محتوياته:

- 1- بين فيه الحاجة إلى الأنبياء.
- 2- وخصائص زمان البعثة.
- 3- وتعريف النبي وفتحة أمره.
- 4- وحد ملكة النبوة.
- 5- والمصلحة الملحوظة في فطرة النبي وكلامه.
- 6- والنبي وأمته والمماثلة بينهما.
- 7- ونزول الوحي بكلام مسموع.
- 8- والدلائل على صحة الوحي.
- 9- وأول تعليم الوحي.
- 10- وعصمة الأنبياء.
- 11- والشفاعة.
- 12- والمجادلة.

وهو دون التسمية، ثم نسبة الأفعال، وهو دون الأولين؛ حيث إن بعض الأفعال ينسب إلى شيء على طريق المجاز وللمجاز أبواب كثيرة.. وقد أشار إلى طريق رابع وهو ما يدل عليه نظم القرآن؛ وهذا لطيف جدًا، ولكنه طريق واضح بين عند أهل الفكر والتدبر، فإن الكلمة إذا وضعت في جنب كلمة أخرى أو ضم كلام مع كلام آخر دل على أمور جمّة.

13- والتبليغ.

14- والهجرة وإعلان الحرب.

15- والمعجزة ومتعلقاتها.

16- ثم إعجاز القرآن ومتعلقاته.

17- ثم خصائص رسالة النبي ﷺ.

وأما الباب الثالث فهو في المعاد، وفيه:

1- موقع الاعتقاد بالمعاد في الدين.

2- ونسبته بالركنين الأولين.

3- وربط المعاد والتوحيد.

4- وتصوير الثواب والعقاب.

5- والمعاد الجسماني.

المبحث الثالث: الدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن الكريم مصدرًا للعقائد:

وقد دعا فضيلته إلى عدم التمذهب بمذهب خاص في العقيدة كالمعتزلة والماتريدية والأشاعرة وغيرها من المذاهب الكلامية، بل يدعو للاكتفاء بالقرآن الكريم وحده مرجعًا لهذه المسائل العقدية فنعض عليها بالنواجذ. فقال رحمه الله: "طريق العقل تشتمل على مسائل مخلوطة من اليقين والمشتبه، وأما طريق الوحي فيبينة إذ لم يخالطها القياسات المظنونة، فلا بد من التوقف في كل ما لم يثبت من جهة صريح العقل ونص الوحي".¹

ولقد كان هذا منهجه في العقيدة وقد ربي عليه تلامذته وكل محبيه وأتباعه ومريديه؛ وهو الأخرى انسجاما مع توجهه العام في دراساته القرآنية، فالقرآن هو الحل لهذا الاختلاف الكبير بين مختلف الفرق في العقائد وعلم الكلام، ولا بديل عنه إلا الضلال والحيرة والتخبط!

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 15.

المبحث الرابع: الدعوة للاكتفاء بما كان من صحيح النقل وصريح العقل:

وقد دعا رحمه الله تعالى إلى الاكتفاء بما ثبت في صحيح النقل وصريح العقل وإن كان مجملاً، ولا نبسط فيها اللسان أبداً؛ فإن بسط اللسان في العقائد يجر إلى التقول على الله من غير علم كما هو الحال في خرافات الفلاسفة وخزعبلات بعض المتكلمين. فقال رحمه الله: "العقائد ليست بالظن، فلا يعتمد فيها إلا على صحيح النقل وصريح العقل. ولذلك وجب الاكتفاء بقدر ما يحتمله المعتقد ويكون فيه على بصيرة، وإيقان؛ ولذلك قلت مسائله في عهد الصحابة فإنهم اعتقدوا ما علموه وصدقوه، وإنما كثرت فيما بعد لفساد القلوب وقلة التقوى وسخافة العقول وغلبة اللجاج".¹

المبحث الخامس: الاعتقاد بأن صفات الله كلها حسنى:

أكد رحمه الله في غير ما موضع على الإيمان بالله مع صفاته الحسنة، وعدم الاعتقاد فيه بصفة تكون معارضة لصفاته الحسنى؛ فإنها تجلب له المحبة والرجاء، والحمد والشكر، وبذلك يتعبد له في العبد محبة، وشوقاً، وتسليماً، وتوكللاً، وخشوعاً، ويكون الرب في قلبه كريماً، رحيماً، عفواً، غفوراً، ضاحكاً، مبتسماً، فيسكن إليه، ويرغب في قربه، ويشتاق إلى لقائه؛ وهذا أصل غاية وجود العبد. يقول الفراهي: "وبالجملة فليكن الرب تعالى في قلبك كريماً، رحيماً، عفواً، غفوراً، ضاحكاً، مبتسماً، ملاطفاً في كمال الجمال والرأفة، أكرم الكرماء، وأرحم الراحمين، ناصراً لك، منتقماً من أعدائك إليه وترغب في قربه وتشتاق للقاءه".²

المبحث السادس: الاعتصام بالمحكمات في العقيدة والعمل:

لقد دعا رحمه الله إلى عدم الاعتصام في العقيدة والعمل إلا بمحكمات القرآن الكريم، ولا تتبع ما تشابه منه ابتغاء تأويله؛ لأنه دأب الراسخين في العلم، ولأن

¹ المصدر نفسه، ص 12.

² المصدر نفسه، ص 39.

تأويل المتشابهات لا يعلمه إلا الله، ثم لأن الله سبحانه لم يكلفنا بتأويله، بل رضي عنا بالإيمان الإجمالي، وأمرنا أن نؤمن بما بينه وفطر قلوبنا وعقولنا على قبوله، فعلينا أن نثبت في مسائل العقيدة - الألوهية والرسالة والمعاد - على المعلوم، ولا نهالك على المظنون، فنعتقد بما يدل عليه صحيح النقل ظاهرًا، وما يصح من صريح العقل واضحًا.

قال رحمه الله: "الراسخون في العلم لا يتركون المحكمات لما عرفوا الحق، يعرفون وجوهًا للكلام فلا يكذبون بما أشكل عليهم من وجه، ولا يغضون بالعادات، فإنهم ينظرون إلى الحقائق المجردة عن تصور الطبيعة".¹

قال أيضًا: "قد رأينا اختلافًا عظيمًا في العقائد، حتى نشأت فرق متضادة، واختلفوا كل الاختلاف، فكفر بعضهم بعضًا، ولم يكن ذلك إلا لخوضهم فيما لم يكن لهم إليه سبيل، فتقولوا بما لم يثبت، واستنتجوا من بعض النصوص ما يخالف بعضها آخر منها، وقد نهوا عن ذلك، فالطريق القويم هو الانتهاء حيث انتهى النص والاعتصام في العقيدة والعمل بالمحكم".²

المبحث السابع: صرف القرآن عن ظاهره سبب الفساد:

وهو التوصيف الذي عرضه تلميذه بدر الدين الإصلاحي لكتاب شيخه: "القائد إلى عيون العقائد" فختم تقديمه بقوله:³ "ولا شك أن صرف القرآن عن ظاهره هو الباعث الحقيقي لهذا الفساد الذي ظهر في الأمة. فتفرقت فرقًا مختلفة حتى صارت قومًا بوزًا. فالدواء الناجع الوحيد لها إن شاءت أن تعود إليها حالتها الأولى أن تجعل القرآن نصب عينها، ولا تنظر أبدًا إلا إليه، ولا تعتصم إلا به.

¹ المصدر نفسه، ص 26.

² المصدر نفسه، ص 11.

³ المصدر نفسه، (المقدمة)، ص 9.

فالاكتصام بالقرآن هو الذي ينجي الأمة الإسلامية من طوفان التشتت والاختلاف إلى شاطئ التضامن والائتلاف كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: 103].

المبحث الثامن: إثبات رؤية الله في الآخرة:

لم يعتبر الفراهي مسألة الرؤية من المهمات حين قال: "هذه المسألة ليست من المهمات، ولكن اختلفوا فيها فلا بد من فصل".¹ ثم ساق رحمه الله آراء النافين لرؤية الله التي انبنت على قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: 103]؛ قال رحمه الله: "فظن قوم أن الرؤية حرام؛ وجاء في صحيح الحديث: "المؤمنون يرونه"،² وقد نطق القرآن بما يؤيد ذلك فقال تعالى في شقاوة الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: 15] فظن قوم أنهم يرونه يوم القيامة، وإن آية الإدراك مخصوصة بالدنيا، ثم تمسك كل واحد منها بدلائل عقلية ونقلية وتشاجرا فيما لا يغني في الدين. ومسلك الصحابة الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ، واليقين بأن الكتاب والسنة ولا يناقض بعضه، فنعتقد بأن الله تعالى لا تدركه الأبصار ومع ذلك نعتقد أن المؤمنين يرونه من غير حجاب، ولا مناقضة بين العقيدتين، وهكذا في كل مسألة مختلف فيها".³

وقال عن أبي الحسن الأشعري والمعتزلة في تعسفهم التأويلي للنص: "وأما تمسك الإمام أبي الحسن الأشعري بهذه الآية، فكان رحمه الله مبتلى بالمعتزلة، فكان

¹ المصدر نفسه، ص 121.

² أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم (7435) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنكم سترون ربكم عياناً".

³ القائد إلى عيون العقائد، ص 13-14.

اضطرهم إلى القول بأن "إلى" هو واحد آلاء وضعفه. ولكن الحق أبلغ أن الاستدلال على رؤية الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾، والجواب بأن "إلى" واحد آلاء كلاهما من الوهم والجهل بلغة العرب، وشؤون الكلام. فالآلاء ليست بمعنى النعم كما بيناه في كتاب "مفردات القرآن"¹ ثم مع الإيمان بالتنزيه ما لنا وللخوض في ذات الله. أليس ذلك من علامات ذهاب الدين؟ فأحذرك منه".²

المبحث التاسع: التوجه إلى الله أقوى ما جبلنا عليه:

قال رحمه الله: "مما مر بك أن الإيمان بالله ليس ببديهي ولا نظري، بل هو مما أودع في جذد فطرتنا وصميم علمنا، وإنما يكشف عنه الفكر في أنفسنا، وهذا من جهة العلم. وإذ إن النفس ذات إرادة ورغبة كما هي ذات علم، فلها توجه إلى ربها قبل كل رغبة، وانبعث هذا التوجه بالفكر والذكر".³

المبحث العاشر: التفكير في اسم الرب يهدي إلى الحق:

استرعتني عبارة الإمام الفراهي وهو يتحدث عن أصل الاستدلالات قوله: "يكثر زمان غلبة الشر على الخير، ولا يظهر أن الخير يفلح، ولكن التفكير في اسم الرب تعالى يهدي إلى الحق غالب".⁴

¹ نشرته الدائرة الحميدية سنة 1395هـ، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، بتحقيق د. أجمل أيوب الإصلاحي، وقد وقفنا مع الفراهي ومنهجه في كتابه المفردات، ووقفنا مع إضافاته العلمية ومنها تصحيحه لمعنى "الآلاء" لا على أنها النعم دائمًا، وإنما هي فعال الله العجيبة، ولما كانت فعال الله غالبًا نعمًا ظن الناس أن الآلاء هي النعم، وهذا المعنى لا يستقيم في بعض السياقات منها قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن: 35-36]. أي نعم في إرسال الشواظ من نار! فكان نبيها حاذقًا بملحظه اللطيف هذا رحمه الله رحمة واسعة.

² نظام القرآن، ص 234-235.

³ القائد إلى عيون العقائد، ص 50.

⁴ المصدر نفسه، ص 38-39.

المبحث الحادي عشر: تعريف الحق بأهله والباطل بأهله:

لا يكفي لنا أن نعرف الحق والباطل على إطلاقها، بل لا بد أن نضم به معرفة أهلهما والقائمين بهما؛ قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: 6] فهذا هو الحق على إطلاقه، ثم ضم بذلك قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: 7]. أي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كما بين في سورة النساء. والقرآن يفسر بعضه بعضاً فهذا تعريف الحق بأهله، ثم ضم بذلك تعريف الحق بذكر أصحاب الباطل، وبضدها تبين الأشياء فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: 7]. وقد فسر القرآن والحديث من هؤلاء الذين نسأل الله تعالى أن يبعدنا عن صراطهم. وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: 115] وفي هذا فوائد:

- 1- أن يتضح لنا سبيلهما ويتبين لنا تفاصيلهما.
- 2- إن في الانسلاخ في جماعة الأتقياء المنعمين عليهم عوناً على السلوك في طريق التقوى، فتقوى نفس السالك على عمل الصالحات.
- 3- إن العبد يأخذ من الصالحاء بعضهم ببعض أنموذجاً لنفسه لما يرى مناسبة بينه وبينهم، فيسهل عليه تربية خلقه الحسن، فيكون مقتفياً لأثر من جعل نصباً لعينه.
- 4- وعلى هذا الأصل جعل في الأنبياء مثلاً لنا وأمرنا باتباعهم وهم تركوا أمة مثلاً لمن بعدهم، وجعلهم شهداء على الناس كما جعل الأنبياء شهداء على أصحابهم، ليبقى للناس سلسلة متصلة وحبلاً متيناً وصراطاً مستقيماً

وسنة واضحة. كان الخلف مع السلف قافلة واحدة لا انقطاع فيها، ونور ممدود لا ظلمة بينه، وهذا هو معنى الشهادة.¹

المبحث الثاني عشر: رفض قول الأشاعرة "تعذيب العباد من غير ذنب":

وهذه مسألة تندرج في التحسين والتقبيح العقليين، وافترقت الآراء بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهما؛ غير أن "صريح العقل وحسن الظن بالرب تعالى يشمئزان عما ذهب إليه الأشاعرة من القول بأن الله تعالى يجوز له تعذيب العباد من غير ذنب، وقد أجبرهم على فعل ما يجلب عليهم العذاب من غير سابقة ذنب منهم. ولا شك أن الإحسان إليهم من غير استحقاق ولا سابقة حسنة حسن، ولكن التعذيب من غير جريمة أو الإجبار على الجريمة ظلم شنيع، تعالى الله سبحانه عن ذلك. وقد دلّ صريح القرآن والعقل على نفي ذلك مثلاً: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة الحج: 10] وهذا كثير.²

المبحث الثالث عشر: نفي القبيح على الله لا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٣٣):

وقد استدل الأشاعرة بهذه الآية: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 23]، بأن حكمنا بأن هذا الفعل حسن لله تعالى أو قبيح، حكم على ربنا وهو أرفع من أن يحكم عباده عليه، ثم زادوا على ذلك وقالوا إن الحسن والقبيح لا يعلم بالعقل، بل لا حسن وقبيح إلا ما حكم الله بكونه حسناً أو قبيحاً في حقنا. فنقول إن الله تعالى فطرنا على معرفة الحق والباطل، والحسن والقبيح، وأوضح لنا ذلك بكتابه، وفطرنا على صراط مستقيم، وعلمنا وألهمنا أنه تعالى على الصراط المستقيم، ولولا نهدم بناء المدح والذم وتقديس الرب تعالى وحمده وشكره.

¹ المصدر نفسه، ص 27-27.

² المصدر نفسه، ص 116.

وأما حديث الحكم على الله تعالى فلا يلزم أبداً، فإننا قد آمنا بجميل صفاته وقدرته، فليس أنا نحكم عليه، بل ننفي عنه كل قبيح ألهمنا بقبحه وأوضح ذلك بكتابه.

وأما حديث السؤال فنقول إنا آمنا به تعالى لا يفعل إلا ما هو الخير والحسن، وكثير من أفعال ربنا لا نستطيع أن نعلم الحكمة التي فيه، وليس لنا أن نطلعنا ربنا على حكمة جميع أفعاله، فكيف بنا أن نسأله لم فعل ذلك؟ أليس يكفيننا أن نؤمن أنه حق وحكمة وحسن؟¹

المبحث الرابع عشر: أصول الكفر:

يقول رحمه الله: "إن أصول الكفر ثلاث خصال:

1- الذهول عن الخالق.

2- وعدم المواساة بالمخلوق.

3- والإنكار بيوم الدين".²

المبحث الخامس عشر: هل يندم الرب على ما فعله من الرحمة كما في التوراة؟

اعلم أن من سوء ظن الناس بالله تعالى أنه ربما يندم على ما فعل من رحمة أو نقمة، كما ترى ذلك فيما أدخلت اليهود في التوراة. ففي الإصحاح السادس من التكوين: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه".³ وكذلك بعد الطوفان: "وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان؛ لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثة. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت".⁴

¹ المصدر نفسه، ص 117-118.

² نظام القرآن، ص 263.

³ التكوين: 6/6.

⁴ التكوين: 8/21.

والقرآن يعلمنا أن الله تعالى يفعل ما يريد بالحكمة والرحمة. فإن أهلك قوما واستخلف آخر لم يفعل إلا على حسب الحكمة والقدرة. لا خوف هناك، ولا طمع، ولا تقصير، ولا شطط. وباطل ما زعمت الجهلاء. فقلوه تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [سورة الشمس: 15] من هذا النمط.¹

المبحث السادس عشر: التوقف فيما لا علم له به:

حين يكون الأمر الواحد حقا من وجه، وباطلا من وجه آخر، وما إلى ذلك فإن المنطق السليم لدى الإمام الفراهي يقتضي التوقف محاولا إزالة الغمّة في كل ما يؤمن به ويعتقده بقلبه فهو مدعو لإدراك المعنى ولو المعنى الإجمالي فقط؛ فقال رحمه الله: "لأن العقيدة ليست إلا ما يعتقده القلب، وذلك لا يكون اللفظ المحض، بل لا بد له معنى، وأقل ذلك المعنى المجمل"². وقد حمد رحمه الله التوقف على كل حال فقال: "وهذا مذهب التوقف الذي حمدته يقتضي تفصيلا وبيانا، فإن المؤمن لا يؤمن بباطل ولا يكون ما يعتقده عليه غمّة"³.

ويصرح عن منهج التوقف فيما لا علم له فيه بقوله: "ثم منهم من يتمسك بالعقل فيجعله أصلا، ومنهم من يتمسك بالأحاديث، ومنهم من يتمسك بالقرآن، والطريق المثلى هي التمسك بصحيح النقل، وصريح العقل، ثم الكف عن التأويلات البعيدة، والتوقف في ما لا علم له به"⁴.

وتراه يتوقف في بعض الأمور التي تخوض في ذات الله كما سبق لنا أن عقبنا على المعتزلة في نفي الرؤية وتكلفوا متعسفين في تأويل النص فقال: "... ثم مع الإيمان

¹ نظام القرآن، ص 330 - 331.

² المصدر نفسه، ص 9.

³ المصدر نفسه، ص 8.

⁴ المصدر نفسه، ص 12.

بالتنزيه ما لنا وللخوض في ذات الله. أليس ذلك من علامات ذهاب الدين؟ فأحذرك منه"¹.

المبحث السابع عشر: نقد وملاحظات:

- في حقيقة الأمر، إن هذا الكتاب الموسوم "القائد في عيون العقائد" لم يخرج على نفس التوجه المعهود لدى الإمام الفراهي في الكتابة، ولعله كتبه ولم يستكمل حلقاته، ولم يراجع، هذه واحدة.
- إن الكتاب لم يستوعب أمور العقيدة وإن تناول مسائل كالألوهية والرسالة والمعاد، لكن بطريقة مشتتة.
- لم يتخذ الإمام الفراهي في رأي إحدى الطوائف كالمعتزلة أو الأشاعرة؛ فقد وجدناه ينتقد فكر الاعتزال وكذلك انتقد فكر الأشاعرة.
- اتخذ الإمام الفراهي لنفسه طريقة مثلى وهي ما تهديه إليه النصوص القرآنية في تقرير مسائل العقيدة غير أنه لم يلتزم بها إذ كان له نفس في مسائل كلامية.
- ومع ذلك وجدت من الحشو بما لم أعده في كتاباته، وإثارة قضايا لو تنزه عنها في مسائل الاعتقاد لكان أفضل وهي مفصلة في علم الكلام.
- لم تكن بضاعته في الحديث النبوي بذاك، ما جعله يسوق أحاديث من غير إسناد دون تمحيص أو تحقيق.
- حتى الأخطاء التي تظهر على الكتاب الذي قرأته على الأقل كانت كثيرة من حيث الأسلوب واللغة.

¹ نظام القرآن، ص 234 - 235.

الفصل السادس والعشرون: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح

تمهيد:

إن الإمام الفراهي كان مدققًا، بل على غاية التدقيق في كل اختياراته العلمية، وقد ظهر ذلك في تفسيره، ورسائله العلمية، كما أنه برع في إثارة موضوع الذبيح هل هو إسماعيل عليه السلام؟ أم هو إسحاق عليه السلام؟ وقد رجح أن يكون إسماعيل عليه السلام على الرغم من أن بعض علمائنا لم يتعصبوا للأمر ولا لنبي من الأنبياء، وذلك كاختيار الطبري بأنه إسحاق عليه السلام! أو قول بعضهم: في المسألة قولان! وقد حفر ونبش في القرآن الكريم وتتبع الآيات، والسياقات، ونبش في التوراة وقرأها بلغتها، واستخرج ما يدل على أنه إسماعيل عليه السلام بدل إسحاق عليه السلام، وقد أفرد في المسألة كتابًا علميًا نفيسًا في بابه سمّاه بـ"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح".¹ ولما كان الأمر فيه جهد علمي خدّم فيه القرآن الكريم ناسب أن نفرده في هذا الفصل عبر المباحث الآتية:

المبحث الأول: أهمية الكتاب:

لقد كان الإمام الفراهي محققًا من الطراز الأول، ومدققًا في قضايا كثيرة، وإن هذه المسألة هي مسألة قرآنية بامتياز، لذا كان منهج تصحيح المعلومة فيها بأدلة قرآنية ونظرة ثاقبة ورؤية عميقة؛ وقد كان الخلاف على أشده فأراد حسمه بحسام الفكر والاستدلال، وأفرد هذه المسألة بتأليف مفرد نفيس في بابه، أثبت فيه أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام؛ والعجيب أن الكتاب يزداد أهمية

¹ لعل من أهم طبعات الكتاب الطبعة الثالثة للكتاب، والأولى لدار القلم 1420 هـ، وتقع في 164 صفحة، وفيها نسخة إلكترونية تعاملت معها. وقد دُيِّلَت هذه الطبعة بعشرة أنواع من الفهارس: فهرس الآيات، فهرس الأحاديث، فهرس الإحالات على كتب اليهود، فهرس الأشعار، فهرس الأعلام والجماعات، فهرس الأماكن، فهرس الكتب المذكورة في المتن، فهرس الألفاظ التي فسرها، فهرس الفوائد والمعارف، فهرس المراجع المذكورة في الحواشي.

بإثبات رأيه الوجيه بأدلة أيضًا من التوراة واعترافات علماء أهل الكتاب أنفسهم، علاوة على استدلالاته القرآنية والحديثية.

هذا وقد نال الكتاب إعجاب ثلة من أعلام الأدب والفكر على غرار الشيخ سليمان الندوي الذي أثنى على الكتاب قائلاً: "لا مانع من أن أقول: ما رأيت في تاريخ الإسلام رسالة أحسن منها".¹

المبحث الثاني: نبذة عن الكتاب:

صدر الكتاب محققاً؛ وقد قدّم له الدكتور محمد أجمل الإصلاحي محقق "مفردات الفراهي" بمقدمة طويلة بدأها بنبذة عن تحريفات اليهود للتوراة وأسباب تركيزهم على مسألة الذبح والذبيح، ثم تحدث عن فحوى الكتاب وسجل إعجابه به وأشاد بإيجابياته.

ثم ترجم السيد سليمان الندوي للمؤلف وبين فيها جملة من أوصافه من قوة الذاكرة، ودماثة الخلق، وذكر مؤلفاته التي أربت على الثلاثة والأربعين مؤلفاً في شتى الفنون ومختلف اللغات.

المبحث الثالث: أسباب تأليف الكتاب:

إن هذا السفر الجليل جاء بناء على اقتراح اقترحه العلامة شبلي النعماني على الفراهي كما يفهم من كلام الشيخ الندوي عن خلفية تأليفه لكتابه "سيرة النبي ﷺ"؛ وذلك في قوله: "ساعدنا العلامة الإمام الفراهي مساعدة غالية في جمع المواد العلمية للباب الذي يتحدث عن مولد سيدنا إسماعيل ومسكنه وتقربه، وهو الباب القيم من السيرة النبوية، ثم قام بجمع هذه المواد العلمية وتهذيبها وتنسيقها، وبالغ في البحث والاستقصاء وأفرد لها رسالة أسماها "الرأي الصحيح في من هو الذبيح".

¹ مجموعة تفاسير فراهي، ص 43.

المبحث الرابع: هيكل الكتاب ومضمونه:

بدأ المؤلف بخطبة بليغة المعنى أجمل فيها مضمون الكتاب، وبين أنه جزء من مقدمة تفسيره المسمى "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" وأجمل الباعث على تأليفه في ثلاث نقاط، ثم بين أقسام الكتاب المتمثلة في مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة.

فالقسط الأول: في الاستدلال بالتوراة وباعترافات علماء أهل الكتاب على أن الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم، وفي هذا القسط أورد ثلاثة عشر دليلاً من التوراة، وهي تدل على أمرين تالين:

أولاً: الدلالة على تحريف التوراة.

ثانياً: الدلالة على أن إسماعيل هو الذبيح.

وقد شملت هذه الأدلة النواحي الشرعية عندهم المتعلقة بالقرايين، والنواحي اللغوية عندهم، والنواحي التاريخية.

وخص القسط الثاني بإيراد الأدلة من القرآن الكريم على المسألة، وقدم لهذا القسم بذكر بعض الأصول للتدبر في قصص القرآن وحججه وهي في غاية الأهمية، ثم عرج على الاستدلال وساق ثلاثة عشر دليلاً جلياً لم يسبق إلى التنصيص عليه مما يدل على اتقاد ذهنه، وطول باعه في هذا العلم المبارك، وأثناء ذلك قام بردود لطيفة وبأدب جم على بعض العلماء بخصوص دقائق بعض المسائل، وختم تلك الأدلة بردود القرآن على تحريفات اليهود.

أما القسط الثالث فقد جعله فيماروي في المسألة وأورد أقوال أهل العلم، وقدم له بأمور ثلاثة تستنتج من خلال النظر في هذا القسم وهي:

- اتصاف علمائنا بالإنصاف.

- وأن مأخذ الروايات في هذه المسألة أهل الكتاب وأنه لا يصح في تسمية الذبيح شيء مرفوع.

- وأن هذه الروايات والأقوال ينتج عنها أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. ثم ساق بعض القرائن من أمر الجاهلية وأشعارهم فيها دلالة على أن إسماعيل هو الذبيح، وختم الكتاب بالنظر الإجمالي لما ورد فيه بخصوص المسألة فلخص ما ورد فيها، وتوصل إلى نتيجة نهائية مفادها أن الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم، لا إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام -.

المبحث الخامس: فوائد الكتاب:

إنَّ للكتاب فوائد كثيرة، وإيجابيات عديدة من أهمها:¹

- الكتاب فريد في نوعه حيث لم يُتطرق لهذا الموضوع بالمناقشة بهذا الشكل.
- كثرة الأدلة بأنواعها الثلاثة وجلّها اجتهادية مستنبطة يصعب أن يقف عليها طالب العلم مجتمعة أو يصل إليها باجتهاده.
- المؤلف له باع طويلة في الدراسات القرآنية، كما أن سعة اطلاعه، وعلمه بلغات وكتب اليهود كل ذلك انعكس إيجاباً على الكتاب من حيث الثروة المعلوماتية ومن حيث نوعية المعالجة.
- في الكتاب تعليم لأدب الخلاف والتعامل مع نصوص السلف الصالح.
- يظهر من خلال قراءة الكتاب إنصاف علماء الإسلام وتجردهم عن الذاتية في معالجة المواضيع والموضوعية الصرفة.
- يشير حال المؤلف إلى أن إمام الباحث بالجوانب الكثيرة ومعرفته بعدد من العلوم له أثره على آثاره العلمية بما فيه هذا الكتاب.

¹ انظر ما كتبه الأخ إسحاق سماكي في تقريره عن كتاب (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح) لعبد الحميد الفراهي، في موقع ملتقى أهل التفسير.

• إيراد الاحتمالات القوية ومن ثم الرد عليها يؤثر في إقناع المخالف حيث لا يدع له فرصة للتهرب.

• وعمومًا الكتاب أروع ما وقفت عليه في موضوع الذبيح بأسلوب علمي أدبي رفيع. المبحث السادس: أسباب أفراد مسألة "من هو الذبيح؟" في كتاب:

وذلك ما ضمنه مستهل كتابه النفيس بناء على الاعتبارات الآتية:

1- مكانة هذه المسألة العظمى في ملتنا؛ لما ذكره الله تعالى عن ابتلاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

2- أن في القرآن الكريم آيات كثيرة يتوقف فهم تأويلها ونظامها على معرفة هذه المسألة وما يتعلق بهذا الذبيح.

3- أن اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر مثل مبالغتهم في ذلك؛ فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة وكثيرة في أمر إسماعيل والكعبة. وقد ذكرها الله في التوراة وأخفاها اليهود ودسّوا فيها أهواءهم، فأصلحها القرآن الكريم. المبحث السابع: أصول النظر إلى روايات اليهود:

بعدما ساق الإمام الفراهي روايات اليهود، بين أصول النظر فيها؛ ونختصرها فيما يأتي:

1- لا يعتمد على ما وافق هواهم، وتصريحهم به ليس بشيء، فإنهم بدلوا وحرفوا كثيرًا.

2- من بدل وحرف يخلط الحق بالباطل.

3- الأمر الحق يجمع له حقائق آخر، ويبقى الباطل مخدولًا.

4- يستمد بالمعارف المكتشفة من أحوال العالم.

المبحث الثامن: الاستدلال على أنه إسماعيل عليه السلام:

إن قراءة هذه الكتب المحرفة يمكن الاستدلال منه على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وفق ما يأتي:

- 1- لما بكر إبراهيم عليه السلام لأن يقرب إسماعيل عليه السلام لم يكن إسحاق عليه السلام معه بل كان إسماعيل عليه السلام ساكنًا معه، والذي أدخل اسم إسحاق عليه السلام في الموضوع لم يتفطن لهذا الأمر بقي دليلًا على إدخاله.
 - 2- إن إسماعيل عليه السلام كان وحيد أبيه، وفي نصوصهم: "أمر بذبح ابنه الوحيد".
 - 3- إن إسماعيل كان أحب إلى أبيه.
 - 4- إن موضع الذبح كان المروة وهو موضع عند الكعبة.
 - 5- إن إسماعيل كان هو الأولي بأن يقرب.
 - 6- ثم إن البشارة بإسحاق تمنع أن يكون هو قريبًا.
 - 7- وقوع التضحية قبل ولادة إسحاق عليه السلام.
 - 8- كون إسماعيل عليه السلام نذرًا لله وهو بمعنى القرين.
 - 9- بكون إسماعيل عليه السلام أمام الرب؛ وهو بمعنى أمام القرين.
 - 10- لو كان إسحاق عليه السلام قريبًا لله لبقى شيء في شريعة اليهود من أثر هذا الأمر العظيم.
 - 11- لما أمروا به من توجيه قرايبهم إلى جهة الكعبة.
 - 12- بما جعل مسكن إسماعيل عليه السلام قبلتهم.
 - 13- بكون الكعبة هي بناء إبراهيم عليه السلام ومنحده.
- المبحث التاسع: أدلة القرآن على الذبيح:

أنزل القرآن على غاية الإيجاز وتهذيب العبارة، وإنما يؤتى بالقصص من أجل العبرة وتعليم الحكمة، وقد جاء في كتاب الله ما يدل على تعيين الذبيح انطلاقًا من النصوص القرآنية منها:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا

تَرَىٰ قَالِ يَتَأَبَّتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٨﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَابِرْهِيمُ ﴿١٣٩﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٤١﴾ وَفَدَيْنَتْهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٤٣﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٤٤﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٥﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤٧﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتُهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٤٨﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٤٩﴾ [سورة الصافات: 97-114]. ومن الاستدلالات منها ما يأتي:

- 1- ذكر الذبيح في الآيات موصولاً بالدعاء، ولا سيما في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فكان الولد استجابة لدعائه حيث لم يكن له ولد، فكان إسماعيل أول مولود، وكان هو الذبيح!
- 2- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [سورة إبراهيم: 39] والدعاء المذكور هاهنا يشير إلى دعائه المذكور في قصة الذبيح في الصافات.
- 3- وإسماعيل هو الذبيح المذكور في الدعاء الأول؛ لأن إسماعيل هو إجابة الدعاء أي "سمع الله". وكأنما قال: "الحمد لله الذي وهب لي إسماعيل إجابة لدعائي ثم وهب لي إسحاق نافلة".
- 4- تقديمه ووصفه بالصبر حين قال الذبيح: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الصافات: 102]، ووصفه الله بها باسمه في قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 85].
- 5- وصف الذبيح وإسماعيل بالوفاء بالوعد قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [سورة النجم: 37]، أي بنذره، وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [سورة مريم: 54].

6- بما فرّق به بين إسماعيل وإسحاق بذكرهما ذكرًا مستقلًا في قوله تعالى: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [سورة الصافات: 113]. فجعلهما اثنين وأن المبشر به أولًا غير المبشر به ثانيًا، وأن الذبيح الأول.

7- إن عدم التصريح بالذبيح دليل على أنه إسماعيل عليه السلام؛ وقد كان ذلك لحكم؛ لإعراض القرآن عن اللجاج، وترك الفخر بالآباء؛ لأنها من الجاهلية.

8- بما صرح به القرآن من أحوال إبراهيم وإسماعيل؛ وهو من جوامع الأدلة؛ وبناءً عليها فإن التضحية لا تنفك عن بيت الله، وموضع النسك والصلاة، وكذلك الذبيح الذي قربه لا بد أن يكون هو الخادم لهذا البيت والساكن عنده، ولا بد أن يكون هذا البيت وهذا المنحر هما أكبر شعائر الله للناس لتعظيم الرب وتذكّر العبودية، وكذلك بعدما تقبل الله هذه التضحية وهذه المشاعر لا بد أن يبقى إلى الأبد، ولا بد أن يجعل هذا المكان مأمونًا من كيد الأعداء. وقد بيّن القرآن هذه الأمور كلها:

- فذكر أن بيت مكة أول بيت وضع للناس ماثبة، فجعل الحج إليه فرضًا، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يعلن به في الناس.

- وكذلك ذكر كون إبراهيم وإسماعيل بانيين وخادمين لهذا البيت.
- وكذلك ذكر أن الصفا والمروة من شعائر الله، وجعل المنحر عند هذا البيت.
- وكذلك ذكر أن الحج إليه والنحر لديه سنة باقية إلى الأبد، وجعله ذبحًا عظيمًا.

- وكذلك ذكر أن الله تعالى جعل هذا الموضع مأمونًا من كيد الأعداء إجابة لدعاء إبراهيم.

9- ما جاء في القرآن من إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل؛ وهو من جوامع الأدلة أيضًا؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ [سورة آل عمران: 70-71]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [سورة المائدة: 15]. حيث إن اليهود أجمعوا مكان البيت، وجعلوا المنحدر المشهور في مساكنهم عند بيت المقدس، وافترء قصة إخراج إسماعيل وأمه من مسكن إسحاق وأمه.

10- وفيه استدلال بالروايات التي ساقها المفسرون كالإمام فخر الرازي في "مفاتيح الغيب"، و"تفسير ابن كثير"، والرد على ما رجحه ابن جرير الطبري من أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

الفصل السابع والعشرون: ما تفرد به الإمام الفراهي

تمهيد:

لا شك أن الإمام الفراهي شخص عظيم، وعلم فذ، امتلك إلى جانب الورع والتقوى الجرأة والشجاعة على طرح أفكاره ولم يبال بأحد طالما سكنته وأضحى مقتنعاً بها، وكانت له تفردات في مجال التفسير وعلوم القرآن بينها في محالها من هذا السفر؛ وهذه بعضها نتناولها خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: من سورة عبس:

لقد اتفق المفسرون على قصة نزول سورة عبس في مكة المكرمة بشأن الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه؛ حيث طلب منه أن يعلمه مما علمه الله؛ إذ روى الترمذي في جامعه، ومالك في موطئه وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أنزل (عبس وتولى) في ابن أم مكتوم الأعشى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول أترى بما أقول بأساً، فيقول: لا، ففي هذا أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ﴾ [سورة عبس: 1-2].

أما الإمام الفراهي وإن لم ينكر هذه الرواية لكنه ينظر إليها بغير منظار جمهور المفسرين، فيرى رحمه الله أن بناء الكلام في هذه السورة على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم، وما قال المفسرون عن هذه القصة فقد عدّه من زلل القلم منهم.¹ بمعنى أن الله أمر نبيه ﷺ أولاً بالدعوة لرؤساء قومه وبالإعراض عنهم إذا تبين إصرارهم على الكفر. وعليه فقد منع الله رسوله ﷺ من إضاعة الوقت بالمصرين على الكفر وحثّه على التزام المؤمنين؛ ونظيره في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَن يَشَاءُ ۖ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجَدِينَ ۝﴾ [سورة الشعراء: 214-219].

ولمزيد من الإيضاح فإن النبي ﷺ حسب الإمام الفراهي اشتغل بدعوة رؤساء قومه، وقد رأى النبي ﷺ منهم شدة الأنفة والكبرياء، وكان ﷺ من شدة رحمته يصبر على ذلك رجاء انتفاعهم بذلك. فكلما زادوا جماحاً زاد النبي ﷺ إلحاحاً. ولكن لما كان في ذلك بعض شغل عن الذين هم أحق بعنايته وتنزل عن سمو محله، فإن الله تعالى لم يأمره بالخضوع بل أرسله بالعز الشامخ والشرف الباذخ، فقال له لا لوم عليك إن لم يؤمنوا، فإنك قد أوفيت بما كان يجب عليك. والآيات في هذا المعنى كثيرة. فكلما وجد الله تعالى نبيه قد غلا في هذا المنهج أوحى إليه بعض ما يصرف عنانه إلى التوسط، حتى وقعت هذه القصة - قصة عبد الله بن أم مكتوم - فجعلها الله تعالى سبباً لزجر الأغنياء ومدح الفقراء بأبلغ ما يكون من أساليب الكلام، فأخرج الكلام مخرج العتاب حسب الظاهر، ولكنه في الحقيقة زجر للكافرين، وثناء على النبي ﷺ، وتطبيب لقلوب المؤمنين.²

¹ تفسير نظام القرآن، ص 273-274.

² المصدر نفسه، ص 278-280.

وعليه؛ فإن الروايات الواردة في قصة النزول على اختلافها وفق ما درج عليه الجمهور، فإنها حسب الإمام الفراهي مبنية على الظنون والأوهام وفق الآتي:

- إن الآية لا تقول إنه ﷺ عبس من الأعشى أو عبس في وجهه كما قيل.
- إن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۖ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۚ﴾ [سورة عبس: 3-4] صريح في أنه ﷺ لم يعلم أن الأعشى جاء إليه ليظهر قلبه أو ينور عقله بالذكر.
- إن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۚ﴾ [سورة عبس: 7] صريح في أن النبي ﷺ كان قد غلا في أمر الدعوة.
- إن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ﴾ [سورة عبس: 11-12] صريح في تعليم الاستغناء عن الذين استغنوا عن ذكر الله وفي منع النبي ﷺ عن التنازل إلى هذا القدر من اللاتفات إليهم.¹

المبحث الثاني: سورة الفيل:

المطلب الأول: قصة هذه السورة:

وقصة هذه السورة معلومة لدى المفسرين حكمتها روايات كثيرة؛ وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز كما نقلها المفسرون، حيث إن ذا نواس- وكان آخر ملوك حمير وكان مشركاً- هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام- وكان نصرانياً- فكتب له إلى

¹ انظر المصدر نفسه، ص 281-282. وقال القراهي رحمه الله لمزيد من البيان: "بالجملة إذا نظرت في نفس هذه الآيات وما قبلها وما بعدها تبين لك أن الكلام ليس لتعليم النبي ﷺ الاستغناء والترفع، حسبما يليق بعزته وعزة دعوته، وأسلوب العتاب ههنا أبلغ ما يكون في منعه عن الإفراط في أداء فريضة الدعوة، وفي تطييب نفسه ونفوس الضعفاء من المؤمنين، وفي زجر الأغنياء من المنكرين". انظر تفسير نظام القرآن، ص 284.

النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعلمهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصالوا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك. فأجاباه إلى ذلك فتبارزا- وخلف كل واحد منهما قناة- فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحه فبرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيها من تراب اليمن، وجز ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقره على عمله. وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمىها العرب القليس؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدث فيها وكر راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنه حجراً حجراً.

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارا، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقتة، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عرمرم؛ لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال. وقيل: اثنا عشر فيلاً. وقيل غيره، والله أعلم. يعني لهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة. فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة دون البيت، ورد من أراده بكيد. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له "ذو نفر" فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريد الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر "ذو نفر" فاستصحبه معه. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخشعي في قومه: شهران وناهس فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نفيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه "أبارغال" دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المغمس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: "الأسود بن مفسود" فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق - وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يعج لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت. فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم، وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حرب، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم فإن

يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حنطة: فاذهب معي إليه. فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال لترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتي حين رأيته، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذاك.

ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرفة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك لا يغلبن صليهم ومحالهم غدوا محالك
قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال. وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق، فينتقم الله منه.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله - وكان اسمه محموداً - وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام". ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في

مراقه فيزغوه بهاليقوم، فأبى؛ فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان.

مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هارين بيتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفر؟ والإله الطالب والأشرم المغلوب غير الغالب
المطلب الثاني: ما موقف الفراهي من هذه القصة؟

يؤكد الإمام الفراهي أن العرب لم يتخلوا عن بيت الله، بل دافعوا عنه باستماتة، وقاتلوا جيش أبرهة الأشرم بما وسعهم جهدهم، وتيسر لهم، وهم رموهم بحجارة من سجيل، ولكن رميهم هذا لم يكن ليدفع ذلك الجيش الجرار، فأرسل الله تعالى عليهم حاصبًا أهلكهم كما أهلك به الأمم الطاغية الأخرى، ولقد كانت آية عظيمة من آيات الله. وهذا التفسير تفرد به إمامنا الفراهي فتأمل!

قال الفراهي بصريح العبارة: "إن النظر في الروايات في هذا الصدد يبين تصويرًا متباينًا، والأخبار بشكل الطير ولونها، وأن مناقيرها الصفر كانت تختلف على الرواة اختلافًا لا يكون إلا برؤية العين. وأما الأخبار بحملها الحجارة في مناقيرها وأظفارها فقصارى أمره أن يكون إمام ممن رأى نزول الحجارة من السماء فظن من بعيد أنها تأتي من الطير، أو ممن ظن أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ترميهم﴾ يرجع إلى الطير، فروي القصة حسبما فهم من تأويل الآية وليس له معول على علم الواقعة".¹

¹ تفسير نظام القرآن، ص 450-451.

وكان يشبه رمي العرب على رمي النبي ﷺ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً في غزوة بدر ويقول: "شاهت الوجوه" عند قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال: 17]. وأما الطير فقد أرسله الله لأكل الجثث، علاوة على أنه قد رفض الروايات؛ لأنها تعظم أبرهة وتصفه بالحلم، وتلصق كل مهانة وذلل بعبد المطلب سيد قريش.

المبحث الثالث: سورة المسد:

رَوَى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ حين نزلت عليه آية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى رسول الله ﷺ الصفا، فصعد عليه، فاجتمع إليه الناس بين رجل يجيء ورجل يبعث رسوله فقال رسول الله ﷺ: "يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، يا بني فلان، لو أتني أخبرتكم أن خيلاً يسفح الجبل تريد أن تُغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، قال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟! "تباً لك" معناه أنت خاسر هالك. سب الرسول ولم يسبه أحد غيره من أقربائه الذين جمعتهم. فأنزل الله هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد: 1].

والملاحظ أن في هذا الحديث وهو في الصحيحين دعاء صريحاً على أبي لهب غير أن الإمام الفراهي يعتبر ذلك بشري لفتح مكة وليس دعاء على أبي لهب. ويحاول التأكيد في تفسيره على الرباط بين السورة المتجاوزة فيقول: "قد ذكرنا في سورة النصر أن الله تعالى كما ختم هذه البعثة بفتح مكة، فكذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم؛ وذلك إنباء بأن الحق بلغ مركزه؛ لأن فتح مكة مركز هذه البعثة؛ لكون الكعبة مركزاً للتوحيد والإسلام.. فلم يبق إلا الاستقامة عليه والاعتصام به، فجاءت السور الثلاث الأخيرة للتنبيه على أن غاية هذه البعثة هو التوحيد. فسورة الإخلاص جامعة لمعرفة التوحيد والمعوذتان لأجل الاستقامة.. فلا يخفى أن هذه السور كلها مربوطة. فوضع سورة اللمب بين هؤلاء

لا بد له من سبب، لكيلا يكون قاطعاً لربط بعضها ببعض. فاعلم أن سورة اللمب تؤكّد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشّر به، فكأنه قيل: "قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه".¹ ويزيد الأمر بيان في قوله: "والدليل على تأويلنا أن مفهوم "تبت يدا" إنه صار عاجزاً عن الانتصار؛ لأن كسر اليد كناية عن كسر القوة والعجز؛ وذلك لما قاله الفند الزماني:

وتركنا ديار تغلب قفراً وكسرنا من الغواة الجناحاً فتبين من ذلك أن المكسور اليد هو العاجز الذي لا يستطيع أن يأخذ سيفه. فهذه الآية ليست بدعاء عليه ولا شيء من الشتم، بل ذكره بالكناية أقرب إلى الإكرام.² وعليه؛ فقد قرر بشجاعة اختياره هذا فقال مصرحاً: "فبعدما اتضح لنا التأويل لا نرى سبباً إلى اختيار قول من قال: إن هذه السورة نزلت شفاء لغيظ النبي، تشتم أبا لهب وامراته لما أنه شتم النبي حيث قال له: "تبّاً لك ألهذا جمعتنا".³

الفصل الثامن والعشرون: أجوبة الفراهي على أسئلة مهمة

تمهيد:

أحاول أن أستخرج أسئلة كثيرة من خلال قراءتي لكاتب الفراهي، وأتركه يجيب عنها باستنطاق النصوص التي حررها؛ وذلك عبر الأسئلة والأجوبة الآتية:

هل العمود هو أعظم المقاصد حقيقة؟

ليس العمود ما هو أعظم المقاصد حقيقة، بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بياناً في سورة ذكر فيها.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 575-576.

² المصدر نفسه

³ المصدر نفسه، ص 584.

⁴ تفسير الفراهي، ص 42-43.

هل يفسر القرآن بالقرآن؟

أجمع أهل التفسير من السلف إلى الخلف على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، فنقول: كما أن القرآن يفسر مطالب آياته بعضها ببعض، فكذلك يدل ذلك نظام مطالعها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر؛ وبذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينها، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض حتى يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض.¹

ما رأيك في تفسير السنة للقرآن؟

لعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه، وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن؛ لكي لا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم، والملحدون الذين يلزموننا ما ليس له أصل في القرآن.²

هل تؤول الآية لتنسجم مع الروايات أم العكس؟

فإني رأيت بعض الروايات تفلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تؤول، ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية، وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها، والفرع أولى بالقطع.³

هل "أسباب النزول" أسباب حقيقية لنزول الآية والسورة؟

ليس شأن النزول، كما قيل تسامحاً، سبباً لنزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلاً للكلام، فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة. فلك أن تلتبس شأن النزول من نفس السورة فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه.⁴

¹ دلائل النظام، ص 83.

² تفسير نظام القرآن، ص 7.

³ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 28.

⁴ تفسير الفراهي، ص 25.

كيف نفهم أسباب النزول؟

رعاية النظام تمكن فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها.¹

هل ينسخ الحديث القرآن؟

والذي يهمل أن تعلم أن الخبر وإن تواتر لا ينسخ القرآن، وحقه التأويل أو التوقف.. ونعوذ بالله أن ينسخ الرسول كلام الله.²

هل الاطلاع على الكتب المقدسة مفيد في التفسير؟

إن أهل التفسير مع أنهم أكثروا من الإسرائيليات، لكنهم تركوا الكتب المقدسة، إلا قليلاً من العلماء الذين أظهروا الحق على أهل الكتاب وأقاموا عليهم الحجة كابن تيمية فنعم ما فعلوا فكأنني على أثرهم.³

هل بيان القرآن موعود بحفظه؟

كما أن الله تعالى وعد أن يحفظ متن القرآن العظيم، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: 9]، فكذلك وعد بيانه حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة: 19]. فمن باب إنجاز وعده أنه حفظ اللسان العربي من الاندثار والمحو وجعله حيًا باقياً، وكذلك حفظ الاصطلاحات الشرعية.⁴

هل البسملة من القرآن؟

هي آية من الفاتحة، وفاتحة لكل سورة بدليل النزول والحفظ فإن الله تعالى وعد حفظ القرآن، وبدليل معناها المناسب بالابتداء، وتأويلها الذي سيأتيك قريباً، ولما روي أنها آية من الفاتحة.⁵

¹ دلائل النظام، ص 51.

² تفسير الفراهي، ص 30.

³ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 23.

⁴ المصدر نفسه، ص 31.

⁵ تفسير نظام القرآن، ص 74.

هل "اقرأ" بلسان جبريل؟

سورة "اقرأ" كلام بلسان جبريل أولاً، حتى إذا بلغ مقام الغضب جاء الكلام من الله تعالى صريحاً: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [سورة العلق: 15].¹

هل لليهود والنصارى اسم خاص لله؟

اسم الله ﷻ كلمة من أعظم ما ورثته العرب من الدين الصحيح، وقد أضاعته اليهود والنصارى؛ فإنه ليس عندهم اسم خاص لله تعالى، فإنهم يستعملون اسم الله لغيره وهو عندهم بمنزلة السيد.²

لماذا سميت الفاتحة "موفية"؟

إن هذه السورة ديباجة القرآن، وجامعة لعلومه الثلاثة على الإجمال؛ ولذلك سمّاها العلماء موفية؛ من حيث إنها ديباجة القرآن، وحاوية لجميع علومه هي قرآن مستقل كما أن ديباجة الكتاب من حيث إنها هي شيء زائد عليه.³

هل فعلاً "الفاتحة" لم تكن في مصحف ابن مسعود ﷺ؟

إن صح أن عبد الله بن مسعود ﷺ لم يكتب الفاتحة في مصحفه؛ فلأنها مكتوبة في صدر كل مؤمن، وتجري بها ألسنتهم كل يوم بأكثر من اثنين وثلاثين مرة، وما أوعيت صدرك فقد بالغت في حفظه، فإنه مع روحك وجسمك، فليس لملك جابر أن يأخذ منك، ولست تحتاج إلى نقله وحفظه في متاعك عند ترامي السفر بك. وكانت العرب لا تكتب ما تقدر على حفظه من الكلام. وقد حفظ الله القرآن بهذا الطريق، فأنشأ في الأمة حفاظاً إن تعدهم لا تحصيهم أبقاهم الله وكثرهم.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 66.

² المصدر نفسه، ص 79.

³ المصدر نفسه، ص 85-86.

⁴ المصدر نفسه، ص 86-87.

ما هي مطالب الدعوة الأولى؟

لا يخفى أن أهم مطالب الدعوة الأولى ثلاثة أصول:

1- التوحيد.

2- والدينونة.

3- والرسالة¹.

ما معنى قوله تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ وما هي وجوه الأمر فيها؟

أي أعرض عنهم وأمهلهم، والأمر بذلك لا يكون للإعراض الكلي بل للإمهال لتسكن شدتهم، وللصفح عن سيء قولهم تكرماً وتوكيلاً لأمرهم إلى ربهم.. ولهذه الوجوه يقرن هذا الأمر:

1- بالتهديد للمتكربين.

2- وبوعد النصر للمؤمنين.

3- وتسلية النبي بأنه بريء الذمة بعد إتمام الحجة والبلاغ المبين فلا يلج على المتكربين.

4- وبأمر النبي بالتوكل والصلاة والرضى بما جعل الله للكفار من المهلة. فإن الله تعالى هو الوكيل ويعطي الهداية لمن يشاء حسب علمه بأحوال عباده ولا يجعل بالعذاب بل يمهل لكي يتوب بعضهم، فعلى النبي والمؤمنين أن يصبروا ويصفحوا وينتظروا غلبة الحق والفرقان.²

ما هي المطالب المهمة لآخر سورة الذاريات؟

إن هذه الآيات التسع في خاتمة سورة الذاريات جاءت على وجه التسلية، ولكنها اشتملت من المطالب المهمة على أمور:

¹ تفسير نظام القرآن، ص 163.

² المصدر نفسه، ص 169-170.

- على تعليم المداراة والصفح عما يقول الظالمون.
- وعلى تعليم الصبر والانتظار لغلبة الحق.
- وعلى اتصاف الرب تعالى بالحكمة والرحمة والعدل.
- وعلى حكمة الإمهال.
- وعلى تدبيره الأمور حسب الأجل.
- وعلى ذكر غاية الخلق وكماله.
- وعلى بيان حقيقة الربوبية والعبودية.
- وعلى لزوم المعاد.¹

هل ينزل الوحي مراعيًا الموقع المناسب؟

إن المقصود أن تعلم أن الوحي ينتظر الموقع المناسب دقّ أو جلّ؛ لكيلا يذهب القول منسياً، ولكي يصغى إليه كل الإصغاء. فإذا جاء الموقع المنتظر لم يكتف بذكر ما يتعلق بمحض الواقعة بل عمد إلى أصل الأمر وفرعه، ووصل بحسن النظام أمورًا متباعدة حسب الظاهر. ولذلك وجب التدبر في كتاب الله.²

هل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قِيلَ: مَنْ رَاقٍ؟﴾ للإنكار؟

هي حكاية عن شدة الأمر حين لا يلتفت إلى الذي قال، كأن هذا القول بنفسه أذهل عن ذكر القائل وكأن كلهم شريك في هذا القول، فالمجهول ههنا أبلغ. و(من) قبل النكرة تعي لشدة الطلب أو عند غلبة اليأس.. والاستفهام للإنكار شائع، ولكنني أردت الاستشهاد على معي النكرة بعد "من" وكشف معناها في هذا التركيب الخاص؛ فإن الآية محتملة لوجهين ولكن المأل واحد.

¹ المصدر نفسه، ص 176.

² تفسير الفراهي، ص 190.

- 1- إنه إذا جاءت سكرة الموت وحشرجت النفس وقالت العواد اضطرأيا، كما أن الغريق يتشبث بالحشيش ألاق فيداويه؟
 - 2- إنهم قالوا قد حم الأمر وانقطع العمر، فأى راق يشفيه؟ وهذا الشدة يأسهم. وحينئذ أيقن المحتضر أنهم أسلموه وودعوه وعلم أنه الفراق. فوضعت المعنيين بين يديك فخذ بأيهما شئت، ولا حرج إذا كان المآل واحداً. وأما أنا فأرى الوجه الثاني أحسن لقربه من نظام الكلام كما علمت وستعلم.¹
- ما دلالة ختم سورة المرسلات بقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟
- فقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المرسلات: 50] خاتمة جامعة لكل ما حدثهم به من:

- 1- الدلائل.
 - 2- والترغيب.
 - 3- والترهيب.
- وأسلوب الاستفهام ينبه على ما يأتي:
- 1- على علو منزلة هذا الحديث الكامل في التبليغ.
 - 2- وعلى قلة الرجاء بإيمانهم.
 - 3- وعلى شناعة تكذيبهم به.
 - 4- وموقع الآية يدل على التوديع بعد إتمام الحجة.²
- ما هي مقاصد سورة «عبس»؟

¹ المصدر نفسه، ص 238-239 (بتصرف يسير).

² المصدر نفسه، ص 270.

لا يخفى أن هذه السورة من النذر. وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة، ومع ذلك تتنوع وجوه البيان. ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم. ومن هنا يعطف وجه المقال.

- 1- إلى تشنيع هؤلاء المصريين.
- 2- إلى ذكر الدلائل على شناعة استغنائهم.
- 3- إلى ذكر مآل أمرهم.
- 4- وآخرًا على طريق المقابلة ذكر الذين هم خلاف هؤلاء؛ لأن الشيء يتبين بضده، وليجمع الترغيب، ولكي يبين للنبي أن الاشتغال بالمؤمنين أقدم وأولى.
- 5- وقد ختم السورة السابقة بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَّحْشَاهَا﴾ [سورة النازعات: 45]. فبين في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشون.¹

فهذان بهما من الخيرات لعلها وملاكها.²

ما رأيك في قول أبي حنيفة في الإيمان؟

للإيمان معنى أخص؛ وهو الإيقان، ويستعمله القرآن بصيغة الفعل، وبذكر متعلقه، كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: 285]. و"آمن" أي أيقن.

ومن هذا الاستعمال خيل إلى بعض العقول أن الإيقان هو كل الإيمان المعتبر عند الله وأنه الجزم المحض، وإذن كيف يزيد بالعمل، أم كيف يكون العمل ركناً له؟

¹ المصدر نفسه، ص 273.

² المصدر نفسه، ص 390.

فإن الجزم والعمل متباينان وخيل إلى هذه الطائفة أن هذا الرأي الذي رآه الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فأبرموا ما زعموا، وتكلفوا في تأويل آيات واضحة وأمر بين. وأما أنا فالظاهر عندي أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله نظر إلى المسألة نظر الفقيه والقاضي والأمير في جريان الشرائع من الوراثة والنكاح، والخراج، والجزية، وسائر الأحكام السياسية. فالمؤمن بهذا الاعتبار كل من أقر بأنه من حزب المؤمنين، وشارك المسلمين في شعارهم، وكان على ما هم عليه فيما ظهر من أحوالهم. فلا فرق بين الصادق والكاذب، والبر والفاجر منهم. وفي هذا الإيمان يتساوى بعضهم ببعض، ولا زيادة ولا نقصان فيه. فإن السياسة لا تبحث عما بين المرء وربّه. وإنما يكشف عنه يوم القيامة. وفي هذا ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَهُوَ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفِقُونَ وَالْمُتَفَقِتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظِرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهَا الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) [سورة الحديد: 12-15].

فعلمنا أن طائفة من الدين في الدنيا مع المؤمنين يفرقون عنهم يوم القيامة، ويجمعون مع الذين كفروا. ولا يمكن هذا إلا بتسوية الأمير السائس بين المؤمنين والذين ليسوا على صفاتهم الأصلية، ولكنهم أظهروا الإيمان للناس.

فأبو حنيفة رحمه الله لم يرد في هذا البحث من الإيمان معناه الخاص، وهو الإيقان، وإنما هو أراد "الإقرار" و"الإظهار". فإن المسألة كانت: هل الإيمان قول وعمل، أم قول

فقط؟ ولم يكن النزاع في أنه علم وعمل. والظاهر أن القاضي إذا أخذ الإيمان بمعنى القول، أو ما ينوب منابه - وهو صائب في هذا - فلا يجعله محلاً للزيادة والنقصان. وبذلك بين أنه لم يرد من الإيمان إلا مناط أحكام القضاء، فتصريح القرآن بزيادة الإيمان خارج عن بحثه. والقرآن ناطق بكل لسان، والعقل حاكم بصريح البيان بأن الإيقان والعمل كلهما يتفاوتان، ويصيران سبباً لجلب زائد إليهما.¹

هل في سورة (المسد) دلالة على التكليف بما لا يطاق؟

قد تمسكت الأشاعرة بهذه السورة في وقوع تكليف الله عباده بما لا يطيقون خلافاً للحنفية وبعض الأجلة من الشافعيين كالإمام أبي محمد الأسفراييني والإمام أبي حامد الغزالي رحمهما الله. وإنما قالوا بذلك لجدهم بالمعتزلة الذين يقولون إن العدل واجب على الله تعالى؛ فاشمأزت نفوس أكثر فرق أهل السنة عن شناعة هذا الإيجاب فقالوا: إن الله تعالى هو الحاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وهو الذي خلق كل شيء فهل يوجب عليه مخلوقه حكماً ويقضي عليه قضاء؟ وبلغ إنكارهم لقول المعتزلة كل مبلغ كما تكون نتيجة الجدل والخصام. فتمسكت الطائفتان بكل غث وسمين، وألزموا خصمهم ما لزم وما لم يلزم.

ما هي شرائط قيام الجهاد في سبيل الله؟

1- لا يكون الجهاد لدفع الفساد من الأرض إلا بعد أن يرفع الفساد من بين المجاهدين، فلا يستحق له إمام ولا متبعوه إلا بعد أن يكونوا قائمين بالقسط.

2- ولا يجوز القتال لأحد في داره إلا بعد الهجرة، كما ترى في قصة إبراهيم وآيات الهجرة، وحالات النبي الكريم ﷺ، فإن الجهاد من غير الملك المطاع بغي، وعدوان، وفتنة، وإهانة للمعروف.

¹ المصدر نفسه، ص 398 - 399.

3- ولا يؤذن للقتال إلا بعد القوة كما ترى في قصة شعيب ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِءَ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: 87].

فالجهد واجب بشرائطه الثلاث إلى يوم القيامة وليس الإكراه في الدين، ولا الفساد، ولا البغي، ولكن شهادة الحق واجبة، والتبليغ والمجادلة الحسنة.¹

ما الذي تستحسنه في تسمية السور؟

ولما كان اسم الشيء عنواناً لمعناه، وقد اشتهر من الأسماء ما لا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة وجوه:

1- تسميتها بلفظ من أوائها كطه.

2- تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف.

3- تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كالنور.

4- تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة.

فهذا الوجه الرابع يخبر عن فهم من سمى السورة به، فلو أسموا كل سورة على هذا الوجه لظهر نظام السور لكل متوسم، ولا بأس عندي أن نسمي كل سورة بما يهدي إلى معناها، إن لم يمنع الشرع.²

هل يؤول القرآن بالحديث؟

قد سبق مني القول بأن القرآن هو الحاكم عند الاختلاف بالأحاديث.³

¹ المصدر نفسه، ص 55-56.

² المصدر نفسه، ص 62-63.

³ المصدر نفسه، ص 70.

هل كان النبي ﷺ عاجلاً خوفاً من ضياع القرآن؟

قد أشكل هذا الالتفات على المفسرين لما خفي عليهم رباط الكلام، حتى إن القفال رحمه الله زعم أنه مما يقال للكفار يوم القيامة،¹ والباقون لم يبعدوا عن فحواه. ولكنهم جعلوه كلاماً مستأنفاً غير مربوط بمضمون السورة، وظنوا أن النبي اعتراه العجل فكلمه جبريل ناهياً عن العجل. نعم إن نزول القرآن كنزول الغيث ينتظر تهيؤاً وانبعاثاً لكي يطابق بالحال. وقد وقع عند إلقاء هذا الكلام أن النبي كان عاجلاً لتلقي الوحي حرصاً عليه لشدة حرصه على إنذار قومه.. ولكن كان هذا دأبه وكثر في القرآن تسليته بأمثال هذه الكلمات. ولما كان الشوق لوجوه كثيرة جاءت التسلية على وجوه كما ذكرته آنفاً. وظنوا أن العجلة المذكورة في هذه السورة كانت من خوفه الضياع والنقصان على القرآن. فاعلم أن النبي ﷺ بعدما أوحى إليه كان يحسب أن حملاً باهضاً قد ألقى عليه، فإن نسي منه شيئاً كان مسؤولاً عنه. ومع ذلك إنه كان يشاق إلى زيادة الوحي لعل قومه ينتفع به، فجاءت التسلية حسب هذين الأمرين مع رعاية وجه الكلام في هذه السورة. فكأنه قيل له: لم تجتهد هكذا في تلقي الوحي؟ أما حفظه وجمعه فعلياً، وأما هداية قومك فهم منهمكون في محبة العاجلة، فكثير القول وقليله سواء عليهم. وقد أراهم الحق بما جعل في نفوسهم من البصيرة.²

هل المراد بالقصر أعناق الإبل؟

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [سورة المرسلات: 32]. القراءة المشهورة الباقية الجارية على الألسن إنما هي بسكون الصاد، فلا يلتفت إلى ما نسب لابن عباس رضي الله عنهما من أن المراد به أعناق الإبل على أنه جمع "القصرة" بمعنى

¹ انظر تفسير الرازي، 223/30.

² تفسير الفراهي، ص 230.

أصل العنق.¹ ثم الفاصلة التالية لا تواتيه. ثم أصل العنق موضع وليس بعضو مستقل، فتشبه بالشرر.

وكذلك لا يلتفت إلى قول من زعم أنه جمع "قصرة" لأصول الشجر العظام.² فإن التشبيه التالي لا يواتيه ثم هما كلمتان غريبتان عن لسان القرآن ولا قرينة معهما. وأما لفظ "القصر" فقد جاء في القرآن غير مرة. فالتأويل الظاهر الصحيح وهو الذي روي عن ابن مسعود رضي الله عنه.³

وعلى هذا فالتشبيه إنما هو في عظم الشرر وعلو مكانه ولونه. فإن القصور تبنى على المواضع العالية وترى من البعد لامعة مخالفة للون ما تحتها. وليس المراد بالتشبيه عظم القصر كما هو، بل حسبما يترأى من البعد. فإن العرب استعملوه مشبهاً ومشبهاً به بحسبما ذكرنا، كما قال عمرو بن كلثوم:

وأعرضت اليمامة واشمخرت كأسيا ف بأيدي مصلتينا⁴

ما وجوه البلاغة في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾؟

قال تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [سورة المرسلات: 46]؛ وفيها التفات إلى الكافرين، وجامع لوجوه البلاغة:

- 1- فيه مقابلة بما ذكر من نعيم المؤمنين وتهنتهم.
- 2- وفيه تهديد من عذاب قريب.

¹ انظر تفسير الطبري، 147 / 29.

² انظر قول الضحاك في تفسير الطبري، 147 / 29.

³ انظر الكشف للزمخشري، 4 / 174، وتفسير ابن كثير، 4 / 460-461.

⁴ انظر شروح المعلقات. انظر نظام القرآن، ص 262.

3- وفيه تشنيع لغرورهم بالمتاع القليل، كمن قضى عليه بعقاب شديد وأمهل قليلاً ليتمتع نهاراً أو ليلة بما يشتهي من الطعام والشراب. فلا يهنا له ويكون له شجى وغصة.¹

هل أبو بكر فعلاً لم يعرف معنى "الأب"؟

لا يصح ما يروى من أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اعترفا بجهلها به.² أول هذين الخبرين منقطع،³ والثاني مضطرب. واليقين بضعفهما من وجوه:

1- أن هذه السورة مكية والصحابة أهم شغلهم تلاوة القرآن، فكيف لم يسألوا النبي ﷺ عن معنى كلمة طول مدة الصحبة، وكيف لم يعلمهم النبي ﷺ إياها؟

2- أنا نجد القرآن أسهل وأبين لساناً من عامة أشعارهم وخطاباتهم وكانت قريش حكماً على الشعراء في عكاظ، وكان أبو بكر ﷺ من رؤسائهم وخطبائهم، وكان عمر ﷺ لسان قريش وسفيرهم، فلا بد أن يكونا أعلمهم بصروف الكلام.

3- أن القرآن إنما أنزل بلسانهم عربياً مبيناً ليدعى به الناس ويعقلوه.

4- أن الوضاعين لم يذكروا ذلك إلا عن أكبر الصحابة وأعلمهم.⁴

¹ نظام القرآن، ص 269.

² كما جاء في رواية إبراهيم التيمي أنه قال: سئل أبو بكر الصديق ﷺ عن قوله تعالى: ﴿فاكبه وأباً﴾ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم! انظر تفسير ابن كثير، 4/474، والكشاف، 4/186، وتفسير الطبري، 30/38، والنهاية في غريب الحديث، 1/13.

³ قال ابن كثير: "هذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق ﷺ" انظر تفسير ابن كثير، 4/474، وانظر الكافي الشاف في تخريج الكشاف لابن حجر العسقلاني، ملحق الكشاف، 4/182.

⁴ نظام القرآن، ص 296 - 297.

الفصل التاسع والعشرون: فوائد الإمام الفراهي

تمهيد:

إن كتب الإمام الفراهي كلها فوائد منيفة، ونفائس عزيزة، ولطائف فريدة، ودرر بهية، فأثرت أن أفرد هذا الفصل لحشد جمل من فوائده المنتقاة من تفسيره نظام القرآن وبقيّة مصنفاته؛ وذلك عبر ما يأتي:

فائدة:

إن كنت ممن يوقن بأن الله راعى النظام الحكيم في كلامه، ورأيت أمرًا قد قرن بأمر فلا بد لك أن تطلب المناسبة. فهذا الطلب يهديك إلى أمور خفية لا يهتدي إليها من مر عليه ولم يتدبر. فإن الأمر الواحد له جهات مختلفة واعتبارات شتى: فمن جهة هو يناسب بأمر، ومن جهة أخرى بأمر آخر.¹

فائدة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [سورة الذاريات: 11]. وفائدته بيان عدم انفكاك الغفلة حتى إنهم لا يشعرون بما ينبغي أن يشعروا به. وهذا ذكر حالتهم التي كانت أصل دائم المذكور، أي هم منغمسون في الغفلة والشبهوات؛ ولذلك لا يذكرون العاقبة. ومفاد الجملة التشجيع لشكهم الناشئ من كمال الجسارة وعدم المبالاة بالآخرة وبما جاء به المنذرون من ربهم، وذلك يظهر من سؤالهم: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ﴾ [سورة النازعات: 25]. هذا السؤال يتضمن الإنكار والاستعجال والاستهزاء.²

¹ المصدر نفسه، ص 43.

² المصدر نفسه، ص 126.

فائدة:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [سورة الذاريات: 13] "يفتنون" يلمح أولاً إلى معنى الإحراق، وثانياً إلى أن هذه النار مما فتنتم به في الدنيا من شهواتها وزخارفها التي أنستكم يوم الدين فصرتم في غمرتها ساهين.¹

فائدة:

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [سورة الذاريات: 14]، أي ما فتنتكم من شهواتها فهي الآن ظهرت عليكم بحقيقتها، وكنتم هناك في غمرة الغفلة فلم تحسوا بذوقها، فالآن فذوقوها. وموقع الجملة التفات. وليس ههنا حذف بل لكي يجعل الغيب مشهوداً خاطبهم فكأن يوم الدين قد حضر، وكأنهم قد عرضوا على النار فخطبوا بهذا القول.²

فائدة:

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ [سورة التحريم: 1-2] وقد أدمج الله في هذا البيان فوائد:³

- 1- منها أن ابتغاء مرضاة الأزواج من السير المحموده حتى يجر إلى ضرر ديني، كما ترى في سورة لقمان أن الله تعالى وصى بالإحسان إلى الأبوين، ومع ذلك منع الطاعة في المعصية. فهكذا ههنا لن ينهنا إلا عما جرّ إلى ضرر.
- 2- ومنها أن تحلية اليمين واجبة إن كانت خلاف دين الله؛ لأن العهد لا يكون إلا بتراضي الطرفين، فلا نذر في المعصية كما صرح به النبي ﷺ.

¹ المصدر نفسه، ص 127.

² المصدر نفسه، ص 127.

³ المصدر نفسه، ص 191.

- 3- ومنها ما ذكرنا من إبطال الرهبانية.
- 4- ومنها أنا علمنا عناية الرب بهذه الأمة، وإكمال دينه بهذه البعثة، فلا يترك أهون شيء حسب الظاهر؛ لتعلم أن ما هو هين في عيوننا فهو بحسب نتائجه عظيم.
- 5- ومنها أن أحكام الشريعة مبنية على العلم والحكمة.
- 6- ومنها أن التحليل والتحريم لا يكون إلا من الله تعالى. وشنع البدعة فيه، كما صرح به حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [سورة النحل: 116].

فائدة:

عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ الْتَمِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَبَّكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [١] إن تتوباً إلى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۚ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَنِيتٍ تَتَّبِعْتِ عِبْدَاتٍ سَيَحْنِتِ تَتَّبِعْتِ وَأَبْكَارًا ۚ﴾ [سورة التحريم: 3-5].

ومن فوائد النص:¹

- 1- هذا من أعظم فرائض المحبة بين المرء وأهله. فمن أغلق باب أسرارهِ دون زوجته فقد أحط منزلتها، ولم يرد من هذا الامتزاج الفطري الفطري إلا ما كان بين العجماوات.

¹ المصدر نفسه، ص 192 وما بعدها (بتصرف يسير).

- 2- ثم تحت ذلك بين الله تعالى ما يجب عليهن من المحافظة على السر، كما صرح بقوله: ﴿فَالصَّلَاحُ قَنِينَتُكَ حَفِظْتُكِ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [سورة النساء: 34]. وانظر كيف رفع منزلة حفظ الغيب بما ذكر أنه من صفاته تعالى؛ ومنه اسمه الستار.
- 3- وأيضاً علمنا الفرق في الملام، لا سيما بأزواجنا، لما ذكر إعراضه عن بعض الخبر لكيلا يشق عليها ويوحشها.
- 4- وإذ إن المحبة بين الضرتين من أحسن خلق النساء علمنا أنه كان بين أزواج النبي أنس ونصح، لا سيما بين أمي المؤمنين حفصة وعائشة كرمهما الله لكمال عقلهما وطهارة خيمهما. والحب لا يدع السر مكتوماً، فباحث به إحداهما إلى الأخرى. فوبخها الله تعالى على هذه الزلة، ولعمرك هي أحسن من أكثر الحسنات منشأً.
- 5- ثم ذكر إنايتهما. وما أحسن الرجوع بعد الحمية وطعم مرارة التبرم بالحبيب؛ وهي التوبة الصادقة.
- 6- وبين لهما أن الإعراض عن النبي في المعروف إعراض عن أمر الله، ولا بد لكما من التوبة إلى الله.
- 7- ثم رفع الحجاب وكشف الغطاء عما كان بهما من ظن الكرم الديني والتقوى، فبين لهما أن الله اصطفى لنبيه أهل بيته وطهرهن بالأخلاق الحسنة بفضله وحكمته؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 33]. فليس لهن أن يفتخرن بحسناتهن، فإن ذلك النور من قرب النبي ﷺ.
- 8- كان ربط القصة باثنتين من الأزواج، ولكن الله تعالى في هذه الآية الزاجرة جاء بصيغة الجمع إنباء بعموم الأمر، وتخفيفاً لوقع التوبيخ.
- 9- فحصل لنا من هذه الواقعة فوائد جملة بها صلاح البيت من حسن السلوك بالأزواج مع الاحتساب؛ ليكون لنا طريق معتدل في تدبير المنزل؛ وهو أساس

التمدن؛ فإن فساد البيت والمساءة بين المرء وزوجه يجر إلى فساد الملك
وهدم الصلاح.

فائدة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) [سورة القيامة: 17-19]، فلا يخفى عليك أن هذا النص يحتوي على
ثلاثة أمور:¹

1- أن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ، ويقرأ عليه بنسق واحد. فإنه لو أنجز هذا
الوعد بعد عهد النبي ﷺ لم يأمره باتباعه؛ وذلك قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ
قُرْآنَهُ﴾ (١٨) [سورة القيامة: 18].

2- أن النبي ﷺ مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية التي تكون بعد
الجمع، وليس للنبي أن يلقي عليه شيء من الوحي ولا يبلغه الأمة عقلاً، ولما
أمره الله تعالى في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة المائدة: 67]، وقوله: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ عام
ولا يخصه العقل. فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لا بد أن يبلغه
الأمة. ونظم القرآن وصورته منه، فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه.
فلا شك أن النبي ﷺ علم الأمة قراءة السورة بنسق آياتها.

3- أن بعد هذا الجمع والترتيب بين الله ما شاء بيانه من التعميم،
والتخصيص، والتكميل، والتخفيف.

وقد علمنا وقوع هذه الأمور الثلاثة. فإن النبي كان يقرأ عليهم سورة من القرآن
كاملة، وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص، فأخذوه منه، وكان

¹ تفسير الفراهي، ص 232 - 233.

يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها. ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبينة ضمّتها بالقرآن.

فائدة:

فيما يتعلق بترتيب سورة ﴿عبس﴾ إن القرآن لا يترك مراعاة الحكمة في نظم ما يذكر من الأمور. فاعلم أن السورة ذكرت خلال الخير والشر على سبيل المقابلة. أما الأولى فالتزكي، والتذكر، والخشية. وأما الثانية فالاستغناء، والكفر، والفجور. والترتيب في الأول نازل؛ لأن الصالحين يجرون إلى غاية. فالغاية أول شيء في نظرهم.

والترتيب في الثانية صاعد؛ لأن الفاسقين لا يعلمون إلى ما يجرون إليه؛ فذلك سبب الاختلاف بين الرتبتين.

وأما بيان ما ذكرنا من رعاية الترتيب، فلا يخفى أن الخشية أصل الفلاح، وهي الباعثة على التذكر. والتذكر يهدي إلى التزكي، وهو المقصود. وكذلك الاستغناء أصل الفساد، وهو الباعث على الكفر بالحق الواضح. والكفر يهدي إلى الفجور. وعلى ما ذكرنا من ترتيب هذه الصفات شواهد جمّة في القرآن.¹

فائدة:

اعلم أن الله تعالى يعفو كثيراً عن الناس ويؤخرهم لكي يتوب من شاء، ويحق على الآخرين كلمة العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة النحل: 61]، فكان الله يعذب اليهود، ولكنه لم يسلمهم أعظم نعمه ولم يقطع الحبل عنهم إلا بعد أن امتلأ كأسهم بقتل عيسى عليه السلام، على إثر يحيى عليه السلام. فكان دماً ثالثاً.

¹ المصدر نفسه، ص 302.

وقد علمت في القرآن كثيرًا أن الله تعالى برحمته يمسك بالنتائج السيئة عن الناس حسب سنته الحكيمة حتى يحق عليهم كلمة العذاب.¹

فائدة:

وجملة الكلام أن الإيمان:

- 1- حالة نفسانية، وعلاقة روحانية.
- 2- وسلطانه على العقائد كسلطانه على الأعمال.
- 3- وأنه يزيد بالعلوم كما أنه يزيد بالأعمال.
- 4- وأن له ركنين: العلم والعمل، فينخرم بهدم واحد منهما.²

فائدة:

إذا تأملت سورة الكوثر بمجموعها ونظرت في حدود آياتها اطلعت بادئ ذي بدء على القضايا الآتية:³

- 1- إن الله تعالى أعطى محمدًا ﷺ وراثته إبراهيم عليه السلام، وأظهر فيه إجابة دعائه، فجعل لها ورثة من أمته.
- 2- إنه قد سلب الله هذا العطاء كل خائن كفور، فإنه ساخط بهم كما صرح به في سورة الحج.
- 3- إنه إذ ربط القطع عن هذا العطاء بصفة خاصة دل على علته. فتبين أن عداوة النبي يقطع عن بركة الله.
- 4- إنه بما جعل هذا الحرمان مخصصًا بأعدائه دل على أن الفائزين بوراثته هم أحباؤه. فحصلت لنا علامة بين أهل الحق والباطل، والمتبعين لهدى الله وسنة رسوله والزائغين عنهما. فالأبتر من هذه الورثة داخل في شأنه.

¹ المصدر نفسه، ص 326.

² المصدر نفسه، ص 396.

³ المصدر نفسه، ص 535.

5- إنه كما جعل الصلاة والنحر شعار أحيائه جعل تركهما شعار أعدائه من المشركين واليهود ومبتدعة النصارى والمبتدعة من هذه الأمة. فمنهم من يستخف بالصلاة، ومنهم من يستخف بالحج، ومنهم من تسلل عن كل ذلك. فالمضيعون للصلاة والنحر والحج هم الأعداء للنبي، والمقطوعون عن وراثته، والمخذولون كاليهود والنصارى. ولكن في الإسلام بقية من أهل الحق والسنة. ونرجو أن يكثرهم الله ويبعث منهم من يعز به الإسلام، وما ذلك على الله بعزيز. وقد قال عز من قائل: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [سورة محمد: 38].

فائدة:

وأما الأصول فإننا لا نجحد فضل من أسس هذا الفن، فإنهم لم يأخذوه من اليونان ولا الهند ولا غيرهما، بل دعت الحاجة إلى وضع أصول لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة، فهم قدوة في هذا الفن الشريف.¹

فائدة:

في القرآن أصول للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين.²

فائدة:

لليقين الفطري مجار إلى المدركات وتلك الإلهامات، ولولاها لم يكن لنا علم ولا بدهة ولا نظر.³

فائدة:

لو كان الإيمان جائزاً بمحض التقليد لكان الوثنيون معذورين.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 35.

² حجج القرآن، ص 21.

³ المصدر نفسه، ص 93.

⁴ المصدر نفسه، ص 211.

فائدة:

الحجج الفطرية مبنية على المبادئ الحاكمة على النفوس، وأن التسليم لها ليس بالاختيار حتى ينكر به منكر، وإنما هو مضطر إلى الإيقان بها بحكم فطرته التي ليست باختياره.¹

فائدة:

جعل القرآن بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه، وهو ينبوع جميع علومه وأعماله، ونظيره واستدلّاه، وهو مودع في غور فطرة النفس، مكنون كاللب وراء القشور.²

فائدة:

إن أحسن الكلام ليس في محض كونه محاكاة، بل في إبلاغ المعاني من المتكلم، وإن من غايته ليس إطراب السامع، بل كونه سفيراً صادقاً للعقل، وإن التلذذ بها ليس لكون المحاكاة داخلة في عنصر الإنسان. بل لأن فيه استعمال أرفع قواه، وأن ليست المحاكاة من خصائص الإنسان، وإن الصدق يلزم المخبر، فإن خلطه الكذب أحبطه عن درجته وإن سوء المعنى يمحو عنه اسم البلاغة.³

فائدة:

اعلم أنّ البيان كالظلل والأثر للنطق - الذي هو مَقَوِّمٌ لِلإِنْسَانِ - كما أنّ النطق ظلٌّ من الوحي الأعلى، وكَلِمَةُ اللَّهِ العُلْيَا. فالبَحْثُ عن أَوَّلِيَّاتِ عِلْمِ الْبَيَانِ، يَجْلِبُنَا إِلَى الْحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 72.

² المصدر نفسه، ص 93.

³ جمهرة البلاغة، ص 13.

⁴ المصدر نفسه، ص 40.

فائدة:

العَرَبُ لِكُونِهَا أَذْكَى الْأُمَمِ، وَأَسْرَعَهُمْ إِحْسَاسًا، وَأَشَدَّهُمْ عَاطِفَةً، كَانُوا أَوَّلَى بِالشَّيْءِ مِنَ النَّثْرِ، نَثْرُهُمْ أَبْعَدُ مِنْ نَثْرِ الْأُمَمِ - أَهْمَلُوا فِيهِ كُلَّ مَا يُنَاسِبُ الشَّيْءَ حَتَّى الْقَافِيَةَ. وَرُبَّ خُطْبَةٍ جَاءَتْ مِنْهُمْ نَظْمًا. فَلَيْسَ لِلْعَجَمِيِّ أَنْ يَفْهَمَ نَثْرَهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرَ فِيهِ كَأَنَّهُ نَظْمٌ - مَعَ كُلِّ مَا يَخْتَصُّ بِنَظْمِ الْعَرَبِ خِلاَ الْوِزْنِ - وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَمْدَحَهُ أَوْ يَذْمَهُ إِلَّا بَعْدَ هَذِهِ الْمُرَاعَاةِ.

ثُمَّ لَيْسَ نَظْمُهُمْ كَنَظْمِ سَائِرِ الْأُمَمِ، رَبُّ أُمَّةٍ نَظْمُهُمْ كَنَثْرِ حَقِيقِيٍّ، كَمَا أَنَّ نَثْرَ الْعَرَبِ كَنَظْمٍ حَقِيقِيٍّ.¹

الفصل الثلاثون: لطائف وحكم وأسرار

تمهيد:

لقد كان الفراهي متدبراً لكتاب الله العزيز، سابراً أغوار آياته العظيمة، فتح الله عليه فتوح العارفين، فأنكشفت له حجب الأسرار القرآنية واللطائف الربانية؛ فقال رحمه الله: "فأما نظام آياته فقبل إيضاحه نرفع بعض الحجب عن الأسرار التي لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى، ولكن تخرج منها لواضع للمتوسم".² وهذه بعض اللطائف والحكم والأسرار التي استخرجتها من تفسيره وبعض مصنفاته المطبوعة وفق الآتي:

هل في القرآن حكّم وأسرار؟

كل ما أنزل الله جل ثناؤه في كتابه رحمة وحجة، علمه من علمه وجهله من جهله.. والناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به، فحق على

¹ المصدر نفسه، ص 158.

² تفسير نظام القرآن، ص 93.

طلبة العلم بلوغ جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه: نصًا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك خيرًا إلا بعونه. فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًا واستدلالًا، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه. وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.¹

ما السرف في اختيار النظام؟

مرادنا بالنظام أن تكون السورة كلامًا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد منها، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة تكون معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر.²

كيف السبيل إلى استخراج أسرار القرآن؟

التأمل في النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابسته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.³

كما أن النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحرًا لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه.⁴

¹ حكمة القرآن، ص 19-20. ولذلك كان دينه رحمه الله البحث عن الحكمة فقال على سبيل المثال لا الحصر: "هذا الكلام يشتمل على فوائد عظيمة، ولتأنته يستدعي شرحًا وتنبهًا، وقد دل فيه على أصل عظيم في الحكمة فنذكر بعض ما يستفاد منه" المصدر نفسه، ص 60.

² انظر دلائل النظام للفراهي، ص 87. من رسائل الفراهي، المجموعة الأولى.

³ المصدر نفسه، ص 40.

⁴ المصدر نفسه، ص 45. ثم إن الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها أبدًا من لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان. إمعان النظر في نظام الآي والسور، ص 106.

ثم إن النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لا يهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.¹
ما الطريق إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات؟

النظام هو الدليل في صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه، وكثرت الاحتمالات.²

ما السرفي اختلاف الآراء في التأويل؟

إني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة إبراهيم: 24]، وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: 103]، وكيف الخلاص من التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتًا في ظنونهم وهو بحمد الله متين ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: 42]، فيؤوله كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن سمته، وبالنظام يتبين سمت الكلام، فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيف المحرفين الذين ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [سورة النساء: 46]، والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه وما خلفه ويضمون إليه ما يعجب هوة نفوسهم.³

هل كتب التفسير تشفي الغليل في أسرار القرآن؟

إني تصفحت كتب التفسير وسبرتها سبرًا، فما وجدت بها إلا كسراب بقيعة يحسبه الظلماء ماء، فلم تبرد غلتي، بل زادت قلبي حرًا، وملأت كبدي جمرًا، ففزعت إلى تدبر كتاب الله وسعة معانيه، وتركت أقاويل الناس هجرًا، وكان بداية أمري أني

¹ دلائل النظام، ص 29، و38.

² المصدر نفسه، ص 41.

³ فاتحة تفسير نظام القرآن.

بينما أجيل الطرف في نجوم الآيات، إذ أضاء لي في أفقها الأعلى سلك نظامها مثل الخيط الأبيض من الصبح، فما ازداد إلا سطوعاً وجهراً، فكشف الحجاب عن فؤادي أو طهر قذى عن عيني طحراً، فأبصرت قصدي، وتبينت رشدي، وصرت أعمل في أساليب نظامها وأعاجيب رباطها فكراً، وقضيت على ذلك عصرًا، ومن أحسن عمري شطراً، حتى ولى الشباب ظهراً، وأذاقني المشيب طعماً مرًا، وكرت علي الأوجاع والأقسام كراً، ونظر الحقود إلي شزراً بأني ركبت وعراً، وتوليت أمراً إمراً، ولكنني لم أزل مشتغلاً بخصيصاي لا أقصر عنها قصراً كأن أمراً من السماء يسوقني إليها قسراً، لا أدري لعل الله وجد المسلمين في عمياء مظلمة فأراد أن يرفع عن خرائد القرآن خدراً، وأراد أن يصلح آخر هذه الأمة بما أصح به أولها، فشرح من بعضهم لفهم كتابه صدرًا، ولولا هذا الرجاء لما اقتحمت من هذا الخضم غمرًا، ولولا حديث الألجام لما تصديت لأمر لو نزل على الجبال لهبطت لعظمته خراً فتوكلت على الله.¹

ما هي أسرار قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) [سورة الذاريات: 56-58]. هذه الآيات اشتملت على حكم عظيمة وهي:

- حكمة الخلق وغايته؛ وهي العبادة لله وحده.
- الفرق بين العبادة والخدمة؛ وذلك يبين حقيقة الربوبية.
- ضرورة الإمهال من جهة حكمة الخلق ورحمة الرب.
- لزوم الدينونة وغلبة الحق من جهة حكمة الخلق وعدل الرب.
- عدم التمني لفصل الأمر بالفور، بل الرضى بما يجري الله من الأمور حسب حكمته وعدله ورحمته.

¹ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 9-10.

- كون الصلاة وذكر الله رأس العبادات لتضمنها الخضوع والتوكل.
 - وعمود هذه الآيات المعاد؛ فإن كون الخلق لغاية يدل على أن العباد يسألون ويجزون.
 - ويدل كذلك على أنهم لا يبقون إلا لمدة حسب مقتضى الحكمة.
 - وهذا يدل على غلبة الحق وأن الباطل إنما هو لوقت.¹
- ما السر في مجيء الالتفات في القرآن؟
- اعلم أن الالتفات في القرآن كثير جدًا في كلام العرب؛ ومن فوائده:

- 1- انتباه السامع.
 - 2- ومنها إحضار البعيد.
 - 3- ومنها شدة الخطاب.
 - 4- ومنها صرف التوجه عن السامع تصغيراً له وإعراضاً عنه.
 - 5- ومنها صرف الخطاب الشديد إلى أكبرهم.
 - 6- ومنها التعريض بمن يتوقع منه الإنكار أو الكراهية.
 - 7- والالتفات من مخاطب إلى مخاطب.
 - 8- والالتفات لتنويع المعنى.
 - 9- والالتفات لإرادة التوبيخ.²
- ما السر في تناسب الصلاة بالحج؟
- الصلاة تناسب الحج؛ لكونهما صورة ذكر الله، ولما أن فيهما تعبدًا جسمانيًا، ولما أنهما منوطتان ببيت الله، ولما ثبت عن النبي الكريم ﷺ أن الطواف صلاة.³

¹ تفسير الفراهي، ص 175.

² أساليب القرآن، ص 205.

³ تفسير الفراهي، ص 43.

ما السرفى تناسب الصلاة بالصوم؟

للصلاة مناسبة بالصوم؛ لكونهما غير مختصين بمكان، ولكون الصبر مدارهما، حتى إن السكوت قد كان من شرط الصوم. فالصلاة صوم النفس في باطنها. فهذا من جهة التشابه.¹

ما السرفى تناسب الصلاة بالزكاة؟

للصلاة مناسبة بالزكاة من جهة التقابل، وتكميل الواحد بالآخر، وانشاعهما من أصل واحد، فأصل الصلاة ركون العبد إلى ربه محبة وخشية، وأصل الزكاة ركون العبد إلى العبد محبة وشفقة فلا يكمل الصالح إلا بهما، فالمحبة أصلهما. فعلمنا أن أصل الدين هو المحبة، ورقة الباطن، ولطافة الشعور، حتى إن الله تعالى جعل أقدم صفاته الرحم؛ وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: 56].²

ما السرفى تناسب الصلاة والنكاح؟

فالنكاح وازع عن التدنس، والصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: 45].³

ما السرفى سورة المائدة بين ما أحل من المأكّل، ثم المناكح، ثم الوضوء؟

قد ذكر الله تعالى في سورة العقود (المائدة) ما أحل من المأكّل، ثم من المناكح، ثم الوضوء. فهنا أمران: الشيء وشرط الشيء فذكر من الشرائط ما يتطهر به: فالذبح طهور للبهائم، والمهر وقصد الإحصان طهور للنساء، والوضوء طهور للصلاة. ثم

¹ المصدر نفسه، ص 43-44.

² المصدر نفسه، ص 44.

³ المصدر نفسه، ص 45.

هدى الله إلى هذه الحقيقة فقال في آخر الآية: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُظْهِرَكُمْ لِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المائدة: 6].¹

ما السر في محاربة مانعي الزكاة؟

كما استدلل أبو بكر رضي الله عنه على قتال من أبوا إيتاء الزكاة كأنه قال رضي الله عنه: علمنا أن الذين لا يصلون ليسوا منا ونقاتلهم، والله تعالى قرن الزكاة بالصلاة كثيراً فعلمنا محلها في الدين من محلها في كتاب الله ذكراً.

فإن غفلنا عما يهدي إليه النظام غفلنا عن حظ وافر من كتاب الله. وجعل حقيقة الربا خلاف حقيقة الزكاة وأذن بحرب أكل الربا فكذلك مانع الزكاة.²

ما السر في أن الفاتحة تسمى "موفية"؟

لأنها ديباجة القرآن، وحاوية لجميع علومه، هي قرآن مستقل كما أن ديباجة الكتاب من حيث إنها هي شيء زائد عليه.³

فإنك إذا تلوت الفاتحة تجلت لك جملة القرآن حسب نظمها، فمثلاً كمثال امرأة صغيرة تريك شيئاً عظيماً في هيئته وصورته فهذه جهة أخرى لكونها موفية جامعة.⁴

ما السر في أن الفاتحة أصل الصلاة؟

إن هذه السورة لكونها أصل الصلاة إذا قدمت على سائر القرآن العظيم، استنبطنا من موضعها أن الصلاة أول الأحكام، وأن تارك الصلاة نابذ للدين. ولما

¹ المصدر نفسه، ص 44.

² تفسير نظام القرآن، ص 59.

³ المصدر نفسه، ص 86.

⁴ المصدر نفسه، ص 89.

كان هذا الاستنباط بطريق الإشارة نظرنا في أحكام القرآن والسنة فوجدناه موافقاً لهما. فصحت هذه الإشارة عندنا، وعظمت لدينا منزلة الصلاة بأن الله تعالى جعلها فاتحة عهده بنا.¹

ما السر في أن الفاتحة هي السبع المثاني؟

فاعلم أنه لم يصرح بعدد آيات سورة غير هذه، بل سماها الله تعالى بعدد آياتها، فدعانا إلى التدبر فيه وللعهد اعتبار عظيم في الكتب المقدسة، وكذلك عند الحكماء جميع أمور العالم مقدر بالأعداد، وبمثل هذا جاء القرآن العظيم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: 49]، ومثله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: 8].²

ما السر في أن الله قال: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ ولم يقل "تسمعون أو تبصرون"؟

إن في هذا التمثيل من الحكمة ما يحتاج إلى التدبر، وقد نبّه على ذلك بما اختار مثال النطق، فلم يقل "مثل ما أنكم تنظرون، أو تسمعون، أو تأكلون، أو تشربون".. أو غير ذلك من الأفعال الظاهرة. فإذا تفكرت في حكمة اختيار هذا المثال هديت إلى أمرين عظيمين:

الأول: هو كون النطق أولى باليقين من سائر أطوار النفس.

والثاني: كونه متضمناً لما يستدل به على المعاد.

أما الأول؛ وهو كون النطق أولى باليقين؛ فمن ثلاث جهات:

¹ المصدر نفسه، ص 90.

² المصدر نفسه، ص 94.

1- أن النطق أقرب إلى النفس من سائر أطوارها وذلك بأن النفس تنتبه على كل شيء بوساطة الفكر، ، وأما الفكر فليس بينه وبين النفس واسطة. والفكر هو النطق الحقيقي ولذلك سمي العقل نفساً ناطقة. والنطق المسموع إنما هو ظهور ذلك النطق الحقيقي. فعلم النفس بنطقها الحقيقي هو أبده البديهيات وأولى باليقين.

2- أن النطق أرسخ في النفس وذلك بأنه داخل فطرة الإنسان وخاصته؛ ولذلك عرفوا الإنسان بالحي الناطق، وقد عرفت العرب ذلك. قال المرقش الأكبر: هل بالديار أن تجيب صمم لو كان حيًا ناطقًا كلم¹

3- أنه ليس في أطوار النفس ما يساوي النطق في كثرة الشهادات المتوائمة. وأما الأمر الثاني: وهو كون هذا المثال متضمنًا للدليل على المعاد، فلا يخفى أن التمثيل ربما يكون محض دعوى كما تجد كثيرًا في كلام الشعراء وربما يكون دليلًا.

ما السر في انطواء البشارة على صفة "عليم"؟

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [سورة الذاريات: 28]، إذ إن "عليم" يدل على أن البشارة بالولد لا تتم إن لم تكن البشارة بصلاحه، واكتفى بالعلم؛ لكونه منبعًا لصفات الخير والصلاح.²

ما السر في تكرار ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؟

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: 50-51]. وهذا القول لم يكرر لمحض التأكيد، بل لكل تأويل على حدته حسب محله. فإن محل الأول

¹ المفضليات، ص 237.

² نظام القرآن، ص 146.

الترغيب، فتأويله أنه تعالى من رحمته أرسل إليكم نذيرًا لينذركم عواقب الغفلة والركون إلى الموبقات لكي تفروا منها إلى ربكم الرحيم التواب.

والثاني محله الترهيب، فتأويله أن الشرك إثم عظيم ولا عذر لكم، فإنه أرسل إليكم نذيرًا مبينًا من عنده.¹

ما السري في الاستدلال بخلق الزوجين من كل شيء على التوحيد؟

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات: 49]. اعلم أن الدليل على الله الواحد واضح على العقول فطرة؛ ولذلك أكثر الملل مدعنة به لما أن هذا الخلق المشهود بعجائبه وعظمه وسعته كله شاهد عليه ولكنهم ذاهلون عن النظر الصحيح فيه.. اعلم أن الاستدلال ههنا بخلق الزوجين من كل شيء على وجهين حسب معنيين للزوج:

أما الوجه الأول: فإن الخلق مع سعته واختلافه في الطبائع شاهد على رب واحد مدبر قاهر عليه.. وهذا يتضمن أمرين عظيمين:

1- إثبات خالق قادر حكيم جعل الخلق بعضه تمامًا وزوجًا لآخر، وأصلح هذا لذلك حتى ينتجا منافع لعباده.

2- إثبات معاد ودار أخرى لهذه الدار المشهودة.

أما الوجه الثاني: فإنكم ترون الخلق مختلف الأنواع يخالف بعضها بعضًا مع اتحادها في الأصل وما حولها من الأسباب العامة، فهذا يدل على رب مدبر يربي هذه الأنواع على نهجها، فلا بد أنه واحد فوق كل ذلك ويسوسها مع تصادمها وتشاكسها بحيث لا يتعدى بعضها على بعض فلا خبط ولا شطط.²

¹ المصدر نفسه، ص 164 - 165.

² المصدر نفسه، ص 165 - 166.

ما السري في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾؟

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [سورة الذاريات: 54]. أي أعرض عنهم وأمهلهم. والأمر بذلك لا يكون للإعراض الكلي بل للإهمال لتسكن شدتهم، وللصفح عن سيء قولهم تكرماً وتوكيلاً لأمرهم إلى ربهم:

- كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۚ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۚ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۚ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۚ﴾ [سورة الغاشية: 21-26].

- وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۚ﴾ [سورة الرعد: 40]. وللکف عن الإلحاح الذي هو من شنشنة الأنبياء، كما ترى في أمثال قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۚ﴾ [سورة الكهف: 6].

- ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۚ﴾ [سورة فاطر: 8].

ولهذه الوجوه يقرن هذا الأمر:

- 1- بالتهديد للمتكبرين.
- 2- وبوعد النصر للمؤمنين.
- 3- وتسليية النبي بأنه بريء الذمة بعد إتمام الحجة والبلاغ المبين فلا يلح على المنكرين.
- 4- وبأمر النبي بالتوكل والصلاة والرضى بما جعل الله للكفار من المهلة.¹

¹ المصدر نفسه، ص 169-170.

ما السرفى استعمال أسلوب الغلظة؟

وذلك عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ [سورة التحريم: 9]. يتضمن النص أشد التبليغ: ليتوب منهم من فيه أدنى الاستعداد وهذه الآية قد جاءت في سورة التوبة بعينها. وبعدها: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [سورة التوبة: 74]. فترى أن الغلظة لأجل أن يتوب منهم من يتوب، ثم يبقى من حقت عليه كلمة العذاب. فلم تكن هذه الغلظة إلا لتخليص الخير من الشر: وذلك ربما يكون بالغلظة كما أنه يكون باللين. ففي هذا التخليص تنقطع علانق القرابة وأسبابها، ويفصل المرء من أمه وأبيه وصاحبه وبنيه. وذلك هو التطهير، كما قال تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة آل عمران: 55].¹

ما السرفى قوله تعالى: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾؟

وذلك عند قوله تعالى: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴿﴾ [سورة القيامة: 34-35]. فإن كلمة "أولى" تستعمل للحسرة كما أن "ويلا" للمقت والزجر؛ قالت الخنساء: هممت بنفسى كل الهموم فأولى لنفسى أولى لها² وإنما التفت من الغيبة إلى الخطاب لتكون أشد! فلو قال "أولى له فأولى" لم يبلغ هذا المبلغ! وإنما أجرى الكلام إلى آخر السورة على الاستفهام لمثل ذلك السبب. فالسورة من أولها إلى آخرها ردع وتوبيخ.³

¹ المصدر نفسه، ص 203.

² ديوان الخنساء، ص 121.

³ تفسير الفراهي، ص 216.

ما السر في الجمع بين "القيامة" و"النفس اللوامة"؟

وذلك عند قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۖ﴾ [سورة القيامة: 1-2].

إن في الجمع بين القيامة والنفس اللوامة دلالة على نسبة بينهما عند من يتدبر.. وجملة القول ههنا إن القيامة لوامة النفس الكلية فترها ما فعلت، وقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ﴾ [سورة القيامة: 13]، عبارة عنه، كما أن اللوامة مثال قيامة فيك فترك حقيقة أعمالك وقوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ بَصِيرَةٌ ۚ﴾ [سورة القيامة: 14] عبارة عنه. وهكذا كل ني لوامة قومه. وخاتم الأنبياء لسعة بعثته هو النفس اللوامة لجميع بني آدم، وهو مثل يوم القيامة ودينونة العالم.¹ ما السر في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ﴾

وذلك عند قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۖ ۗ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۖ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۖ ۚ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۖ﴾ [سورة القيامة: 16-21]، فقد بين فيه مصلحة التدرج من جهة استعداد الإنسان للتربية. فإن الله تعالى أودعه بصيرة وتميزاً وشوقاً إلى العلو فيسمو إليه حالاً فحلاً، ولكن تنازعه زخارف الدنيا وشهواته العاجلة. وهذا حب العاجل مودع فيه!²

ما السر في أن الله أودع في الإنسان حب العاجلة؟

هذا لكي يبتليه ويخلص النضار من الخبث. ففي الإنسان حب العاجل وشوق المعالي كلاهما مفطور، وبذلك اجتهداه ومنه التربية؛ لينمو بذر الفطرة بقوته المودعة فيه، ولذلك نهى عن الإكراه في الدين.³

¹ المصدر نفسه، ص 222-223.

² المصدر نفسه، ص 227.

³ المصدر نفسه، ص 227-228.

ما السر في شق الأرض؟

وذلك عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٦٦﴾ [سورة عبس: 26]، فهذا بيان جامع لأربعة معان:

- 1- لما تفتتح الأرض أفواها فتشرب الماء، فتعيه.
- 2- ولما تنشق الأرض بالنبات فيخرج منها أزواج شتى.
- 3- ولما يشقها الحراثون.

وكل هذه المعاني مناسبة ها هنا، فأتى بكلمة جامعة.¹

ما السر في تلازم الصبر بالمرحمة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾؟ قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝٧٧﴾ [سورة البلد: 17] فانظر كيف خص بالذكر من الخيرات ما هو ملاكها. فإن الرحمة هي التي تؤلف قلوب الناس وتجعلهم كنفس واحدة كراماً سمحاء. وقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة من تنافسهم في التكاثر، وذلك أصل دائهم، فحسمه بالتواصي بالمرحمة، ثم أتبع ذلك بالتواصي بالصبر. فإن الرحمة لا تمكن إلا بأن يحتمل المرء أذى الناس، ويسامح لهم، ويعفو عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝٣٩﴾ [سورة الشورى: 43].

وترى اعتناق الصبر بالمرحمة، وإنهما صنوان بل ثنيا لحبل واحد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [سورة آل عمران: 200].

فأوثق عرى الوفاق، وجمع شمل الأمة بالصبر وروابط الاتحاد. ويشبه هذا ما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [سورة هود: 11].

¹ نظام القرآن، ص 294.

ما السر في النسبة بين الحق والصبر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؟
يقول تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: 3]. وجملة القول
إن الحق يفتح أبواب الخيرات كلها، والصبر يسد عورات الشرور بأجمعها. فالحق
هو المحبوب، والصبر هو الالتزام به.¹

ما هي مقاصد سورة العصر؟

مما تقدم من تفسير العمل الصالح، والحق، والصبر، والتواصي، اتضح من غير
شبهة ما أودع الله في هذه السورة من فرائض السياسة، والتعاون، والمرابطة في
التعايش، وإبطال الخمول والاعتزال عن أمور الأمة العمومية. ولما أن السورة
خصت بذكر عوازم الأمور، فذكر التواصي فيها تنبيه عظيم على ما قلنا.
وبما أوجب علينا من التواصي أعطانا حرية القول. فالأمة مع إذعانها لصاحب
الأمر مأمور بإظهار الحق والنصح، ولذلك سمّاهم "شهداء".²

ما هو السر في رمي الجمار بمناسك الحج؟

قد دلت الأمارات الكثيرة على أن رمي الجمار بمنى كان تذكرة لرمي أصحاب الفيل.
ولكن الروايات الضعيفة ضربت أسداداً دونه.³

ما السر في وصف امرأة أبي لهب "بحمالة الحطب"؟

وذلك قد دللنا على مناسبة الجزاء بالعمل بوجوه؛ وهي:

- 1- إنها تتحول من الشرف والترفع إلى الذل والمهانة.
- 2- وإن حلماً التي كانت تفتخر بها تصير عليها حطباً. فإن الحطام الدنيوي
وزخرفها أشبه شيء بالهشيم، فتصير كمن يحمل الحطب لتسعين النار التي

¹ تفسير الفراهي، ص 403.

² المصدر نفسه، ص 405.

³ المصدر نفسه، ص 468.

يلقي فيها، أو كمن يحمل جذعًا ليصلبوه عليه وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 31].

3- وإنها لما حملت زوجها على خصال أضرمت النار التي كانت في طبييته فكأنها التي حملت إليها الحطب فأشعلتها. فافتضى عملها في الدنيا أن تبعث على هيئة حمالة الحطب أو تصير إليها بعد دخولها النار. ويقرب مما قلنا ما روي عن سعيد بن جبير: "أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول؛ لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار".

4- وقد مر أن جزاء أبي لهب كان مناسبًا لحاله. فكذلك راعى المناسبة حين أخبر عن حال امرأته.

5- ولم يقتصر على ذكر هذه الصفة بل أوضح بالآية الخامسة تصوير المحتطبة.¹ ما السر في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾؟

فالتأويل الظاهر: أنها إذا جاءت يوم القيامة أو بعد أن دخلت النار كان في عنقها حبل خشن غليظ، أغلظ مما يكون في أعناق الإماء الحاطبات. ولهذه الزيادة فوائد:

1- إن فيها توضيحًا لصورتها التي ذكرت في كلمة: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [سورة المسد: 4].

2- وتصويرًا لذلتها التي تصير إليها.

3- وتنبيهًا على الموافقة بين الأعمال وتبعاتها. فإن السمط والقلادة التي كانت تختال بها في الدنيا تنقلب يومئذ حبلًا خشنًا، فتصير يومئذ مثل أمة تخرج للحطب.

4- وإذ المرأة المختالة لا تقنع بمحض الزينة بل بحجمها فناسب حالها أن يكون حبلًا غليظًا.

¹ المصدر نفسه، ص 604.

5- واختيار كلمة "جيدها" بدل "عنقها" تدل على ذلك. فإن الجيد يستعمل في مواقع الحسن والتهيه، كقول امرئ القيس:

وجيد كجيد الريم بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
أو كقوله:

بجيد في العشيرة مخول

6- وعدم مراعاة الفواصل السابقة يدل على مجيء هذه الآية لفائدة إتمام البيان، وذكر أمر واقع، وتنبيه على توافق العل والجزاء كما ذكرنا.¹
ما السر من اختلاف الأسلوب؟

الغرض من اختلاف الأسلوب ليس إلا زيادة فائدة غير ما كان لأجل ما ينبغي في الكلام من الحسن، والصيانة من التكرار. فإن الشيء الواحد إذا تراءى لك مراراً بأطوار كثيرة لا بد أن تفهمه تمامًا، فإن فانتك منه لمحة ستأخذ بك منه أخرى، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: 65].²

ما السر في تفسير القرآن باللغة العربية بينما عارفوها في الهند قلة؟

إني أفسر القرآن الكريم للعلماء؛ لأنهم بعدوا عن جادة الطريق فكريًا وعلميًا، فبدون إصلاحهم لا يمكن إصلاح عامة المسلمين، فبتفسير القرآن الكريم أريد إصلاحهم فكريًا وعلميًا لتزول الانحرافات التي وجدت في المجتمع الإسلامي، ولا أريد بهذه أن أجعل رسالتي مقتصرة في بلد دون بلد آخر في العالم الإسلامي، بل أحب أن تعم هذه الرسالة جميع البلاد الإسلامية، وأن لغة علماء المسلمين المشتركة هي اللغة العربية، لغة كتاب الله؛ ولذلك اخترتها لنشر أفكار ورسالتي.³

¹ المصدر نفسه، ص 605-606 (بتصرف يسير).

² المصدر نفسه، ص 41.

³ انظر زعماء الإصلاح لأحمد أمين، ص 36-37 (بتصرف يسير).

خاتمة

بعد هذه الدراسة الوافية- في زعمي على الأقل- لتراث الإمام الفراهي رحمه الله، والجولة الماتعة في رياض دراساته القرآنية، وتأملاته العميقة، وتشبعه حتى النخاع بكلام الله على أنه نظام واحد تنتظم سوره في عمود واحد، ووضعه أصولاً للتأويل، نخلص إلى النتائج والتوصيات الآتية:

أ- النتائج:

- 1- إن الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله عَلم من أعلام التفسير في شبه القارة الهندية؛ له مكتبة مورقة في الدراسات القرآنية، فكان عاشقاً لتدبر القرآن الكريم.
- 2- كان الفراهي ذا ثقافة واسعة ومتنوعة قد بدأ أقرانه في العربية وعلوم القرآن وترك نفائس.
- 3- إن الفراهي أحد العلماء الأفاضل في بلاد الهند الذين جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والغربية؛ وكان هذا أحد أسرار نجاحه وتوفيقه وتقدير شخصيته.
- 4- أسهم علماء الأمة عامة وعلماء الهند خاصة في خدمة القرآن وعلومه، والتفسير وأصوله؛ وكان في صفوفهم الإمام الفراهي.
- 5- باستقراء كتب الفراهي تبينت أغراضه من التأليف في أصول التأويل للحاجة إليه وإرساء قواعده واكتشاف نظام القرآن.. إلخ.
- 6- لم يكن منهج الفراهي في التأليف هو مجرد الجمع، بل التدقيق والتمحيص، والتحرير والتنوير، والإبداع والابتكار، وحل المشكلات، ويطرح كل ما يدور بخلده حتى إذا اجتمعت أفكاره تدفق قلمه بالتأليف والتنسيق؛ وهو ما يفسر كثرة مشاريعه المفتوحة، وقد مات ولم يكملها!

- 7- دعا الإمام الفراهي إلى تكميل مادة أصول الفقه وتوسيع مباحثه تحت عنوان "أصول التأويل": لتدخل فيه مباحث أصول التفسير؛ وحتى لا يضعف ويهون بإضافته إلى الفروع فقط، ولكن ينبغي أن يشمل العقائد والأخلاق أيضاً؛ فسَمَّى كتابه "التكميل في أصول التأويل".
- 8- يرى الفراهي لإدراك نظام القرآن استيفاء أدوات المفسر، ووجوب التدبر.
- 9- إن أُمية النبي ﷺ لم تكن عائقاً من التدبر أبداً!
- 10- لا يؤخذ من الروايات ما يهدم الأصل ويقبله.
- 11- ميز الفراهي بين التأويل والتحريف والتفصيل.
- 12- الأصل في كتاب الله المحكمات، وتأويل المتشابهات من أول الواجبات.
- 13- السنة خادمة للقرآن الكريم وتدور في فلكه.
- 14- يعتبر الفراهي أصول التأويل ثلاثة:
 - أصول أولية: وهو ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعانٍ شتى.
 - أصول مرجحة: وهي احتمال الكلام معاني مختلفة؛ فإذا أعملنا الأصول المرجحة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح.
 - وأصول كاذبة: وقد اعتمدوا عليها، وليست بشيء، وإنما تذكر لتحاشيها.
- 15- القرآن حاكم على غيره وغيره ليس حاكماً عليه!
- 16- ينبغي أن تؤول الروايات الحديثية وفق أصل القرآن وليس العكس!
- 17- للقرآن نظام يسير لأجله يدرك بالتدبر العميق ويهدى إليه باستيعاب اللغة العربية الأصيلة والتبحر في آيات القرآن نفسها.
- 18- لكل سورة عمود تسير عليه وإن اختلفت أجزاؤها لكن بالتدبر تربط بالعمود من غير مين!

- 19- التدبر هو الوسيلة المثلى لإدراك النظام؛ إذ جعل الله القرآن الكريم محلاً للتدبر والتفكير فقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ٢٩﴾ [سورة ص: 29].
- 20- أسباب النزول وتعدد رواياته ينبغي ألا تكرر على أصل القرآن بالنقض! ولا بد أن تنخل وتؤول في ضوء نظم القرآن، لا العكس.
- 21- تؤول الأخبار والروايات في ضوء القرآن وليس العكس!
- 22- جميع ما تقوله الأمة وتكتبه إنما هو شرح للسنة، وجميع شرح السنة هو شرح للقرآن، فالقرآن إذن هو كلام الله المشرع الذي صدرت عنه السنة وغيرها، مع اعتبار حجية السنة وعدم التقليل من شأنها.
- 23- أغلب أحاديث النزول لا تصح، وينبغي أن توزن في ضوء نظم القرآن وتستخرج من سياق الكلام.
- 24- القرآن فوق أن تنسخه الروايات الحديثية.
- 25- اعتنى الفراهي بمفردات القرآن فألف فيها وأبدع وأضاف؛ ولم يؤلف على نمطه مثله.
- 26- كلمة (الآلاء) لا تحمل على النعم دائماً؛ إذ ياباه سياق بعض الآيات من سورة الرحمن بعد ذكر جهنم، ولكنها فعال الله العجيبة، ولما كانت أغلبها رحمة ظن الناس أنها النعم!
- 27- استقصى ألفاظاً تغيرت معانيها كلفظ (الطوفان) معناه الريح الدوارة الشديدة وصارت بمعنى فوران الماء.
- 28- حمل الناس كلمة (الصبر) على الخوف فقط، وهذا خطأ وإنما على الحب أيضاً؛ لأن أصله القوة والعزم.
- 29- ظن الناس أن الأقسام في القرآن وردت لتعظيم المقسم به وهذا خطأ؛ وإنما أصله الاستدلال والإشهاد بالآيات الدالة.

30- كان للقرآن عند الصحابة تأويل واحد لتقواهم وعلمهم باللسان وبشأن النزول؛ لذلك قل منهم السؤال والتفسير.

31- إن كلمة (الذكر) الواردة في القرآن الكريم يراد بها القرآن، ولا يوسع مفهومها لتشمل السنة أو الدين كما درج عليه بعض العلماء!

32- يرى كثير من العلماء أن السنة كلها وحي كالقرآن مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: 3-4] علما أن السياق في سورة النجم ينصب على القرآن، بحيث يمكن الاستدلال على أن السنة وحي، وأن النبي ﷺ معصوم لكن من غير هذه الآية.

33- إن كلمة "الحكمة" الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة النساء: 113]، لا تعني السنة كما درج عليه عامة المفسرين في مقدمتهم الإمام الشافعي رحمه الله على الرغم من أن الحديث حافل بالحكم؛ والقرآن كتاب وحكمة من جهتين:

- سمي كتاب من كونه مشتملاً على الأحكام المكتوبة.
- وحكمة من جهة اشتماله على حكمة الشرائع من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة.

34- وقد اعتنى رحمه الله بالفروق اللغوية الدقيقة كالجيد والعنق، والمناسبة والنظام.. وهكذا.

35- وقد صحح بعض المفاهيم في أقسام القرآن ولا سيما في المقسم به ورد الشبهات حولها، وذكر مقاصدها، وما وقع فيها من لطائف ولطائف.

36- يرى الفراهي أن للقرآن نظاماً، يترتب على الغفلة عنه الحرمان من لطائف القرآن، وهو الإقليد لصحيح للتأويل، وأن لكل سورة عموداً تسير عليه وترتبط به أجزاء السورة ومطالبها.

37- استخرجت بعض الفوائد المنيفة، واللطائف والحكم والأسرار من دراساته القرآنية.

- 38- تبين أن للفراهي جرأة عجيبة؛ حيث يجهل أهل التفسير في بعض المواضع!
- 39- أُلّف في أساليب القرآن، وكان له اطلاع عميق بأساليب الأدب وعلوم البلاغة الثلاثة، والشعر الجاهلي، وقد أبدع في إنتاجه وبدا ذلك ظاهراً على تفسيره ودراساته القرآنية بلا منازع.
- 40- وتبين من خلال قراءتي لكتبه على تنوعها أن بضاعته في الحديث مزجاة، ويعتمد كثيراً على الدر المنثور للإمام السيوطي.
- 41- وقد حاول أن يكون منهجه في العقيدة منسوجاً على منوال القرآن الكريم؛ غير أنه تخبط في مسائل كثيرة حيث يظهر أحياناً مفوضاً ثم أشعرياً، ثم سنياً مع أنه يكثر التنصيص بأنه سني يتبع التفسير حسب مذهبه.
- 42- له نقول كثيرة من كتب أهل الكتاب التوراة والإنجيل وكتب الحكمة والفلسفة الهندية واليونانية والغربية الحديثة وربط القرآن بها بل والترجيح بناء على ما فيها أحياناً أضعف قوته المكتسبة من القرآن الكريم!
- ب- التوصيات:

- 1- لا بد من العناية بالأعلام المغمورين الذين يخلبون بمجرد القراءة الأولى لمصنفاتهم وتركاتهم العلمية ويضطرونك لمتابعتهم في بقية ما كتبوا وألفوا، والنبش عن مخطوطاتهم ورسائلهم البديعة والطاقحة بالدرر البهية؛ وذلك على غرار الإمام الفراهي رحمه الله! ولا تعدم الأمة أمثاله ونظائره في مختلف البلاد العربية والعجمية.
- 2- إن ابن خلدون كتب المقدمة في نظرية العمران البشري بعد كتابه "العبر"، وقيل إنه لم يخضع في تاريخه للقوانين التي وضعها في مقدمته؛ لأن المقدمة جاءت بعد التاريخ الحافل بالتأمل، والأمر نفسه ينطبق على بعض المفسرين الذين أنهموا تفاسيرهم، ثم كتبوا بعدها عن أصول التفسير؛ وذلك حتى تستفيد منها الأمة في اقتحام التفسير بقواعده المثلى!

- 3- إن كثيرًا من المفسرين قد صدروا تفاسيرهم المنيفة بمقدمات علمية ضافية رسموا فيها أصول التفسير، وقد أفردوا بالتأليف باحثون، ولكن ثمة قائمة من التفاسير التي لم يشر أصحابها إلى أصول التفسير التي اعتمدها، ولكنها مبنوثة بين تعاريج التفسير وتضاعيف التأويل؛ فحري بالباحثين أن يستخرجوها ولو بالمناقشة؛ وإخاله مقصدًا آخر من مقاصد التأليف في العصر الحديث، ونفعه -عزيزي القارئ- لا يخفى عليك!
- 4- إن كثيرًا من المتخصصين في التفسير وعلومه -فضلاً عن طلاب العلم- يلتبس لديهم أصول التفسير بالتفسير وعلومه، مما يؤشر على أن البحث الدقيق في أصول التفسير الصحيحة، وقواعده الرصينة ما يزال قائماً يحتاج إلى من يدققه أكثر، ويعمق فيه البحث أكثر، بل لا مشاحة أن يعيد صياغته المتداولة والمتكررة بصياغات جديدة مبنية على قواعد اللغة وفصاحتها، وعمق التدبر لكتاب الله تعالى من أهله وخاصته!
- 5- يجب الاضطلاع بالمسؤولية لدى المتخصصين عبر عمل منظم، واجتهاد جماعي مؤسس، لتحرير علم أصول التفسير، وتحديد موضوعاته ومباحثه المتنوعة، وتصفيته مما علق به مما لا علاقة له بمتين أصول التفسير.
- 6- كما في الفتوى الجماعية والاجتهاد الجماعي المؤسس، القائم على حماية الفتوى من التسيب والانفلات، وحراستها من التشدد والتضييق على الناس، ودرء فوضى الإفتاء الفردي، وهي الأقرب إلى الحق والصواب، أرجو أن يلتفت إلى الرأي الجماعي في صياغة قواعد التفسير وأصوله وضوابطه وتقريب الشقة بين مختلف المدارس فيه.
- 7- من مقاصد التأليف جمع المتفرق، وترتيب المختلط، ونحسب أن أجزاء كثيرة من أصول التفسير مشتتة الأوصال ينبغي جمع متفرقها، وترتيب مختلطها، من مختلف المصادر والمراجع، سواء في علوم القرآن أو كتب التفسير ومقدماته وقواعده، أو كتب اللغة وهكذا دواليك.

- 8- ثم إن صياغة أصول التفسير ينبغي أن لا تقتصر على المتخصصين في التفسير وعلومه، بل لا بد من إدراج علماء الأصول؛ لما بينهم من تقاطع في مبحث دلالات النص القرآني، وأصول التعامل معه؛ لأن كتاب الرسالة للشافعي (ت 204هـ) واضح علم الأصول¹؛ هو كتاب في أصول الفقه وأصول التفسير لما استفاد فيه من البيان حول القرآن الكريم. ولا بأس أن يضم خبراء في اللغة العربية وعلومها وأسرارها؛ لأن العربية لغة الهوية الإسلامية، ولسان الشريعة.
- 9- ويمكن تنشيط مادة أصول التفسير وتفعيلها عبر مزيد من المؤتمرات والندوات الوطنية والدولية، وأن تخصص المراكز العلمية للموضوع مجالاً للبحث والدراسة والتحقيق والتمحيص والتدقيق، وتطرح في مقررات في الدراسات العليا والرسائل الجامعية، وإجراء مسابقات لها مكانتها على مستوى أصول التفسير، وأن تجرى فيه دورات علمية رصينة. وأن يكون لها نصيب في الإعلام المرئي والسمعي، ولا تنفك عنه الدروس العلمية والكراسي العلمية والخطب والمواظع التكوينية وهلم جرا.
- 10- يجب عقد مؤتمر علمي عالمي حول الإمام الفراهي: عطاء وإشعاع؛ حتى نوفي به بعض حقه.
- 11- يجب جمع مخطوطات الإمام الفراهي كاملة وتحقيقها تحقيقاً وافياً يلي حاجة الطموح في الاطلاع على إنتاجه العلمي والأدبي.
- 12- يجب تسمية بعض المؤسسات العلمية والجمعيات التربوية باسم الإمام الفراهي رحمه الله.

¹ الرسالة على أرجح الأقوال هو أول مصنف في أصول الفقه؛ وهذا لا يعني أن الأئمة قبله لم يكن لهم وضع لمعالمه؛ لأنه الكتاب الذي جمع أطراف الأصول التي كانت مركوزة في طبائع العرب، ومتناثرة في التراث العلمي غير المدون منذ نشأة الإسلام فتأمل!

فهرس المصادر والمراجع

- 1- الإتيقان في علوم القرآن، الإمام السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل، دار التراث، القاهرة، ط3، 1985 م.
- 2- إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ، عبد الحميد الفراهي، طبعته الدائرة الحميدية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432 هـ/2011 م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند.
- 3- اختلاف التنوع واختلاف التضاد في تفسير السلف، عبد الله الأهدل. وهي رسالة الدكتوراه، قدمت في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، عام 1407 هـ.
- 4- أساليب القرآن، عبد الحميد الفراهي، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، ط2، 1411 هـ/1991 م، مكتبة الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره، الهند.
- 5- أسباب النزول، عبد الحميد الفراهي، طبعته الدائرة الحميدية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432 هـ/2011 م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند.
- 6- استدراكات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى: دراسة نقدية مقارنة، أ. نايف بن سعيد الزهراني، وهي رسالة ماجستير، طبعها دار ابن الجوزي، ط1، 1430 هـ.
- 7- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ/1992 م.
- 8- الإسرائيليات في التفسير والحديث، محمد حسين الذهبي، مكتبة الذهبي، وهبة، ط4، 1990 م.

- 9- أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، ط5، 1428هـ.
- 10- أصول الحديث، الدكتور محمد عجاج الخطيب، دار الفكر الحديث، لبنان، ط1، 1386هـ/1967م.
- 11- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، 1995م.
- 12- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، تحقيق د. ناصر عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض.
- 13- إمعان النظر في نظام الآي والسور، د. محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، عمان، الأردن، ط1، 1424هـ/2003م.
- 14- إمعان في أقسام القرآن، عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، ط1، 1415هـ/1994م.
- 15- بحوث في أصول التفسير، محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ.
- 16- البرهان في أصول الفقه، إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، تحقيق عبد العظيم الديب، دار الوفاء، ط3، 1412هـ.
- 17- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ط. دار المعرفة، 1410هـ/1990م.
- 18- البرهان في نظام القرآن، محمد عناية الله سبحاني، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1414هـ/1994م.
- 19- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- 20- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الفكر، ط4، بدون تاريخ.
- 21- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط1، 1968م.

- 22- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، تحقيق عبد القادر عطا، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط1، 1982م.
- 23- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- 24- التسهيل لعلم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ.
- 25- تعليق على جمهرة البلاغة، د. أحمد مطلوب عضو المجمع العلمي العراقي، وأمينه العام، بغداد، نسخة إلكترونية.
- 26- تفسير التابعين، محمد بن عبد الله الخضير، دار الوطن، الرياض، ط1، 1420هـ.
- 27- تفسير محمد بن محمد بن عرفة، دراسة وتحقيق حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، 1407هـ/1986م
- 28- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره، يو. بي، الهند، الطبعة الأولى، 2008م.
- 29- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 2000م.
- 30- التكميل في أصول التأويل، عبد الحميد الفراهي، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، مكتبة الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره، الهند، ط2، 1411هـ/1991م
- 31- الجامع الصحيح، الإمام البخاري، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
- 32- الجامع الصحيح، الإمام مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1412هـ، 1991م.
- 33- الجامع الصحيح، الترمذي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 34- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، 1983م.

- 35- جمهرة البلاغة، عبد الحميد الفراهي، تحقيق أ. د. أحمد حسن فرحات، ود. محمد إقبال فرحات، تحت الطبع.
- 36- جمهرة البلاغة، عبد الحميد الفراهي، تحقيق أحمد حسن فرحات، ود. محمد إقبال فرحات، نسخة إلكترونية اطلعت عليها قبل نشرها.
- 37- جمهرة البلاغة، عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، الهند، 1340هـ.
- 38- حاجة العلوم الإسلامية إلى اللغة العربية: دراسة تأصيلية تطبيقية، د. حسن يشو، طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، ط1، 1434هـ/2013م.
- 39- الحماسة المغربية، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1991م.
- 40- الدخيل في التفسير، إبراهيم عبد الرحمن خليفة، طبعة خاصة بكلية أصول الدين.
- 41- الدخيل في التفسير، عبد الوهاب فايد، مطبعة حسان.
- 42- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- 43- دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد، مكتبة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1404هـ.
- 44- دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1979م.
- 45- دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، مكتبة الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط2، 1411هـ، 1991م.
- 46- ديوان الأعشى، طبعة دار صادر، بيروت.
- 1- ديوان الخنساء، دار بيروت للطباعة والنشر.

- 47- ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، جمعه بدر الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الهند، ط1، 1387هـ/1967م.
- 48- ديوان لبید بن ربیعة العامري.
- 49- ديوان لبید، طبعة دار صادر، بيروت.
- 50- الرائع في أصول الشرائع، عبد الحميد الفراهي، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الثانية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، يو-بي، الهند، الطبعة الأولى، 1432هـ/2011م.
- 51- الرسالة، الإمام الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الفكر، ط1، 1309هـ.
- 52- رسائل ابن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1987م.
- 53- الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، عبد الحميد الفراهي، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الثانية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، يو-بي، الهند، الطبعة الأولى، 1432هـ/2011م.
- 54- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت.
- 55- زهر الآداب، القيرواني، دار الجيل، بيروت، 1972م.
- 56- سبيل الجنة بالتمسك بالقرآن والسنة، الشيخ أحمد بن حجر البنعلي آل بوطامي، دار الإمام البخاري الدوحة، ط1، 1430هـ.
- 57- السنة ومكانتها في التشريع، الشيخ مصطفى السباعي، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ط1، 1380هـ/1961م.
- 58- السنة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق سالم بن أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

- 59- سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- 60- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- 61- سنن البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر آباد.
- 62- سنن الدارقطني، تحقيق مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- 63- سنن الدارمي، تحقيق حسين أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض.
- 64- سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، سورية.
- 65- سياسة البلاغة عند عبد الحميد الفراهي، الدكتور صالح سعيد الزهراني، نسخة إلكترونية.
- 66- شرح ديوان عنتر، الخطيب التبريزي، تحقيق مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1412هـ/1992م.
- 67- شرح مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط2، محرم 1428هـ.
- 68- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض السبتي، طبعة دار الكتاب العربي.
- 69- طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، الشيخ عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، السعودية.
- 70- علم أصول التفسير: محاولة في البناء، مولاي عمر حماد، دار السلام، القاهرة، ط1، 1431هـ.
- 71- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعدان، دار النهضة العربية، بيروت.
- 72- علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، د. محمد صفاء شيخ إبراهيم حقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م.
- 73- علوم القرآن وإعجازه، وتاريخ توثيقه، أ. د. عدنان زرزور، ط1، 2005م.
- 74- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، تحقيق د. محمد التونسي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ/1993م.

- 75- العمدة، ابن رشيقي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
- 76- فتح القدير، الإمام محمد علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت.
- 77- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين المقدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 78- فصول في أصول التفسير، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، ط3، 1999م.
- 79- فضائل القرآن، ابن كثير، تحقيق أبي إسحاق الحويني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- 80- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ابن القيم، دار النفائس، بيروت، ط5، 1979م.
- 81- الفوائد، ابن القيم، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان.
- 82- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط7، 1978م.
- 83- في علوم القرآن: عرض ونقد وتحقيق، أ.د. أحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1421هـ/2001م.
- 84- في ملكوت الله، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كره، الهند، 1395هـ.
- 85- قواعد التحديث، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1399هـ، 1979م.
- 86- قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، إشراف مناع خليل القطان، ط1، دار القاسم، الرياض، 1417هـ/1996م.
- 87- قواعد التفسير: جمعًا ودراسة، خالد بن عثمان بن علي السبت، ط1، دار ابن عفان، القاهرة، 1421هـ.
- 88- قواعد التفسير، خالد عثمان السبت، دار ابن عفان، السعودية، ط1، 1997م.
- 89- قواعد التفسير، د. خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الدمام، ط1، 1417هـ.

- 90- الكشف، الزمخشري، ط دار المعرفة، بيروت.
- 91- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، تحقيق السيد اللحام، دار الهجرة، دمشق، 1990م.
- 92- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، دار الفاروق، القاهرة، ط1، 1416هـ.
- 93- لطائف قرآنية ت. د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط3، 1425هـ/2004م.
- 94- مجلة إسلامية المعرفة، عدد (37-38).
- 95- مجلة الضياء الشهرية التي كانت تصدر في لكتاؤ، عدد رجب 1352هـ.
- 96- مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد الثالث، العدد (2)، جمادى الأولى، 1427هـ، يونيو، 2006م، عجمان، الإمارات العربية المتحدة.
- 97- مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد (20) العدد الثاني، 2004م.
- 98- المجموع شرح المذهب، الإمام النووي، تحقيق محمد بخيت المطيعي، مكتبة المطيعي، 1980م.
- 99- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن القاسم النجدي، الرياض، 1382هـ.
- 100- المحرر في علوم القرآن، د. مساعد بن سليمان الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، بمعهد الإمام الشاطبي، بتطوان، المغرب، ط. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
- 101- مرقاة المفاتيح، علي القاري، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.
- 102- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.
- 103- المستدرک على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، نشر دار الكتاب العربي.

- 104-المستشرقون، لنجيب العقيلي، دار المعارف، مصر، ط4.
- 105-المستصفي، أبو حامد الغزالي، تحقيق د. حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
- 106-مسند الفردوس، الديلمي.
- 107-معاجم مفردات القرآن: موازنات ومقترحات، أ. د. أحمد حسن فرحات، نسخة إلكترونية تسلمتها من الشيخ مناولة، لم تطبع بعد.
- 108-معجم ألفاظ القرآن لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الأول: ط4، 1409هـ، 1989م، والجزء الثاني: 1410هـ، 1990م.
- 109-معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
- 110-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، 1985م.
- 111-مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 112-مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط2، 1418هـ/1997م.
- 113-مقدمة أصول التفسير، ابن تيمية، تحليل وتعقيب أحمد سعد إبراهيم عبد الرحمن، دار البصائر، القاهرة.
- 114-مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، أبو القاسم الراغب الأصفهاني، حققه وقدم له وعلق حواشيه أ. د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، ط1، 1405هـ، 1984م.
- 115-مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، تحقيق أ. د. عدنان زرزور، دار الرسالة، مكة، 1415هـ.
- 116-مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1409هـ.

- 117- منهاج السنة النبوية، ان تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، 1989م.
- 118- الموافقات للشاطبي، تحقيق محمد عبد الله دراز، مصر، ط1، 2003م.
- 119- الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق أبي عبيدة مشهور حسن آل سلمان، نشر مكتبة ابن عفان.
- 120- المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع بناء علم أصول التفسير: الواقع والآفاق، مطبعة أنفو-برانت، فاس، المغرب، 1436هـ-2015م.
- 121- موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبي جيب، دار الفكر، دمشق، ط2، 1984م.
- 122- نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، جورج المقدسي، ترجمة محمود سيد محمد، مراجعة وتعليق محمد بن علي الحبشي، وعبد الوهاب أبي سليمان، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط1، 1414هـ، 1994م.
- 123- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

معاجم مفردات القرآن

(موازنات ومقترحات)

- أ.د. أحمد بن حسن فرحات¹

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على معلّم الناس الخير، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه ونهج منهجه، واقتفى أثره. وبعد:

فلقد حظي القرآن الكريم بعناية علماء الأمة - خلال العصور - وما زالت هذه العناية تترى وستبقى بإذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أبرز مظاهر هذه العناية تلك المؤلفات العظيمة حول القرآن وعلومه وتفسيره، ولا عجب في ذلك، فالقرآن كتاب هذه الأمة، ومحور عظمتها، وسرّ خلودها، فقد جعله الله هداية لها في كل شؤون حياتها، وأودعه من التوجيهات والأحكام ما يحقق لها النجاح في الدنيا والفوز في الآخرة.

ولما كان مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة يزعم عقد ندوة عن "عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه" وقد وجه إلي الدعوة للمشاركة في هذه الندوة، واقترح عليّ تقديم بحث في المحور الرابع - الموضوع الأول - والمتعلق بمعاجم معاني ألفاظ القرآن - وقد وجد هذا الموضوع هوى في النفس ورغبة كامنة جامحة، فسارعت إلى الإجابة بالموافقة، واخترت عنواناً لبحثي "معاجم مفردات القرآن: موازنات ومقترحات".

وجعلت خطته كما يلي:

¹ أستاذ، قسم الدراسات الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الإمارات العربية المتحدة

- تمهيد يتضمن لمحة تاريخية عن التأليف في معاني القرآن وغريبه قبل الراغب الأصفهاني.
- مفردات الراغب معلّم بارز في معاجم المفردات القرآنية.
- مميزات مفردات الراغب.
- مكملات مفردات الراغب.
- موازنات بين مفردات الراغب والمعاجم التي جاءت من بعده. وقد اخترت أربعة منها لأهميتها وشهرتها:
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي.
- بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي.
- مفردات القرآن للفراهي الهندي.
- معجم ألفاظ القرآن لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- ملاحظات على المعاجم السابقة.
- مقترحات.
- خاتمة.

وختامًا أرجو أن يكون هذا البحث قد حقق الغرض المطلوب، وأن يكون وافيًا بالمقصود. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لمحة تاريخية عن التأليف في معاني القرآن وغريبه قبل الراغب الأصفهاني

يعود التأليف في معاني القرآن وغريبه إلى مرحلة مبكرة من تاريخ الإسلام، وأول ما عرف من ذلك ما روي عن ابن عباس فيما يسقى بإجاباته عن المسائل التي سألها

عنها نافع بن الأزرق، وكان يستشهد على تلك المعاني بأبيات من الشعر بعد أن يقول له نافع: "وهل تعرف العرب ذلك؟" كذلك ما روي عن ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة، وما روي عنه بتهذيب عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة 114هـ ثم تتابع التأليف في معاني القرآن وغريبه على النحو التالي:

- تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الفقيه المفسر المتوفى سنة 122هـ
- معاني القرآن لواصل بن عطاء البصري-أحد شيوخ المعتزلة-المتوفى سنة 131هـ
- معاني القرآن لأبان بن تغلب الإمام المقرئ من أهل الكوفة، المتوفى سنة 141هـ
- غريب القرآن لمحمد بن السائب بن بشر أبي النضر المفسر الكوفي المتوفى سنة 146هـ
- الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة 150هـ
- معاني القرآن للرؤاسي أبي جعفر محمد بن الحسن بن أبي سارة المقرئ النحوي، المتوفى سنة 170هـ
- معاني القرآن ليونس بن حبيب الضبي البصري النحوي، المتوفى سنة 182هـ
- معاني القرآن للكسائي علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي أحد القراء السبعة، المتوفى سنة 189هـ
- معاني القرآن لأبي فيد مؤرج بن عمرو بن منيع السدوسي- إمام في النحو والعربية- المتوفى سنة 195هـ
- غريب القرآن ليحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي اليزيدي البصري، المتوفى سنة 202هـ
- غريب القرآن للنضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم البصري النحوي الفقيه، المتوفى سنة 203هـ وقيل 204هـ

- معاني القرآن لمحمد بن المستنير بن أحمد البصري النحوي اللغوي المعروف بقطرب، المتوفى سنة 206هـ.
- معاني القرآن للفراء يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور أبي زكريا النحوي اللغوي، المتوفى سنة 207هـ.
- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى البصري النحوي اللغوي، المتوفى سنة 210هـ.
- معاني القرآن للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة النحوي، المتوفى سنة 215هـ.
- غريب القرآن للأصمعي عبد الملك بن قريب الباهلي أبي سعيد، المتوفى سنة 216هـ.
- معاني القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام النحوي الأديب الفقيه، المتوفى سنة 223هـ ووقيل 224هـ.
- غريب القرآن لمحمد بن سلام بن عبيد الله الجمعي البصري، المتوفى سنة 231هـ ووقيل 232هـ.
- غريب القرآن لعبد الله بن يحيى بن المبارك العدوي البغدادي، المعروف باليزيدي، المتوفى سنة 237هـ.
- غريب القرآن لمحمد بن عبد الله بن قادم الكوفي أبي جعفر، المتوفى سنة 251هـ.
- غريب القرآن لمحمد بن دينار الأحول الكوفي أبي العباس، المتوفى سنة 259هـ.
- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري اللغوي النحوي، المتوفى سنة 276هـ.
- معاني القرآن وإعرابه لإسماعيل بن إسحاق الجهضمي الأزدي الفقيه المالكي، المتوفى سنة 282هـ.
- معاني القرآن للمبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي العالم بالعربية، المتوفى سنة 286هـ.

- غريب القرآن لأبي جعفر أحمد بن رستم الطبري المقرئ، المتوفى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.
- ضياء القلوب للمفضل بن سلمة بن عاصم الضبي الكوفي، المتوفى سنة 290هـ.
- معاني القرآن لثعلب أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني، المتوفى سنة 291هـ.
- سراج الهدى لإبراهيم بن محمد الشيباني، المتوفى سنة 298هـ.
- معاني القرآن لابن كيسان محمد بن أحمد بن إبراهيم أبي الحسن، المتوفى سنة 299هـ.
- غريب القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد الطبري أبي جعفر الإمام المفسر المؤرخ، المتوفى 310هـ.
- معاني القرآن لسلمة بن عاصم أبي محمد النحوي اللغوي، المتوفى سنة 310هـ.
- غريب القرآن وتفسيره لمحمد بن العباس بن محمد بن يحيى اليزيدي، المتوفى سنة 310هـ.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج إبراهيم بن السري بن سهل أبي إسحاق، المتوفى سنة 311هـ.
- معاني القرآن لأبي بكر بن محمد بن عثمان الجعد الشيباني النحوي، المتوفى حوالي 311هـ.
- معاني القرآن للأخفش الصغير أبي الحسن علي بن سليمان، المتوفى سنة 315هـ.
- معاني القرآن لابن الخياط أبي بكر محمد بن أحمد بن منصور، المتوفى سنة 320هـ.
- غريب القرآن لأحمد بن سهل البلخي أبي زيد، المتوفى سنة 322هـ.

- غريب القرآن لإبراهيم بن محمد بن عرفة أبي عبد الله الملقب بـ"نفتويه"، المتوفى سنة 323هـ.
- معاني القرآن للخزاز أبي الحسن عبد الله بن محمد بن سفيان النحوي، المتوفى سنة 325هـ.
- معاني القرآن لابن الأنباري أبي بكر محمد بن القاسم، المتوفى سنة 328هـ.
- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لمحمد بن عزيز العيزي السجستاني أبي بكر، المتوفى سنة 330هـ.
- معاني القرآن وتفسيره ومشكله لأبي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير، المتوفى سنة 334هـ.
- معاني القرآن للنحاس أبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي، المتوفى سنة 338هـ.
- ياقوتة الصراط لأبي عمرو محمد بن عبد الواحد المعروف بالزاهد - غلام ثعلب - المتوفى سنة 345هـ.
- الرد على الفراء في المعاني لابن درستويه أبي محمد عبد الله بن جعفر بن المرزبان النحوي، المتوفى سنة 347هـ.
- غريب القرآن لأحمد بن كامل بن خلف أبي بكر، المتوفى سنة 350هـ.
- الإشارة في غريب القرآن لمحمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون أبي بكر النقاش، المتوفى سنة 351هـ.
- الموضح في معاني القرآن لمحمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون أبي بكر النقاش، المتوفى سنة 351هـ.
- رياضة الألسنة في إعراب القرآن ومعانيه لأبي بكر محمد بن عبد الله بن أشته الأصفهاني، المتوفى سنة 360هـ.

- الإغفال في ما أغفله الزجاج من المعاني لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، المتوفى سنة 377هـ.
 - كتاب الغريبين للهروي أبي عبيد أحمد بن محمد، المتوفى سنة 401هـ.
 - غريب القرآن لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، المتوفى سنة 421هـ.
 - تفسير المشكل من غريب القرآن لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، المتوفى سنة 437هـ.
 - كتاب "القرطين" لمحمد بن أحمد بن مطرف الكناني أبي عبد الله، المتوفى سنة 454هـ.
 - غريب القرآن لأبي عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي، المتوفى سنة 463هـ.
- وبعد هذه المؤلفات في غريب القرآن ومعانيه التي بلغت نحوًا من ستين مؤلفًا، يأتي كتاب "المفردات" في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. والملاحظ على الكتب السابقة أنها رتبت حسب السور القرآنية باستثناء كتاب "نزهة القلوب" للسجستاني الذي رتب ترتيبًا ألفبائيًا معجميًا، وهو المنحى الذي نحاه الراغب في كتابه "المفردات".
- وعلى الرغم من أن السجستاني قضى في تأليف كتابه نحوًا من خمسة عشر عامًا إلا أن الفرق بينه وبين مفردات الراغب كبير، ومن ثم كان الراغب معلمًا واضحًا في سلسلة التأليف في مفردات القرآن وغريبه، وهذا ما جعل كتابه موضع ثناء العلماء. وما يزال كتاب الراغب يحتفظ بألقه وبريقه على الرغم من أنه مضى على تأليفه قرابة ألف عام، ولم تستطع الكتب التي جاءت من بعده أن تنتزع منه مكانته ووقوعه موقع القبول لدى عامة العلماء والمتخصصين في الدراسات القرآنية والعربية.

مفردات الراغب معلم بارز في معاجم المفردات القرآنية

يكاد يجمع علماء الأمة وأعلامها على أن كتاب "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني يأتي في المرتبة الأولى من الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الموضوع، فليس هناك مؤلف في علوم القرآن، أو دارس أو مفسر أو كاتب - بعد الراغب الأصفهاني - إلا ويشعر بالإجلال والإعجاب لهذا العمل العظيم الذي يعد بحق نقلة كبيرة في ميدانه، ومنعطفًا هامًا في تاريخ معاجم المفردات القرآنية.

ومن ثم فلا بد لنا من نظرة متأنية في استكشاف مزايا هذا المعجم، التي جعلته يحظى بالقبول - عند علماء الأمة - على اختلاف تخصصاتهم وتنوع مشاربهم. والحقيقة أن ميزات هذا الكتاب أكبر من أن يحاط بها بمثل هذا البحث الوجيز. وبناء على هذا فنحاول أن نذكر أهم هذه المزايا التي يحتملها هذا البحث، راجين أن تسعفنا الأيام بدراسة شاملة مستوعبة يستحقها هذا الكتاب.

ميزات مفردات الراغب

كشف جذر الكلمة: والمراد به جذر المعنى الذي تلتقي عنده جميع معانيها، وأغلب الظن أنه متأثر في هذا بما فعله ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" حيث يحاول ابن فارس رَجْع الكلمة إلى أصل واحد ما أمكنه ذلك، فإن لم يستطع رَجْعها إلى أصلين، فإن أعياه ذلك رَجْعها إلى ثلاثة أصول.

ففي مادة "بَر" يقول الراغب: "البَر: خلاف البحر، وتُصَوَّر منه التوسع. فاشتق منه "البر" أي: التوسع في فعل الخير..." ثم يقول: "والْبُرُّ معروف، وتسمية بذلك لكونه أوسع ما يحتاج إليه في الغذاء" وهذا يكون "التوسع" هو الجذر الذي يجمع بين المعاني. ولا يقف الراغب عند هذا، وإنما يحاول درك هذا في نسبة الكلمة وإضافاتها، فيرى أن "البر" ينسب إلى الله تعالى تارة نحو "... إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾" (الطور: 28) وإلى العبد تارة، فيقال: بر العبد ربه. أي: توسع في طاعته، فمن الله

تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة" وهو يريد بذلك أن التوسع في الثواب من الله مقابل التوسع في الطاعة من العبد، فهو لا يزال يلمح معنى السعة.. ثم يقول: وبر الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما، وضده: العقوق.. إلى أن يقول: ويستعمل "البر" في الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه، يقال: برّ في قوله، وبرّ في يمينه.

وهكذا نرى تتبعه لتصرفات الكلمة وإضافاتها وهو يلمح فيها دائماً فكرة التوسع الذي هو أصل المعنى وجذره، وبذلك يعطي القارئ، ما هو بحاجة إليه في فقه اللغة وأسرار الاشتقاق، ويتدرج به صعداً في فهم العربية، والوقوف على تصاريفها، مما يؤهله للتعامل مع سر الكلمة في الكتاب المعجز وتذوق حلاوتها وإدراك دلالاتها وإحياءاتها.

تتبع المعاني المستعارة: يبدأ الراغب عادة كلامه على المعنى الأصلي، ثم يتتبع المعاني المستعارة منه، وهو بذلك يأخذ بيد القارئ إلى تتبع تسلسل المعاني وانتقال بعضها عن بعض، ويمكن أن نلاحظ ذلك في المثال التالي:

- كلمة "ريش": يقول فيها الراغب: "ريش الطائر معروف، وقد يُخَصُّ بالجنح من بين سائرهِ، ولكون الريش للطائر كالثياب للإنسان استعير للثياب. قال تعالى "وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى..." (الأعراف: 26) وقيل: إبلٌ بريشها- أي ما عليها من الثياب والآلات- ورِشْتُ السهم أريشه ريشاً فهو مَرِيش: جعلت عليه الريش، واستعير لإصلاح الأمر، فقيل: رِشْتُ فلاناً فارتاش أي: حَسُنَ حاله..".

تحري المعاني الصحيحة: قد يصدر عن الأنبياء بعض الأقوال التي يمكن تفسيرها على غير وجهها بما لا يتفق مع عصمة النبي، وفي مثل هذه الحال، يحرص الراغب على تحري معنى صحيح يليق بعصمة النبي، وقد يعرض في ذلك معاني متعددة كما في المثال التالي:

كلمة "سقم": يقول فيها الراغب: "السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرض المختص بالبدن، والمرض قد يكون في البدن وفي النفس، نحو "فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ.." (البقرة: 10).

وقوله تعالى: " فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ " (الصفافات: 89). فمن التعريض أو الإشارة إلى ماضٍ، وإما إلى مستقبل، وإما إلى قليل مما هو موجود في الحال، إذ كان الإنسان لا ينفك من خلل يعتريه وإن كان لا يحس به . . .". وهكذا يتبين لنا وجوه من المعاني الصحيحة يمكن حمل الآية على أحدها بما لا يتعارض مع عصمة النبي.

الكلمات الجامعة لمعنيين: كثيراً ما نرى بعض العلماء يطلقون على بعض الكلمات أنها من الأضداد، بمعنى أنها تطلق على المعنى وضده، كما هو الحال في كلمة "الْقُرْءُ" حيث تطلق على كل من الطهر والحيض، ونجد عند الراغب تعليلاً لذلك حينما يقول: "والْقُرْءُ في الحقيقة: اسم للدخول في الحيض عن طهر، ولما كان اسماً جامعاً للأمرين: الطهر والحيض المتعقب له، أطلق على كل واحد منهما، لأن كل اسمٍ موضوع لمعنيين معاً يطلق على كل واحد منهما إذا انفرد، كالمائدة: للخوان وللطعام، ثم قد يسمّى كل واحد منهما بانفراده به، وليس القرء اسماً للطهر مجرداً، ولا للحيض مجرداً، بدلالة أن الطاهر التي لم تر أثر الدم لا يقال لها ذات قرء، وكذا الحائض التي استمر بها الدم لا يقال لها ذلك . . .".

ومثل ذلك أيضاً كلمة "القرية" حيث يقول فيها الراغب: "اسم للموضوع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً، ويستعمل في كل واحد منهما، قال تعالى: " وَسَلِّ الْقَرْيَةَ . . . " (يوسف: 82) قال كثير من المفسرين معناه: أهل القرية، وقال بعضهم بل القرية - ههنا - القوم أنفسهم . . .".

وبناءً على هذا لا يحتاج إلى القول بالمجاز - على حذف المضاف -: لأن المعنى الذي يراه البعض مجازاً يكون حقيقياً بناءً على أن القرية تطلق على المكان والسكان معاً في أصل المعنى اللغوي، وتبقى القرينة هي الكفيلة بترجيح أحد المعنيين.

ونفي معانٍ موهومة: ربما يخطر ببال القارئ في بعض الأحيان معانٍ تتبادر إلى الذهن، ويكون المعنى على غير هذا المتبادر، وفي مثل هذه الحال يحرص الراغب

على نفي تلك المعاني ويبين المعنى اللائق باللفظ، وذلك كما ورد تحت مادة "خوف" حيث ذكر فيها الراغب:

"والخوف من الله: لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعات . . والتخويف من الله تعالى: الحث على التحرز . . . وقال: "وإني خفت الموالى من ورائي . . ." (مريم: 5). فخوفه منهم ألا يراعوا الشريعة، ولا يحفظوا نظام الدين، لا أن يرثوا ماله - كما ظنه بعض الجهلة - فالقنّيات الدنيوية أحسن عند الأنبياء - عليهم السلام - من أن يشفقوا عليها . . ."

تعريفات جامعة: كثيرًا ما يعتمد الراغب إلى التعريفات الجامعة التي تنطوي على معان متعددة، وبذلك يضم المتفرقات ويوحد بين المختلفات وذلك كما في المثالين التاليين:

قال في كلمة "أمة": "والأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وهو بذلك يشمل كل أنواع الأمم سواء أكانت من البشر أم الدواب أم الطير".

وقال في كلمة "التأويل": التأويل من الأوّل، أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه المؤل للموضع الذي يرجع إليه. ثم عرّف التأويل بقوله:

"هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علمًا كان أو فعلًا". وهو بذلك يشمل معاني التأويل الثلاثة: وهي: معنى التفسير، ومعنى ترك المعنى الظاهر إلى غير الظاهر لقريئة، ومعنى خروج المخبر به من حيز الخبر إلى حيز الواقع إن كان خبرًا، وتحقيقه في عالم الواقع إن كان طلبًا، كما يشمل تأويل القول وتأويل الفعل، وذلك كما في قصة موسى مع الرجل الصالح حيث قال له بعد ذلك: "ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا" (الكهف: 82) يريد بذلك تأويل الأفعال التي لم يستطع موسى أن يصبر عليها.

قواعد كلية: كثيراً ما يورد الراغب أثناء شرحه لبعض الكلمات قواعد كلية استخلصها من تتبع الاستعمال القرآني للكلمة، ويمكن أن نمثل لذلك بما يلي:

- كل موضع ذكر فيه لفظ "تبارك" فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات¹.
- كل موضع أثبت الله السمع للمؤمنين، أو نفاه عن الكافرين، أو حث على تحريره، فالقصد به إلى تصور المعنى والتفكر فيه².
- كل موضع مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حث عليه، ذكر بلفظ الإقامة³.

وقد يُنازع الراغب في بعض ما أورده في هذه القواعد، وذلك كما في المثال السابق من أن مدح فعل الصلاة لم يرد إلا بلفظ الإقامة، وذلك أن قوله تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾" (المعارج: 19-22) هو مدح للمصلين ولم يرد بلفظ الإقامة وإن كان قوله بعد ذلك: "الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾" (المعارج: 23) يشير إلى الإقامة الفعلية، ومع ذلك فهو لم يرد بلفظ الإقامة" كما قصد الراغب.

قواعد أكثرية: وفي بعض الأحيان ينص الراغب على بعض القواعد بأنها الأكثر في الاستعمال لينفي عنها صفة الكلية، وذلك كما في الأمثلة التالية:

- أكثر ما يستعمل "السعي" في الأحوال المحمودة.
- أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه.
- أكثر ما تستعمل الشفاعة في القرآن في انضمام من هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى.
- أكثر ما ورد "الخوض" في القرآن فيما يذم الشروع فيه.

¹ المفردات، ص 120.

² المصدر نفسه، ص 426.

³ المصدر نفسه، ص 491.

ردود وانتقادات: كثيراً ما ينقل الراغب أقوال السلف. وهو يحاول غالباً الجمع بينها باعتباريات متعددة، باحثاً لها عن تعليل مقبول، ولكنه أحياناً أخرى يقف من بعض الأقوال موقف الناقد البصير المبين لضعفها وتهافتها، كما يرجح في بعض الأحيان قولاً على قول، كل ذلك بالدليل والبرهان، وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

- في مادة "جبر" يقول الراغب: "... فأما في وصفه تعالى نحو "أَلْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ..." (الحشر: 23) فقد قيل سمي بذلك من قولهم "جبرت الفقير" لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه، وقيل: لأنه يجبر الناس، أي: يقهرهم على ما يريد، ودفع بعض أهل اللغة ذلك - يريد ابن قتيبة - من حيث اللفظ فقال لا يقال: من "أفعلت" فعال، فجبار لا يبنى من "أخبرت" فأجيب عنه بأن ذلك من لفظ "الجبر" المروي في قوله: "لا جبر ولا تفويض" لا من لفظ الإجبار. وأنكر جماعة من المعتزلة ذلك من حيث المعنى فقالوا: يتعالى الله عن ذلك وليس ذلك بمنكر فإن الله تعالى قد أجبر الناس على أشياء لا انفكاك لهم منها حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية، لا على ما تتوهمه الغواة والجهلة وذلك كإكراههم على المرض والموت والبعث، وسخر كلاً منهم لصناعة يتعاطاها، وطريقة من الأخلاق والأعمال يتحراها..".

- في مادة "ختم" أورد قوله "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ..." (البقرة: 7). وأمثالها من الآيات ثم قال: "قال الجبائي: يجعل الله ختمًا على قلوب الكفار، ليكون دلالة للملائكة على كفرهم فلا يدعون لهم، وليس ذلك بشيء، فإن هذه الكتابة إن كانت محسوسة فمن حقها أن يدركها أصحاب التشريح، وإن كانت معقولة غير محسوسة، فالملائكة باطلاعهم على اعتقاداتهم مستغنية عن الاستدلال..". وهكذا يناقش القول على الاحتمالين ليبين ضعفه وعدم صحته..

مكملات مفردات الراغب: تعد كتب الراغب الأصفهاني منظومة متكاملة، وبخاصة ذات الصلة بالقرآن، ومن هذه الكتب التي وصلتنا "تفصيل النشأتين

وتحقيق السعادتين" ورسالة في الاعتقاد وقد طبعت باسم "الاعتقادات" وكتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة" وجزء من تفسيره المخطوط يبدأ بفصول في أصول التفسير وينتهي بتفسير سورة المائدة. ويمكن أن نمثل لذلك بموضوع "تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة" والذي لم يوله العناية الكافية في كتابه "المفردات" لأنه كان ينوي أن يؤلف فيه كتاباً مستقلاً كما جاء في مقدمة "المفردات" حيث قال:

"وأتبع هذا الكتاب- إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل- بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكر "القلب" مرة، و"الفؤاد" مرة و"الصدر" مرة ونحو ذكره تعالى في عقب قصة "... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾" (سورة الروم: 37) وفي أخرى "... لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦١﴾" (الروم: 21) وفي أخرى "... لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾" (الأنعام: 97) وفي أخرى "... لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾" (الأنعام: 98) وفي أخرى "... لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾" (آل عمران: 13) وفي أخرى "... لِأُولِي السَّمْعِ ﴿٥١﴾" (طه: 54) ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق ولا يبطل الباطل أنه باب واحد، فيقدر أنه إذا فسر "الحمد لله" بقوله: الشكر لله، و"لا ريب فيه" بـ"لا شك فيه"، فقد فسر القرآن ووفاه التبيان".

ومن المعلوم- حتى الآن- أن هذا الكتاب لم يصل إلينا¹ ولا شك بأنه كتاب في غاية الأهمية، ولكن الراغب أشار في بعض كتبه الأخرى إلى شيء من ذلك كما في كتاب

¹ سبق أن ادعى الدكتور الساريسي أن هذا الكتاب وصلنا باسم آخر وهو "درة التنزيل وغرة التأويل" وقد ردنا على الدكتور الساريسي ببحث خاص أثبتنا فيه أن كتاب "درة التنزيل..." ليس للراغب، كما أنه ليس للخطيب الإسكافي، ويمكن الاطلاع على هذا البحث في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويتية: العدد الخامس عشر - السنة السادسة 1440-1989م.

"الذريعة إلى مكارم الشريعة" كما أورد في تفسيره المخطوط كثيرًا من هذه الفروق بصورة مجملة موجزة، ومن ثم يصح لنا أن نقول إن مثل هذه الكتب تعدّ مكملات لمفردات الراغب لا يجوز إغفالها عند الحديث عن كتاب "المفردات" ويمكن لنا أن نشير إلى بعض الأمثلة من كتاب "الذريعة" ومن تفسير الراغب المخطوط.

من كتاب الذريعة: تحدث الراغب في كتابه "الذريعة" عن منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها. وفي ذلك يقول:

العقل: اسم لما يكون بالقوة وبالفعل، ولما يكون غريزيًا ومكتسبًا. وهو في اللغة عبارة عن قيد البعير لثلاثيند، وسمي هذا الجوهر به تشبيهاً على عادتهم في استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات . . لكن يتصور منه كونه سبباً لتقييد الإنسان به، وكونه مقيداً له عن تعاطي ما لا يحمل، وكونه مقيداً به من بين الحيوان.

والنهي: في الأصل جمع "نهيّة" . . وجعل اسماً للعقل الذي انتهى من المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات، ولهذا أحيل أربابه على تدبر معاني المحسوسات في نحو قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْفُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى" (طه: 128).

وقال: "وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى" (طه: 53-54).

والحجر: أصله من الحجر، أي: المنع، وهذا اسم لما يلزمه الإنسان من حظر الشرع والدخول في أحكامه، وعلى ذلك قوله تعالى: "هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ" (الفجر: 5).

والحجا: وسمي حجا. من حجاه: أي: قطعه ومنه الأحجية، فكأنه سمي بذلك لكونه قاطعاً للإنسان عما يقبح.

وأما اللب: فهو الذي قد خُص من عوارض الشبه، وترشح لاستفادة الحقائق من دون الفزع إلى الحواس. ولذلك علق الله تعالى في كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الأمور المحسوسة، نحو قوله تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ" (آل عمران: 190) فوصفهم بهداية الله إياهم.

وهكذا نرى اختلاف أسماء العقل باختلاف منازلها، وارتباط ذلك كله بمعان دقيقة دل عليها التدبر الواعي للآيات التي وردت فيها الأسماء المتعددة، مما يجعل كلاً منها مختصاً بمعنى دون غيره.

من تفسيره المخطوط:

- عند تفسيره لقوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ..." (البقرة: 34) يقول الراغب: "الخضوع والخشوع" و"الخنوع" و"السجود" و"الركوع": تتقارب وبينها فروق:

"فالخضوع": ضراعة بالقلب و"الخشوع": بالجوارح، ولذلك قيل: "إذا تواضع القلب خشعت الجوارح" وقال تعالى: "... وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ..." (طه: 108).

و"الخنوع": ضراعة لمن دونه، طمعاً لعرض في يده. ولذلك أكثر ما يجيء في الذم. و"الركوع": تذلل مع التباطؤ و"السجود" مع خفض الرأس.

وهكذا يبدأ تفسير الآية ببيان الفروق بين ما يظن أنه من قبيل الترادف على المعنى الواحد، فيبين اختصاص كل كلمة بمعنى تفترق به عن غيرها، وإن كانت هذه الكلمات كلها تشترك في جزء من المعنى أيضاً، وهو ما عبر عنه بالتقارب.

وعند قوله تعالى: "قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة: 38).

يقول الراغب: "المجيء" و"الإتيان" و"الإقبال" متقاربة، غير أن "المجيء" عام و"الإقبال" مجيء من ناحية القبل و"الإتيان": مجيء من بعد، ومنه قيل "الأتى": للغريب وللسيل الجائي من بعيد و"آتيته" أي: أعطيته، منقول عن آتيته وأتوته، وهما لغتان.

ثم يقول الراغب:

و"الإتباع" و"الإتلاء" و"الاحتذاء" و"الاقتداء" تتقارب:

فالإتلاء: مجيء بعد آخر بلا فاصل بينهما من جنسهما.

والاحتذاء: منقول من حذو النعل بالنعل.

والاقتداء: اتباع على قدر، أي: على قدر المتبع بلا تجاوز ولا تأخر.

والاتباع: عام في كل ذلك. ومنه قيل لـ"الرعية": أتباع. وسمي العجل التابع لأمه تبيعاً.

ثم يقول الراغب: و"الخوف" و"الفرع" و"الحذر" و"الرغبة" و"الهيبة" و"الخشية" و"الوجل" و"الشفقة" تتقارب:

فالخوف: توقع مكروه عن أمانة، وذلك للمذنب. ولهذا قال أمير المؤمنين: لا يخافن امرؤ إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه.

والفرع: اضطراب عن وهم كمن سمع هدة فاضطرب. والحذر: خوف مع احتراز. والرغبة: خوف مع اضطراب واحتراز. والهيبة: رهبة مع استشعار تعظيم، والشفقة: خوف مع محبة.

ولذلك قيل: الخوف والحذر للمذنب. والرغبة للعابد، والخشية للعالم، والهيبة للعارف...

وهكذا نرى مدى اهتمام الراغب في بيان الفروق في تفسيره بين ما يظن أنه من المترادف، وأنه إذا انتهى من كلمة في بيان فروق مترادفاتهما، انتقل إلى كلمة أخرى لبيان الفروق بين مترادفاتهما.

والراغب بصنيعه هذا متميز عن كل من تقدمه ومن جاء بعده وهو بذلك يقدم لنا ثروة هائلة في هذا الجانب، كنا نتمنى لو أن الكتاب الذي كان سيتبع به كتاب "المفردات" قد وصل إلينا، إذن لوصلنا خير كثير، وعلى كل حال فما وصلنا في تفسيره يعطينا فكرة عظيمة عن اهتمامه بهذا الجانب الذي يجعل فهمنا للغة أدق، وهو بذلك يرشحنا لإدراك أسرار التعبير في الكتاب المعجز، ويجعلنا قادرين على تذوق بلاغته وسحر بيانه، واكتشاف ما انطوت عليه حروفه وكلماته من خبيء المعاني ومكنونات المعارف والعلوم.

موازنات بين المفردات وأربعة معاجم قرآنية

سبق أن بيّنا ميزات مفردات الراغب، وأنه يعد نقلة كبيرة في ميدان التأليف في معاني الكلمات القرآنية، وأنه ترك أثراً واضحاً في المؤلفات التي جاءت من بعده، وقد يكون من المفيد أن نعقد مقارنة بين "المفردات" وأربعة من المعاجم تعد الأشهر والأجدر من غيرها، وهي:

- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، المتوفى سنة 756هـ.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، المتوفى سنة 817هـ.

- مفردات القرآن للفراهي الهندي، المتوفى سنة 1349هـ الموافق 1930م.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم- وقد أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة- أجزاء متفرقة بين عامي 1953م-1970م. ثم طبع كاملاً مرتين عام 1970م من قبل الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

كما طبعته دار الشروق في مجلد واحد عام 1982م، أما الطبعة الرابعة المنقحة والمزودة فكانت عام 1988م وقد أسند العمل بهذا المعجم إلى عدد من العلماء المعجميين والباحثين تحت إشراف مجمع اللغة العربية، وهذا الذي يرشحه إلى المقارنة والموازنة.

الطباعات المعتمدة في الموازنة

- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني - الطبعة الثانية 1418هـ-1997م وقد صدرت عن دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت بتحقيق صفوان عدنان داودي. وهي أحسن طباعات الكتاب، وقد أوجز المحقق في مقدمته نقده للطبعات السابقة وما انطوت عليه من أخطاء وتصحيقات وتحريفات، ونقص في الأبواب والآيات والأشعار.

أما ميزة هذه الطبعة فقد قدّم المحقق بين يديها دراسة عن المؤلف وحياته، وكتابه، وقال في ذلك: "وأتينا بحمد الله بما لم يأت به أحد قبلنا فيما يتعلق بالمؤلف وترجمته". ثم تحدث عن ضبط النص ومقابلته على عدة نسخ وتخرّيج الآيات والأحاديث والقراءات ونسبة الأشعار وضبط الأمثال والترجمة المختصرة للأعلام وعمل الفهارس العلمية للكتاب، وهو جهد مشكور بلا شك وعمل مبرور قامت به دار القلم؛ إذ قدّمت هذا الكتاب النفيس في طبعة أنيقة مخدومة تليق بهذا الكتاب العظيم؛ ولكن مع كل هذا الجهد المشار إليه فقد وقعت بعض الأخطاء العلمية وسنشير فيما يلي إلى أهمها:

صفحة (2) رقم 2 تحت عنوان "مؤلفاته" تفسير القرآن الكريم وبعضهم يسميه "جامع التفاسير" وهو خطأ وإنما اسمه "جامع التفسير" فرق واضح بين الاسمين، وقد ذكره الراغب نفسه في كتابه: "حل متشابهات القرآن" عند كلامه على سورة الكافرون، فقال: إنا قد أجبنّا في "جامع التفسير" عن ذلك بأجوبة كثيرة" ويبدو أن المحقق قد تابع في هذا الدكتور الساريسي الذي نسب "حل متشابهات القرآن" - والذي هو نسخة من كتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" - إلى الراغب الأصفهاني. وقد بينا خطأ هذه النسبة في بحث نشرناه في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويتية في العدد الخامس عشر - السنة السادسة - جمادى الأولى 1410هـ الموافق ديسمبر 1989م. وقد أكد المحقق قوله السابق في الصفحة (4). وهذا الخطأ في

نسبة الكتاب إلى الراغب ترتب عليه إضافة عدة كتب إلى الراغب، وهي "احتجاج القراء" و"المعاني الأكبر": وذلك لأن هذه الكتب مذكورة في مقدمة "درة التأويل". وفي صفحة (6) ينقل المحقق عن حاجي خليفة أن الإمام الغزالي كان يستصحب كتاب "الذريعة" دائماً ويستحسنه لنفسه "ويعقب المحقق على ذلك بقوله: وللغزالي أيضاً كتاب اسمه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" ولعله تأثر بكتاب الراغب فسماه باسمه، أو لعل المراد أن الغزالي يستصحب كتابه هذا معه في الأسفار، أو هو كتاب الراغب نفسه، ولكثرة ملازمته له ظن أنه للغزالي، والصواب الذي لا يحتمل الخطأ أن الكتاب هو كتاب الراغب، وأن الغزالي يستصحبه في الأسفار لنفسه عنده. وكذلك أخطأ المحقق في صفحة 23-24 فيما ذكره عن المحنة في حياة الراغب، لأن ذلك ناتج عن نسبة كتاب "درة التنزيل" إلى الراغب ولم يصح ذلك ولا يعول عليه. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: للسمين الحلبي - الطبعة الأولى - وقد صدرت عن عالم الكتب في بيروت بتحقيق الدكتور محمد التونسي عام 1414هـ - 1993م في أربعة مجلدات.

وقد قدم المحقق ترجمة للسمين الحلبي، وذكر مؤلفاته، وتحدث عن الكتاب "عمدة الحفاظ": مضمونه ومنهجه، وأشار إلى مكانته بين الكتب الأخرى، وأوضح أن السمين اعتمد كتاب "المفردات" للراغب اعتماداً يكاد كلياً فقد ابتلعه وهضمه، وما ترك لفظة تقريباً إلا نقلها أو علّق عليها، مما يدل على أن كتاب "المفردات" كان في متناول يده مباشرة حين ألف "عمدة الحفاظ". ثم تحدث عن النسخ الخطية للكتاب.

وبعد ذلك تحدث عن منهجه في التحقيق والمقابلة بين النسخ والرجوع إلى مؤلفاته الأخرى والمصادر التي تفيد في التحقيق من كتب اللغة والنحو، كما أضاف من التعليقات ما يخدم النص ويوضحه، وضبط النص ضبطاً سليماً. . . وخصص نصف المجلد الرابع للفهارس العلمية التي رأها ضرورة كفهارس الأعلام والأشعار، ولم ير حاجة إلى فهرس للآيات أو الأحاديث؛ لأنها كثيرة جداً. . . كما يقول.

وعلى الرغم مما قاله المحقق من خدمة للكتاب، وجهده في محاولة إخراجها على الصورة المرضية، فإن هناك ملاحظات حقيقية على هذا العمل، وأكتفي في هذه العجالة بملاحظتين هامتين:

- الملاحظة الأولى: ضبطه للنص ضبطاً سليماً - كما أشار إلى ذلك فيما سبق - والحقيقة أن النص يفتقر إلى هذا الضبط السليم، فقد كثرت الأخطاء العلمية في قراءة النص، وكثيراً ما شوّهته وحرّفت معانيه، وسأكتفي من ذلك ببعض النماذج التي لا تغتفر.

صفحة 51 من الجزء الأول - مادة "أ ب ل" - المقطع الثاني: "وحكى الرؤاسي - وكان ثقة - أنه سمع "إبالة" مثقلاً، وحكى الفراء: "إبالة" مخففاً - قال: "وسمعت بعض العرب يقول: ضغث على إبالة أي: حطب على حطب، وهو مشكل من حيث ظهور الياءين في الجمع، ولو كان مخففاً لم ترد في الجمع ياءين .." والملاحظ على هذا النص أن ما حكاه الفراء من سماعه لبعض العرب إنما جاء به حجة على التخفيف، ولكن المحقق يضبطه بالتشديد. ثم قوله بعد ذلك: "وهو مشكل من حيث ظهور الباءين في الجمع" خطأ واضح والصواب: من حيث ظهور الباءين في الجمع - وليس الياءين - لأنه إذا كان مخففاً لا يمكن أن يكون في الجمع بباءين يريد بذلك كلمة "أبابل" التي ظهر فيها الباءان. ثم يؤكد هذا المعنى بقوله: "ولو كان مخففاً لم ترد في الجمع ياءين" ولكن المحقق أيضاً في الجملة.

ومثل هذه الأخطاء ولا شك، لا تخدم الكتاب، وإنما تحط من قيمته، وهي ليست بالقليلة، والأمر لا يحتمل التوسع، فيما ذكر دلالة على ما لم يذكر.

- وأما الملاحظة الثانية: فهي إغفاله لفهرس الآيات والأحاديث بحجة أن النصوص كثيرة، وهذا ادعى لعمل الفهارس وليس عذراً مقبولاً. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:- طبعة المكتبة العلمية - بيروت لبنان - بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار - وبدون تاريخ - في خمسة مجلدات.

والحديث عن المفردات القرآنية جاء ابتداء من المجلد الثاني وانتهى بنهاية المجلد الخامس، أما المجلد الأول فكان تعريفًا عامًا بالسور القرآنية وما يتصل بها من مقاصد وناسخ ومنسوخ وأشباه ذلك.

وأما المجلد السادس فقد خصصه للحديث عن الأنبياء والفهارس الفنية التي شملت فهرسًا للمواد اللغوية، وفهرسًا للألفاظ النحوية، وآخر للأحاديث، وفهرسًا للأمثال، وللحكم وبديع الكلام، وللشعر وأنصاف الأبيات والرجز. وأتبع ذلك بفهرس للأعلام، والفرق والمذاهب والطوائف والقبائل والعشائر والأمم والبلاد والأمكنة ونحوها والكتب الواردة في متن الكتاب ومراجع التحقيق.

وقد قدم المحقق ترجمة للمؤلف تحدث فيها عن حياته وآثاره ورحلاته، ومذهبه الفقهي وتصوفه، كما تكلم على منهجه في كتابه، والأصول الخطية التي اعتمد عليها، كما ذكر عمله في التحقيق، وأن النسخ التي اعتمد عليها فيها كثير من التحريف، فقدم النص ورد المحرف إلى أصله بقدر استطاعته.

مفردات القرآن للفراهي الهندي: طبع بمطبعة إصلاح في الهند عام 1358هـ باعتناء عبد الأحد الإصلاحي. وهي الطبعة الوحيدة من الكتاب، وهي طبعة حجرية كتبت بالخط الفارسي، وقد تحدث المؤلف في بدايته عن "روابط الكتب الخمسة" وهي "كتاب المفردات" وكتاب "أصول التأويل" و"تاريخ القرآن" و"دلائل النظام" وكتاب "أساليب القرآن". . . والكتاب لم يذكر فيه المؤلف من الألفاظ إلا ما يقتضي بيانًا وإيضاحًا: إما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه. . . وأما عامة الكلمات فلم يتعرض لها، وكتب اللغة والأدب كفيلة بها، ومع ذلك تجد هذا الكتاب إن شاء الله محتويًا جُل ما يقتضي الشرح من ألفاظ القرآن.

معجم ألفاظ القرآن لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: الطبعة الرابعة - ج 1/ 1409هـ - 1998م - ج 2/ 1410هـ - 1990م. وقد وصفت الطبعة بأنها منقحة، وجاء في أولها تصدير الطبعة الثانية بقلم رئيس المجمع إبراهيم مدكور، ثم أتبع التصدير بورقة عمل مقترحة في عرض المادة، وفي منهج العرض والتنسيق، ثم مقدمة أخرى عن

معجم ألفاظ القرآن الكريم بين المعاجم وكتب التفسير واللغة، وقد تحدث فيها عن كتب الغريب وفكرة هذا المعجم والمراحل التي مرت بها، واللجان التي ألقت من أجله، والمراجعات والتدقيقات، التي قام بها أساتذة معجميون كبار وعلماء أفاض كما عرض مقارنة لخمسة من الكتب المطبوعة في قوله تعالى: "وأزلفنا ثم الآخرين" (الشعراء: 64) وانتهى إلى تفضيل ما جاء في هذا المعجم.

والملاحظة الأولى على هذا المعجم - الذي أحيط بهالة كبيرة - أنه ربما يلبي حاجة العوام، وحاجة عوام العلماء؛ نظرًا لاختصاره الشديد في شرح المادة، وعدم العناية بالأصل الاشتقاقي للكلمة، ومن ثم لا يتساوى ما انتهى إليه مع ذلك الجهد الذي بذل في إعداده. بل إنني أرى أن أي معجم من المعاجم القديمة يفضل هذا المعجم من نواح كثيرة باستثناء ترتيب مواده على طريقة المعاجم الحديثة التي تيسر الرجوع إلى الكتاب، ولعلها الميزة الوحيدة.

موازنات بين مقدمات الكتب الخمسة: أشار الراغب في مقدمة مفرداته إلى أن تحقيق الألفاظ المفردة للقرآن من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، وأنه نافع في كل علم من علوم الشرع؛ ذلك أن ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ..

ثم يقول: "وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوف فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي معتبرًا فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد والإشارة فيه إلى المناسبات بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب وأحيل بالقوانين الدالة على تحقيق مناسبات الألفاظ على "الرسالة" التي عملتها مختصة بهذا الباب .."، ثم يقول: "وأتابع هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل - بكتاب ينبي عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة".

أما السمين الحلبي فقد ذكر في مقدمة كتابه أن علوم القرآن جمة، ومن جملتها مدلولات ألفاظه الشريفة، ومعرفة معانيه اللطيفة . . ثم أشار إلى بعض كتب المتقدمين وأنهم لم يتموا المقصود لاختصار عباراتهم، وإيجاز إشاراتهم على أن الراغب- رحمه الله - قد وسّع مجاله، وبسط مقاله بالنسبة إلى من تقدمه . . غير أنه- رحمه الله تعالى- قد أغفل في كتابه ألفاظاً كثيرة . . مع شدة الحاجة إلى معرفتها . . مع ذكره مواد لم ترد في القرآن أو وردت في قراءة شاذة . .

ثم يقول: "فلما رأيت الأمر على ما وصف، والحال كما عرف، ورأيت بعض المفسرين قد يفسر اللفظة بما جعلت كناية عنه. استخرت الله القوي في أن أحذو حذو القوم . . فأذكر المادة- كما ستعرف ترتيبه- مفسراً معناها، وإن عثرت على شاهد من نظم أو نثر أتيت به تكميلاً للفائدة . . ورتبت هذا الموضوع على حروف المعجم".

- وأما الفيروزآبادي فقد قال في مقدمة كتابه: "المقصد الأول في لطائف تفسير القرآن العظيم":

"اعلم أنا رتبت هذا المقصد الشريف على أعذب أسلوب، وقدمنا أمامه مقدمات ومواقف.

أما المقدمات ففي ذكر فضل القرآن ووجه إعجازه وعدّ أسمائه . . .

ثم أذكر موقفاً يشتمل على تسعة وعشرين باباً على عدد حروف الهجاء، ثم أذكر من كلمات القرآن ما أوله حرف ذلك الباب . .

وأما الفراهي الهندي فقد قال في مقدمة كتابه: "فهذا كتاب في مفردات القرآن جعلته مما نحول إليه في كتاب "نظام القرآن" لكيلا نحتاج إلى تكرار بحث المفردات إلا في مواضع يسيرة يكون الصحيح غير المشهور، فنذكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة . . فإن الخطأ ربما يقع في نفس معنى الكلمة فيبعد عن التأويل الصحيح، أو في بعض وجوها فيغلق باب معرفة النظم".

ثم ذكر مقدمات أخرى تكلم فيها على مقصد الكتاب وحاجتنا إليه، وأن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع.. فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة.. وربما كان الخطأ في معنى كلمة واحدة يصرف عن تأويل السورة بأسرها.. مثل لفظ القسم وأدواته.. وكتب اللغة والغريب لا تعطيك حدود الكلمات حدًا تامًا.

والمقدمة الثانية جعلها للأصول اللسانية، تحدث عن تقسيم مواضع الوهم من الكلمة والكلام...

والمقدمة الثالثة في كون القرآن خاليًا عن الغريب.. ذلك أن التسمية بالغريب إنما تصح بالنسبة إلى المعجم ومن قل علمه بالعربية، ثم تحدث في مقدمته عن ألفاظ القرآن، والعام والخاص، والحروف المقطعات.

ومن خلال النظر في المقدمات السابقة نخرج بالنتائج التالية:

- أكدت كل المقدمات أهمية معرفة ألفاظ القرآن ومفرداته بوصفها الخطوة الأولى لفهم القرآن وتفسيره.

- أكدت مقدمة الراغب الإشارة إلى المناسبات بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات، كما أشارت إلى أهمية ما بين المترادفات من فروق.

- أكدت مقدمة السمين قيمة مفردات الراغب وتميزها عن كل ما سبقها، وإن كان أخذ على الراغب إغفاله لعدد من المفردات القرآنية مع شدة الحاجة إليها، كما أكدت حرص السمين على ذكر الشواهد من النظم والنثر.

- لم يذكر الفيروزآبادي في مقدمة حديثه عن المفردات القرآنية أية ملاحظات.

- أما الفراهي الهندي فقد جاءت مقدماته طويلة- على الرغم من قلة المفردات التي درسها- وذلك لأنه أراد أن يضع أصولًا لفهم المفردات، وبخاصة تلك التي أحاط بها الغموض، ولقد قدم بالفعل تصورًا واضحًا من خلال الأصول التي

وضعها والمفردات التي عالجها، بحيث يمكن النسخ على المنوال الذي سار عليه فيما لم يذكره من الكلمات التي تحتاج إلى مزيد من الدرس والفهم، ويمكننا تلخيص تلك الأصول في النقاط التالية وذلك لأهميتها:

- لم يورد في كتابه إلا ما يقتضي بياناً وإيضاحاً: إما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه فإن الخطأ ربما يقع في معنى الكلمة نفسه، فيبعد عن التأويل الصحيح، أو في بعض وجوهها فيغلق باب معرفة النظم.

- معرفة الألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام، وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع.

- من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة وخفي عنه نظم الآيات والسورة.

- سوء فهم معنى الكلمة يؤدي إلى إساءة فهم الكلام وما يدل عليه من العلوم والحكم. وربما يؤدي الخطأ في معنى كلمة واحدة إلى الخطأ في تأويل السورة بأسرها.

- كتب اللغة والغريب لا تعطيك حدود الكلمات حدًا تامًا، وكتب السير والتفسير لا تبين لك بالتمام والصحة أمورًا جاء ذكرها في القرآن، وكتب العلوم الأخرى من العقلية والأخلاق لا تعطيك ما تضمنه القرآن من الحكم والأسرار... ومن أراد التأمل الصحيح والتدبر التام وجب عليه أن لا يغفل عن النقد فيما يأخذه من هذه العلوم. ومن يتمسك بالقرآن وينور الله عقله يطلع على أغلاط كثيرة في كتب القوم. مواضع الوهم من الكلمة والكلام: الكلمة المشككة على غير العرب والعرف بلغتهم هي نوعان:

الأول : ما لم يتبين لهم معناه، فأخطأوا أصل الأمر.

والثاني : ما لم تتبين لهم الأمور المتعلقة بها من الأحوال الصحيحة، فصارت الكلمة غير دالة على ما أريد منها.

- أمر الكلمة المشتركة بين معنيين أو أكثر لا يهتدى إلى المعنى المراد في موضع خاص إلا بسياق الكلام.
- اللفظ المشترك نوعان: نوع لا جامع بين معانيه. أو بينها جامع ذهل عنه:
- فإن لم يذهل عنه فالكلمة جامعة المعاني: فربما يكون المراد بها معناها الواسع الجامع. وربما يراد بها طرف خاص من غير نظر إلى المعنى الجامع فحينئذ تكون حالها حال الكلمة المشتركة والدليل ليس إلا مراعاة موقع الكلمة وجهة ارتباطها - مثل كلمة "آية".
- ثم الكلمة المرادفة لغيرها وهي قسمان: المطابق لمرادفه من جميع الوجوه - وهذا قليل جداً - والثاني: ما يوافقها من بعض الوجوه - وهذا كثير جداً وفيه معظم الوهم - ، وكثيراً ما يكون بين المترادفين فروق لطيفة لا يفتن لها إلا الممارس للسان، فيؤدي ذلك إلى الالتباس في بعض معاني الكلام.
- من الألفاظ ما غيروا معناه لخطأ في الرأي مثل كلمة "الذكر" و"الحكمة" حيث قال بعض المحدثين: إن الذكر هو الحديث كما قال بعض الشيعة: إن الذكر هو: النبي، وأرادوا بذلك تأويل آية "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر: 9). حسب رأيهم.
- إذا اشتبه المعنى، فطريق التوضيح استعمال اللفظ، كما فعلنا بلفظ "عصر" و"آلاء" والنظر في أصله واستعماله في أخوات العربية كالعبرانية والسريانية.
- ربما يراد من اللفظ معنى أعم مما يستعمل فيه عادة، ويسمونه "التجريد" وربما يراد منه معنى أخص مما تستعمل فيه عادة، أما الأول فقولته تعالى: "وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ..." (الأعراف: 154) أي: هدأ وسكن.
- وأما معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره مجمع اللغة العربية، فلم يعتمد أصولاً معينة متفقاً عليها، وذلك ظاهر من مقدمة الكتاب، حيث

كانت تعرض خطط وتقدم اقتراحات، ثم لا يوافق عليها، ويتم تجاوزها، ومن ثم فلا نستطيع أن نقول إن هناك خطة محكمة قامت عليها دراسة المفردات في هذا المعجم.

ومن كل ما سبق نستطيع أن نقرر بأن ما جاء في مقدمة الراغب وما جاء عند الفراهي في مقدماته هو الأغنى من كل تلك الكتب التي تحدثنا عنها.

موازنة بين المعاجم الخمسة في دراسة بعض المفردات

كلمة "آلاء":

- قال الراغب: "فَأَذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ..." (الأعراف: 69) أي: نعمه - الواحد "ألى" وإلى" نحو "أنى" و"إني" لواحد الآناء. وقال بعضهم في قوله تعالى: "وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ" (إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) (القيامة: 22-23) إن معناه: إلى نعمة ربها منتظرة. وفي هذا تعسف من حيث البلاغة.

وقال السمين: والآلاء: النعم. واحدها: "إلى" كـمعى "و"ألى" كـرحى "و"ألى" كـهجر "و"إلى" كـفلس، قال تعالى: "فَأَذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ..." (الأعراف: 69) أي: نعمه الظاهرة والباطنة، وإليه الإشارة بقوله: "...وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ..." (لقمان: 20) - قرئ بالإفراد والجمع - وقوله: "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (الرحمن: 13) وما بعدها) معناه: أن كل نعمة من نعمه وإن قلت بالنسبة إلى فضله العميم فلا ينبغي أن تكفر بل تشكر... ثم نقل ما أورده الراغب في "وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ" (القيامة: 22).

- وأما الفيروزآبادي فلم يذكر الكلمة أصلاً.
- وأما الفراهي فقد قال: أجمعوا أن معناه: النعم. ولكن القرآن وأشعار العرب يأباه، والظاهر أن معناه: الفعال العجيبة - فارسيته - كرشمة - ولما كان أغلب فعالة تعالى "الرحمة" ظنوا أن الآلاء هي النعم. والرواية عن ابن عباس - رضي الله عنه - حملتهم على هذا، ولكن السلف إذا سئلوا أجابوا حسب السؤال

والمراد المخصوص في الموضع المسؤول عنه. وهذا الظن فتح لهم نفذاً إلى
تبديل معنى "إلى" في قوله تعالى: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾"
(القيامة: 22-23) فقالوا: إن "إلى" واحد "الآلاء" وليس في كلام العرب له مثال
ولكنهم زعموا أن الأعشى أراد هذا في قوله¹:

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحماً ولا يخون إلا
قال ابن دريد: وقد خففت العرب "الإل".

أما القرآن: فقوله تعالى: "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ
الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾" (النجم: 55-56) بعد ذكر هلاك الأقوام، وهكذا في سورة الرحمن.
وأما كلام العرب:

فقال طرفة²:

كاملٍ يحملُ آلاءَ الفتى نبهٍ سيدٍ سادات خضم
وقالت مية بنت ضرار ترثي أخاها³:

كـريمٍ ثـناهـه وآلاهـه وكافي العشيرة ما غالها
وقال المهلهل أخو كليب يرثي أخاه كليباً:

الحزم والعزم كانا من طبائعه ما كل آلائه يا قوم أحصيا
وقال ربيعة بن مقروم أحد بني غيظ بن السيد⁴:

ولو لا فوارسنا ما دعت بذات السليم تميم تميما
وما إن لأوثمها أن أعدَّ مآثر قومي ولا أن ألوما

¹ ديوان الأعشى بتحقيق سليمان كامل، ص 175.

² ديوان طرفة بشرح الشنتمري، ص 110.

³ شاعرات العرب، جمع عبد البديع صقر، ص 400،

⁴ شرح المفضليات للتبريزي، 681/2-682.

ولكنني أذكر آلاءنا حديثاً وما كان منا قديماً

- معنى "لأوثئها": لأخزيها والضمير يعود على تميم.

وقال الأجدع الهمداني:

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع¹ فرسا فليس جوادنا بمباع

قال الجوهري في هذا الشعر: "الآؤه: خصاله الجميلة" ولكنه لم يثبت على هذا المعنى الذي هو أصله فقال في مادة "الآلاء": "والآلاء: النعم، واحدها: ألىّ" بالفتح وقد يكسر ويكتب بالياء، مثل معى وأمعاء". فاتبع ما فهم المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنه.

وقال فضالة بن زيد العدواني، وهو من المعمرين:

وفي الفقر ذل للرقاب وقلمما رأيت فقيراً غير نكس مذمم

يلام وإن كان الصواب بكفه ويحمد آلاء البخيل المدرهم

أي: يحمدون صفات البخيل وفعاله، وهذا البيت أوضح دلالة مما ذكرنا قبله على معنى الآلاء.

وقال الحماسي² في المراثي - ولم يسمه أبو تمام -:

إذا ما امرؤ أثنى بآلاء ميت فلا يبعد الله الوليد بن أدهما

فما كان مفراحاً إذا الخير مسّه ولا كان منائاً إذا هو أنعمما

ففسّر ما أراد من الآلاء، بذكر أنه لم يكن مفراحاً إذا مسّه الخير، ولا منائاً إذا أنعم.

¹ قال الفراء: تقول: أبعت الخيل: إذا أردت أنك أمسكت للتجارة والبيع. فإن أردت أنك أخرجتها من يدك. قلت: بعتهما: والبيت في أدب الكاتب، 343/1 وإصلاح المنطق، 235/1.

² الحماسة، 383/1.

وقالت الخنساء:

فبَكِّي أَخَاكَ لِأَلَاثِهِ إِذَا الْمَجْدُ ضَيَّعَهُ السَّائِسُونَا

أما معجم المجمع فقد قال: "آلاء: نعم".

وبالموازنة بين الأقوال السابقة يتبين ما يلي:

- الاختصار في قول الراغب ورده على المعتزلة بقوله: وهذا تعسف من حيث البلاغة.
 - الزيادة التي أضافها السمين لم تكن إلا في ذكر بعض الآيات التي لم يذكرها الراغب.
 - وأما الفيروزآبادي فلم يذكر الكلمة أصلاً.
 - وكذلك معجم المجمع لم يذكر إلا كلمة واحدة وهي "نعم".
 - أما التحقيق والتأصيل والتدقيق فهو ما لجأ إليه الفراهي، ولا بد أن الذي دفع الفراهي إلى هذه الدراسة شعوره بأن المعنى المعروف ليس دقيقاً، وبخاصة حينما ينظر إليه في تفسير الآية القرآنية كما في قوله تعالى في سورة "الرحمن": "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾" (الرحمن: 35-36) فأين النعمة في إرسال الشواظ من النار؟ وهذا ما اضطر كثيرًا من المفسرين إلى التعسف في التأويل، ومن ثم كان التحقيق بالرجوع إلى الشعر الجاهلي لاستنقاذ أصل المعنى بعد أن كاد ينسى.
- كلمة "درس":

_ قال الراغب: درس الدار: معناه: بقي أثرها، وبقاء الأثر يقتضي انمحاءه في نفسه، فلذلك فسّر الدروس بالانمحاء، وكذا درس الكتاب. ودرست العلم: تناولت أثره بالحفظ، ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبر عن إدامة القراءة بالدرس، قال تعالى: "...وَدَرَسُوا مَا فِيهِ..." (الأعراف: 169) وقال: "...بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" (آل عمران: 79) و"وَمَا آتَيْنَهُمْ

مِنْ كُتِبَ يَدْرُسُونَهَا... " (سبأ: 44) وقوله تعالى: "...وَلْيَقُولُوا دَرَسَتْ..." (الأنعام: 105) وقرئ "دارست" أي: جارت أهل الكتاب. وقيل: "...وَدَرَسُوا مَا فِيهِ..." (الأعراف: 169) تركوا العمل به، من قولهم: درس القوم المكان، أي: "أبلوا أثره". ودرست المرأة كناية عن حاضته. ودرس البعير: صار فيه أثر جرب.

- أما السمين، فلم يذكر الكلمة أصلاً.
 - وأما الفيروزآبادي فيقول: درس الشيء: معناه بقي أثره، ومنه درس الكتاب، ودرست العلم أي: تناولت أثره بالحفظ، ولما كان تناول ذلك بمداومة القرآن عبر عن إقامة القرآن بالدرس، وقوله تعالى: "...وَلْيَقُولُوا دَرَسَتْ..." (الأنعام: 105) أي: جارت أهل الكتاب في القراءة وقيل: درسوا ما فيه أي: تركوا العمل به، من قولهم: درس القوم المكان أي: أبلوا أثره، ودرست المرأة: كناية عن حاضته، ودرس البعير: صار فيه أثر الجرب.
 - أما معجم المجمع فقد جاء فيه: درست: كررت القراءة لتحفظ "وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ..." (الأنعام: 105).
- درسوا: "...أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا..." (الأعراف: 169).
- تدرسون: "...بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٨﴾" (آل عمران: 79).
- تدرسون: تقرأون: "أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾" (القلم: 37).
- يدرسونها: "وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا..." (سبأ: 44).
- دراستهم: "...وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿١٥٦﴾" (الأنعام: 156).
- وأما الفراهي الهندي فيقول:

درس: هذا اللفظ يوجد كثيراً في كلام العرب في معنى "البلى"، وأما في معنى القراءة كما يفهمون من استعمال القرآن حيث جاء "أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾" (القلم: 37) فلا يوجد له مثال. وزعم بعض من غير المسلمين أن هذا اللفظ أخذه النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود، وزاده في لغة العرب.

وهذا بعيد، فإن النبي ﷺ كيف يكلم قوماً بلغتهم، ثم يزيد فيه ما ليس منه؟
والقرآن يصرح بأنه عربي مبين، فلا يكون فيه إلا ما عرفته العرب.
فاعلم أن الدرس في معنى "البلى" مجاز. وأصله الحكُّ والمشق، ومنه للخط،
قال أبو داود:

ونوء أضربه السافياء كدرس من النون حين امحى

أي: كخط النون. وشكل النون في الخط العربي القديم هكذا فشبه أمواج
الرمال بهذا الشكل، وقد شبه عنتره¹ الحاجب بالنون في قوله:

له حاجب كالنون فوق جفونه وثغر كزهر الأقحوان مفلج

ومنه: كثرة الاشتغال بالقراءة. وقد يتضح من استعمال هذه الكلمة في كلتا اللغتين
: العربية والعبرانية.

ومن أصل المعنى : الدرس : للجرب والحكمة، والمدرّوس : الفراش الموطأ والدرس:
للأكل الشديد. ومنه : درس الطعام : داس، قال ابن ميادة :

هلاً اشتريت حنطة بالرستاق سمراء مما درس ابن مخراق

ودرس الصعب حتى راضه، ودرست الكتاب بكثرة القراءة حتى خف حفظه،
فالدرس: كثرة القراءة. ومعنى الكلمة في العبرية: اختص بالقراءة. وأما في العربية
فبقيت الكلمة على السعة وأقرب إلى الأصل إذ جاءت لكثرة القراءة لا للقراءة، كما
قال تعالى " . . . وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ . . . " (الأنعام: 105) أي: بالغت في قراءة تلك عليهم.
وأما أنها لا توجد في هذا المعنى في أشعار العرب، فذلك لأن للشعر مجاري محدودة
ومعاني خاصة فقلما يذكرون القراءة فضلاً عن إكثارها.

وبعد النظر في هذه النصوص نرى أن الراغب اضطر لشيء من التكلف في محاولة
التعبير عن مناسبات تصريف الكلمة وتعليقها، كما نرى أن الفيروزآبادي كرر كلام

¹ شرح ديوان عنتره لخطيب التبريزي، ص 41.

الراغب بعينه استثناء بعض الكلمات، وأما معجم المجمع فلم يزد على قوله: "درست" كررت القراءة لتحفظ، واستعراض الآيات القرآنية. أما الفراهي فقد رجع إلى الشعر الجاهلي يستنطقه، كما رجع إلى العبرية أخت العربية ليتبين له الأصل الذي ترجع إليه الكلمة، ومن ثم وصل إلى حقيقة المعنى، على حين وقف السابقون عند المجاز ولم يجاوزوه. وأما "عمدة الحفاظ" فلم يعرض للكلمة أصلاً، علماً أنه يأخذ على الراغب عدم ذكره بعض الكلمات.

كلمة "صغو":

قال الراغب: الصغو: الميل، يقال: صغت النجوم والشمس صغوًا: مالت للغروب. وصغيت الإناء، وأصغيته، وأصغيت إلى فلان: ملت بسمعي نحوه، قال تعالى: "وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ..." (الأنعام: 113) وحكي: صغوت إليه أصغو، وأصغى صَغِيًا وَصُغِيًا. وقيل: صغيت أصغى، وأصغيت أصغى. وصاغية الرجل: الذين يميلون إليه وفلان مصغى إناؤه: أي: منقوص حظه وقد يكفى به عن الهلاك. وعينه صغواء إلى كذا أي: مائلة، والصغى: ميل في الحنك والعين.

وقال السمين: قوله تعالى: "وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ..." (الأنعام: 113) أي: ولتميل إليه قلوب. والصغو: الميل، يقال: صغت الشمس والنجوم صغوًا: مالت للغروب، وصغيت الإناء وأصغيته: أملت، وقد أصغيت إلى فلان بسمعي نحوه، وحكي صغوًا وصغيت أيضًا وأصغيت أصغى وصاغية الرجل: الذين يميلون إليه، ويكفى به عن الهلاك أيضًا. وفي الحديث: "يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة" أي: خاصته والمائلين إليه. وعين صغواء إلى كذا أي: مائلة، والصغى: ميل في الحنك والعين. وفيه أيضًا وكان يصغى لها الإناء أي: يميله. ويقال: صغا يصغى، وصغى يصغى. فالمادة يجوز أن تكون من الواو ومن الياء، لأنه قد سمع فيها الحرفان وقد ذكر الراغب اللغتين. ولم يذكرهما الهروي إلا في مادة الياء.

وقال الفيروزآبادي: صبغوت إلى فلان. وصغا فؤادي إليه: مال. وصغوي معه. وصغت النجوم للغروب، وهن صواغ. وأصغى الإناء للهرة. وأصغى إلى حديثه: مال بسمعه إليه. ورجل أصغى، وقد صبغى. وهو ميل في الحنك وإحدى الشفتين. وأقام صغاه: ميله. ويقال: الصغا في الأديان أقبح من الشغا في الأسنان، وصاغية الرجل: قومه لما يميلون إليه.

وقال في معجم المجمع: صبغت القلوب أو الأفئدة: مالت "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...". (التحریم: 4)، لتصبغى "وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ..." (الأنعام: 113).

وقال الفراهي: "الصغو" في جميع الألسنة ولا سيما في لغة العرب ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي. والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان.

مثلاً: الميل معنى كلي. ثم تحته: الزبغ، والجور، والارعواء، والحيادة، والتنحي، والانحراف. كلها للميل عن الشيء والفيء والتوبة، والالتفات والصغو كلها للميل إلى الشيء؛ فمن خبط بينهما ضل وأضل.

فلا يخفى على العالم بلسان العرب أن "الصغو" هو الميل إلى الشيء لا عن الشيء. ومنه صاغية الرجل: لأتباعه، وصغوه معك: أي: ميله، وأصغيت إلى فلان: أي: ملت بسمعك نحوه. ومنه الحديث: "ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً"، أي: أمال صفحة عنقه إليه، وقالوا: الصبي أعلم بمصغى خده، أي: هو أعلم إلى من يلجأ أو حيث ينفعه. ومنه صبغت الشمس والنجوم، أي: مالت إلى الأرض، وفي حديث الهرة: "كان يصغى لها الإناء" أي: يميله ليسهل عليها الشرب. ومن ذلك الصغو لجوف الإناء لما يجتمع فيه من المشروب. وأنشد ابن بري شاهداً على الإصغاء بالسمع لشاعر:

ترى السفية به عن كل مكرمة
زيع وفيه إلى التسفيه إصغاء
وقال ذو الرمة يصف الناقة:

تصغي إذا شدّها بالكور جانحة
حتى إذا ما استوى في غرزها تثب
وقال الأعشى في صغو العين يصف كلبًا:

ترى عينها صغواء مؤقها
تراقب كفي والقطيع المحرما
وقال النمر بن تولب في إصغاء الإناء بمعنى الإفراغ:

وإن ابن أخت القوم مصغى إنأؤه
إذا لم يزاحم خاله بأب جلد
كلمة "الطوفان":

- قال الراغب: .. "والطوفان": كل حادثة تحيط بالإنسان. وعلى ذلك قوله تعالى:
"فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ..." (الأعراف: 133) وصار متعارفًا في الماء المتناهي في
الكثرة؛ لأجل أن الحادثة التي نالت قوم نوح كانت ماء. قال تعالى: "... فَأَخَذَهُمُ
الطُّوفَانُ..." (العنكبوت: 14).

- وقال السمين: قوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ..." (الأعراف: 133): قيل: هو
السيل المغرق. وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسره بالموت. قال
بعضهم: "الطوفان من كل شيء: ما كان مطبقًا بالجماعة كالموت الجارف والغرق
الشامل والقتل الذريع". وقال آخرون: "الطوفان: كل حادثة تحيط بالإنسان،
وصار متعارفًا في الماء المتناهي في الكثرة؛ لأجل أن الحادثة التي نالت قوم نوح عليه
الصلاة والسلام كانت ماء ..".

- وقال الفيروزآبادي: "الطوفان: المطر الغالب، والماء الغالب يغلب كل شيء قال
تعالى: "... فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ..." (العنكبوت: 14) وقيل: هو الموت الذريع الجارف.
وقيل: السيل. وقيل: القتل الذريع. وقيل: الطوفان من كل شيء: ما كان كثيرًا

مطيّقًا بالجماعة. وقيل: كل حادثة تحيط بالإنسان. ثم صار متعارفًا في الماء المتناهي في الكثرة.

وقال الأخفش: الواحد- في القياس- طوفانه. وأنشد:

غَيَّرَ الجَدَّةَ مِنْ آيَاتِهَا خَرَقَ الرِّيحَ وَطُوفَانَ المَطَرِ
وجاء في معجم المجمع: "الطوفان: السيل العظيم ...".

وقال الفراهي: "الطوفان: إعصار مستدير يصحبه المطر وفوران الماء. ويسمى في الرومية "سايلون" أي: الريح الدوّارة. وفي الفارسية: كردباء (الريح المدورة) وفي الهندية (يكولا): دائرة الريح. وكان المصريون يزعمون بإله للريح الشديدة يسمونه: "طائفون" وهكذا كان طوفان نوح- عليه السلام- كما وصف في القرآن: "فدعا ربه أَتَى مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾" (القمر: 10-12) قال الراعي يصف الناقة:

تمسي إذا العيس أدركنا نكائتها خرقاء يعتادها الطوفان والزود
هذا ما ذكره الفراهي في كتابه "مفردات القرآن"، وفي تفسيره لسورة الذاريات قَدَّمَ شرحًا أوفى حين قال: "ومن خاصة هذه الريح شدة المطر وفوران الماء من البحر، وقد شاهدنا ذلك من طوفان جاء من مشرق بحر الهند إلى مغربه- وحينئذ كنت في مدينة كراچی- فأنزل مطرًا شديدًا وقذف السفن على الجبال، وفعل ما فعل. ويطابق ذلك ما جاء في تصوير طوفان نوح في القرآن والتوراة: قال تعالى في سورة القمر (11-12) "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾".

وفي سفر التكوين: ص: 2 ف: 11 . "في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء" وفي سورة هود: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

كَالْجِبَالِ... " (هود: 42) ومن ركب البحر علم أن الأمواج كالجبال لا تنشأ إلا بريح شديدة وفي ذكر الأثر دلالة على المؤثر...".

ومن خلال النظر في النقول المنقولة عن المعاجم الخمسة نخرج بالنتائج التالية:

- يحاول الراغب تفسير "الطوفان" بما يتفق مع أصل الاشتقاق الذي هو "الطواف" وهو بمعنى الدوران. ومن ثم يعرف "الطوفان" بأنه: كل حادثة تحيط بالإنسان. فالإحاطة فيها معنى الدوران. ويستشهد على ذلك بالآية: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ". (الأعراف: 133) غير أن تعريف الراغب للطوفان بأنه كل حادثة تحيط بالإنسان تعريف عام يشمل أنواعاً كثيرة من الحوادث، ومن ثم اضطر الراغب لبيان كيفية انتقال المعنى من العموم الذي ذكره إلى الخصوص الذي وقع على قوم نوح، فقال: "وصار- أي الطوفان- متعارفًا في الماء المتناهي في الكثرة لأجل أن الحادثة التي نالت قوم نوح كانت ماء...".
- أما السمين، فقد عدد أنواعاً مختلفة من العذاب شملت: "السيل المغرق، والموت الجارف، والقتل الذريع". كما نقل قول الراغب السابق، وذكر حديثاً يفسر الطوفان بالموت. وهو لا يعدو أن يكون قد شرح قول الراغب بثيء من التفصيل، ولكنه- على العموم- لم يرجح واحداً من الأنواع التي ذكرها، إلا إذا عددنا مراعاة الترتيب تبعاً لقوة الأقوال. فيكون القول الأول الراجح عنده هو: السيل المغرق.
- كذلك الفيروزآبادي ذكر عدة أقوال في معنى الطوفان. فإذا عددنا قوله الأول هو الراجح كان الطوفان: هو المطر الغالب، والماء الغالب يغلب كل شيء، ولا شك بأن التفسير بالغلبة من مستلزمات الإحاطة ولكنه ليس دقيقاً في معنى "الطوفان" الممشتق أصلاً من "الطواف" بمعنى "الدوران".
- واستشهاد به بالشعر المتضمن لـ "طوفان المصر" لا يعني بالضرورة، المطر الغالب، ويمكن أن يقرب مما قاله الفراهي- كما سبق بيانه.
- أما ما جاء في معجم المجمع من أن "الطوفان": السيل العظيم، فلا يحتاج إلى تعليق؛ لأنه لم يعتمد على تأصيل لغوي.

- وأما ما ذكره الفراهي من أن الطوفان: إعصار مستدير يصحبه المطر وفوران الماء، فقد أكدّه بما ورد في عدة لغات من أنه "الريح المدورة" أو "الريح الدوارة" أو "دائرة الريح" أو "طائفون" وكذلك من خلال وصف طوفان نوح- عليه السلام- في القرآن والتوراة، وبذلك يكون قد وضع أيدينا على جذر المعنى وأصل الاشتقاق، الذي يفسّر لنا هذا النوع الخاص من العذاب الذي عذّب الله به قوم نوح، والذي لم يرد في القرآن إلا لقوم نوح عليه السلام، بخلاف ما ذكره غير الفراهي من أنواع العذاب الأخرى فقد عذّب بها أقوام عديدون، ومن ثم وصف عذاب نوح بـ"الطوفان" كما أكد هذا المعنى بما رآه واقعاً من الطوفان الذي قدم لنا وصفه حينما كان في مدينة كراچی والذي جاء من مشرق بحر الهند إلى مغربه.

- وبهذا يكون الفراهي أكثر تحقيقاً في هذه الكلمة من كل الذين عرضوا لها قبله.
- ويكون ما قاله الراغب: "وصار الطوفان متعارفاً في الماء المتناهي في الكثرة لأجل أن الحادثة التي نالت قوم نوح كانت ماء" انتقالاً من الحقيقة اللغوية إلى الحقيقة العرفية ولا يمكن أن يحمل هذا المعنى إلى الحقيقة اللغوية بحيث تصبح جزءاً منه تفهم بمجرد التلفظ بـ"الطوفان".
أصل كلمة "صلى":

قال الراغب: أصل "الصلي" الإيقاد بالنار، ويقال: صلى بالنار وبكذا، أي: بلي بها، واصطلى بها وصليت الشاة: شويتها، وهي مصلية. قال تعالى: "أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ . . ." (يس: 64) وقال: "يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى" (٣٦) . . . " (الأعلى: 12) "تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً" (الغاشية: 4) "وَيَصْلَى سَعِيرًا" (الانشقاق: 12) قال الخليل:

قاسى حرّها . . . وقيل : صلى النار : دخل فيها. وأصله غيره، قال "فسوف نصليه ناراً . . ." والصلاة. قال كثير من أهل اللغة هي: الدعاء والتبريك والتمجيد. يقال: صليت عليه: أي دعوت له وزكيت. وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا دعي أحدكم

إلى طعام فليجب، وإن كان صائماً فليصل " أي: ليدع لأهله: "... وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَّوْتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ... " (التوبة: 103) "... يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ... " (الأحزاب: 56) و"... وَصَلَّوْتَ الرَّسُولَ... " (التوبة: 99).

وصلاة الله للمسلمين- هو في التحقيق:- تزكيتة إياهم. وقال: "أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَّوْتُ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ... " (البقرة: 157) ومن الملائكة: هي الدعاء والاستغفار، كما هي من الناس... والصلاة التي هي العبادة المخصوصة: أصلها الدعاء، وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه... وقال بعضهم: أصل "الصلاة" من "الصلى" قال: ومعنى "صلى الرجل": أنه زاد وأزال عن نفسه بهذه العبادة الصلى- الذي هو نار الله الموقدة- وبناء "صلى" كبناء مرض لإزالة المرض...".

وقال السمين: (ص ل و): قوله تعالى: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ..." (البقرة: 3).

الصلاة لغوية وشرعية: فاللغوية: الدعاء.

قال الأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلاً يا ربَّ جنب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

وقال آخر:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها وإن ذبحت صلى عليها وزمزا
وأما الشرعية: فذات الأركان المعلومة. وهي مشتقة من ذلك لأنها مشتملة على الدعاء.

وقيل: هي مشتقة من الصلّوين- عرقين- لأن المصلي يحركها عند حركته فيها. ومنه المصلي في حلبة السباق، لأنه يضع رأسه عند صلوي السابق... وقيل: هي مشتقة

من الصلاة. وهو النار، لأنه إذا فعل هذه العبادة فقد درأ عن نفسه الصلاة، وهذا مردود بأن تلك مادة أخرى كما سيأتي.

وقال السمين أيضاً: (صلي) قوله تعالى: "لا يصلها... أي: "لا يدخلها ويلقي صلاها...".

أما الفيروزآبادي: فقد أورد معظم كلام الراغب وزاد في الاستشهاد بالآيات وبيان معنى الصلاة في كل آية.

وأما معجم المجمع فقال: "صلى" أدى الصلاة "تصل" تؤد صلاة الجنابة، وقيل: تدعو. وأما الفراهي فيقول: "الصلاة" - في الأصل -: الإقبال على شيء، ومنه الركوع، ومنه التعظيم والتضرع والدعاء. وهي كلمة قديمة بمعنى الصلاة والعبادة: جاءت في الكلدانية بمعنى الدعاء والتضرع، وفي العبرانية بمعنى الصلاة والركوع. ومن هذا الأصل: صلي النار: أقبل عليها ثم بمعنى: دخل النار، كما قال تعالى: "سيصلى ناراً..". (المسد: 3) وأيضاً: "وَيَصَلِّي سَعِيرًا" (الانشقاق: 12) ومنه التصليّة، كما قال تعالى: "وَتَصَلِّيَةُ جَحِيمٍ" (الواقعة: 94) واستعملت العرب كل ذلك..

ومن كل ما تقدم يبدو لنا أن معظم كلام الراغب قد ورد عند كل من السمين والفيروزآبادي، وأن الإضافات التي أضافها السمين تتصل ببعض الشواهد الشعرية التي أغفلها الراغب، كما أغفل بعض الأصول الاشتقاقية التي ذكرها كل من السمين والفيروزآبادي كالصلوبين وغيره.

وكذلك يلاحظ أن السمين ذكر "الصلاة" تحت مادة "ص ل و" وذكر "صلي النار" و"التصليّة" تحت مادة "ص.ل.ي" فقد فرّق بين المادتين فجعل الأولى من الواو، والثانية من الياء، وقد انفرد السمين بهذا.

جعل الراغب أصل الكلمة من "الصلى" بمعنى: الإيقاد بالنار ثم ذهب إلى معنى الدعاء والتبريك والتمجيد، ولكنه لم يبين لنا كيف تم الانتقال من معنى "الإيقاد بالنار" إلى معنى "الدعاء" .. علماً بأنه بعد أسطر أورد قول بعضهم من أن أصل "الصلاة" من "الصلى" قال: ومعنى صلى الرجل: أنه زاد وأزال عن نفسه بهذه

العبادة "الصلى" الذي هو نار الله الموقدة. وبناء "صلى" كبناء "مرّض" لإزالة المرض، ولا يبدو هذا التعليل على درجة من القوة تجعله يحظى بالقبول. وأما ما ذهب إليه الفراهي من أن "الصلاة" - في الأصل -: الإقبال على شيء وأنها كلمة قديمة جاءت في الكلدانية بمعنى الدعاء والتضرع، وفي العبرانية بمعنى الصلاة والركوع، فإن هذا الأصل الاشتقاقي يدخل تحته كل المعاني التي ذكرت للصلاة دون تكلف، وبهذا يكون هذا المعنى هو الجذر الحقيقي لبقية المعاني الأخرى ومن ثم فهو الأصل الراجح.

كلمة "العصر":

قال الراغب: "العَصْرُ والعِصْرُ: الدهر. والجمع: العصور. قال تعالى: "وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢" (العصر: 1-2) والعصر: العشي. وإذا قيل العصران "ف قيل: الغداة والعشي. وقيل: الليل والنهار، وذلك كالقمرين للشمس والقمر. .". وقال السمين: قوله تعالى: "والعصر" أي: ورب العصر. والعصر: الزمان. قال الشاعر:

وقد مر للدارين من بعدنا عصر

والجمع: أعصر، وعصور.

قال الشاعر:

حَيُّوا بعد ما ماتوا من الدهر أعصرا

والعصر أيضًا: وقت هذه الصلاة المعروفة بخصوصها؛ لأنها فُعِلَتْ في وقت. واللغة ليست بقياس وتسمى كل صلاة عصرًا. والعصران قيل: الليل والنهار. وقيل: "الغداة والعشي. .".

وقال الفيروزآبادي:

العصر: الدهر. والجمع: عصور وأعصار . . . وقد ورد بمعنى الدهر أو صلاة العصر "وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢" والعصران: صلاة الغداة والعشي. وقيل: الليل والنهار كالقمرين للشمس والقمر.

وقال معجم المجمع: العصر: الدهر "والعصر إن الإنسان لفي خسر".

وقال الفراهي: "العصر" الزمان الماضي.

و"العصر" آخر النهار - كما قال الحارث بن حلزة في معلقته:¹

آنست نبأة وأفزعها القنا صُ عصرًا وقد دنا الإمساء

والسند على المعنى الأول - الزمان الماضي - كثير:

قال عبيد بن الأبرص:

فذاك عصر وقد أراني يحملني بأزل شبيب²

وقال امرؤ القيس:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي³

وقال رُبَيْع بن ضُبَيْع بن وهب بن بغيض بن مالك:

أصبح من الشباب قد حسرا إن ينأ عني فقد ثوى عُصرا

وقال المتلمس:

عرفت لأصحاب النجائب جدة إذا عرفوا لي في العصور الأوائل

وقال دريد بن الصمة:

فإن لا تتركني عندي سفاهاً تملك عليه نفسك غير عصر

أي: من غير أن يمر بك كثير زمان.

وقال شريح بن هانئ بن يزيد بن بهبل بن وريد بن سفيان:

¹ شرح المعلقات العشر، ص 318.

² المصدر نفسه، ص 434 - والشرط الثاني كما في الشرح: تحملني نهدة سرحوب - وكذلك في " شعراء النصرانية قبل الإسلام"، ص 609.

³ شرح ديوان امرئ القيس للشنتمري، ص 97-98.

قد عشت بين المشركين أعصرا ثمت أدركت النبي المنذرا
وقال مسعود بن مصاد بن حصن بن كعب بن سليم:
قد كنت في عصر لا شيء يعدله فبان مني وهذا بعده عصرا
أي: هذا الزمان بعد ذلك أيضًا ماضٍ ومار.
وقال أبو خرابة الوليد بن ضيفة:
وكنا حسبناهم فوارس كهمس حيوا بعد ما ماتوا من الدهر أعصرا
أي: بعد أن كانوا ميتين حقبًا.
وقال ابن هرمة:¹
أذكرت عصرك أم شجتك ربوع أم أنت متبل الفؤاد مضوع
أي: ذكرت زمانك الماضي.

وهكذا نرى أن السابقين فسروا "العصر" بالدهر والزمان عمومًا، وأن الفراهي رأى أن ذلك التفسير غير دقيق، فانطلق يرتاد رياض الشعر الجاهلي باحثًا عن حقيقة المعنى فانتهى إلى أنه ليس مطلق الزمان وإنما هو الزمان الماضي، وأكد ذلك بالشواهد الشعرية الكثيرة. وهذا يعني أن المعاني الدقيقة يمكن الوصول إليها من خلال استعمال العرب الأقحاح لها في شعرهم.

ملاحظات على المعاجم السابقة

بعد تلك المقارنات التي قمنا بها ومن خلال النماذج التي عرضناها، يمكننا أن نبدي بعض الملاحظات على المعاجم السابقة. وهي كما يلي:

- على الرغم من كل الجهود التي بذلها علماؤنا خلال العصور في بيان معاني المفردات القرآنية، فإنهم لم يقولوا الكلمة الأخيرة، ويبقى الأمر مفتوحًا للدراسة والتحقيق والتدقيق.

¹ شعر إبراهيم بن هرمة، مجمع اللغة العربية بدمشق، ص 124

- على الرغم من أن الراغب الأصفهاني يعدّ إمام الدارسين في مناسبات الألفاظ بعضها لبعض، وفي بيان جذور المعاني الأصلية وانتقالها خطوة خطوة إلى المعاني المستعارة، إلا أنه لم يصب دائماً كبد الحقيقة.
- يعد الراغب الأصفهاني العمدة لكل من جاء بعده، ولم يؤخذ عليه ملاحظات ذات قيمة من الذين اعتمدوا كتابه ضمن كتبهم، وذلك كالسمين الحلبي، والفيروزآبادي.
- معظم الإضافات التي أضافها السمين كانت في التوسع في إيراد الشواهد الشعرية، أو ذكر بعض الأقوال التي أغفلها الراغب لضعفها عنده، أو في ذكر الكلمات التي فاتته أن يذكرها أو في التوسع في شرح بعض الألفاظ من خلال ورودها في الأحاديث النبوية.
- لم يلتزم السمين دائماً ترتيب المادة العلمية - كما هي عند الراغب - فقد يقدم فيها ويؤخر، ولكنه في الجملة يأتي بكل ما ذكره الراغب.
- ينسب السمين أقوال الراغب إليه في بعض الأحيان، ويغفل ذلك بعض الأحيان. وقد يقول: قال بعضهم: أو قال بعض أهل اللغة - وأمثال هذه العبارات - وعند المقارنة يتبين أنها أقوال الراغب نفسها.
- أما الفيروزآبادي فقد استوعب أيضاً معظم ما جاء في مفردات الراغب.. ولم تكن له ملاحظات تذكر على الراغب.
- يمتاز الفيروزآبادي بأنه بعد أن يورد معنى المفردة القرآنية في أصل اشتقاقها مستفيداً في ذلك من الراغب، يعتمد إلى ذكر وجوهها في القرآن كأن يقول: "وقد ورد في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً. ثم يبدأ بذكر هذه الوجوه واحداً واحداً مستشهداً في ذلك بآية أو أكثر عند كل وجه من هذه الوجوه حتى يستوعب معظم هذه الآيات، وهو في ذلك مستفيد من كتب الوجوه والنظائر غالباً.

- يتوسع الفيروزآبادي عند شرحه للمفردات القرآنية بذكر بعض المعاني التي لم يذكرها الراغب، وكثير منها قد يؤخذ من الأحاديث النبوية، وبعضها قد يكون من المعاني اللغوية.
- عند الفيروزآبادي استطرادات عجيبة، فعند كلامه على مادة "برق" ذكر واحداً وثلاثين فعلاً يمكن أن يضاف إلى البرق: يشري، ويومض، ويعنّ، ويعترض، ويوبص ..
- وبعد أن ينتهي من سرد هذه الأفعال المسندة إلى البرق، يقول: ومما يستحسن في وصف البرق وخفائه، والرعد في حدائه، والثلج ولألانه، قول بعضهم: ينبض نبض العرق في استخفاء شرارة تطرف من قصباء
- ويذكر تسعة أبيات من هذه القصيدة، ثم يذكر سبعة أبيات لعدي ابن الرِّقاع، من أحسن ما قيل في البرق والغيث .. ثم يتبعها بأربعة عشر بيتاً للعتابي.

مقترحات

- بعد الذي قدّمناه من مقارنات وملاحظات على المعاجم التي عرضنا لها، يحسن بنا أن نقترح بعض المقترحات التي يمكن أن تفيد في مستقبل التأليف المعجمي لمفردات القرآن فنقول:
- إن الحاجة إلى تأليف معجمات تعنى بتحقيق معاني المفردات القرآنية أمر متجدد، والمجال فيه واسع ومفتوح، بل هو واجب لمن أنس من نفسه أهلية ورشداً، وآتاه الله من فضله علماً وحكماً.
- إن الذي يتصدى لمثل هذه المهمة العظيمة لا ينبغي له أن يسلك الطريق السهل، وإنما عليه أن يركب الصعب، وأن يكدّ الذهن في التأمل والدراسة، وألا يقف على الشواطئ القريبة وإنما عليه أن يغوص في الأعماق البعيدة، باحثاً عن الدر المصون وطامعاً في اللؤلؤ المكنون.

- لا يكفي لمن يريد ارتياد هذه الآفاق، أن يحمل شهادة في الأدب العربي، أو الدراسات الإسلامية، دون أن يكون عاكفًا على كتاب الله تلاوة وفهمًا، تذوقًا وتدبرًا، يجيل الطرف في آياته، ويجدّ في البحث عن أسرار حروفه وكلماته.
- لا بد من تأكيد منهج الراغب الأصفهاني في بيان الفروق بين ما يظن فيه الترادف، والتوسع في ذلك في المعجمات القادمة، طبقًا للأمثلة التي سقناها من تفسيره المخطوط، وكتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة".
- ويمكن الاستفادة في ذلك أيضًا من كتب الفروق اللغوية؛ ككتاب أبي هلال العسكري، وفروق اللغات لنور الدين الجزائري، وغيرهما من الكتب التي اعتنت بهذا الجانب سواء أكان ذلك مباشرًا أم غير مباشر.
- من العلماء المحققين الذين عنوا بدراسات متخصصة في جانب الفروق الحكيم الترمذي في كتابه "بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب" - من علماء القرن الثالث - ويعد خطوة متقدمة جدًا في هذا الجانب الهام.
- ومن العلماء الذين يرون أن الترادف في القرآن إما نادر أو معدوم: الإمام ابن تيمية، وذلك في رسالته في أصول التفسير.
- كذلك اهتم ابن القيم بهذا الجانب، بل إنه أيضًا اهتم بالفروق الاصطلاحية، وجمع منها مادة كبيرة أودع كثيرًا منها في كتاب "الروح" - القسم الأخير من الكتاب - كما تفرقت دراساته للفروق في كتبه الكثيرة، وقد عمد يوسف الصالح إلى جمع وترتيب عدد كبير منها في جزء أصدره باسم "الفروق لابن قيم الجوزية" منتزع من أغلب كتبه.
- كما أن هناك دراسة بعنوان "الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم" للدكتور محمد عبد الرحمن الشايع، يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها، وهي مفتاح لكثير من الدراسات التي تناولت هذا الجانب الهام.
- أيضًا لا يمكن إهمال جانب المعاني الاصطلاحية وملاحظة الفروق الغامضة فيما يظن فيه التقارب بينها، وهناك كتب كثيرة ودراسات عنيت بذلك، وقد

- أشرنا إلى طرف منها فيما سبق، ويمكن أن نضيف إلى ذلك كتاب "الكليات" لأبي البقاء الكفوي، وهو يعني بالفروق اللغوية والاصطلاحية.
- لشيخ الإسلام ابن تيمية دراسات قيمة في مجال الدلالة اللغوية توزعت في كتبه الكثيرة ورسائله المتعددة، وعلى سبيل المثال كتابه "جامع الرسائل" فيه دراسات تناولت "قنوت الأشياء كلها لله" و"سنة الله" و"معنى النزول" وأمثال ذلك كثير.
 - لابن القيم - أيضاً - دراسات قيمة لعدد كبير من الألفاظ تناول فيها الدلالة اللغوية بغاية من التحقيق والتدقيق، جمع منها أربعاً وخمسين كلمة الدكتور أحمد ماهر البقري في كتابه "ابن القيم اللغوي" استقاها من مجموع كتب ابن القيم، وهي مما يمكن الاستفادة منها في ضبط معاني المفردات القرآنية في التأليف المعجمي مستقبلاً.
 - لا بد من التأكيد أيضاً على منهج الفراهي في دراسة الكلمة القرآنية، والاستفادة منه في معالجة الكلمات التي يشك في معناها الدقيق، وذلك بالرجوع إلى الشعر الجاهلي، واللغات السامية التي تشارك العربية في جذورها الأصلية - كما لاحظنا ذلك من الأمثلة التي سقناها عن الفراهي والتي وصل بها إلى نتائج هامة تثلج الصدر وتطمئن النفس.
 - أيضاً لا بد من الالتزام بالقواعد التي ذكرناها سابقاً من مقدمات "مفردات القرآن" للفراهي، فهي أصول لا يستغنى عنها في دراسة المفردة القرآنية، ويمكن أن نضيف إليها هنا نقاطاً أخرى أشار إليها الفراهي في كتابه: "التكميل في أصول التأويل" وذلك تحت عنوان "جامع لأبواب الإجمال".
 - للكلمة والكلام وجوه، ولا بد من تعيين المراد في كل موضع وهي:
 - ربما يستعمل اللفظ كالاسم والرسم لشيء، بدون نظر بالخصوص إلى معنى اللفظ، من ذلك: القرآن، المؤمن، المسلم، الكتاب، المتقون، الكافرون، وما أشبه ذلك، ربما يستعمل كالاسم من غير نظر إلى المعاني اللفظية، أي المدلول عليه من جهة مادته وصورته.

- وربما يكون النظر إلى معناه اللفظي، مثلاً: المتقون: لمن كان تقياً خاشعاً.
 - وربما يراد به الفرد الكامل.
 - وربما يراد به العموم المطلق.
 - وربما يراد به الخصوص.
 - وربما يراد به العموم مع أولية النظر إلى خصوص.
 - وربما يراد به المعنى الجامع مطلقاً.
 - وربما يراد به المعنى الجامع مع أولية النظر إلى وجه خاص.
- وهذا غيض من فيض مما ذكره الفراهي في كتابه القيم "التكميل في أصول التأويل" يمكن الاستفادة منه لمن يريد أن يقوم بدراسة مفردات القرآن، كما يمكن الاستفادة من كتبه الأخرى كتفسيره لبعض السور ومذكراته بين يدي التفسير.
- إضافة لكل ما سبق، ينبغي للدارس ألا يطمئن كل الاطمئنان إلى دراسات الآخرين، وأن ينظر فيها نظرة نقدية فاحصة، وربما يرجح قولاً على قول ومعنى على معنى، وبعد المقارنة بين الأدلة، ربما يظهر له معنى خفي على غيره، وليس ذلك بمستبعد كما أشار إلى ذلك علي رضي الله عنه، حينما سئل: هل ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندكم شيئاً من الوحي لم يبلغه؟ قال: "لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتیه الله عبدًا في كتابه". فمعاني القرآن لا يمكن الإحاطة بها: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (الكهف: 109) والمراد المعاني، أما الألفاظ فهي محدودة ولا شك.
 - من أمارات صحة المعنى أن يكون متوافقاً مع ما ورد في بقية النصوص منسجماً معها، فإذا تبين خلاف ذلك فمعنى ذلك أن المعنى يحتاج إلى إعادة نظر ودراسة؛ لأن الله تعالى يقول: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" (النساء: 82) فإذا وجد الاختلاف الكثير في معنى من المعاني يفيد أن هذه المعاني تحتاج إلى مزيد من التحقيق والتدقيق.

- لا بد من التوسع في تفسير القرآن بالقرآن في مجال دراسة المفردات القرآنية، وعلى الرغم من اتفاق العلماء قديماً وحديثاً على أن تفسير القرآن بالقرآن أعلى مراتب التفسير؛ لأنه تفسير صاحب الكلام لكلامه، إلا أن هذا المصدر من التفسير لم يتوسع فيه، وبقي محدوداً - على كل ما كتب فيه - وأعتقد جازماً من خلال تجربتي أن بالإمكان ضبط كثير من معاني المفردات القرآنية اعتماداً على هذا المصدر، وطبقاً لقوله تعالى: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" (القيامة: 19) فقد تكفل الله سبحانه ببيان القرآن بالقرآن، كما يمكن إدراك كثير من الفروق اللغوية التي أغفلتها المعاجم وكتب اللغة والتفسير من خلال دراسة مقارنة لاستعمال هذه المفردات في السياقات القرآنية المتعددة.

خاتمة

- بعد هذه الجولة في رياض هذه المعاجم يمكن أن نخلص إلى بعض النتائج:
- على الرغم من الجهود العظيمة التي بذلها علماؤنا خلال التاريخ في تأليف المعاجم القرآنية، تبدو الحاجة ماسة في عصرنا إلى معاجم جديدة تأخذ بالاعتبار الملاحظات السابقة، والمقترحات التي أشرنا إليها.
- لا يبدو لي أن اللجان الرسمية التي يمكن أن تؤلفها المراكز العلمية، أو المجامع اللغوية باستطاعتها أن تصل إلى عمل علمي متميز، وذلك لاختلاف وجهات النظر،¹ ولاقتصار العمل على الانتقاء والترتيب والتنظيم، دون خوض في لب الدراسة القرآنية، واقتناص المعاني من التدبر العميق، والتأمل الواعي، والمقارنة الكاشفة.

¹ انظر صفحة (ي) وما بعدها من مقدمة الأستاذ عبد السلام هارون: "معجم ألفاظ القرآن الكريم بين المعاجم وكتب التفسير واللغة" فسترى اختلافاً كثيراً في وجهات النظر، تخللتها مناقشات واقتراحات واعتراضات وتشكيلات لجان، ومؤتمرات ودورات، وذلك على مدى ثلاث عشرة سنة. وتمخض هذا الجهد المتطاوّل عن هذا المعجم الذي تراه - وهو كما ترى - !!

- يحسن أن تكون المعاجم القادمة مرتبطة طبقًا لما انتهت إليه المعاجم الحديثة من ترتيب المادة العلمية، وتسهيل الرجوع إليها، والاستفادة من وسائل الطباعة الحديثة.
 - يحسن أن تكون المعاجم مستقبلًا ثلاثة مستويات:
 - مستوى للمبتدئين.
 - ومستوى للمتوسطين.
 - ومستوى للعلماء والمتخصصين.
 - كما يحسن أن يكون كل معجم منها على ترتيبين:
 - الترتيب المعجمي الألفبائي ليستفيد منه من يرغب في مراجعة كلمة من الكلمات.
 - الترتيب بحسب السور والآيات ليستفيد منه أهل التلاوة.
 - كما يحسن ألا يزيد المستويان الأول والثاني على مجلد واحد لكل منهما.
 - أما بالنسبة للمستوى الثالث، فيمكن أن يزداد في عدد مجلداته إذا كانت الحاجة تقضي بذلك.
- والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، ، ،

المصادر والمراجع

1. ابن القيم اللغوي، د. أحمد ماهر البقري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1989م.
2. إيجاز البيان عن معاني القرآن، للنيسابوري، تحقيق: د. علي بن سليمان العبيد، مكتبة التوبة، الرياض، 1997م.
3. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، بتحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة. د.ت.
4. تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، بتحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت 1978م.
5. التكميل في أصول التأويل، لعبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، الهند، د.ت.
6. الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، تحقيق أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية، د.ت.
7. الراغب الأصفهاني ومنهجه في التفسير، رسالة دكتوراه. د. محمد إقبال أحمد فرحات، مطبوعة على الكمبيوتر.
8. شرح المعلقات العشر، د. مفيد قميحة، دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.
9. شرح المفضليات للتبريزي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة، مصر للطباعة والنشر، د.ت.
10. شرح ديوان امرئ القيس، للأعلم الشنتمري، تصحيح: الشيخ أبي شنت، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، 1974م.
11. شرح ديوان طرفة بن العبد، للأعلم الشنتمري بتحقيق: درية الخطيب، لطفي الصقال، 1975م.
12. شرح ديوان عنتره للخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد طراد، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992م.

13. شعر الرثاء في العصر الجاهلي، لمصطفى عبد الشافي الشورى، الدار الجامعية، بيروت. د.ت.
14. شعراء النصرانية قبل الإسلام، جمع: لويس شيخو، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة، 1967م.
15. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق: د. محمد التونسي، عالم الكتب، بيروت، 1993م.
16. العمدة في غريب القرآن، المنسوب إلى مكي القيسي، تحقيق: يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1981م.
17. المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث، لأبي عيسى الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، 1406هـ.
18. معجم ألفاظ القرآن، طبعة منقحة، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1988م.
19. معجم الموضوعات المطروقة، عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، طبعة منقحة، 1997م.
20. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1997م.
21. مفردات القرآن، للفراهي، باعتناء عبد الأحد الإصلاحي، مطبعة إصلاح، الهند، 1358هـ.
22. نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان، للفراهي، تفسير سورة الذاريات، الهند.

النظر في طريق الاستدلال للقرآن الكريم (في ضوء كتاب حجج القرآن)

- د. أياز أحمد الإصلاحي¹

القرآن الكريم دستور المسلمين يرشدهم إلى الحق والعلم الحقيقي فيهتم هذا الكتاب الخالد بتربية عقل الإنسان، وفقاً للفطرة التي فطره الله عليها وأودع فيها كل علم ودليل يحتاج إليه لمعرفة وجوده ووجود ربه ووحدانيته، وكل قضية تعلق بالبشر، فلذا فضل الإسلام الاستقلال الفكري على التقليد الذي يجعل الناس أضل من الأنعام، ويسوقهم، كما ذكره القرآن، إلى أديان آبائهم فصاروا كأنهم "صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (سورة البقرة: 171)، وبالعكس من ذلك فتركهم القرآن على الحرية الفكرية ليكمل بها الله سعادة البشر في الدنيا والآخرة وليتم عليها جميع نعمه من الدين والشريعة وليبلغ إلى أقصى درجات الكمال. فمنعهم عن التقليد والإكراه في أمور الدين، فالتقليد، إذ يعطل العقول، يعمي العيون، ويفسد القلوب فلا مكان له في الإسلام ولا يطلب منهم التصديق بالحق والإيمان بالله وآياته عمياً لقوله تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا" (سورة الفرقان: 73)، فذم الله في القرآن كل من اتبعوا دين آبائهم بدون علم وبرهان واستخدام عقولهم لأنهم وجدوا عليه آبائهم، فقال الله فيهم: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (سورة البقرة: 170-171)، وقال: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا

¹ أستاذ مشارك، قسم اللغة وآدابها، جامعة لكتاؤ، لكتاؤ (الهند)

وَلَا يَهْتَدُونَ" (سورة المائدة: 140)، فأثبت به القرآن أن دين الآباء إن لم يكن مبنياً على العقل والحجة لا يقبل، لأنه مجرد التقليد، وأما القرآن فهو يخاطب العقل البشري من حيث إنه يدعو الإنسان إلى العقل والفطرة، ويسدّد منهج نظره، ويقوّم أساس فكره ويناديه إلى طريق العلم والمعرفة، وإلى الإمعان في دلائل الهدى والحق، والتدبر في آيات كتاب الله وموجبات الإيمان به، وآيات خالقه في الأنفس والأفاق، فقال الله الذي خلق كلّ شيء: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا" (سورة محمد: 24) فالتأمل في آياته من أهم أهداف القرآن الكريم كما قال تعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ رُوحَ الْإِيمَانِ وَلِيُتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" (سورة ص: 29)

ومن أساليب القرآن أنه لا يقبل قولاً ولا عقيدة من دون حجة ولا برهان كما لا يتكلم بدون دليل ولا ينزل آية ولا حكماً إلا ويستدل عليه بدلائل قاطعة. فدعوة الإسلام إلى دين الله ورسوله قائمة على أساس هذا الإعجاز القرآني وهذه هي الحجة القرآنية التي سدّت أبواب الافتراء والامتراء والشكوك في كلام الله ودعوة الرسول ﷺ.

العقل والحجة عند القرآن الكريم: فيحتوي القرآن جميع أنواع الأدلة والبراهين التي تطمئن بها القلوب وتخضع لها رقاب الأعداء والمتكبرين، وأنواع حججه هذه كثيرة ومتنوعة سيأتي ذكرها فيما بعد إن شاء الله، ومنها ما هو موجود في فطرتنا ونحن نعلم به، وأشار إليه الله في كثير من مواضعه، ومنها "فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: 22)، وقال تعالى: "وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: 42)، ومنها ما يعلم به أهل العقل والذكر فنأدى بأن يأخذه منه "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (سورة النحل: 43)، فوردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أهمية العلم والحجة عموماً وتطالب منا بإمعان النظر وإعمال الفكر والعقل والتدبر في آيات الله، وأحياناً تبين أهمية العلم والعقل ثم تميز بين العلم والجهل، ومن يعلم ومن لا يعلم، يقول: "هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة الزمر: 9) ومنها قوله سبحانه: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ" (سورة النحل: 11)، وقال: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (سورة النحل: 11) وهو يطلب الدليل ممن ينكر الله دينه أو يشرك به إلهاً آخر، فقال عز وجل: "أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ" (سورة الأنبياء: 24)، ومثله قوله تعالى: "أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" (سورة النمل: 64)، ومنها "قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (سورة الأنعام: 97). وجاء فيه كثير من الآيات التي وردت فيها كلمات تؤكد على إعمال العقل والفكر في أمور الدين والكون، مثل "يتذكرون"، و"أولوا الألباب"، و"أهل الذكر"، و"البرهان"، و"السلطان"، و"الحجة"، و"العقل"، و"العلم"، و"يتدبرون"، و"يتفكرون"، ونحوها. وهذه الآيات كلها تحت أرباب العقل على التدبر في آيات الله لفهم معانيها وأهدافها وعلى الاجتهاد في شريعة الله وأحكامه، وقد وجهنا إليه بعض علماء المسلمين في كتبهم¹ وفي هذه الآيات أحياناً يحث الله الإنسان على إعمال عقله في آيات الكون والنفوس، وأحياناً يلوّمه على ترك العقل وتعطيله وعدم التأمل في آياته في الأرض والسموات، قال تعالى: "إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ" وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَخِتْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (سورة الجاثية: 3-5) وهنا آيات أخرى يذم الله فيها من يغفل عن هذه الآيات، فقال: "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ" (سورة يونس: 39) وقال: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (سورة الأنفال: 22)

فيه ناحيتان: (1) لا شك أن العقل يلعب دوراً أساسياً في حلّ مسائل الشريعة ودفع مشاكل الفقه الجديدة، ولذلك أمر الله رسوله لتربية المؤمنين بالكتاب والحكمة وعرفهم بأهمية هذا الفضل قائلاً: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"

¹ أنظر للتفصيل: الموافقات للشاطبي، 368/3، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي، 275/7

(سورة آل عمران: 164). إن مصدر الحجة والحكمة والعلم هو الله ويوتي الحكمة من يشاء من عباده فقال: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا" (سورة البقرة: 269)، وحجة الله تظهر في هذا العالم إلى حد يفرق بين الحق والباطل، والرشد والضلال، ودينه لا يحتاج إلى أي شكل من الإكراه والإجبار بعد هذه الحجة فقال: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (سورة البقرة: 256)، ومما يؤكد هذا القول أنه تعالى يقول بأن قد ظهرت الدلائل واتضحت البينات وتميز الحق عن الباطل بالحجج القاطعة فلم يبق بعدها إلا طريق الإجبار والإكراه وهو لا يجوز لأنه ينافي الفطرة الإنسانية ويبني عليه دين التوحيد الذي هو دين الفطرة، واحتج القفال به "على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للعذر. لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للإقامة على الكفر"،¹ وذهب إليه الرازي والقاضي وغيرهما من المفسرين.² فثبت أن إتمام الحجة من أهم أهداف الدين وتكميله والدعوة إليه، فأشار الله إليه في قوله: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" (سورة الأنعام: 149)

(2) وفطرة الحق أنها تقتضي الظهور بالأدلة والحجج كما تقتضي الغلبة في الأرض بقوة المؤمنين، فلا بد من أن يبرزه الله ويظهره ولو كره عالم الشرك والكفر، قال الفراهي في تفسير قوله تعالى: "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" أي الزهوق لازم فطرته، كما أن الحق يلزم فطرته الوجود والظهور".³

أساس حجة القرآن الكريم: وإتمام السعادة والنعمة لا يمكن إلا بإتمام الحجة، فإن الحجة هي نعمة الله الكبرى التي يهبها الله من عباده العلماء والصالحين، فقد ذكر الله في إحدى آيات كتابه ما أعطى إبراهيم عليه السلام من

¹ مفاتيح الغيب للرازي: 7/15

² انظر: المصدر نفسه: 7/16

³ حكمة القرآن لعبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، 2007م، ص 21

قوة الاستدلال ونعمة الاحتجاج قائلاً: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ" (سورة الأنعام: 83)، والقرآن ينتقد من يجادل بغير دليل وينكر آيات الله بدون حجة، فقال: "الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (سورة غافر: 35)، ويخبرنا عن من يجادل بغير علم وسلطان في الله ودينه: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" (سورة الحج: 8).

وإذا كان الأمر كما ذكر فالتقليد غير جائز عند القرآن لكل من يطلب الحق وأودع الله فطرة الإنسان العقل والعلم والفكر، كما أودعه السمع والبصر، وقال الفراهي: "إذا لم يستعمله بطل عمله وضاع سعيه".¹ فقلة الفكر تغفله عن فطرته واستعمال عقله، و"تعميه عن الدلائل الباهرة"،² فالتقليد واتباع دين بغير فكر وعلم أودعه الله في فطرة الإنسان، مرض من أمراض العقل والقلب فيمنع الناس عن الحق وكثير من الخير والمعالي والمكارم، وأكثر القرآن من ذكر أدواء القلوب التي تزيع عن الصراط السوي وذكر الله. قال الله تعالى: "فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا" (سورة البقرة: 10)، وإن يسقم هذا العقل فيسقم الفؤاد وبه تكون القلوب قاسية، قال تعالى: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً" (سورة البقرة: 74)، وقوله: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (سورة المطففين: 14)، وقوله: "أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (سورة النحل: 108)، فتبين أن مرضهم الذي حملهم على الغفلة والغشاوة والرين والقساوة صار لهم عائقاً عن الفكر والذكر واستخدام العقل الذي أودعهم الله فلم يبصروا ولم يفهموا آيات الله في الآفاق والأنفس وما جاء به القرآن من الدلائل الباهرة والأمثال الواضحة وحجج الله البالغة فقال فيه القرآن: "رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

¹ حجج القرآن لعبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، 2009م، ص 102

² المصدر نفسه، ص 102

فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ (سورة التوبة: 87)، وقوله: "وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ" (سورة المدثر: 31). فلو لا هذا السقم لفهموا هذه البراهين وأبصروا، فإن العلم كان موجوداً في فطرتهم ولكن لم يصلوا إليه وهو أوضح في هذا القول: "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً" (سورة الجاثية: 23). قال الفراهي في تفسير هذه الآية: "فبين العلم كان موجوداً عنده ولكنه غفل عنه... (وهو) كمن فقاً عينه فلا يرى برؤه".¹ رأى ابن كثير وغيره من بعض المفسرين أن العلم في هذا الموضع جاء في معنى الحجة فقال ابن كثير: "يحتمل قولين أحدهما: أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، والثاني: أضله الله بعد بلوغ العلم وقيام الحجة عليه".² يحرك القرآن الكريم قلب الإنسان في كثير من مواضعه للتبصر والتأمل في آيات الله ودلائله، وإزالة الكسل وإهمال العقل والجمود في حسه وفهمه عن طريق إكثار الأمثال وتكرار المشاهد وإثارة فطرته وعاطفته للخير والجمال ليقبل دعوته إلى الإيمان على علم وبصيرة. قال الفراهي: "كان أفخم جانب الآيات وأقدمه هو الخطاب إلى الإنسان من جهة فطرته، ودعوته إلى الحق من جهة بصيرته، كما قال تعالى أمراً نبيه: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي..."³ هذا أساس هذا العلم وهو الذي يبحث عنه علم حجة القرآن، فلا نحتاج إلى هذا العلم إلا لفهم ما جاء به القرآن من الأدلة، فكأن معظم آيات القرآن تدل عليه. فوائد هذا العلم يعني إدراك أدلة القرآن كثيرة، ومنها (أ) أنه يحزر العقل من سائر القيود التقليدية والأغلال الظنية، ويطلقه من إसार الأوهام والدجل، والخرافة كما يمنعه عن الخوض في أمور الغيب والدين من غير علم وسلطان، فقال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ" (سورة غافر: 56). (ب) وحجج القرآن تربي العقل البشري من

¹ المصدر نفسه، ص 102

² تفسير ابن كثير، دار إحياء الكتب العربية، 150/4

³ حجج القرآن، ص 18

جهة فطرته على روح الاستقلال في النظر والرأي واتباع الطريق، ويكفل له الضمانات التي تقيه من الزلات والضغوط التي تأتيه من الأهواء والشهوات، وتنبذ كل تقليد لا يقوم على الحجة وتنكر كل نظر لا يبصر وكل عقل لا يتفكر في ظل وحي الله ونوره وبرهانه. والإشارة إليه في هذه الآية: "إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾" (سورة الأنعام: 50)، قال سيد قطب في تفسيره: "أن الإسلام ... يضع له (للعقل) القواعد التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها، وفق شريعة الله، فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك، والعقل بمصاحبة وحي الله وهواه بصير وبترك وحي الله وهواه أعى، واقتران الحديث عن تلقي الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي وحده. بالإشارة إلى العي والبصر، بالسؤال التخضيضي على التفكير".¹ (ج) فإن القرآن لم يفصل الأدلة ليحث الناس على التفكير والتدبر، فيترتب به العقل البشري، وعند الفراهي هذا من حكمة إيراد الأدلة بالإيجاز في القرآن،² وقال: "جعل القرآن موضع التدبر والفكر وحث عليه العقول فأكثر من التنبيه على ما يكون موضعاً ومادة لإعمال العقل، فمن ذلك قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٥١﴾" (سورة محمد: 24)، وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" (سورة طه: 54)، فأكثر من ذكر الآيات، وما هي إلا ما يحث الفكر والنظر، فلو فصل القرآن كل دليل بغاية البسط لم يكن تربية للعقول بل صارت الأفهام منفعة".³

أساس حجج القرآن على شهادة الفطرة: لقد دعا القرآن الإنسان إلى النظر في آفاق الكون ومعالمة من السماوات والأرض والشمس والقمر والتفكر في آلاء الله بعون من مبادئ فطرته والحجج الفطرية التي تبنى على شهادة الفطرة البشرية.

¹ في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، 2004م، 1097/2

² حجج القرآن، ص 130

³ المصدر نفسه، ص 132

والإنسان خلق على فطرة تقتضي العلو والرقى إلى أعلى المنازل والمكارم مع تنمية عقله مادياً وروحياً، ونفسه أعطيت بالفطرة قوة الإدراك والذوق والفكر والتمييز بين الحسن والقبيح عن طريق السمع والبصر والفؤاد والعقل ليدرك بما هو الخير عاقبة والحسن مآلاً. ففضله بها على سائر المخلوقات ويؤمن بالله الذي خلقه في أحسن تقويم وسخر له الأرض والسموات، ولهذا امتن الله تعالى عليه بهذه القوة أي قوة الذوق والفهم والإدراك والعقل، وأن هذه كلها سيسئل الإنسان عنها ويجب عليها الشكر له لأنها هبة الله العظمى له، فقال تعالى: "إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا" (سورة الإسراء: 36). والشعور بالشكر هو غاية العلم والإدراك فكل من يستعمل هذا العلم حسب ما أنعمه الله تعالى من الهوى الفكري وألهمه من معرفة الخير والشر "إِنَّا هَدَيْنَاكَ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كُفُورًا" (سورة الإنسان: 3). ولذا جعل الله هذه القوة الإنسانية الخاصة مناط التكليف لله ولا يجب العمل على الشريعة إلا العاقل البالغ شعوره لأنه لا يميل الإدراك إلى العمل بدون العقل ولذلك قال بعض الحكماء: "العقل حجة الله على جميع الخلق"، فقال الله تعالى مستدلاً على وجوب الشكر: "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" (سورة الملك: 23)، فدل سبحانه وتعالى على نكتة لطيفة، كما قال الإمام الرازي، "كأنه تعالى قال: أعطيتكم هذه الأنعام الثلاث مع ما فيها من قوى شريفة لكنكم ضيعتموه".¹

والشهادة الداخلية هي من أخص المباحث في دلائل القرآن فنذكرها من جهات:

= فإن القرآن الكريم يحتج بآياته على الناس بشهاداتهم الفطرية وهو أخص الجوانب في طريق احتجاج القرآن، فإن هذه الشهادات لا تخاطب الإنسان إلا لما تسلم فطرته، وإن هذه الدلائل الفطرية التي ملأ بها القرآن الكريم تفتح أمام

¹ تفسير الرازي، دار الفكر، 1981م، 30/73

العقل الإنساني عالمًا واسعًا للتفكير فيه والتفكير في آيات خالقه. والإمام الفراهي امتاز في هذا المجال بمهاراته في علم الحكمة، وعني بأشد العناية بإبراز ما جاء في القرآن من الشهادات الفطرية في كتابه "حجج القرآن" في مواضع كثيرة وكتبه الأخرى التي ألّفها حول مختلف جوانب القرآن، وسأقدم بعض النماذج في هذا الأمر: قال: "لا حجة أبلغ وأدمغ من هذه".¹ وأفخم هذه الشهادات يظهر أمامنا إذا يدعو الخالق مخلوقه إلى شهادة نفسه وبينه على ما في فطرته، ويناديه أن ينظر إليه، ويجعله شهيدًا على ما لا سبيل له إلى إنكاره، ذلك لأن إنكاره يعني إنكار نفسه. استشهد عليها الفراهي بآتي سورة القيامة وقال معرفًا بها:

"أما الشهادات الفطرية فإن الإنسان يشهد بلسان حاله على أمور وإنما ينكر بنفس تلك الأمور على طريق المكابرة. فالقرآن ينميه على شهادة فطرته، فإن الله تعالى جعل في الإنسان نفسه شهداء له على نفسه، ويناديه وهم يجيبون من بين جنبه، كما قال: "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ" ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٦﴾" (سورة القيامة: 14-15).²

وما هذه "الشهداء"؟ وهو يكشف الغطاء عنها قائلًا: "هذه الشهداء (1) إيقانه بالخارج (2) وبنفسه (3) وإرادته (4) واختياره (5) وعلومه (6) وتمييزه بين البر والفجور وسائر ما ذكرنا من مجاري اليقين الفطري".³

وإنما أشهده ربه بإقرار نفسه بلسان الحال واضطرار الفطرة. فلو لا فطر الإنسان على الإقرار الفطري لما أتم عليه الحجة. والفراهي يسمي هذا الطريق من احتياج القرآن "فطريًا واضطراريًا"، فأما الجوانب الفطرية التي يشهد عليها القرآن بلسان الحال ذكره أيضًا صاحب "الحجج"، وألخصه في نكات آتية:⁴

¹ حجج القرآن، ص 218

² المصدر نفسه، ص 218

³ المصدر نفسه، ص 218

⁴ المصدر نفسه، ص 219

1. "إيمانه بالغيب". ذلك لأنه آمن بالمشهود الحاضر، وبهذا الإيمان إنه آمن بما هو غير مشهود لحواسه، ومستدل من الأثر على المؤثر.
 2. "إيمانه بصحة حواسه". فإنه لو لم يؤمن بها لما استشهد بها على ما هو خارج عنه ولا على ما هو داخل فيه من الإحساسات.
 3. "إيمانه بصحة عقله". فإن ذلك منطو في استدلاله من المؤثر الداخل أو الخارج جاءه من غرف الحواس.
 4. "إيمانه بصحة قلبه"، وذلك منطو في قوة تمييزه بين الإصلاح والفساد، والخير والشر، وهو يشهد عليه بجميع أعماله وحركاته. فلو لا ذلك لكان جامداً صامتاً، لم يتفكر ولا اجتهد للنافع ضد الضار.
 5. "إيمانه بأصول الترجيح والاختيار عقلاً وقلباً". هذا منطو في أقراره بما هو الأحسن وبما هو الأقبح.
 6. "إيمانه بالعدل والحق". فإنه منطو في إنكاره حقاً لم يثبت عليه". (وسبب مكابرتة إنما هو اتباع الأهواء وغفلته عن الآيات والدلائل فيذهب إلى ما يناقض فطرته وعقله).
 7. "إيمانه بالفاطر". إيمانه بالفاطر الخالق منطو في إيمانه بما سبق.
- = وكان أهم أهداف القرآن هو إتمام الحجة على جميع الناس من جهة فطرة الإنسان وبصيرته أودعه الله في نفسه، كما قال تعالى: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ"، وقال الفراهي "ذلك لأن أول أمر الدين الإلهي هو الدعوة إلى الإيمان بعلم وبصيرة".¹
- = فمن يقرأ القرآن بأدنى تأمل يفهم أن دلائله أقرب إلى الفطرة، فكما قال الفراهي لا نحتاج إلى هذا العلم إلا لإزالة المعوقات الخارجة التي تغفلنا عن الشهادات الفطرية و"درك ما جاء به القرآن من الدلائل الواضحة".²

¹ المصدر نفسه، ص 18

² المصدر نفسه، ص 19

= فإن الاستدلال الفطري للقرآن مبني على اليقين الذي أودعه الله في فطرة كل إنسان، ما هذا اليقين؟ أجاب عنه الفراهي قائلاً:

"إن الاستدلال الفطري مبني على اليقين بما لا سبيل إلى إنكاره، ذلك بأن الإنسان مجبول على تسليم ما غرز في طبعه، فإن أنكره بلسانه صدّقه بأفعاله وشهادات أحواله فلا يكون إلا مكابراً صريحاً، وهذه قاعدة كلية وأصل راسخ..... في هذه المبادئ الفطرية... وأن الحجج الفطرية مبنية على مبادئ الحاكمية على النفوس، وأن التسليم لها ليس لها بالاختيار حتى ينكر به منكر، إنما هو مضطر بالإيقان بها بحكم فطرته".¹

= أن الله فطر الإنسان على فطرة تهديه إلى أسمى المنازل وهو معرفة خالقه والتقرب إليه وذلك بما جعل قوى السمع والبصر والفؤاد حاكمة عليها ومنبهة له بما هو الحق، فاستدل عليه بالحجج الفطرية التي تتعلق بنفسه وخلقه. قال تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (سورة النحل: 78). معنى هذه الآية تشبه الآية الثالثة والعشرين من سورة الملك التي سبق ذكرها. نقل الفراهي هذه الآية في إيضاح الطريق الفطري للقرآن وقال: "...أي حين أخرجكم كنعم لا تعلمون شيئاً ولكن جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لتكسبوا بها علماً ومعرفة، إنما يستعمله. وغاية ذلك أن تشكروا. لا يخفى أن السمع والبصر غرفتان للعلم، وكذلك الفؤاد فإنه يستعمل العلم الذي استحصله من الخارج من السمع والبصر، وإنما يستعمله حسبما يستعمله من معرفة الخير والشر".²

وللفؤاد مكانة عالية في أمر المعرفة وإدراك الحق وهذا الفؤاد إذا توجه إلى الأعلى والمؤثر أحس الإنسان نفسه بوجود الشكر لله تعالى لما عرف مما أعطاه من

¹ المصدر نفسه، ص 72

² المصدر نفسه، ص 74

النعم، فالفؤاد عند الفراهي الذي أكثر الكلام في علم الفطرة، ودلائلها ومبادئها، هو منبع العلم والإدراك من الداخل كما أن "السمع أصلان لعلم من الخارج". وحرره الله من الجبر والإكراه للابتلاء كما قال الله تعالى: "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"، فلا حياة إلا بالفؤاد ولا فؤاد من غير الحياة. والقلب الحي يقتضي الحياة بالاختيار والحرية والإرادة. وهذا التصرف وهو أصل الابتلاء له، وكل إنسان عاقل مسؤول عنه. وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: "إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً": "أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول لأن السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلًا". وقال إن العلم والمعرفة إما تكسب من الحواس أو من العقل. أما الأول فأشار إليه بذكر السمع والبصر، وإلى الثاني بذكر الفؤاد. والمراد من القسم الثاني هو العلوم المستفادة من العقل و"هي قسمان البديهية والكسبية"¹.

فهذا الفؤاد كان على أقصى درجاته وكمال سعادته إذا شكر ربه وآمن به على علم، وأدنى درجاته تصرفه عن الشكر والإيمان به. قال تعالى: "وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ" (سورة المطففين: 12).²

خصائص طريق الاستدلال للقرآن: فالعلم الذي يمهّد الطريق إلى معرفة هذه الدلائل القرآنية وخصائصها وترتيبها، كان على غاية الأهمية للانتهاء إلى السعادة الكاملة والدين الحق من نواح كثيرة بينها الفراهي وغيره من المفسرين، والتفت إليه الفراهي رحمه الله في مواضع شتى من كتابه وله خصائص يجب لنا أن نعرفها لفهم طريق القرآن في الاحتجاج. ومنها:

(1) إيراد الأدلة بالإيجاز: فإن أدلة القرآن بينت فيه بنهاية الإيجاز، وسبب عدم تفصيل الأدلة، كما ذكرنا قبل، تربية عقل البشر للتفكير والتدبر في آيات الله

¹ تفسير الرازي، 211/20

² راجع لرأي الفراهي في هذا الأمر: كتابه "حجج القرآن"، ص 71، 76، 82، 218 و 266.

وحججه ونداء فطرته. فحكمة إيراد الحجج بالإيجاز هو التربية والتدريج والتقدير ليربي عقول الناس ويهديهم إلى ما قدر لهم من المنازل والأعمال، أشار الله إلى هذه الحكمة بقوله التالي: "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ" (سورة الأعلى: 2-3). قال الفراهي في دلالة هذه الآية: "أي هدى كل قوة لما قدر له العمل والمنزل، وذلك بأنها لو عطلت لم تكمل، فإن نشأتها بكدها وجهدها، بأن حقيقتها البروز. والخلق أولاً إبراز من العدم، ثم إبراز ما أودع الخلق من القوى بعد بروزها، كما قال الله تعالى: "الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ" (سورة النمل: 25)، وقال "خَلَقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِ" (سورة الزمر: 6). فأعطى الخلق حسب ما استعد، كما قال الله تعالى: "وَأَتْلُوكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ" (سورة إبراهيم: 34)".¹

(2) أدلة القرآن تربي العقول: جاء في الآيات السابقة الخلق ثم التربية والتزكية ثم الهدى، فهذه سنة الله في جريان خلقه وربوبيته وبنزله شريعته كما سبق، فعلى هذا الترتيب يستدل القرآن على أولويات الهداية من الدين، والتوحيد، والعقائد وأحكام الشريعة ولكن علق تربية العقل الإنساني بالجهد والعمل.² ظهر به أن القرآن يدعو الناس إلى التوحيد ثم يحثهم على الخوض والتفكير للتحرير من أقفال الجمود والغفلة، قال تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۖ" (سورة محمد: 24)، ويرى الفراهي أن تربية العقول لازمة لفهم أدلة الله على الدين والشريعة، فقال: فأكثر من ذكر الآيات، وما هي إلا ما يحث الفكر والنظر، فلو فصل القرآن كل دليل بغاية البسط لم يكن تربية للعقول بل صارت الأفهام منفعة، وعلى هذا فالقرآن لا يخالف سنة الله في الخلق والتربية".³

¹ المصدر نفسه، ص 131

² أنظر للتفصيل: المصدر نفسه، ص 131-133

³ المصدر نفسه، ص 132

(3) لا إكراه في الاستدلال: إن القرآن الكريم يتم الحجة على ما يطلب بها فقط، ولا يكره المخاطب للإيمان بدعوته والحجة الصحيحة ولا يلزمها أن تضطر الناس للإيقان بالمطلوب، وإنما المطلوب هو إتمام الحجة بأن تكون لازمة لما سلمه المخاطب فطرة أو اضطراراً، فدعوته إلى الإيمان بالله وطاعته من أولها إلى آخرها تبنى على الدلائل القوية فلا يحتاج إلى الإكراه كما مرّ. هناك شبهة توجد في بعض النفوس حول حجة القرآن، وهي أنهم إذا جاء بحجة لهم ولم يجدوا الإيقان به في أنفسهم أنها غير الصحيحة، وهو ظن لا دليل له، فقال الفراهي المانع أمران: (أ) اتباع الشهوات: إن الاضطرار إنما يمكن في المحسوسات لأن الحواس منفعة، أما المعقول فالنفس (أي الفؤاد) فيه فاعلة بالتصرف والاختيار والإرادة كاملاً فلا يمكن فيه الاضطرار، فمن أراد أن لا يسمع أنك لا تضطر السمع وإنك لا تضطر للنظر من لا يريد أن ينظر ويبصر.¹ النفس تتبع الرغبات بالفعل فمن اتبع الأهواء غلب عليه الشهوات ومات فيه الشوق للمعالي والمكارم، الأهواء أكبر الأبواب للضلال وفساد النفس، كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "الأهواء من النوازع الخفية التي تسلل إلى قلب المرء تدريجياً حتى تسيطر عليه من حيث لا يشعر، فهو باب عريض من أبواب الضلال يجثم على صدر الإنسان ولا يوئد إلا الجور والظلم في أحكام المرء"،² وفضل على العلم والإرادة فلا يسمع ولا يفقه لأن الله ختم على سمعه وقلبه (أنظر سورة الجاثية: 23 وقد سبق الذكر فيها). وبسبب هذه الأهواء لا يستجيبون لدعوة إلى الخير والمعالي، كما قال تعالى: "فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ" (سورة القصص: 50). (ونقلها ابن تيمية في كتابه المذكور أعلاه في ذكر اتباع الأهواء وأثره في حياة الإنسان).

¹ انظر: المصدر نفسه، ص 220.

² الإمام ابن تيمية، د، عدنان بن محمد شاش، دار النفائس، الأردن: 572 نقلاً عن نقض المنطق لابن تيمية، ص 154

(ب) التشكيك والظن: المانع الثاني عنده هو التشكيك والظن المحض ضد الحق اليقين وهذا يضل المرء بسبب النظر في الحاضر المشهود لأن المشهود يظهر قبل الغائب وهو أشد تأثيراً للناس من غير المشهود. فقال الفراهي:

"مما ذكرنا تبين أنه لا إلهاء ولا إكراه في الدلائل. وإنما الهداية والتوفيق لقبول الحق يأتي لمن يريد الاهتداء ويطلب الحق ويقهر نفسه على الإذعان له. وقد نبه القرآن على ما ذكرنا في غير موضع".¹ استشهد عليه ببعض الآيات الدالة عليه، فمنها:

"وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٣﴾". (سورة يونس: 42-44).

ومنها قوله تعالى: "فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَمْرَبِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٥﴾" (سورة الروم: 52-53).

فثبت أن كل من ضيع قواه الفطرية وذهب بصر قلبه فلا يعيش في هذا الدنيا إلا كمن كانوا صمًا وعميانًا، فلا يمكن له أن يسمع نداء فطرته ويجيب لمن دعاه إلى الخير. ومنها قوله تعالى: "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٥٦﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾" (سورة الفرقان: 43-44). فاحتج به على أن من اتبع الأهواء والشهوات وغفل عن العواقب والخير ضاعت قواه من السمع والبصر والعقل والفؤاد، فهو كالأنعام بل أضل منهم لأنني لم أر أحدًا من الأنعام من أضاع فطرته وذهب إلى من هو ضدها فلا يمكن أن يعقل لسوء اختيارهم. وكما قال الفراهي: "في هذه الآيات

¹ حجج القرآن، ص 221

سعى الصم العمي من لا يعقل ولا يهتدي إلى الحق الذي يدل عليه السمع والبصر. فظاهر سمعهم وبصرهم كمن لا سمع ولا بصر".¹

هذا هو الهدف الذي استدل عليه القرآن بهذه الآيات. فإن الإيقان بالحق لا يأتي من باب الإكراه وإنما يأتي بالعقل والبصر، فإذا لم يغمض الإنسان عن الخير والحق واستعمل قوة بصره وفكره وفؤاده له أراه الله آياته في الآفاق والأنفس وهداه إلى الحق اليقين. فلا مجال للإكراه على هذا الأمر. قال الإمام الفراهي رحمه الله: "وليس ههنا إلهاء من النبي والمرشد، وإنما هو يتلو عليه الدلائل، وكذلك لا إكراه من الله تعالى، وإنما هو يعطي الهداية لمن اجتهد لها وطلبها. ولذلك قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ" (سورة يونس: 44). ولذلك قال: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ".²

(4) نظام خاص لذكر الأدلة: وللقرآن نظام خاص لذكر الأدلة، فخلط الحجج الأفاقية والأنفسية واللمية وجمع بعضها ببعض في آيات الآفاق والأنفس في إثبات التوحيد والآخرة والرسالة، ومزج كلها في آيات التزكية والتربية، وفي آيات الإنذار والتبشير. وما ذلك إلا لتربية النفس، وهو أيضًا من حكمة الدعوة، فهو مثال واضح لما جاء في الآية: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" (سورة النحل: 125). فأول من ذكر هذه الميزة لطريقة الاستدلال القرآنية ذكرًا واضحًا هو الفراهي، فإنه أكثر استشهاده بهذه الآيات على الحجج القرآنية في كتابه هذا. فقال: "مزج أقسام الأدلة الأفاقية والأنفسية واللمية، ومزج الدعاوي الثلاث، ومزج العقائد بالأحوال والأعمال، ومزج الأدلة بالتنبيه على القوى الباطنة المستعملة فيها. وذلك لأن النفس وما تصادفه كلاهما في حالة التركيب. فالتدبير في

¹ المصدر نفسه، ص 221

² المصدر نفسه، ص 222

تعليمها هو رعاية جميع ذلك معًا، كما أن الطبيب يراعي إصلاح أعضاء المريض ويركّب الدواء بحسبها¹.

ولجمع الأدلة في موضع واحد فإن أمثلته كثيرة في القرآن فلا حاجة إلى ذكرها إيجازًا أو تفصيلًا. ومن الآيات التي جمع الله فيها أدلة مختلفة ما جاء في سورة الأنعام من الإيات 95-107، وعند الفراهي هو من "أجمع آيات للدلائل مختلفة" فقال عز وجل: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" (قال الفراهي إن "في فالق الحب والنوى" دليل على إخراج الحي من الميت وأسهل منه إخراج الميت من الحي، فإن السلب أيسر من الإعطاء)، ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفُّكُونَ، (وهذا ما علّق فيه الفراهي: أي فكيف تشركون به وأنتم تقولون بأن الخالق هو الله وحده، فالفالق للحب والنوى هو الخالق للموت والحياة، وهو الفالق للصبح والجعل الليل سكنًا، والمجري الشمس والقمر على قدر. فإن هذه الأفعال تصلح وتمد بعضها بعضًا، فلا بد من واحد عزيز لم يغلب على إرادته، قادر على موت وحياة وعلى جميع الخلق من السماء والأرض وإلى نواة، عالم بأحوالها ومقاديرها وأجزائها، فإن الخلق يلزمه العلم التام)، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (وهذا ما علّق فيه الفراهي: لكل روح قرار في الأمكنة المختلفة، ثم هو مستودع يخرج الله حسب آجاله).

فتأمل كيف جمع الله في هذه الآيات أدلة مختلفة واستدل بها على الألوهية والربوبية والبعث بعد الموت والرسالة، ومنج فيها الأحوال والأعمال، والمقادير والعقائد كلها. فهذا هو من ألطف الخصائص للحجة القرآنية.

¹ المصدر نفسه، ص 130

فمنذ أنزل كتاب الله على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تهدي الناس آياته إلى تقويم الفكر الإنساني وتسديد عقولهم ونأي الألوهية والمعاد والرسالة نظراتهم الدينية بدلائله الواضحة، وتنبيهه على حجية عقائد الإسلام، وارتباط شرائعه، وتكشف عن المعاني والمطالب التي تكفل صلاح الإنسان وسعادته في علمه وعمله، وحياته العاجلة والآجلة، فهو بناء يبني عليه فلسفاتهم العلمية والعملية كلها في عصرهم الذهبي، فتعددت واتسعت أنواع علومه وفنونه، وتنوعت واختلفت مجالات موضوعاته ومعارفه وحكمه من علم إعجاز القرآن إلى علم نظام القرآن (أي علم المناسبة) يومًا فيومًا، فهو بحر لا قرار له، وجبل لا يمكن قياس سموه، فإنه منبع العلوم كلها ومرجعها، ولا غرو، أن علماء الإسلام ومفكره قد جعلوه موضع عنايتهم منذ العصر القديم إلى عصرنا هذا، لأنه نزل منجمًا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتناولوه بالتدبر، ويختاروا تعاليمه لأنماط الحياة، ويكون دستورًا لحياتهم الفردية وحياتهم الجماعية، ومنهجًا وقائدًا للبشرية التي يقومها إذا زلت أقدامها، ويبصرها إذا زاغت أفهامها، كما قال الله تعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ". (سورة الإسراء: 9) وكل من يتدبر فيه يرى أنه منبج متكامل لتربية العقل البشري والفكر الإنساني، فهو بلا شك، كتاب الهدى، وكتاب التنظير والتشريع، كتاب العلم والمعرفة، وكتاب التعليم والتزكية والتوجيه، فتصوره في الكون والحياة البشرية، وخالفها، ويختلف عن كل التصورات الأخرى الأرضية الظنية، فليس هو ما تصوره فلاسفة الفكر اليوناني، أو ما توصل إليه علماء الفكر الغربي الحديث، فهو منبع صاف تنهل منه حياتهم كل حين في جميع أصول أخلاقهم وآدابهم، حتى تجد تاريخ الثقافة الإسلامية من حيث إنه ازدهرت فيه أنواع من العلوم والمباحث حول القرآن الكريم فتجلى بها تاريخ الثقافة الإسلامية وتجملت صورته، ونبغوا في جهودهم في التفسير، واستنباط الأحكام الإسلامية، واستخراج الأصول الفقهية، وتوضيح مقاصد

الشريعة، ووضع قواعدها، وتصوير الأفكار البشرية، وتسديد تصورات حياتهم الفكرية، حتى اهتموا به إلى مسالك البيان والبلاغة وقواعد النحو واللغة، وصنعة المفردات الدينية والمصطلحات العلمية، ورجعوا إليه ذاته حينما بحثوا عن بلاغته وإعرابه، وتاريخه وتدوينه، وإعجازه البياني ونظامه المعنوي، وتنسيق كلماته وترتيب آياته وسوره وتناسب أجزاءه ووحدة مطالبه وموضوعاته، وغيرها كثير من أنواع مطالبه الهامة ومباحثه القيمة.

فتوالى الكتب والرسائل التي ألفها المؤلفون الإسلاميون في تفسيره وعلومه، وتتابع الجهود العلمية حولها، وتنامت الدراسات المستقلة تحت رأيته في تحقيق موضوعاته والبحث عنها، فهذه الكتب والدراسات أكثر من أن تستقصى في هذا المقال الموجز، وإن هذا العصر الذي كانت ثورة المعلومات والاكتشافات العلمية، من أظهر ملامحه، لقد سعد بأنه يشهد أيضًا بواور صحوة دينية ونهضة قوية في هذا الميدان، وأمثلة هذه النهضة والانتعاش كثيرة، فمنها ما تراه في حركة قوية لترجمة القرآن إلى أكثر لغات العالم المعروفة المتنوعة، وما تجده من تفاسيره الجديدة لعلماء التفسير وعلومه، واهتمامهم بفهم مطالبه، وإقبالهم على تدوين علومه المتعددة منهم من أفضل علم مفسرًا أو متوجهًا ومنهم من عني به أديبًا وباحثًا، ومنهم من ينهل في هذا المنهج الصافي فيلسوفًا ومتكلمًا، ومفسرًا وباحثًا، ومؤلفًا وأديبًا، وبالجمله هو الهادي لهم في جميع مجالات العلوم والأخلاق والفلسفات.

هذا دليل على حبهم الشديد له، وعلاقتهم الدينية، والتشريعية والعلمية به، وإضافة يثبت مما سبق أنّ المصدر الأول في الإسلام للاستدلال لكل مجال من مجالات الحياة الإنسانية هو القرآن الذي يملئ إلى الإنسان دين العقل والفطرة، ويتكلم بأدلة يجتهد بها في أمور الكون والخلق، والديانة، ويستنبط بها الأحكام، ويفتح بها باب الفهم والنظر والحرية الفكرية المستقلة، إن القرآن يحرض الإنسان على استعمال العقل والتفكير في الخالق وخلقهم وعالم الجن والإنس وفطرته، كما

سبق الكلام فيه. وأما المذاهب الفلسفية فكل منها يعتمد على محض الظن، وهي تخرج أحياناً الإنتاجات التي تناقض العقل الصحيح، وتذهب أحياناً أخرى إلى ما لا يوافق بالعلم اليقين والفطرة وماتقتضيه، ومن ثم كان الفرق بين منهج القرآن والمناهج الأخرى في تعريف العقل والفطرة، والعلم والتجربة، والاستدلال على حدوث العالم، ووجود خالقه وآياته، فكان للعقل مكانة رفيعة في فهم آيات الله وكتابه العزيز. فلا يمتنعنا عن استعماله في أمور الدنيا والآخرة، بل يحث على استعماله الصحيح من جهات مختلفة لتكميل عقولهم بتعليم الكتاب والحكمة.

فدراسة هذا العلم -أي علم الحجة- هو أصل علوم وإعمال الفكر في حجج كتاب الله وفهمها كان مطلوباً من كل مكلف في الإسلام، لتوجيه مفهومه ومطالبه بتعرف ما يحتاج عليه ولكن الذين يحسنون في هذا المجال فهماً بأدلته والاستدلال بها على قضايا مختلفة من الكون والدين والحكمة والهدى، والذين يقدرّون على تطبيق أدلته على الحياة البشرية بمراعاة فطرتها قليل بين العلماء المسلمين والمفسرين بآياته. فوجب لذلك على العلماء والمفسرين الالتفات إلى هذا العلم العظيم ولتكن طائفة منهم يفقهون حجج القرآن ويعلمون الناس بها ويوضحونها على الطريق الذي جاء به القرآن ليحسنوا في إدراكها والتحقيق فيها.

الإمام عبد الحميد الفراهي هو من أبرز العلماء الذين اجتهدوا في هذا المجال وعرفنا بأهمية علم حجة القرآن البالغة. فألف كتابه الجليل "حجج القرآن". ولم أجد مباحث حجة القرآن في غيره من الكتب الأخرى في العلوم القرآنية إلا أصواتاً خافتة وكلمات متفرقة ظاهرة، فلا أستطيع في هذا المقال الموجز أن أتناول الموضوع من كل جوانبه وأجمع كل ما جاء به العلماء في مؤلفاتهم تحليلاً وانتقاداً، ولكنني اقتصرته فيه على الإحاطة بالكتاب المذكور للفراهي وتحليل مباحثها المهمة..

نبذة عن مؤلف كتاب الحجج: ولد عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان حميد الدين، أبو حامد الأنصاري الفراهي في قرية "فريها" من أعظم كره في الهند يوم

الأربعاء السادس من جمادى الآخرة سنة 1280هـ، كان المؤرخ الشهير والأديب الكبير العلامة شبلي النعماني ابن عمته وبدأ الفراهي تعليم اللغة العربية منه كما تعلم اللغة الفارسية والعلوم الدينية على كبار مشائخ عصره ودرس الأدب العربي على شاعر العربية العلامة فيض الحسن السهارنفوري، ثم التحق بجامعة عليكره (التي كانت في وقته كلية)، فعني بدراسة الفلسفة الحديثة والعلوم العصرية وآدابها وبلغ إلى نهاية التبحر فيها.¹

فإنه كان إماماً في العلوم الشرقية العربية الإسلامية وعالمًا بالعلوم العصرية الغربية وآدابها، ونال درجة الامتياز في الفلسفة، فكانت شخصيته جامعة بين الثقافتين الإسلامية العربية والغربية العصرية، وانفرد به بين معاصريه "فصار مجمع البحرين". وقال فيه الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي في مذكراته بأنه "نادر في علماء العرب، فضلاً عن علماء الهند". قد جمع أشتات العلوم والمعارف وبرع في اللغات العربية والفارسية والإنكليزية وكان عالماً باللغة العبرانية ودرس معلماً في العديد من جامعات الهند وكلياتها ولعب دوراً ريادياً في تأسيس بعض الجامعات والكليات والمعاهد والمؤسسات العلمية والدينية، وتطويرها، وكان من مؤسسي الجامعة العثمانية المركزية بحيدرآباد (الهند).

وامتاز مؤلف هذا الكتاب في الفلسفة القديمة والحديثة، واشتهر بأفكاره القرآنية واجتمع له من المؤلفات القيمة الكثيرة في حياته القصيرة ما لم يجتمع إلا لقليل من أفراد أهل النظر والبصيرة، ولم يؤلف الإمام الفراهي كتبه إلا لعلماء العالم الإسلامي ومنها "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، و"إمعان في أقسام القرآن"، و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح"، و"جمهرة البلاغة". حلل أجزاء كتاب الله والوحدة الموضوعية بين آياته وسوره كلها. وهو عنده من أعظم

¹ أنظر ترجمة المؤلف من العلامة السيد سليمان الندوي في كتاب "إمعان في أقسام القرآن" للفراهي، دار القلم، دمشق، 1994م، ص 15

القواعد وأقوى الثوابت لتأويل كلام الله وأهم الوسائل إلى فهم مطالبه، سيأتي ذكره فيما بعد، ومنها "أساليب القرآن"، و"مفردات القرآن"، و"التكميل في أصول التأويل". ومن يمعن النظر في كتبه الجليلة هذه يعترف باتساع معرفته وعلو فضله وسداد رأيه ودقة استنباطه وعلمه الجامع بين الثقافتين، الشرقية الإسلامية والعصرية الغربية، وعلو كعبه في علوم القرآن والشريعة الإسلامية ومنهجه الفريد في تفسير القرآن، وعظمة شأنه في البلوغ إلى منتهى نظام القرآن وما فتح الله عليه من علومه ولطائفه.

كانت له نظرة عميقة في كتب المتكلمين والفلاسفة يمكن تقدير ذلك بأن السير سيد أراد في زمن طلبه للعلم في علي كره أن ينشر كتاباً للإمام الغزالي في علم الكلام فسلمت نسخه المختلفة إلى العلامة الفراهي تحت إشراف العلامة شبلي والشيخ حالي ولكن بعض أجزاءه كانت قديمة وغير واضحة الخط تصعب قراءتها فأشار هذان العالمان على السير سيد أن يفوض هذه النسخة للعلامة الفراهي فإنه سوف يملأ الفراغ بالكلمات الصحيحة فتحير السير سيد كيف يمكن أن يقوم طالب صغير بما لم يقم به الأساتذة الكبار ولكنه فوّض هذا الأمر إلى الشيخ الفراهي فيقول العلامة شبلي: "وذهب بها الشيخ الفراهي إلى بيته وكتب في الأمكنة الفارغة ألفاظاً مناسبة بذوقه للغة الإمام الغزالي ثم قابل السير سيد تلك النسخة بنسخ أخرى فوجد أن محاولة الشيخ الفراهي إما مطابقة للعبارات الأصلية للكتاب تماماً أو قريبة منها.¹

والقرآن كان أحب الكتب إليه وإن العلم الذي استولى على عقله وخاطره وحياته كلها هو علم القرآن فاشتغل به اشتغالاً منقطع النظر، ولم يشتغل عنه بعلم أو بشيء، فبلغ فيه إلى منزلة عالية لم يبلغها إلا القليل من العلماء، فهو، ولا غرو، يعدّ من أعظم رجاله وأئمة فنه فلقب بـ"ترجمان القرآن" من قبل معاصريه، وكل

¹ ترجمة المؤلف من أمين أحسن الإصلاحي في تفسير نظام القرآن للفراهي [بالأردوية]، ص 10

ما أخذه من العلوم العقلية والنقلية وكل ما درسه من اللغات وآداب الشرق والغرب وكل ما برع فيه من الدراسات الفلسفية الحديثة والقديمة إنما استعملها لخدمة فهم القرآن، ولم يستخدم إنجازاته العلمية التحقيقية كلها إلا لخدمة هذا الكتاب فيقول العلامة السيد سليمان الندوي:

"جمع علومه من كل مكان ففضى فيه أكثر عمره ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات من العلماء، وقد ألف ما نشروا ولمّ ما شتتوه وحقّق ما لم يحققوه، فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته وقلمه يجري كشفًا عن معضلاته".¹

فمنحه الله حظًا وافرًا من علم القرآن وفهمه وفتح عليه ما شاء منه من حكمته وأدبه والكشف عن نظامه والنظر في مباحثه المهمة عن مسائل الدين والعلم والحياة البشرية، وليس بين مؤلفاته الفراهي شيء خارج عن القرآن وقد ألف كتبًا كثيرة في موضوعاته المتنوعة. وكل موضوع يدور حول مبحث خاص من مباحث القرآن. ففضى معظم حياته فيه، وله الفضل الأكبر في ندرته في تفسير القرآن، ونبوغه في تفسير كتاب الله وتأويله يرجع إلى التزامه بنظام القرآن وبيان دقائقه عند التفسير، وهو لا يهمل عن إيضاح أهمية نظام القرآن والترابط المعنوي بين أجزائه كلها، فالكلام عنده "إنما هو نظامه"، وهو يرى أن لكل سورة من سورته موضوعًا رئيسيًا سمّاه "عمود السورة" والقرآن كله ككلمة واحدة بوحدة الموضوعية ونظمه المعنوي، فمن خفي عليه هذا الإقليد لا يمكنه أن يبلغ إلى مفاهيم قصدها، فعنده تأويل القرآن يستند على المقياسيين: أولهما نظام القرآن والآخر تفسير القرآن بالقرآن، فالمرعاة بهذا النظم عنده هو الطريق الصحيح لتأويل القرآن والتدبر في آياته لأنه يكشف القناع عن معارضات الكلام واحتمالاته، وهو مفتاح كنوزه المكنونة، ولم يقتصر على هذا التأكيد في كتبه

¹ إمعان في أقسام القرآن، ص 17

المختلفة فقط، بل أفرد كتابه "دلائل النظام" لإيضاح هذه الفكرة والاستدلال عليه، وقد ألّف عدة كتب كمقدمات لتفسيره، نظام القرآن.

لمحات عن "حجج القرآن" للفراحي: وأخيرًا أريد أن أعرف هذا الكتاب والمطالب التي يشملها بالإيجاز. طبع الكتاب أولًا في سنة 2009م من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح (أعظم كره، الهند). وجميع مطالبيها أكثر من 160. وإذا رأينا نسخة الكتاب التي وصلت إلينا تبين أن المؤلف سوّد كتابه أكثر من مرة. وقد أنهى هذا العبد الضعيف بعون الله تعالى ترتيبه وتوثيق النقول من مسوداته المختلفة وأقوال المتكلمين والفلاسفة الواردة في الكتاب كله.

إن هذا الكتاب هو كالجوهر الأكبر من المشروع القرآني للفراحي فإن الكتاب ليس جزءًا أساسيًا لمشروعه العظيم لتحقيقاته القرآنية فحسب، بل هو محلّ الجزء الأعظم من علوم القرآن عنده. وذكره في مقدمته من حيث "الركن العظيم" في جميع علوم القرآن، فقال: "فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله".¹

فيجب على الباحث لـ "حجج القرآن" أن تكون له مهارة تامة في هذين العلمين أعنى (1) أن يكون ماهرًا بالعلوم القرآنية وأن يؤدي حق التدبر (2) وأن يكون مطلعًا تمامًا على أسرار الفلسفة الجديدة والقديمة وهناك لا بد من امتلاك خصيصة ثالثة أيضًا وهي أن تكون له مهارة تامة في اللغة العربية وعلم البلاغة من حيث إنها لغة القرآن الكريم ونستطيع أن نقول في شأن العلامة الفراحي، ولا نبالغ في ذلك إنه كان ماهرًا بصيرًا في هذه المجالات الثلاثة وليس له مهارة تامة بالمنزل وطريقه وجهته فحسب بل كان له علم جم بما كان بين الجادة والمنزل من مشاكل هذا الطريق، وكان العلامة بحرًا زاخرًا في هذه العلوم كما كان "مجمع البحرين"² لعلماء

¹ حجج القرآن، ص 17

² إمعان في أقسام القرآن، ص 16

عصره كذلك ودليل ذلك موجود في إنتاجاته العلمية والتحقيقية وانتقاداته العلمية على علماء الفلسفة سواء كانوا من القدامى أو من معاصريه.

حجج القرآن كمقدمة لتفسير الفراهي: حجج القرآن من أهم كتب العلامة الفراهي الذي قد ألفه لفهم القرآن ومباحثه المختلفة، وهذا جزء لمشروعه العظيم للدراسات القرآنية الذي يضم اثني عشر كتاباً، وإذا ألقينا نظرة عابرة على مشروعه هذا علمنا أنه إذا تم هذا المشروع بلغ العمل العظيم لتدوين العلوم القرآنية إلى النهاية، ولكن هذه الخطة غير مكتملة إلا أنها تفتح الطريق إلى العلوم الإسلامية ومعارف القرآن لطلاب القرآن الذين إذا مضوا عليها كانت لهم ثروة كاملة، وهذه المؤلفات تنقسم إلى جزأين أساسيين، ظواهر القرآن، وبواطنه، فالخمس منها تتعلق بظواهر القرآن، والسبعة منها متعلقة ببواطن القرآن، ومن المهم أنه قد اختار ترتيباً منطقياً في مؤلفاته عن القرآن، وكما قال: "المقصود من الكل فهم القرآن حسب مراده".¹

فالكتب التي تتعلق بظواهر القرآن أي أسلوبه وكلماته ومفرداته وأصول تأويله ونظمه وتاريخه هي (1) تاريخ القرآن، لم يكتمل (2) ومفردات القرآن (3) وأساليب القرآن (4) والتكميل في أصول التأويل (5) ودلائل النظام. والكتب السبعة الأخرى هي كما يلي:

1. حكمة القرآن
2. وحجج القرآن
3. والقائد إلى عيون العقائد
4. والرائع في أصول الشرائع
5. وإحكام الأصول بأحكام الرسول

¹ رسائل الإمام الفراهي، حكمة القرآن، ص 9

6. وأسباب النزول

7. والرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

موضوعه وأهداف كتابته: كتاب الحجج من الكتب الفريدة التي ألّفت في علوم القرآن وهو عبارة عن البحث في أدلة القرآن البالغة وطريقته في الاستدلال وإثبات فضله على طريق الاستدلال للفلاسفة والديانات المزعومة مع إيراد الأمثلة عن حججه العالية، وهذا الكتاب أيضًا يدل على المنهج العلمي التحليلي للفراهي، وحفل كتابه بأنواع المطالب حول مباحث الحجة القرآنية المرموقة، وكل نوع من هذه المباحث التي ذكرها بالإيجاز أو بالتفصيل في هذا الكتاب، حقيق أن يقوم بتحقيقه محقق بارع، ولكن هذا الموضوع لم يكن معروفًا عند الباحثين والدارسين، وهو جديد من كل جهة في هذا المجال. فجاء بنظرات جديدة وأدلة نادرة وتحقيقات بارزة في الكتاب وجادل به أهل الفلسفة والمنطق وناقشهم ليظهر فضل كلام الله وأدلته العالية على كلامهم وأدلتهم فحمل لواء القرآن وأثبت أن مذهب الفلسفة يسوق الناس إلى الضلال والضرار وأما طريق القرآن في الاحتجاج فيقود عقول الناس ونظرياتهم إلى ما هو أجلي وأنفع، وأنه بهذا التأليف اتبع حكم الله: "جادلهم بالتي هي أحسن"، وعلا صوته لعلّو حجته كما قال الله: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيَّةُ".

ومن فوائد هذا العلم أنه تبين عن المنهج الحقيقي للدعوة الإسلام والإيمان بالله ودينه الحق، وإلى الطريق الأحسن للمجادلة يهدي إليه القرآن، ولم يبلغ إليه الفلاسفة من الشرق أو الغرب، فغفلوا عن حكمة القرآن ودرجته القصوى في الاستدلال، فإن الدعوة إلى الحق أو تعليم الكتاب والحكمة من أول أهداف القرآن والنبوة المحمدية، كما قال الله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ". فبين المؤلف أهمية هذه الدراسة وموضوعها وحقيقتها وأهدافها في عدة مواضع من الكتاب. فيبدأ بعد الحمد والصلاة كلامه في خطبة الكتاب قائلاً:

"فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله وأول أمر من نعت هذا النبي صلى الله عليه وسلم وآخره، وهي أربعة: تلاوة الآيات والتزكية، وتعليم الكتاب، والحكمة كما سبق، قدّم تلاوة الآيات وختمها بالحكمة، فهاتان كالبذر والثمر وما بينهما طريق الوصول والأعلى".¹

"فإنها الأصل كما يتلو، وكان أفخم جانب الآيات وأقدمه هو الخطاب إلى الإنسان من جهة فطرته ودعوته إلى الحق من جهة بصيرته وذلك بأن أول أمر الدين الإلهي هو الدعوة إلى الإيمان بعلم وبصيرة، كما قال الله تعالى أمرًا لنبيه: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" (سورة يوسف: 108)

فعلم حجة القرآن عنده هو "من العلم الذي يبين الطريق إلى فهم هذه الدلائل حتى ينتهي إلى الحكمة التي هي نهاية السعادة" فإنه كما يقول: "على غاية الأهمية من جهات كثيرة". فبين أهميته من ثلاث جهات: (1) "من جهة كونه أساسًا مفتاحًا" (2) من جهة أنه خطاب إلى أعلى ما في فطرة الإنسان من العلم والرشد (3) من جهة أنه الفارق بين الدين الحق الذي بني على الحكمة والهدى والذي بني على محض التقليد والعمى.

والهدف الأساسي لهذه الدراسة عنده هو الإمعان في أدلة القرآن القاطعة من طريقة علمية جديدة مع العناية بالقضايا الجديدة العلمية الفلسفية. فإنه يخاطب عقولنا ويصلح قلوبنا بما احتج به الله على قضايا الدين والدنيا، ومن أهدافها أيضًا الكشف عن حقائق الدين وأسراره والنظر في جوانب الحكمة القرآنية من خلال "حجة الله البالغة"، فإن اكتمال الفكر الإنساني وعمل تنميته لا يمكن إلا بالرجوع إلى دراسة الاستدلال القرآني، فلا غرو أن هذه الدراسة في الحجة القرآنية إذا اكتملت، ونشأت بها حركات العلم والفكر من جديد للتدبر في

¹ حجج القرآن، ص 17-18

آيات الله والاعتماد عليها في البحوث الفكرية ومعالجة مشاكل اليوم تتحدى حياتنا وإجابة الأسئلة التي يستقبلها عصرنا هذا، ستجد العقول والأفئدة والمذاهب التنظيرية تصلح بها كلها، وتعديل بها المسارات الفكرية، والمباحث الفلسفية. ومن أهداف هذا الكتاب أيضاً التأكيد على أن القوانين الملكية والدولية ونظريات الحياة البشرية الجديدة لا يمكن تقويمها وإصلاحها إلا بالنصوص الإلهية، ومصدر هذه النصوص هو كتاب الله العزيز وأدلتها الفطرية كما سبق ذكره. ومن ثم يثبت المؤلف أن القرآن يضع بناء العلم واليقين على الفطرة وأنه لا سبيل إلى معرفة الحق والخير وكل ما يتصل به إلا ما يستدل به القرآن فليس للعقل سبيل في رده، وليس له أمر فيه إلا بالميزان الذي يحكم به القرآن، فهو فارق بين العلم والظن، وبين الحق والباطل، وبين الجهل والمعرفة، والفطرة لا تمتري فيه بل تصدقه وتؤمن به، فالعقل القائم على الفطرة يظهر شاهداً ولا يستطيع العقل والمنطق أن يحكم إلا بناءً على هذه الحجة القويمة.

وأما طريق القرآن في الاستدلال، "فإنها، كما قال المؤلف، أقرب إلى الفطرة ببياناً وأرسخ في القلب استدلالاً وأقوى لأهل العقل حجة على من ينكر به وأرقى درجة لمن يؤمن به، كما قال الله تعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ" (سورة ص: 29)، ويقول في استدلال القرآن: "فإنها ضرب إلى الفطرة قد صرح به كثيراً مثلاً في قوله تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ" (سورة العنكبوت: 49).

وكذا جاء المؤلف بمباحث كثيرة في كتابه وأرانا حجج القرآن البارزة من مختلف الجوانب. "يكفي هذا القدر للدلالة على منهج القرآن في ذكر حججه وإن ذلك هو أقرب إلى بلاغة القول وطريق الفطرة فإنه يخاطب العقل والقلب معاً ويركب الأدلة إلا نية مع اللمية، ويخطط بالدلائل ترغيباً وترهيباً، فكما ينبه العقول من رقدته فكذلك يحث القلوب من غفلته".

تعريف جديد لعلم الحجة: ولقد جاء الإمام الفراهي بتعريف جديد لعلم الحجة أو فلسفة الاستدلال على الحقائق التي تدل عليه آيات الآفاق الفطرية وحجج كتاب الله، فبين ما هو يوافق بالمعنى الحقيقي لهذا المجال من العلم والمعرفة، والحجة القرآنية معاً، فيقول فيه:

إعلم أن الحجة اسم من الاحتجاج وأعني بها إلزام أمر على الخصم مما هو مسلم عنده بطريق واضح لا يدع له مجالاً للأفكار إلا مكابرة ظاهرة" ويقول في موضع آخر: "الحجة هي إثبات أمر بما علمنا وإيقنا به، وذلك مبني على اليقين بصحة فطرتنا في علمها ومجاري أعمالها الأولية، فكل ما علمنا باضطرار الفطرة جعلناه أساساً، ثم جرى عليه قوى الفكر حسب فطرتها".

وهو أول من فرق بين الحجة وبين الدليل والآية، وأوضح هذا الفرق في فصل عنوانه "تعريف الحجة"... والفرق بينها وبين الدليل. فإن الحجة ما يثبت به الدعوى على المخاطب والدليل ما نستشهد به على أمر لأنفسنا والآية ما تدعو عقول الناس إلى التبصر والتدبر وتحثهم على الفكر والنظر فقال:

"اعلم أن الحجة ما يثبت به دعوى على الخصم والدليل ما تستدل به على أمر لنفسك أو على خصمك. والآية ما تبعث النظر والفكر فتستدل به على أمر، فهي كالمادة والسبيل للاستدلال. فالحجة أخص من الدليل، بولاية مادة لكلهما. لكني اصطلحت الحجة بحيث تشمل كذلك".¹

والقرآن يستدل كثيراً بالآيات ويذكر الآيات التي ينظرها المخاطب في الآفاق ونفسه، فهي كلوامع تجلب النظر و"قوارع تنبه الفكر" وأنوار تنور القلب والذوق. فالقرآن صرح بهذا الفكر كثيراً، منها "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (سورة الرعد: 3)، وقال تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (سورة النحل: 12) وقوله: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" (سورة الروم: 22)، أيضاً: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

¹ المصدر نفسه، ص 195

يَسْمَعُونَ" (سورة الروم: 23)، قال الله تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" (سورة آل عمران: 190).

إن الآيات الدالة على ذلك كثيرة في القرآن، والآيات التي أشار إليها القرآن في هذه
الآيات أيضاً كثيرة، وهي تحث الإنسان على استعمال عقله وفكره ونظره وقواه
الداخلية كلها أودع ربه فيه لما استدل عليه الله تعالى.

توزيعات جديدة ومصطلحات جديدة: وعرف مصطلحات جديدة في هذا
المجال وهذه المصطلحات دالة على أفكاره الأساسية وبرزته في علوم القرآن فمنها:
الحجة الاضطرارية، والعلم الاستدلالي، والعلم البديهي، والشهادة الداخلية،
الحجة الفطرية، والعلم النظري، والعلم الجذري، والاستدلال الأعلى، والدلائل
الظنية، والدلائل اليقينية، والظلمة العلمية، والآيات الأفاقية، والآيات الأنفسية،
وغيرها من المصطلحات الكثيرة التي وضعها أولاً أو استعملها أولاً للمعاني الخاصة.
إنه قسم أصول الأدلة على طريق جديد ولم يتبع فيه أهل الفلسفة والمنطق،
فبين هذه الحقيقة قائلاً:

"اعلم أن طريق هذا الكتاب ربما يخالف مذهب المنطقيين والفلاسفة والمتكلمين في
الاصطلاح والتقسيمات وفي الأصول.

الأسباب العائقة عما جاء به القرآن: بين المؤلف في كتابه بالتفصيل العراقيل
والأسباب المعوقة عن فهم ما جاء به القرآن من الدلائل البينة وعلم الحجة
يخاطب أولاً لمن استحوز عليه من هذه المعوقات فلم يدرك آيات الله وأدلتها، فهو
عنده كدواء لا يستعمل إلا لأجل المرض. فإليكم ملخص ما قال:

الأول: من الذين اشتغلوا بالكتاب والسنة وهم الذين يزعمون أن طريق العقل لا
صلة له بالتعليم الديني ولا حاجة إليه في تفسير الدين والشريعة الإسلامية، فلا
ندرس فيه إلا محض أخبار الأنبياء والآثار المنقولة عنهم والمعجزات، وأن الشرائع

كلها مبنية على أمر الله فيجب علينا أن نأخذها من غير معرفة الحكمة منها واستعمال العقل في فهم مطالبها والسبب الأساسي لقيامهم على هذا الرأي سوء ظنهم في الفلاسفة وعلم المعقولات، فيقول: "بما صاروا على هذا الرأي صرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها فكيف بالتفكير في دلائل القرآن". فانتقد فكرتهم هذه وبين أن ضلال الفلاسفة لم يكن لأجل العقل بل لغلبة الفلسفة عليهم ولكونهم بعيدين عن طريق الفطرة.

الثاني: السبب الثاني لتركهم الطريق الفطري الذي يستدل به القرآن هو اشتغالهم بالمنطق والفلسفة أشد الاشتغال، فزعموا أن الفلسفة المحض تقودهم إلى طريق العقل والاستدلال الصحيح، فصاروا عميأً عن الحق والحكمة القرآنية، وهذا لا يخفى على من نظر في زخارف المتفلسفين حتى لم يتخلص منها من آمن منهم بأمر الله والقرآن، فانتقد انتقاداً شديداً فلاسفة اليونان وأتباعهم من أهل الإسلام نحو أبي حامد الغزالي وأبي علي مسكويه وأحمد بن محمد الطوسي وغيرهم ممن ذهب إلى مذهبهم التفلسفي وهو يتعجب خاصة مما سلك عليه الغزالي قائلاً: "فمنهم من أبطل بعض أباطيلها وأبقى بعضها محسناً به ظنه كأبي حامد الغزالي رحمه الله، فإنه بين تهافت ما في إلهيات اليونانيين ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربى أولادها، وكذلك اتخذ أخلاقياتهم فبنى عليها كتاب "ميزان العمل" فلم يخرج اتباع الفلاسفة مع غلوهم ردهم".¹

الثالث: ومما منعهم عن العلم الحق أيضاً زعمهم الخاص بأن القضايا الأخلاقية هي من الأفكار المزعومة التي لا تحتاج إلى البرهان والأدلة المعتمدة على مبادئ الدين، وهذا من "أباطيل المنطق" كما ذهب إليه الفارابي وغيره من الفلاسفة، فلم يتفكروا في البراهين الربانية كما قال: "فلم يتفطنوا أنه يهدم الدين كله مع أنه

¹ المصدر نفسه، ص 21

يهدم جانباً عظيمًا من حكمتهم وهو الحكمة العملية"، (فإن القضايا الأخلاقية عند المؤلف ركن عظيم من حكمة الدين سمّاها "الحكمة العملية"، فينبه على ضرر هذا الزعم بقوله: "ولو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن ينقدوا أمره ويتقوا شره".¹

ثم يتعجب من توهس الغزالي بالمنطق ويبين أنه أخذه من اليونان ولو كان أخذه من أدلة القرآن كما يدعي، لكان محترّزًا عن أباطيل المنطق، فانتقد ما كتب في كتابه "محك النظر في المنطق" في "مدارك اليقين والاعتقاد" تحت سبعة أقسام،² ثم قال: "ولا شك أن استدلال القرآن لا يخالف ما صح من المنطق ولكن أين الجذوة من النور الأعظم والوشل من البحر الخضم ولو أنه أخذه من القرآن لكان محترّزًا عن أباطيل المنطقيين".³

الرابع هذا يتعلق بما غلب على بعض فلاسفة الإسلام من إلهيات الفلسفة أن قضايا التوحيد والربوبية إنما يحتج عليها حسب قواعد الفلاسفة، والأنبياء إنما بعثوا ليكملوا إقناعيات دينية وبراهين اعتقادية، وأما البرهانيات الحقيقية فلا تنشأ مبانيها إلا بأيدي الفلاسفة، ومن المفكرين المسلمين من قد ذهب إليه خاصة الفارابي وابن رشد، فقال: "هذا التوهم صرفهم عن فهم ما أنزل الله من الحكمة البازغة ولم يعرفوا قدره العظيم".⁴ فأورد المؤلف مثال هذه النظرية عن قول الفارابي الذي نقله عن كتابه "الجمع بين رأي الحكيمين".⁵

الخامس: والسبب الآخر لغفلتهم عن هذا العلم ودلائل القرآن هو ما أشار إليه القرآن "وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾"

¹ المصدر نفسه، ص 21

² المصدر نفسه، ص 55-58

³ المصدر نفسه، ص 22

⁴ المصدر نفسه، ص 24

⁵ راجع كتاب الفارابي، الطبعة الأولى، مصر، ص 29-39

(سورة يوسف: 105) وذلك لعدم النظر في آيات الله ولشدة ولوعهم بالمحسوسات الحاضرة وعلومها، وهذه الغفلة تغلق لهم أبواب المعرفة بما "هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة، فصاروا لا يرون إلا الظاهر المحسوس كالبهائم كما قال الله تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا" (سورة الأعراف: 179).¹

السادس: قد زعم أكثر الناس أن القرآن نزل على الأميين وهم الذين خاطبهم الله بآياته فيه فلا يتطلب منا إلى التدبر وإمعان النظر فيه وهذا الرأي من سببين: الأول: أنهم لم يعلموا أن العرب كانوا على أعلى درجات الذكاء والأدب ولا سيما في بلاغة الكلام وإيجاز الخطاب، والثاني، كمال يقول، أنهم لم يعلموا أن من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة "فأكد به أن القرآن انطوت فيه الحجج البالغة والمقدمات القيمة المستمدة من أصول الفطرة التي ينبع منها الاستدلال الحقيقي".²

السابع: وبه أشار المؤلف إلى الظن الذي غلب على أكثر الناس بأن القرآن قد كثّر فيه الاقتضاب والانتقال من موضوع إلى موضوع من غير ترابط منطقي وصلّة معنوية بين أجزائه، وممن ذهب إليه أحمد ابن حزم الظاهري (384-456) والشاه ولي الله المحدث الدهلوي (1116-1176) رحمهما الله، فذكر بهما في ذلك الموضوع ونقل نموذجًا عن كلام الشيخ الدهلوي على ما ذهبوا إليه، ثم قال: "هذا الظن صار سدًا شديدًا دون التدبر في نظم القرآن عمومًا، فخفي عليهم طرف عظيم من مطالبه المهمة وبلاغته العجيبة فضلًا عن دلائله اللطيفة".³

¹ حجج القرآن، ص 26-27

² المصدر نفسه، ص 27

³ المصدر نفسه، ص 28

هذا ما بينه المؤلف من الأسباب الداعية إلى تأليف هذا الكتاب وإظهار هذه الدراسة القرآنية الجليلة وهو من أخص المباحث لهذا الكتاب.

وبعد هذه الخطبة وهي خطبة الكتاب، كتب المؤلف جملة صالحة من مباحثه- وبما أنه توفي ولم يكتمل هذا الكتاب الجليل ولكن قيمته العلمية تظهر من كل فصل من فصوله المكتوبة- فيشتمل هذا التأليف على ثلاث مقالات وكل مقالة مشتملة على ثلاثة أبواب وكل باب من هذه الأبواب يتضمن، فصولاً مختلفة، المقالة الأولى وأبوابه تشتمل على نقده للمنطق والفلسفة وعلم الكلام، والمقالة الثانية كتبت في تأسيس العلم وتقسيمه والبيان في طريق الاحتجاج للقرآن والباب الأول من المقالة الثانية هو في "الميزان والمنطق الأعلى" والباب الثاني منها في "الحكمة البازغة" والباب الثالث في طريق الاحتجاج للقرآن وهذان البابان هما من أهم الأبواب والفصول من هذا الكتاب تفصيلاً وإطلاً ونقداً وتحليلاً واستدلالاً- والمقالة الثالثة تتضمن البحث في "حجج القرآن" وأمثلتها وهو الهدف الأصلي لهذا التأليف الجليل، وفيها ثلاثة أبواب، والباب الأول يحتوي على مباحث عديدة نحو "أدلة الربوبية"، و"جوه الاستدلال بالآيات الآفاقية على الإله الحق" غيرهما من المباحث المهمة، والفصل الأول من من ذلك الباب يتحدث عن المظاهر التي تبرزها الآيات الآفاقية استدلالاً على الإيمان بالله وصفات الكمال لذاته الأعلى والأكبر، فقسمها في سبعة أقسام بتعريفات واضحة ومصطلحات جديدة وهي:

- الحق الرائق في الموجودات.
- الموافقة الدالة على الحكمة والرحمة والربوبية والقدرة والعلم.
- وجود الضد من الضد.
- وجود المختلفات من المتحدات.
- ومظاهر العظمة والجلال في السخر المقهور.
- والتدبير القاهر المحيط.

- وكون الحق والعدل والخير غالباً على أضرارها.

وقد خص الفصل الثاني للبحث بالآيات الأنفسية، والثالث "بتمهيد ما بينه في الفصل الرابع من أمثال القرآن وحكمها لأن الحجة فإنها نوع من حكمة القرآن، وللمؤلف اختصاص في هذا العلم أيضاً، والفصل الآخر منه) والتأويل حسبما ظهر لي (...قد نبه فيه على جوانب لطيفة مما فتح الله عليه من لطائف القرآن وحكمته وبين ما بين فيه بأسلوب حكيم فذ، وأوضح فيه بأن الإيمان يحتوي مفهوم العلم فمن لم يوفقه الله لهذا الإيمان يبقى على جهله الحقيقي وأظلم عليه نور السماوات والأرض، فجميع العلوم والأعمال الصالحة يفرع من هذا العلم الحق وهما) العلم الحق والعمل الصالح (الذان لا يمكن الحصول عليهما إلا برافد هذا الإيمان، ولسوء حظنا لم يؤلف الفراهي البابين الآخرين من المقالة الثالثة على الخطة التي رسمها للكتاب، وهما - كما قيدهما في فهرس مطالبه -:

- الباب الثاني في أدلة المعاد وفيه عشرة فصول"

- و"الباب الثالث في أدلة الرسالة وفيه عشرة فصول"

فلم يكمل هذه المقالة على الوجه الذي أراده ولكن كلامه فيه مسهب، تجده مفصلاً في بعض الفصول من البابين الآخرين للمقالة الثانية وفصول متفرقة من الجزء الثاني.

الانتقاد على الفلاسفة والبيان في تفوق الحجج القرآنية: لقد كتب المؤلف في هذه الفصول والأبواب جملة صالحة من مباحث عالية، وعندي هي من أهم مباحث الكتاب، ومن أروع مباحثه، كما تبين من كلماتنا السابقة، ما جاء منه في الانتقاد على المنطقيين وأهل الفلسفة القديمة والجديدة وعلم بعون آيات القرآن وحججها البارزة، ومن أهم تحليلاته تحليله العلمي في تعيين مفاهيم الحكمة والعلم واليقين، والموضوعات التي تدور حول معرفة الفطرة والعقل السليم، والطريق إلى

تقسيم الأدلة، ومن أحسن كلامه على آراء فلاسفة العصر الحديث والقديم، وانتقاداته على مزعوماتهم المنطقية والرد على شبهاتهم، ما ورد في فصول من الباب الثالث من المقالة الأولى؛ ومن أهم مباحثها، "النظر في فطرة الإنسان"، و"طريق ناقص لأبطال الشك المطلق"، و"الكلام في انقطاع الطريق دون الغاية"، و"الطريق الحقيقي للعلم واليقين"، وغيرها من فصول في الانتقاد على الفلسفات الزعمية لعلماء اليونان القديم والغرب الحديث، وما أضاف به إلى تقسيم الأدلة.

قد انتقد الفراهي رحمه الله في هذا الكتاب عددًا من الفلاسفة من العصر القديم وخاصة أفلاطون وأرسطو، وعقب على أفكارهم في الفصول المتعددة من المقالة الأولى وكشف عن ضعفها وضرارها؛ وأبطل بهذه المباحث المذكورة المهمة فلسفة الشك للفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت (R. Descarte) وزعمه المعروف أن اليقين يتحقق من خلال الشك (Certainty Through Doubt)، ونظرية الشك للغزالي ورأيهم في الأخلاق، والفلسفة التجريبية والمحسوسة (Empiricism) لجون لوك (John Loke) وأظهر بعض غوتهم وسقم فكرهم ظهر في فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان القديم، ونقد على أفكارهم الفلسفية وتعريفهم المنطقية مثلًا بالعلم والأشكال Forms والمسلمات (Universals) لأفلاطون، والمادة (Matter) والعقل (Intellect) ونظرية الجوهر (Essence) وماهية الأشياء (Ousia) لأرسطو، غيرها من النظرات الفلسفية مثلًا: الحقائق المستقلة غير المتغيرة (Independent Realities) والحقائق الكلية (Universals) والعلة المتحركة (Active Reason)، والعقل الفعال (Most Potential Intellect)، والبداهات الأولية (Self-Evident Truth) والاسمية (Nominalism) وغيرها من أفكارهم وفلسفاتهم التي ترك أثرًا شديدًا في فكر فلاسفة الإسلام ولكن هذا الحكيم الهندي البعيد النظر والعميق الفكر لم يتأثر بها إلى أدنى درجة، فنبذ نظرية الكليات لأفلاطون والتحليل المنطقي لأرسطو ونظريته المعروفة في تقسيم العلوم والمعقولات (Categories) في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في ضوء القرآن.

فأفرد عدة مباحثه لإيضاح طريق القرآن في الاحتجاج، وعلوه على طريق الفلاسفة لتبيين به معرفة الحق وحجة الله البالغة، وبين فيها مذهبه في احتجاج القرآن وانتقاده على الآراء الفلسفية في وقت واحد، ومع أنه لم يكمل هذه الأبواب والفصول أيضاً على الطريق الذي رسمه، لكنه أَلَفَ فيها من أحسن الفصول وبحث فيها من أطيب المباحث وحقق فيها من أروع التحقيقات وأورد فيها من أهم النظرات لتبيين هذا الموضوع.

فقال:

- "رغبتهم في رد الحقائق إلى الوحدة دليل على كون التوحيد فطرة العقل ولكنهم طلبوه في المخلوق فخابوا، وإنها هو مختص بالخالق الواحد القهار.
- نجح سعيهم في الرياضيات والهندسة وكثير من الطبيعات، ثم ضلالتهم في الإلهيات وتمهاتهم، واعتمادهم على الظنون الواهية دليل على ضرورة النبوة (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴿٥﴾) (سورة النور: 40) فإن أذكى الناس إذا تحمقوا في أمر فلا بد أن ذلك الأمر لا تستقل به العقول وإنما تكون فيه تابعة، ألا ترى البصر لا يستقل بنور بل يستبصر بالنور الذي يأتيه من خارج فيفرح به ويقبله".

وهذا هو الهدف الذي حثّ الفراهي رحمه الله على تأليف هذا الكتاب.

فالاستدلال الذي يقبله العقل الإنساني يظهر من خلال الحكمة التي أودعها الله في الإنسان يأخذها بعد الإدراك بها. فعنده هذه الحكمة "كالنور تعرف بذاتها لا بشيء آخر"، ففطرته تحتاج إلى الحكمة والحق والبصيرة كما هو محتاج إلى الماء والطعام، والحاجة إلى هذا العلم إذا هي مسلمة عند المخاطب لا تحتاج إلى الحكمة والحق والبصيرة كما هو محتاج إلى الماء والطعام، والحاجة إلى هذا العلم إذا هي مسلمة عند المخاطب لا تحتاج إلى إثباتها، فبين ذلك كله مستدلاً بالآيات القرآنية ثم يقول: "قد بين القرآن هذه القاعدة في الاستدلال حيث قال الله تعالى مخاطباً لنبيه" (قُلْ يَا

أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا (سورة آل عمران: 64) بهذا قد أقروا به ثم نبه على ما يلزمهم من هذا الإقرار فقال: "وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (سورة آل عمران: 64) أي إن لم يقرؤا بذلك فقولوا لهم إنا نقر به فنحن مسلمون بالاتفاق وفيه إشارة إلى أنكم لستم من المسلمين بما تقرون به".

فسر به أن هذا الدليل قاطع للخصم، فإنهم قد آمنوا بالتوحيد ولكن الكلام هنا ليس لإثبات التوحيد لأنه نفسه أقرب، بل هو للاحتجاج على ما يثبته هذا القبول من أبطال العبادة لغير الله، وهو يفرق بين الحجة وبين الدليل والآية في فصل عنوانه "تعريف الحجة"... قائلًا: "اعلم أن الحجة ما يثبت به دعوى على الخصم والدليل ما تستدل به على أمر لنفسك أو على خصمك، والآية ما تبعث النظر والفكر فتستدل به على أمر، فهي كالمادة والسبب للاستدلال. فالحجة أخص من الدليل، بولاية مادة لكليهما. لكني اصطلحت الحجة بحيث تشمل كل ذلك".

ميزات كتاب الحجج للفراهي موجزًا: بعد هذا التفصيل في موضوع الكتاب يمكن إحصاء ميزات الكتاب وأهميته موجزًا كما يلي:

- هذا علم الاحتجاج بجميع قواعدها ويجب عن الأسئلة المتعلقة بأهداف نزول القرآن وأهداف الدين الإلهي.
- ويكشف القناع عن علم جديد من الدراسات القرآنية وهو علم الحجة القرآنية، ومنهج الاستدلال للقرآن، فصاغ مؤسسه ووضعه القواعد الأساسية له وأبرز محاسنه وأهدافه، واستقرى موضوعاته ومطالبه.
- وفيه ذكر الأمثلة المختارة من حجج القرآن التي تكفي لإقامة الحجة على خصمه وعلى كل فرقة يخاطبها، فجاء بها على شكل قواعد الاستدلال القرآني ويجب المراعاة بها على كل من يريد النظر في آيات هذه الأمثلة.

- تبين هذه الدراسة الجديدة الفرق بين الاستدلال الفطري للقرآن الذي يعتمد على الآيات البينات وأساسيات العلم واليقين والاستدلال الظني الذي يعتمد على مزعومات الفلاسفة، ومقولاتهم الزعمية، والأديان الموضوعة.
- وفي هذا الكتاب كثرت نماذج الإبداع والتجديد بالإضافة إلى المباحث القرآنية مما جاء بها المؤلف من موضوعات جديدة ونتائج لطيفة ونظرات عالية لا نجدها في غيره من كتب العلماء وأئمة الإسلام.
- ومما أعانه في إبراز هذه الدراسة، ممارسته لكتب الفلسفة القديمة والحديثة، وبراعته في علم الكلام والعلوم العصرية وآداب الغرب مع تبحره في تفسير القرآن وعلومه وتدبره العميق فيه.
- ومنها تحليلاته العقلية على الوجه الفطري بما أودعه الله من الحكمة.
- وفيه انتقادات قيمة على فلاسفة العصر القديم والحديث بأدلة القرآن والرد على أفكارهم الظنية ودياناتهم الفلسفية.
- قد نجح المؤلف في إظهار طريق القرآن في الاستدلال وإثبات تفوقه على استدلال الفلاسفة وسائر الأدلة بكتابته هذا.
- تساعد هذه الدراسة الجديدة في فهم مطالب القرآن ومفاهيمه وصفات الله تعالى، إضافة إلى الدلائل القاطعة على العقائد الإسلامية وأصول القضايا الأخلاقية التي يهدي إليها القرآن.
- ومن مظاهر الإبداع التي أضافها المؤلف إلى الدراسات القرآنية بهذا التأليف إيراده لكثير من المصطلحات الجديدة التي وضعها أولاً لتأسيس هذا العلم، كما ذكرناه آنفاً.
- وبما وفر في هذا الكتاب من أقوال المؤلف في مواقع الخطاب في القرآن وسياقات كلامه صار الكتاب مجموعة مباحث تحت الناس على التدبر في كتاب الله والنظر في نظامه ومطالبه.

- قد وضع المؤلف الرسوم البيانية والجداول العلمية في بعض الفصول من الكتاب لإيضاح مطالبها.
 - وتقدم هذه الدراسة أساس العلاقة القوية بين القواعد المقاصدية وأسرار الشريعة وبين الحجج القرآنية، فهي تسهل لنا طريقًا صحيحًا إلى فهم الدين والشريعة الإسلامية على الطريق الذي يرشد إليه القرآن، فهل يسمع صوت الفراهي رحمه الله تعالى كل من يقصد البحث والتحقيق في مقاصد الشريعة والقواعد المقاصدية؟
 - وتظهر هذه الدراسة مدى إمكانية الاستفادة من القرآن في مجال الدعوة إلى الحق ودين الله القيم والمحادثة من يقوم بدوره بما هو أقرب إلى الفطرة من الأدلة والحجج، والبناء الأقوى للرد على الأديان الوهمية الباطلة.
 - ومن أهم فوائد الكتاب أنه قسم الحجة القرآنية وطريقه في الاستدلال إلى أقسام مختلفة وأظهر تعريفاته وتقسيمات أدلته من جهات مختلفة للتنبيه على جوانب خاصة مفضية إلى أغراض الموضوع، فهذه التوزيعات ازدادت أهميته ومكانته العلمية.
- فاستأصل الفراهي رحمه الله تعالى بهذه الدراسة الشك في حجة الله ووجوده وهدم بها مباني الفلسفة الباطلة القديمة والحديثة حتى تجلّى بها طريق القرآن لإقامة الحجة وثبت أن حجة الله هي العليا.

الإمام الفراهي وموقفه من الحديث النبوي

د. محمد أكرم الندوي¹ترجمة من الأردوية: محمد شفاء الرحمن²

الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله من تلك الشخصيات البارزة لتاريخ الإسلام الذين أوقفوا حياتهم للتدبر والتفكير في كتاب الله تعالى. وأعطى الله تعالى الإمام الفراهي الموهبة الاجتهادية الملموسة، وإصابة الرأي، والتفكير الدقيق، وفهم الحقيقة وإدراكها. ويعترف المعاصرون له مع الاتفاق على جلالته العلمية بصفاته العملية والباطنية من الورع والزهد، والتقوى، واتباع السنة النبوية وخشية الله تعالى، ويمدحونه. وفي الحقيقة التعمق في العلم وجماع التقوى من الوسائل الأساسية التي تمنع العقول الإنسانية من الزيف والانحراف. يعلمنا تاريخ تفسير القرآن الكريم كلما انحرف أحد في هذا المضمار فمن أسبابه الأساسية قلة العلم، وترك التقوى، ويُعبر عنها عمومًا بالجهل والهوى.

الجوهر الخالص للتدبر والتفكير في القرآن الكريم الذي خلفه الإمام الكبير تذكراً لحياته العلمية الطويلة في الأشكال المختلفة من الكتيبات والرسائل لم يتم تعريفها حتى الآن في الأوساط العلمية. ومن الضروري أن يتم التعريف بأفكار الإمام تمامًا في العالم الإسلامي والعربي ليكون سداً للذريعة لسوء الفهم الشديد الذي يحدث بسبب بعض كتاباته المختلفة.

القرآن الكريم، والحديث النبوي منبعان للقانون الإسلامي، والاعتماد الكلي على أحدهما، والإعراض عن الآخر هو الانحراف حقيقة عن كليهما. وحاسب علماء

¹ باحث إسلامي مقيم في المملكة المتحدة² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

الأمة محاسبة شديدة في كل عهد للتاريخ الإسلامي أولئك الأشخاص الذين في فهمهم زيغ وانحراف، والحركيين المضللين القائلين بالتفريق بين كتاب الله تعالى والسنة النبوية، وسلك الناس دائماً سبيل الإفراط والتفريط في فهم دقة ولطافة الربط الذي يوجد بين كتاب الله تعالى والسنة النبوية. وحاول الأئمة الأربعة والفقهاء المحدثون والمجددون والمصلحون بالإضافة إلى الجماعة المقدسة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين تبين أهمية المنبعين، وتوضيح العلاقة بينهما تمامًا، وكشّف عيوب الزيغ والانحراف الناتجين من الإفراط والتفريط، لئلا تنحرف الأمة عن ذلك الطريق الذي ترك عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم.

وكانت في الوقت نفسه مأساة تاريخية إسلامية أن هذه الجماعة المقدسة اتُهمت بالانحراف عن السنة تارة، وبالإعراض عن كتاب الله تعالى تارة أخرى.

وتهمة التقصير أو مخالفة السنة التي اتهم بها الإمام الفراهي في باب الحديث، والتي استمرت سلسلتها حتى الآن، وهي التهمة التاريخية أو هي جزء من النكران للجميل الذي تُرى نماذجه في كل عهد. وحاولت في هذا المقال عرض فكرة الإمام الفراهي المتعلقة بالحديث مفصلاً في ضوء آراء جمهور علماء الأمة. ويكون أكثر جزء المقال في باب التفسير عن دور الحديث، لأن أصل الاعتراضات هي تتعلق بطريقة تفسير الإمام رحمه الله تعالى.

علاقة القرآن الكريم بالحديث النبوي

القرآن الكريم كتاب الله تعالى الذي يعلو عن كل شبهة، وأنزل الله تعالى هذا الكتاب على رسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم هدى للإنسان، والرسول صلى الله عليه وسلم بلغه عباد الله تعالى، ونقذ أحكامه، وربّى جميع الأمة في ضوئه، وبينه وفسره، وترك أسوة حسنة في حياته هداية للأمة، وتشهد الآيات التالية على تلك المسؤوليات له ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾¹ وقال تعالى: ﴿فَآخِذْكُمْ بِبَيْتِهِمْ بِمَا أُنزِلَ آلَهُ﴾² وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾³

وأدى النبي صلى الله عليه وسلم تلك المسؤوليات بأعين الله تعالى ورعايته، والله تعالى بنفسه يشهد على تزكية قوله وعمله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾⁴ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁵

وفرض الله تعالى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم على العباد كما فرض طاعته عليهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾⁶ بل جعل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعته، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾⁷

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي)،⁸ وجاء في حديث آخر: (وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله).⁹

وسأل رجل عمران بن حصين رضي الله عنه عن مسألة فردّ على سؤاله، فقال: أجب من كتاب الله تعالى لا من غيره، "أنه قال لرجل: إنك امرؤ أحمق أتجد في

¹ سورة آل عمران: 164.

² سورة المائدة: 48.

³ سورة الأحزاب: 21.

⁴ سورة النجم: 3-4.

⁵ سورة القلم: 4.

⁶ سورة النساء: 59.

⁷ سورة النساء: 80.

⁸ الحاكم النيسابوري، المستدرک، 1/ 172

⁹ الترمذی، 38/5

كتاب الله الظهر أربعًا، لا تجهر فيها بالقراءة، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسرًا¹.

وعن أمية بن عبد الله بن خالد، أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر! فقال له عبد الله: إن الله بعث إلينا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - ولا نعلم شيئًا، فإنما نفعل كما رأينا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - يفعل².

"أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلًا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا"³.
قال الشافعي: "وما سن رسول الله فيما ليس لله فيه حكم، فبحكم الله سنه"⁴.
قال الشاطبي رحمه الله: "... فعلى هذا لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة"⁵.

قال الإمام الفري رحمه الله موضحًا الأسوة الجامعة في النبي ﷺ:
"قد علمنا بصريح العقل والنقل أن الله تعالى يصطفي للرسالة أكرم الناس وأتقاهم ... قال في نبينا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾"⁶.

¹ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، 191/2

² الإمام النسائي، السنن، 117/3، الإمام ابن ماجه، 339/1، الحاكم النيسابوري، المستدرک، 258/1.

³ الحافظ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، 1193/2

⁴ الإمام الشافعي، الرسالة، 88/1

⁵ الموافقات، 183/4

⁶ سورة القلم: 4.

⁷ الفراهي، تفسير نظام القرآن، تفسير سورة عبس، ص 274.

الحديث النبوي بيان للقرآن الكريم

اتفقت الأمة على أن الحديث الصحيح لا يعارض القرآن الكريم، وإن كان هناك تخصيص لعام من عموم القرآن الكريم، أو تقييد لاطلاقه بالحديث الشريف فهو بيان للقرآن الكريم، لأن العام يطلق ويراد به الخصوص، وكذلك المطلق ويراد به التقييد وهذا عام عند أهل اللغة، وعبر جماعة مثل هذه الأحاديث بزيادة على القرآن الكريم، وهذا التعبير غير أحوط، وفي الحقيقة أن مثل هذه الأحاديث ليست بزيادة على القرآن الكريم، بل يبين هذا التخصيص أو التقييد الذي كان يحتمل في الكلام من قبل.

وكانت آراء العلماء المحتاطين أن جميع الأحاديث بيان للقرآن الكريم، وأن أي حديث ليس بزيادة أساسية على القرآن الكريم، وأما الزيادات ظاهراً التي تظن فهي من حيث البيان والتبيين، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "والقرآن يدل - والله أعلم - على ما وصفت".¹

وقال في موضع آخر: "ومنهم من قال: لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب".² يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

"السنة راجعة في معناها إلى الكتاب فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره وذلك لأنها بيان له وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾³، فلا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية".⁴

¹ الإمام الشافعي، الرسالة، 82/1

² نفس المرجع، ص 90.

³ سورة النحل: 44.

⁴ الإمام الشاطبي، الموافقات، 12/4.

يقول الإمام الفراهي رحمه الله: "وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن".¹
ويقول في موضع آخر:

"الحديث لم يزد شيئاً على القرآن ولكن صرح من الآية أمراً غامضاً يكاد يخفى على من لا يتدبر".²

يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي مسلطاً الضوء على علاقة الإمام الفراهي رحمه الله بالحديث النبوي:

"إنه قرأ (الفراهي) جميع كتب الحديث مع التحقيق والنقد للغاية، ويرى أكثر الأحاديث مستنبطة من القرآن، ويبين تحقيق هذه السلسلة له بين أيدينا".³

ويؤيد القرآن الكريم، والحديث النبوي بعضه بعضاً، لأن منبعهما واحد، وبهذا الاعتبار يكون من دراستهما الإرشاد والدلالة على التفسير الصحيح للقرآن الكريم من جهة، ويستعان بهما على حل التعارض الظاهري في ضوء الآيات القرآنية من جهة أخرى.

يقول الإمام الفراهي رحمه الله:

"إني رأيت كم من روايات متضادة حسب الظاهر، توافقت حين أولناه إلى القرآن، فإن القرآن كالمركز وإليه ترجع الأحاديث من جهات مختلفة كما تجد تفصيله في كتابنا (إحكام الأصول بأحكام الرسول)".⁴

¹ الفراهي، مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 7.

² الإمام الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، التكميل أصول التأويل، ص 275.

³ أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة نظام القرآن (الترجمة الأردنية)، ص 16

⁴ الإمام الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، التكميل أصول التأويل، ص 231.

ثبوت الأحاديث

اتتضح بالتفاصيل المذكورة أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب كما تجب طاعة الله تعالى، بل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي نفس طاعة الله تعالى، والفرق بينهما الثبوت فقط، ثبوت القرآن الكريم متواتر، وكل آية من القرآن قطعية الثبوت، بينما تتفاوت أقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث الثبوت على درجات مختلفة، والذين أخذوا من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة قبلوه كالقرآن، وإن كانت جميع الأحاديث متواترة مثل القرآن كان الفرق بينهما رتبة لا عملاً، ولكن درجات الأحاديث تختلف ثبوتاً ولهذا لاحظ الفرق بينهما".¹

يقول الإمام الفراهي:

"ولو لا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان كل ذلك أصلاً ثابتاً يعضد بعضه بعضاً من غير مخالفة".²

أقسام التفسير بالمأثور

ينقسم التفسير بالمأثور إلى ثلاثة أقسام:

1. تفسير القرآن بالقرآن.
 2. تفسير القرآن بالسنة.
 3. تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم.
- وكان المفسرون والأصوليون متفقين على أن يُفسر القرآن بالقرآن أولاً، ثم بالسنة، ثم يستفاد بأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

¹ السرخسي، أصول السرخسي، 298/1

² الفراهي، مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 10.

يقول العلامة الزركشي والعلامة السيوطي رحمهما الله تعالى:

"قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أولاً من القرآن ... فإن أعياه ذلك طلبه من السنة فإنها شارحة للقرآن ... فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك".¹

يقول الإمام الفراهي رحمه الله بعد نقل هذا الكلام للسيوطي رحمه الله تعالى:

"فعلمت من هذا أن أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم".²

ويقول في موضع آخر موضحاً هذا الترتيب:

"فالنبي صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن الكريم من الرب وعلم الأمة. فهو خير الناس من غير شك. ثم من تعلم منه وعلم غيره".³

1. تفسير القرآن بالقرآن: وقال المفسرون والعلماء: "أحسن طريق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن".⁴

يقول الإمام الفراهي رحمه الله:

"قالت العلماء قديماً إن القرآن يفسر بعضه بعضاً وذلك بأن ذلك ظاهر جداً. فإن القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالاً وأخرى تفصيلاً. فما ترك في

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 175 - 176، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 4/ 200

² الفراهي، مقدمة نظام القرآن، ص 7.

³ الإمام الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، دلائل النظام، ص 27.

⁴ البرهان في علوم القرآن، 2/ 175

موضع ذكره في موضع آخر. وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ.¹

2. تفسير القرآن بالسنة: ينقسم الحديث إلى قسمين: (أ) المتواتر المشهور، (ب) أخبار الأحاد.

أ- السنن العملية المتواترة: لم نذكر الأحاديث القولية المتواترة لأن العلماء اختلفوا في وجودها اختلافاً شديداً، وأيضاً عددها قليل جداً عند القائلين بها، وهذه الأحاديث المتواترة التي يعملون بها أهل السنة والجماعة دائماً، والسنن المتواترة تتعلق بكل عمل لا يمكن فهم القرآن إلا بها، يحتاج شرح كل آية من القرآن الكريم إلى العمل النبوي الذي قبله الأمة تواتراً، والإعراض عن تلك السنن المتواترة إعراض عن الدين كله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه".²

وجاء في حديث آخر: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين".³
قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب".⁴
قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله موضحاً العبارة المذكورة:
"يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه وهذا نحو قولهم: ترك الكتاب موضعاً للسنة، وترك السنة موضعاً للرأي".⁵
لا يزال العلماء يترددون على هذا التعبير للإمام الأوزاعي هل هي توضيحاته التي قالها الحافظ ابن عبد البر، ولكن هذا التعبير ليس بأحوط ولهذا لما سئل الإمام

¹ الإمام الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، التكميل أصول التأويل، ص 242.

² الإمام أبو داود، السنن، 4/279.

³ الإمام ابن ماجه، السنن، 1/10.

⁴ جامع بيان العلم وفضله، 2/1193.

⁵ المرجع السابق.

أحمد بن حنبل رحمه الله عنه فقال: "ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السنة تفسر الكتاب وتبينه".¹

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ناقلًا مذهب الإمام الفراهي:

"أما مصطلحات القرآن الكريم كالصلاة والصوم والزكاة والحج والهدي فيفسرها (الإمام الفراهي) طبقًا للسنة المتواترة مائة في المائة، ولا يجوز عنده أي خلاف لها".²

ب - أخبار الأحاد: "وذهب جمهور الأمة أن خبر الواحد ظني، ويجب العمل عليه بشرط أن لا يعارض الكتاب والسنة، وإن تعارض وأمكن الجمع بينهما فيجمع بينهما، وإلا يتوقف في خبر الواحد، والصحابة رضي الله عنهم أنفسهم توقفوا في الحديث عند التعارض، فحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يجعل لها سكنى ولا نفقة قال عمر لا نترك كتاب الله وسنة نبينا - صلى الله عليه وسلم - لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت".³

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله ما معناه:

الحديث إذا تعارض القرآن والسنة يجب رده، وبحسب أنه ليس قولًا للنبي صلى الله عليه وسلم... وخلصتها أن الحديث يكون صحيحًا إذا يوافق القرآن ولم يخالفه.⁴

أكثر أخبار الأحاد تؤيد الأحكام التي وردت في القرآن الكريم، ولا يوجد فيها المزيد من التفاصيل، وترك الإمام الفراهي مثل هذه الروايات عمومًا لأن فيها تكرارًا فقط، وليس معناه أنه أنكرها، قال الإمام الفراهي:

¹ الشاطبي، الموافقات، 4/345

² الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 18.

³ الإمام مسلم، صحيح مسلم، 4/198

⁴ الشاطبي، الموافقات، 2/33

"ولكنني أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم ولهذا اقتصر على ما في القرآن غير جاحد لما تركه كما جمع البخاري في كتابه كلما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك كثيراً من الصحاح".¹

آراء العلماء في خبر الواحد: لا يعمل بخبر الواحد عند الأحناف إلا إذا توفر فيه ثلاثة شروط وهي فيما يلي معني:

1. أن لا يخالف أي حكم للقرآن الكريم.

2. أن لا يخالف السنة المستفيضة.

3. أن لا يخالف ظاهر النص.²

ومن أهم الشروط لقبول خبر الواحد عند الإمام مالك رحمه الله وهو أن لا يخالف عمل أهل المدينة.³

ونقل ابن القاسم وابن وهب أنهما رأيا الإمام مالك مبيناً عمل أهل المدينة أكثر من الحديث، ووصله الحديث بواسطة الآخرين، ويقول إننا نعلمه ولكن العمل ليس عليه.⁴

وقال الإمام مالك: رأيت محمد بن أبي بكر بن عمر بن حزم، وكان قاضياً على المدينة، وكان أخوه محدثاً ثقة وصادقاً، إذا حكم محمد بن حزم يخالف الحديث يسأله عبد الله عنه ويقول: ألم يرد فيه حديث فلان؟ فيقول: نعم، يقول عبد الله بن حزم لماذا لا تحكم طبقاً له؟ فيجيب أن أهل المدينة لا يعملون على هذا.⁵

¹ الفراهي، مقدمة نظام القرآن، ص 7.

² أبو بكر السرخسي، أصول السرخسي، 364/1 – 369

³ قاضي عياض، ترتيب المدارك، 66/1.

⁴ نفس المرجع.

⁵ نفس المرجع.

وسئل ابن الماجشون: أنتم تروون الحديث ولا تعملون به لماذا؟ فقال: ليعلم الناس أنا لم نتركه لأجل عدم المعرفة.¹

وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي: عمل أهل المدينة الأسبق أفضل من الحديث.² وكان يجمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله الفقهاء ويسألهم عن السنن والقضايا التي كان يعمل بها ويقررها، وأما التي لم يعمل بها ينسخها ولو كان من ثقة.³ خبر الواحد ومذهب الإمام الفراهي: وقال الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"كان يرجح مذهب المالكية والأحناف في خبر الواحد، كما لا يهتم الأحناف كثيراً بخبر الواحد في المسائل العامة الضرورية، والمالكية في عموم عمل الصحابة رضي الله عنهم، كذلك الإمام الفراهي لا يهتم كثيراً بأخبار الأحاد في الصور المذكورة".⁴ مكانة الروايات التفسيرية العامة: تم التحريف والوضع في الروايات كثيراً، ومع ذلك كان الفضل الخاص من الله تعالى على هذه الأمة لأن الفقهاء العظام وضعوا الأصول والمبادئ التوجيهية كشفت عن ستار جميع المكائد والمحاولات للوضع، وتم الوضع في كل شعبة من شعب الدين، وخصوصاً تأثر به باب التفسير كثيراً، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي".⁵

وصرحه ابن تيمية رحمه الله أيضاً في رسالته "مقدمة أصول التفسير" بقوله: "والموضوعات في كتب التفسير كثيرة"،⁶ ونقل قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله المذكور أعلاه.

¹ نفس المرجع

² نفس المرجع.

³ نفس المرجع.

⁴ الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة تفسير نظام القرآن (الترجمة الأردنية)، ص 18.

⁵ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 56/2

⁶ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير ص 31

وقال ابن كثير رحمه الله: أكثر ما وصل من التفسير بالمأثور إلى الرواة عن الزنادقة اليهود، والإيرانيين، والمسلمين الجدد من أهل الكتاب.¹

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لم يثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في باب التفسير إلا مائة حديث تقريباً.²

وسأل الإمام عبد الرحمن بن مهدي ميسرة بن عبد ربه كيف وصلت إليك الأحاديث الكثيرة في فضائل السور، فقال: أنا وضعتها ترغيباً.³

وكذلك سئل نوح بن أبي مريم فقال: "لما رأيت اشتغال الناس بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحاق، وأنهم أعرضوا عن القرآن، وضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى".⁴

وقال الإمام الفراهي رحمه الله:

"لا نعتمد على دليل ضعيف في صرف القرآن عن ظاهره، ونجعل الظاهر حجة".⁵
وقال في موضع: بيان المعنى خلافاً لظاهر القرآن بانتهاك أصول التفسير هو تمهيد الطريق للتحريف.⁶

وما قال الإمام الفراهي هنا فمن ينكر وزنه، وكانت رغبتني أن أقدم أنموذج تفسير الفرقة الباطلة ليعلم أن توجيهاً لخلاف ظاهر القرآن الكريم يظهر في أي نتائج خطيرة وضالة ولكني تركته خوفاً للتطويل في هذا الوقت، ولأن هذا الجانب لا يخفى على أهل العلم.

¹ الزرقاني، مناهل العرفان، ص 13/2.

² نفس المرجع، 17/2.

³ ابن حبان، كتاب المجروحين، 64/1.

⁴ ابن الجوزي، الموضوعات 8/1.

⁵ الفراهي، رسائل الإمام الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 225.

⁶ نفس المرجع.

احتياط السلف في الحديث: وكان من المستحيل لأعداء الإسلام أن يدخلوا أي تعديل في القرآن الكريم، لأن الله تعالى تكفل بحفظه، ولكنهم قد وجدوا السبيل أن ينسبوا الضلالات إلى النبي ﷺ ويروجونها بين المسلمين، ولكن من فضل الله تعالى على هذه الأمة أنه أرشد أئمة الإسلام والمسلمين إلى المبادئ والأصول المتبصرة في الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم منذ البداية، وظهر رجال الفن العظيم لتحقيق الأحاديث الذي ليس له نظير في أي قوم، وبالإضافة إلى ذلك جعل علماء الإسلام والمسلمين المبادئ والأصول التوجيهية والموحدة العالية للرواية والدراية لتحقيق الأحاديث، وأعطاهم الله تعالى لشغلهم في هذا الفن ونضج عقولهم وأفكارهم، وتقواهم الكثيرة، واحتياطهم ملكة سهل بها فصل الأحاديث الصحيحة من مجموعات الصعب والذلول، وهذه الوقائع لمهارتهم وصلت إلى التواتر لا أنقل هذه الوقائع، ولكن هنا أقدم بعض الأقوال التي ستوضح مدى اهتمام السلف بالحديث. ولا يغيب عن بالنا أن ميل بعض الفرق إلى قبول كل شيء باسم الحديث يعد خيانة في دين الله تعالى، ولأن الله تعالى لم يقيم هذا الدين على أسس ضعيفة، بل أحكم أصوله إحكامًا بالغًا، ولهذا كانت الطريقة منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم أن لا يقبل حديث إلا إذا لم يعارض القرآن الكريم، ولا السنن المعروفة بين المسلمين.

قال ابن عباس: "إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله - ﷺ - ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بأذاننا فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف".¹

عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: قلت للزبير إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان قال أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار.²

¹ صحيح مسلم (ن)، 1/12.

² صحيح البخاري. حسب ترقيم فتح الباري، 1/38، برقم: 107.

قال محمد بن سيرين: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم".¹

وقال الإمام الفراهي رحمه الله ذاكراً لمثل هذا الاحتياط: "ومنهم من احتاطوا لوهم أسباب الجرح والتعديل ورأوا التشبث بالقرآن أرجح من أخذ الروايات اقتداء بالمجتهدين من الصحابة كعمر وعائشة وابن مسعود رضي الله عنهم".²

ويقول أيضاً في الأحاديث الضعيفة الواردة في حقيقة رمي الجمار:

"هذا، ولم أجد في صحاح الأخبار ذكراً من سبب سنة رمي الجمار. فلو ثبت فيه شيء من طريق الخبر لأخذنا به وقرت به العينان، ولكنه لم يثبت. وأمر الدين ليس بهين. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع".³

3- التفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم: ومن التفسير بالمأثور التفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم في المستوى الثالث بعد التفسير بالقرآن، والتفسير بالحديث، ومضى فيه قول العلامة الزركشي والعلامة السيوطي رحمهما الله أن هذا كان من مذاهب العلماء، ومضى قول الإمام الفراهي رحمه الله أيضاً أنه يرى التفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم في المستوى الثالث، ويذكر بعض أقواله في السطور الآتية: "لا شك أن فقهاء الصحابة بل عامتهم كانوا أبصر وأعلم بالقرآن لوجوه كثيرة".⁴

وقال في موضع آخر:

"لا شك أن كثيراً من الصحابة إذا فسروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر والسحاب الهائل، يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علماً وحكمة".⁵

¹ صحيح مسلم (ن)، 12/1.

² رسائل الإمام الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 232.

³ صحيح مسلم (ن)، 10/1، برقم: 5.

⁴ الفراهي، نظام القرآن، تفسير سورة الفيل، ص 469.

⁵ رسائل الإمام الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 220.

⁶ نفس المرجع، ص 221.

الشيخ الفراهي وأمثلة الاستدلال بالأحاديث والآثار

يتم عرض بعض الأمثلة في السطور الآتية التي يتضح بها كيف استفاد الشيخ في التفسير بأخبار الأحاد وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

قال في تفسير سورة الفاتحة ملقيًا الضوء على أهمية هذه السورة في الصلاة:

"هذه سورة الصلاة، بدليل التواتر العملي، والقولي (أي كحديث الخداج، وقسمت الصلاة بيني وبين عبدي وغيرهما)"¹.

وقال في تفسير سورة الذاريات آية "وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"²: "وجاء تصريح ذلك في صحيح الخبر"³.

ثم قال بعد ذلك:

"وذهب الحسن إلى جعل الواو دليلاً على اتصال الوصفين فإنه قال: "مدوا في الصلاة ونشطوا حتى كان الاستغفار بسحر" وليس ذلك بظاهر المعنى ولكنه إشارة غير بعيدة والله أعلم"⁴.

وقال في موضع ملقيًا الضوء على صفة الاعتدال لدين الفطرة:

"وكذلك بين لنا النبي الكريم - ﷺ - أن دين الفطرة والصراط المستقيم هو الاعتدال"⁵.

وقال في تفسير سورة التحريم بعد نقل قول ابن عباس رضي الله عنهما في خيانة أزواج نوح ولوط عليهما السلام:

¹ الفراهي، تفسير نظام القرآن، تفسير سورة الفاتحة، ص 109.

² سورة الذاريات: 18.

³ الفراهي، تفسير نظام القرآن، تفسير سورة الذاريات، ص 131.

⁴ نفس المرجع، ص 132.

⁵ نفس المرجع، تفسير سورة التحريم، ص 185.

"فهذا كله من استنباطه الحسن، ولم يرو فيه عن النبي -ﷺ- شيئاً".¹

كما يعلم بهذا أنّ الفراهي رحمه الله كيف يهتم بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، حيث يعلم أنه كان يشعر بالتفريق بين أقوالهم الاجتهادية والمنقولة دائماً مقتدياً بآثار الفقهاء والمحدثين.

وقال شارحاً أخلاق النبي -ﷺ- العظيمة:

"أذكر الخبر الذي جاء في الصحيحين عن وزن النبي -ﷺ- صلى الله عليه وسلم -بكفة وجميع الناس بكفة حتى إذا رجحهم أعطى الرسالة".²

وقال شارحاً وادي محسر:

"ففي الصحاح أن النبي -ﷺ- أفاض من المزدلفة وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة، ولكنه أوضع في وادي محسر".³

وقال بعد ذلك:

"ويؤيد ذلك ما رواه الشافعي رحمه الله في كتاب الأم وغيره أن عمر رضي الله عنه كان يحرك في بطن محسر".⁴

وقال في تفسير سورة الكوثر جمعاً الروايات المختلفة:

"ثم إن أمكن التوفيق التام بين القرآن والحديث بأن يقال إن الكوثر الذي أعطاه رسوله في الدنيا هي التي في الحقيقة حوض في الموقف ونهر في الجنة كان ذلك أحسن توفيقاً".⁵

¹ نفس المرجع، ص 207.

² نفس المرجع، تفسير سورة عبس، ص 274.

³ نفس المرجع، تفسير سورة الفيل، ص 471.

⁴ نفس المرجع.

⁵ نفس المرجع، تفسير سورة الكوثر، ص 490.

وأضاف قائلاً:

"أن النبي - صلى الله عليه وسلم - شبه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه قال - صلى الله عليه وسلم - رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً".²¹

وبعد ذلك جمع الروايات المتعددة لشرح الكوثر.

وألقى الإمام الضوء على هذا مفصلاً في تفسير سورة الكافرون، أمره الله بإعلان البراءة والهجرة والحرب، وذكر الروايات المتعددة تأييداً له.³

وهذه عدة أمثلة اتضح بها أنّ الإمام كيف استفاد من الأخبار والآثار في تفسيره، ورجع مراراً إلى الأحاديث والأخبار لتوضيح الأشياء المختلفة وسبب النزول، وهل يمكن أن يفهم القرآن بدون سيرته - ﷺ - الذي نزل عليه، دع القرآن كاملاً، وخذ الصلاة فقط، هل تفهم الصلاة من القرآن الكريم إعراباً عن السنة النبوية؟ ويعلم كل شخص أن أداء الصلوات الخمس بطريقة صحيحة لا يمكن إلا عملاً بمئات الأحاديث، وكذلك يقال عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يعلم إلا سبعة عشر حديثاً، وهذا الاتهام مضحك جداً، ويعرف به كل شخص أن الإسلام دين عملي، ويفهم في ضوء العمل فقط.

أسباب الاحتياط

ولكن الإمام الفراهي احتاط في جمع الروايات، ومن أسبابه أن الروايات التفسيرية الصحيحة قليلة جداً، وأبواب التفسير في صحيح مسلم قليلة، والأحاديث الصحيحة التي تتعلق بالتفسير قليلة جداً في صحيح البخاري أيضاً، وحاول الإمام

¹ صحيح البخاري .حسب ترقيم فتح الباري، 1/ 141، برقم: 528.

² الفراهي، نظام القرآن، تفسير سورة الكوثر، ص 492.

³ الفراهي، نظام القرآن، تفسير سورة الكافرون، ص 553.

البخاري أن يطول هذا الباب شيئاً بالاستنباط حسب عادته، ويساعد في التفسير بخزائن الأحاديث في الأبواب الأخرى غير التفسير، واستفاد العلماء منها دائماً، ورجع الفراهي رحمه الله أيضاً إليها حسب الضرورة، ومضت الأمثلة على ذلك. والسبب الثاني أن كثرة الروايات تعوق لفهم القرآن الكريم، ويخفى أسمى الأهداف من التربية وتزكية النفوس، وقال بعض المفسرين:

"ثم إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً".¹

ويجدر هنا بالذكر أن الفراهي أيضاً بشر مثل المفسرين الآخرين والعلماء المجتهدين، وكل شخص حرّ أن يختلف عن رأيه على الأسس العلمية، والشيخ نفسه كان يشعر بهذه الظروف، ولهذا أنه لم يضع قط اجتهاده الشخصي في درجة القطع اقتفاء بالسلف، ولم يمتزج مجتهد في تاريخنا كله لم يختلف أحد عن رأيه، واتفق المحدثون على أن تصحيح الروايات وتضعيفها أمر اجتهادي، وكم من رواية معمول بها عند البعض، ومتروكة عند الآخرين، ولكن هل يصح إنكار حديث لأجل هذه الأمثلة، أو الإعراض عنه، أو اتهام التساهل في هذا الباب، وإن فتح بابه فيخبر من سيكون في مأمن من هذه التهمة من بين الأئمة سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، وربيعه الرأي، وعبد الرحمن بن مهدي، سفيان الثوري، وكيع بن الجراح، والأوزاعي، ومالك، وليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، والأئمة المجتهدين الآخرين رحمهم الله، ويمكن أن يختلف مجتهد عن رأي الآخرين في جزء من الوقائع أو في مثال، ولكن طعن أحد كلياً جراً لا يمكن أن يوجد نظيرها إلا في الفرق الباطلة.

¹ الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 2/ 25.

شهادة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي

يمكن توضيح مذهب الإمام الفراهي بكتاباته أو بتوضيح تلاميذه مباشرة، وأما كتاباته فجاء ذكرها في السطور الماضية، وأما تلاميذه، فتنقل شهادة أشهر تلاميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عليه:

"صحبته ست سنوات، وما فهمت من وجهة نظره في الحديث خلال هذه السنوات، وهي أنه يرى أن السنة هي الأصل الثاني من أصول الدين بعد القرآن الكريم، كما يرى جميع المسلمين أصحاب العقيدة الصحيحة، ولكن كان يحتاط كثيرًا في قبول الروايات مثل العلماء المحققين، وخصوصًا في الروايات التفسيرية، ولا يقبل تلك الروايات التي تخالف صريح القرآن الكريم".¹

وقال موضحًا أكثر في موضع:

"صحبته ست سنوات كاملة بلياليها ونهارها، ولعل مضى وقت صباحًا ومساءً من خلال هذه السنوات لصحبته فيها لم يتح لي الفرصة للاستفسار منه بدون تكلف عن المسائل العلمية والدينية والأدبية والسياسية، ومعرفة رأيه، وتقديم شبهاتي بين يديه، وأن أقول بكل ثقة لم أشعر بهذا الظن قط أن وجهة نظره في الحديث تختلف عن وجهات نظر محققي هذه الأمة فيه".²

الشيخ الفراهي واتباع السنة في الحياة العملية

قال الشيخ أمين أحسن الإصلاحي فيه:

"وكان من أشد متبعي السنة في الحياة العملية، وأكثر ما شعرت في صحبتته أنه كان يتابع كتاب العلامة ابن القيم "زاد المعاد" كثيرًا، وكان أسلوب فكرته ذا حكمة، وكنت أظنّ قبل لقائه أنه لم ينتقد المسائل الفرعية كثيرًا على الأقلّ،

¹ أمين أحسن الإصلاحي، مقدمة تفسير نظام القرآن (الترجمة الأردية)، ص 18.

² نفس المرجع، ص 16.

ولكنه يحاسب نفسه وتلاميذه وأصدقائه في اتباع السنة على جزئياتها أيضًا، حتى تكون فظاظة مع المتعلمين الجدد في مثل هذه الأمور أحياناً".¹

مثال الحسبة على السنة

نقل الشيخ أمين أحسن الإصلاحي قصته، "اعترض الإمام الفراهي علي حيناً من الأحيان لأجل سروالي كان أسفل الكعبين، وكنت أظن مثل هذه الاعتراضات في ذلك الزمن من الانتقادات، فشعرت بهذا الاعتراض من مثل الإمام الحكيم عيباً، وأظهرت شعوري هذا عند الإمام، فطال الكلام، وذكر الأحاديث الواردة فيه، وقدمت وجهة نظري في هذه الأحاديث بكل شدة، ولكن الشيخ أجاب وقال كلمة توجيهية دخلت في قلبي، فقلت على الفور إن كان كذلك فأنا راض عنه بشرح الصدر أنت تقطع سروالي بقدر ما زاد حد الشرع، والشيخ طلب المقرض ضاحكاً على الفور وقطع سروالي بقدر ما كان أسفل الكعبين".²

ونقل أيضًا مثل هذه القصة التي تتعلق بالححية يعلم بها أن الإمام الفراهي كيف يهتم بالسنة؟³

وقال الشيخ عبد الماجد الدريابادي مبيناً اهتمام الإمام الفراهي بتقوى الله واتباع السنة: "كان تقوى الشيخ الفراهي وعبادته متميزتين، وما رأيت ما كان يهتم بالصلاة في أول وقتها إلا في شخصية واحدة، وهي كانت شخصية أكبر الإله بادي، وليس الشيخ نشيطاً في الصلاة فحسب، بل الناس أن يعتادوا على الصلاة بهيبته، والناس يصلون كثيراً في حرم دار المصنفين مادام يقيم الشيخ فيه".⁴

¹ نفس المرجع، ص 16 – 17.

² نفس المرجع، ص 17.

³ نفس المرجع.

⁴ عبد الماجد الدريابادي، المعاصرون، ص 122.

خلاصة الكلام

هذه النزعة خطيرة جداً أن نتهم سلفنا بدلاً أن نقدر إحسانهم ومآثرهم وجهودهم، ولم تكن مؤلفات الإمام الفراهي رحمه الله معدومة، وهناك يوجد تلاميذه، وتلاميذ تلاميذه يمكن التحقيق منهم، وترويج كل صعب وذلول من الحديث في الدين فتنة عظيمة، كما أن إنكار الحديث فتنة، وكان مذهب أهل السنة والجماعة وسطية دائماً، وكان السلف قد احتاطوا في أخبار الأحاد. وهل الاحتياط في قبول خبر الواحد يدل على إنكار الحديث؟ وهل لم يعلمنا الشارع نفسه تعليم الاحتياط؟ وهل لم يحتط الخلفاء الراشدون والصحابة المجتهدون في الأحاديث؟ والفراهي يتوقف عن خبر الواحد فقط في هذا الزمن إذا تعارض القرآن الكريم أو السنة، هل هذا بدعة في الدين؟ وهل تعارض القرآن ليس دليلاً على ضعف الحديث؟ وهل كانت طريقة السلف عملاً بكل حديث يوجد في خزائن الأحاديث؟ ألم ينقل الإمام الترمذي مذاهب السلف في كتابه مراراً منهم من عمل بأي حديث؟ ألم يقل الإمام الترمذي نفسه أن الحديثين يوجدان في كتابه لم يعمل أحد بهما؟ من قال من الأئمة أن أصول الأئمة والمحدثين في تصحيح الحديث وتضعيفه محل مكانة النص القطعي؟ وهل لم يختلف الأئمة في تلك الأصول والنقد في الرجال اختلافًا شديداً؟ انظروا إلى مراجع الجرح والتعديل، ألم يُر كُبار الأئمة في صفوف المجروحين؟ ألم يكن مذهب جمهور الأمة أن خبر الواحد ظني؟ اعدلوا شيئاً من أين الاتهام على أساس الظن يعتبر دفاعاً عن السنة؟

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم
إذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

المصادر والمراجع

1. ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الموضوعات، محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1966م.
2. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1980م.
3. ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ.
4. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
5. الإصلاح، أمين أحسن بن غلام مرتضى بن وزير علي الإصلاحي، مقدمة نظام القرآن، (الترجمة الأردية)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، الهند، 1990م.
6. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م.
7. الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
8. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، مستدرک الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.
9. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1957م.

10. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، أصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
11. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
12. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، دراسة وتحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1997م.
13. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، الرسالة، مكتبه الحلبي، مصر، د.ت.
14. الفراهي، التكميل أصول التأويل (في مجموعة رسائله)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوتي، الهند، الطبعة الرابعة، 2013م.
15. الفراهي، عبد الحميد بن عبد الكريم، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرقان، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوتي، الهند، 2008م.
16. الفراهي، عبد الحميد بن عبد الكريم، مقدمة تفسر نظام القرآن، مطبعة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوتي، الهند، 1357هـ.
17. القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
18. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسنن بصحيح مسلم، دار الجيل، بيروت ودار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
19. النسائي، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب، سنن النسائي الكبرى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م.

مباحث السيرة النبوية في مؤلفات الفراهي

- البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي¹ترجمة من الأردية: أبو سعد الأعظمي²

مصادر سيرة الرسول (عليه أفضل الصلوات والتسليم) ثلاثة، وهي القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأثار الصحابة رضي الله عنهم. وإضافة إلى ذلك جاء وصفه في الصحف السماوية إلا أنّ القرآن الكريم أول مصدر وأوثقه لهذه السيرة العطرة. إنه يعرفنا بشخصية النبي ﷺ ويدعو العرب إلى فهمها والتدبر في خلق صاحبها الذي يفضل البشر كلهم بأخلاقه وتحمل مشاق الدعوة، وينفرد في هذه المحامد كلها دون الآخرين، ولا يمكن لأحد أن يتحلّى بجميع خصاله إلى يوم تقوم الساعة. أفاض الفراهي في بيان عظمة النبي ﷺ وتميزه عن الآخرين بكلمات تالية:

"إن الله تعالى بعث نبينا على أحسن الخلق داعياً إلى مكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى: "إنك لعلی خلق عظیم". وقال النبي ﷺ: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وجماع المكارم الجود وصلة الرحم وإعانة الضعفاء وقد نشأت العرب على هذه الأخلاق، فلما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والمواساة لم يخالفه الشرفاء إلا من جهة إشراكهم بالله وإنكارهم بالبعث بعد الموت".³

ولما واجه رؤساء العرب هذا التحدي، حاولوا خفض هذا الصوت الجديد ودعوا الشبان إلى اللغو والتصفيق عند تلاوة القرآن الكريم. يقول الله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" وذلك لكي يسد طرق

¹ بروفيسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

³ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 579.

تعليمه وتأثيره في الناس، ولكن محاولتهم ذهبت على أدراج الرياح وانهمزم رؤساء العرب انهزاماً شديداً وفتح المسلمون مكة المكرمة وتولوا بيت الله. وأصبح النبي ﷺ حامل مفتاح الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس مباركا ومثابة لهم. ويتبادر من كتاب الفراهي النادر "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" ومن "رسائل شبلي" أن الفراهي قد سلط الضوء على حقيقة بيت الله بأسلوب جدير بالإشادة والتقدير.

يقول الإمام الفراهي في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" في الاستدلال الثالث عشر بما جاء في القرآن على سبيل إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل عليه السلام وهو يفسر قوله تعالى في سورة آل عمران: "إن أول بيت وضع للناس ببكة مباركا وهدى للعالمين... وما الله بغافل عما تعملون" الآية 96-97. ويكشف لما تتضمنه من احتجاج ورد على أهل الكتاب الذين أتهموا مكان البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمكة. ثم ذكر البلد باسم "بكة" بمعنى البلدة، كما سماه إبراهيم عليه السلام، ودلّ به على تحريفهم في مزمور 84 حيث جعلوه وادي البكاء.¹ وهذا الاسم جاء في الصحف السماوية أيضاً. ويقول الفراهي في صدد اشتقاق مكة في مفردات القرآن:

"اختلفوا في اشتقاق مكة، ولا شك أنها مبدلة من "بكة" لمجيئها في القرآن. وهكذا كان اسمها عند حلول إسماعيل عليه السلام وذرية إبراهيم عليه السلام في وادياها. وهذه الكلمة معناها المستعمرة، كما ترى في لفظ بعلبك. وهذه الكلمة هي التي تبدلت في العربية "بقعة" وأصلها من الفارسية. وهي "بغ" كما ترى في بغداد ومنها كلمة "باغ" للبوستان.² ويرى بعض الناس أن "بغ" هي آلهة يعبدونها الناس ويرى أنه رازق فلذلك ألحق كلمة "داد" في آخرها.³

¹ مفردات القرآن، ص 317

² المصدر نفسه، ص 317-318

³ راجع للتفصيل: البرامكة، 1/122-124

ويرى مثل هذا الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في صدد "بعل" أنه اسم آلهة كان يعبدها قوم إلياس. ويوجد نظير أن مدينة بعلبك تنتمي إلى هذه الآلهة وذلك لأن "بك" مخفف من "بكة" معناها البلدة.¹ وتبدل بعلبك فيما بعد بالبقعة وهي كلمة فارسية.²

وأوضح القرآن الكريم عظمة بيت الله بعد أن سمّاها "الكوثر". ولماذا سمي بيت الله "الكوثر"، ألقى الفراهي الضوء على هذا وهو موثق بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة. واختلف المفسرون في تعيين كلمة "الكوثر" وأرادوا بها القرآن والحكمة والإسلام والنبوة والحوض والنهر في الجنة وغيرها. وانفرد الفراهي في تعيينه من المفسرين ويرى أنه بيت الله الذي يعم نفعه ويتمتع العالم ببركاته. ولعل من المناسب أن ننقل فيما يلي ما قال الإمام الفراهي في تعيين هذه الكلمة:

"قد ظهر مما سبق أن السلف رحمهم الله لم يختلفوا في كوثر الآخرة. ولكن حملوا اللفظ على العموم، وراعوا صيغة الماضي. فذكروا ما يدخل في مدلول هذا الاسم، ليكون اللفظ عامًا وسيعًا كوثرًا في دلالاته. ولذلك ساع للمتأخرين من المفسرين التماس أمور آخر غير ما روي عن السلف. فلو كان القول فيه بدعة وضلالة لسكتوا، ولسكت السلف ولم يختلفوا.

فإن التمسست قولًا يجعل الكوثرين واحدًا لم أرني مخالفًا للسلف، كما أني لا أراهم مخالفين بعضهم لبعض، بيد أنهم جعلوا الكوثر عامًا، فحملوه على حوض أو نهر في الجنة، وعلى غيره مما فيه الخير العظيم من القرآن والحكمة والإسلام والنبوة، من غير رعاية مناسبة بالحوض أو النهر. وأما أنا فأحملة على ما هو أشبه شيء بحوض أو نهر وصفه النبي ﷺ، وكشف له في ليلة المعراج. فإن الله تعالى أراه

¹ تدبر قرآن، 145/2. وراجع للتفصيل أيضًا: قاموس ألفاظ واصطلاحات قرآن، ص 55-57

² راجع للتفصيل: حواشي مفردات القرآن، ص 318

فيه حقائق أمور آخر وروحانياتها من الأمور التي في الدنيا، فكذلك أراه روحانية الكوثر الذي أعطاه في الدنيا.

وكان النبي ﷺ ربما يصرح بما يكشف له، كما قال في أمر سورتي البقرة وآل عمران أنهما تأتيان كغمامتين، وأن الدنيا تأتي كعجوز شمطاء، وأن الموت يأتي في صورة كبش. وربما يكتفي بالإشارة لكي يتفكروا ويستنبطوا، فيكون تعليمًا وتربية لعقولهم. فإن لم يبلغنا التصريح منه عليه الصلاة بأن الكعبة تكون يوم القيامة حوضًا كوثرًا فقد دلنا بإشارات، وقد رغبتنا في التفكير والتوسم.

والآن نذكر ما كشف لنا من اللوامع الدالة على ما ذكرنا.

الأولى: أن النفوس لها شوق إلى الرب، ولا تطمئن ببعدها عنه. وهذه الفطرة منشأ الديانات في الناس، حتى لا تخلو عنها أمة. وما يعبر عن هذا الشوق الروحاني غير "العطش". وكثر في الزبور هذا التمثيل. فإن صح ذلك فالموحدون عند الحج لأشبه شيء بالعطاش المجتمعين عند حوض بعد مقاساة الظم الشديد. فالكعبة لهم في الدنيا هي كالحوض الكوثر الذي يردونه في المحشر.

والثانية: أن النبي ﷺ شبه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه. قال ﷺ: "أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا...". فهذا تمثيل من جهة أخرى للماء. فإن الماء كما أنه رواء فكذلك هو طهور. ولا شك أن مورد صلواتنا هذا البيت الذي بمكة، فكأن له جداول في كل مكان يصلون فيه.

والثالثة: أنه كما تستعلن كثرة هذه الأمة على الأمم عند الكعبة فكذلك تكون عند الحوض. ولا شيء أدل على كثرة هذه الأمة من اجتماعهم في موضع واحد. وإن هذا الاجتماع لأدل على كثرتهم لعلم الناس بأن هذه الجماعة إنما هي قطرة من بحر أمته الممتد على بسيط الأرض. فكما تتضح زيادة هذه الأمة على أمم النبيين الآخرين في القيامة عند اجتماعهم على الحوض، فكذلك ترى كثرتهم حول الكعبة في الموسم. فاسم "الكوثر" أظهر مطابقة بهما.

والرابعة: أن النبي ﷺ أخبر أنه يعرف أمته على الحوض بأثار الوضوء. ففيه إشارة إلى أن الذين يردون هذا البيت بقلوبهم هم الذين يردون في الآخرة ذلك الحوض الذي هو حقيقة هذا البيت.

والخامسة: أن الله تعالى قد جعل استخلاص الكعبة ينبوعًا للكثرة. فدخلوا في دين الله أفواجًا بعد الحج الأكبر.

والسادسة: أن الله تعالى سَمَّى مسجد مكة مباركًا، حيث قال: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين" وجعل الله لهذا البيت من البركة ما عم فيضه جميع العرب بل جميع العالم، كما وعد إبراهيم عليه السلام. فظهرت بركته في إسماعيل عليه السلام أكثر من بركة إسحاق عليه السلام، كما مر في تفسير سورة الفيل. ولا يخفى أن كل هذه البركات من هذا البيت، ومن الصلاة والنحر. وأما تسمية القرآن بالمبارك، فمن جهة كونه كالمطر النازل من السماء، فسمَّاه "مباركًا" كما سَمَّى المطر "مباركًا". فكما أن المطر يحيي الأرض، فكذلك القرآن يحيي القلوب. فتسمية القرآن بالمبارك لا تجد فيها ما تشبهه بالحوض. والبلاغة تنكر هذا التشبيه لعلو مكانة القرآن وسعته التي لا نهاية لها.

والسابعة: أن هذه السورة نزلت يوم صلح الحديبية الذي فتح باب الوصول إلى بيت الله والحج والصلاة والنحر وظهور الإسلام وكثرته، حتى سماه الله تعالى "فتحًا مبيئًا". ونتكلم على زمان نزولها في الفصل الرابع عشر ببعض البسط إن شاء الله.

والثامنة: أن النبي ﷺ أخبر عن موضع طرف من ذلك الحوض، فأشار إلى الباقي، كما روى البخاري في صحيحه. قال ﷺ: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي". فيستنبط من ذلك أن هذه الأرض المباركة التي يتردد فيها الحجاج هي التي تصير حوضه الكوثر الذي أخبر عنه، ومنيعه الكعبة.

وإلى هذا أرى إشارة في قوله ﷺ، كما روى البخاري في صحيحه -وهي التاسعة- أن ﷺ خرج يومًا فصلَّى على أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال:

"إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشاركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها".

"الفرط": من يتقدم القوم إلى الماء ليبرئ لهم الأرسان والدلاء، ويملاً لهم الحوض. و"شهيد عليكم" أي يعرفهم ويشهد على كونهم من أمته، فيكون ذلك شفاعاً لهم. هذا بيان ما يقع في الآخرة. ثم أشار إلى أن ظاهر ذلك الحوض بين يديه، فإن منبره على حوضه، كما مر آنفاً. وما ذكر من إعطاء مفاتيح الأرض فذلك ما أنجزه الله تعالى، فإن فتح مكة كان مفتاحاً لفتح الأرض وخزائنها.

والعاشرة: أنه عليه السلام أخبر أن طول حوضه ما بين مكة والمدينة. فأشار إشارة لطيفة إلى المطابقة التي بين أرض الحرم وحوضه. فإن قيل: فهلا ذكر ما أراد بالتصريح؟ قلنا: إنما اختار هذا الاسم لكثرة دلالاته، ولتفكروا. فدل على كثرة الأمة، وفتح مكة، وكثرة اجتماعهم في الحج، وفي الموقف على حوضه. وإنما ذكرنا هذه الأمارات تمهيداً وتأييداً لما دل عليه نظم الآيات، كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى. هذا، ثم التدبر في هيئة الحوض الكوثر يدلنا على ما ذكرنا من كون الكوثر الأخرى صورة روحانية للكعبة وما حولها.¹

وتفسير الفراهي هذا يوضح أمامنا نكتة جديدة للسيرة النبوية. ولعله من الضروري أن نصح هناك أن العلامة شبلي النعماني وسيد سليمان الندوي قد أكثرا الاستفادة من الفراهي في ترتيب سيرة النبي وتقييمها. وتدل عليه رسائل شبلي النعماني. وكذلك استفسر العلامة شبلي الفراهي في كثير من المباحث القرآنية من أمثال الصفا والمروة ورمي الجمار وحج بيت الله وغيرها من المسائل الأخرى الواردة في سيرة النبي. وللفراهي إسهامات غير قليلة في إبراز جوانب عديدة في سيرة النبي التي ألفتها شبلي النعماني. وقد أشار إليه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي هكذا:

¹ تفسير سورة الكوثر (منهج جديد ورؤية جديدة)، ص 16-20

"أما البحث القيم الذي كتبه شبلي حول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في كتابه سيرة النبي، فكله مأخوذ من هذه الرسالة القيمة للفراحي المسماة بـ"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح". وقد نقلتها إلى الأردية أيضاً¹.

وتناول كاتب هذه السطور هذا الجانب في إحدى مقالاته كما يلي:

"إن العلامة شبلي نعماني كان يراجع الإمام الفراحي خلال كتاباته وتحقيقاته بما أنه كان يعتمد على سعة اطلاعه ورسوخه في العلم وشغفه بالقرآن الكريم ومعرفته باللغة العبرانية وإمعانه في الصحف السماوية. ويزخر كتابه الفذ المسمى بـ"سيرة النبي" بتوضيحات للفراحي وخاصة في تلك القضايا التي تتعلق بعلوم القرآن. لأن الفراحي يتصف ببالغ الإمعان ودقة النظر في المباحث القرآنية. فيوجد في رسائل شبلي سبع رسائل تتعلق بمبحث الذبيح، سأل فيها عن أسئلة هامة ونكات مهمة تبرهن على الذبح الحقيقي. وكتب إليه رسالتين لإرسال نتائج بحثه في تعيين موضع الذبح في ضوء الصحف السماوية. ورسالتين لإرسال بحثه عن مزاعم أهل الكتاب حول مسكن إسماعيل كما كتب إليه ثلاث رسائل سأل فيها عن الاسم الحقيقي لمكة المكرمة والمدينة المنورة، وعن التحريفات التي قام بها أهل الكتاب في هذا الأمر. وعندما ألقى شبلي الضوء بالإيجاز على أزواج النبي ﷺ في المجلد الأول من سيرة النبي وعبر آراءه عنها وكانت بين عينيه هذه الدسائس الضارة، والخبائث العلمية المفتراة والمخترة من قبل المستشرقين، فكتب إلى الفراحي ثلاث رسائل حول هذا الموضوع واستفسر فيها عن أشياء كثيرة. وتوجد في رسائل شبلي اثنتان وعشرين رسالة إلى الإمام الفراحي، وردت فيها بحوث حول سيرة النبي وأثير فيها موضوعات هامة من المفردات القرآنية والأماكن وغيرها. وفيها بعض من المباحث القيمة التي لا يمكن تكميلها بدون استفسار الإمام الفراحي².

¹ تفسير نظام القرآن، ص24

² مولانا حميد الدين الفراحي - حيات وأفكار، ص451-452

وتعج تصانيفه من أمثال "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"إحكام الأصول بأحكام الرسول" و"سلسلة أنساب النبي ﷺ" وغيرها بجوانب عديدة من السيرة النبوية، وهي تتنزه من التحريفات والأحاديث الموضوعة. فإن الفراهي كان يريد أن يرتب السيرة النبوية على أساس القرآن الكريم، وأن يقوم بتحليل الروايات التي تتعلق بالسيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم. وتزخر الروايات باسم السيرة النبوية وفيها أحاديث غير قليلة تشوه حقيقة السيرة النبوية وربما يثير الشك في كون النبي ﷺ بشراً، مع أن القرآن الكريم يعلن بكل وضوح "إنما أنا بشر مثلكم". وقدر السير سيد على تقديم منهج موثق غير مشكوك فيه. نرى جوانب عديدة للسيرة النبوية في "تبين الكلام" وفي "بشرى لعنايت رسول وفي" الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" للإمام الفراهي. وفي العصر الأخير أتم خالد مسعود أمنية الفراهي بتأليف "حيات رسول أمي" وكتب في ديباجته أن الآية الكريمة "قد أنزل الله إليكم ذكراً. رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور" (الطلاق: 10-11) تقدم الرسول كذكر بدل القرآن الكريم. فكأن القرآن والرسول كلاهما شيء واحد، أحدهما في صورة الألفاظ والثاني في صورة الجسم.¹

وتفاسير آيات غير قليلة في تفسير الإمام الفراهي المسمى بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" تحتل أهمية كبيرة في توضيحات السيرة النبوية العطرة. فمثلاً نرى أن معظم المفسرين ترجم كلمة "ضالاً" الواردة في سورة الضحى "ووجدك ضالاً فهدى" وفيه تشويه للنبي ﷺ، وذلك بما أنه كان صادقاً أميناً قبل النبوة أيضاً. وفسر الفراهي هذه الكلمة هكذا: "الضال ههنا من يلتمس الطريق لا من يتغافل عنها والأولى ممدوح والثاني مذموم".² والكلمة تدل على هذا. وفي الواقع

¹ حيات رسول أمي، ص 2

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 463/2

يعني بهذه الكلمة تصوير اضطراب النبي ﷺ وقلقه وهيمانه، فكان النبي ﷺ يهيم في البحث عن جادة الحق والنبوة التي بها يخرج قومه من الظلمات إلى النور. وهذا القلق لا يزال يطير نومه كما صوّر القرآن الكريم: "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين" وعبر القرآن الكريم عن هذا القلق والاكتئاب والاضطراب بـ "ضالاً". واستعمل الفراهي لهذا التعبير كلمة مناسبة، ثم أوضح ونقح الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وترجمه "وجدناك باحثاً عن جادة الحق فهدناه". يشمل فيه رعاية حالته الخاصة واللغة كليهما. وفسر الشيخ الإصلاحي تفسيره هكذا:

"مما لا شك فيه أن العادات والتقاليد التي توارثها النبي ﷺ عن آبائه، لا تكاد تطمئن بها فطرته السليمة وحتى لثانية. وليس هناك أي ضياء آخر ينور قلبه ويسكن خاطره. وأما المتبعون للأديان السماوية الذين كانوا حوله، فبيّنت سورة البقرة وآل عمران والصور المدنية الأخرى أحوالهم السيئة وعقائدهم وأعمالهم القبيحة إلى أنه لا يمكن لباحث جادة الحق أن يهدي بها. فعانى النبي ﷺ من توتر ذهني بذلك الوضع، وأعرب عنه القرآن بقوله "ووجدك ضالاً". فكلمة "ضال" لا تعني بها البعيد عن جادة الحق بل هو تعبير عن باحث جادة الحق. وذلك لما أن الأنبياء ولدوا على فطرة سليمة قبل البعثة ولا ينحرف عن حقائق الفطرة في بداية حياته أيضاً. وإنما الفطرة تهدينا إلى حقائق ثابتة من العقائد والأعمال التي لا بد منها. ولا تستطيع أن تشرح جميع العقائد ومقتضياتها ولا تحيط بالأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة في إطارها. ولذلك يحتاج رجل مع كونه على الفطرة التي فطر الناس عليها إلى المعرفة بصفات الله تعالى ومقتضياتها ومتطلباتها مع أن قلبه يشهد ويصدق وجود الله تعالى.

وما هي الحقوق التي تؤول إلى العباد وكيف يؤدونه؟ كيف ننظم حياتنا؟ لكي تكون وفقاً لما يحب الله ويرضى في جميع أبعادها. وإلى متى هذه الأسئلة تبقى، لا يستطيع الإنسان أن يحصل على انشراح حقيقي ويوطد علاقته بالله. وهذه الأسئلة هي

التي كانت قد استولت على قلب النبي ﷺ طول هذه الفترة وتشير إليه كلمة "ووجدك ضالاً" ويبدو أن هذه الحالة ليست حالة الضلال ولا يمكن أن نعبر عنها بالهداية، بل هي في الواقع بحث عن جادة الحق والصراط المستقيم. كأنه رجل يقف على الشارع العام ولا يستطيع أن يعين منزله. وما زال النبي ﷺ يستغرق في حل هذه الاضطرابات النفسية في خلاء غار حراء قبل البعثة¹.

وترجم الشيخ مولانا أحمد رضا خان البريلوي رحمه الله كلمة "ضالاً" إلى "خودرفته" وهي ترجمة ملائمة للغاية. ولكن ترجمة الآية "اور تمہیں اپنی محبت میں خودرفتہ پایا تو اپنی طرف راہ دی" أي "ووجدك ضالاً في حبه فهداك إليه" لا يناسب في ضوء نظم القرآن الكريم. وذلك بما أن هذا الضلال ليس ضلال الحب بل هو ضلال حصول الهداية والبحث عنه. ونقل الشيخ البريلوي رحمه الله رؤية المتصوفين في توضيح هذا التفسير أيضاً فقال: "يعني بالضال الجذب وبالهداية السلوك"². ولا علاقة لهذا التفسير الصوفي بالقرآن الكريم أيضاً. وأما خمسة معاني التي أشار إليها الشيخ البريلوي خلال دراسة كلمة "الضال" لغة فهي جديرة بالإشادة والتقدير. وما أحسن لو نقوم بالاستفادة من "كنز الإيمان" في المباحث اللغوية. ولكن مما يؤسف أن فئة كبيرة من الأوساط العلمية لا تعتني بها. ومن المناسب أن يستفيد الباحث من جميع مذاهب الفكر والرأي.

وجاء ذكر صفات عديدة لنبينا ﷺ في القرآن الكريم ومنها صفة "شهيّد". ويرى الإمام الفراهي أن الشهيّد هو الذي يؤذن بالكلام، وبواسطته يغفر لمن شاء الله³. فليس لأحد أن يبدأ بالكلام. وجاء في إحدى الروايات "عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: اقرأ علي القرآن. قلت يا رسول الله، كيف أقرأ عليك وإنما أنزل

¹ تدبر قرآن، 416/9

² كنز الإيمان، ص 975

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 126/1

عليك. قال: إني أشتي أن أسمع من غيري". قال: فافتحت سورة النساء، فقرأت عليه، فلما بلغت: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً"، قال: نظرت إليه وعيناه تذرفان".¹

وبين الفراهي في موضع من تعليقاته على القرآن الكريم أن الشهيد كالرسول، ولذلك سعى الله الأنبياء شهداء. ثم الشهيد هو الرقيب والمحافظ كما ترى في آخر سورة المائدة.²

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"الشهيد يعني زعيم القوم ولسانهم الذي يشهد المشاهد من جانبهم ويدافع عنهم، يمكن أن يكون هذا الشهيد من الناس كما يمكن أن يكون من الجن كما يعتقد العرب وقد كان الشعراء والخطباء يتمتعون من درجة كبرى في العصر الجاهلي وذلك لأن هؤلاء كانوا يدافعون عن عزتهم القومية في كل مشهد من المشاهد المهمة. وكان مشركو العرب يعتقدون أن كل شاعر يعضده جنّ يلهمه الشعر وعلى هذا فقد ظنوا عن القرآن أنه نوع من ذلك الإلهام المعجز".³

وتناول الإمام جوانب عديدة للسيرة النبوية في مؤلفاته المختلفة. ومن أهم موضوعات السيرة النبوية "ترتيب قرآن". وللفراهي بحث دقيق عن هذا الموضوع. ويرى أن ترتيب القرآن الكريم توقيفي. ويقول خلال تفسيره عن الآية "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" أنه يصون عن التحريفات وأي نوع من النقص والزيادة. ولعله من المناسب أن ننقل هذا البحث فيما يلي:

¹ مسند أحمد، 433/1، رقم الحديث، 4118

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 148/1

³ تدبر قرآن، 138/1

"اعلم أن الله تعالى وعد حفظ القرآن الكريم مرارًا إجمالًا وتفصيلًا. فقال تعالى: "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ" (حم السجدة: 41-42) أي أنه مصون عن الزيادة. وقال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون". وهذا قول في غاية الصراحة بنفي النقصان والتغير مع الدلالة على نفي الزيادة أيضًا. فإن كل واحد من هذه الثلاث يخالف حفظ الكلام وهذا أمر ظاهر.

وأما ما اشتهر أن الإمامية يقولون بذهاب بعض القرآن فخالف تصريح علمائهم كالسيد مرتضى وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي وأبي علي الطبرسي صاحب "مجمع البيان" ومحمد بن علي بن بابويه القمي الذي قال: "اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه هو ما بين الدفتين وما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك. ومن نسب إلينا أننا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب". وأما رواياتهم فمثل رواياتنا لا يعتمد عليها لضعفها. قال السيد المرتضى: "إن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية ولا يعتد بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخبارًا ضعيفة ظنوا صحتها. لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته. وللسيد المرتضى دلائل أخرى تركناها. فإننا بسطنا الكلام في كتابنا "تاريخ القرآن" وإنما نذكر هنا ما يختص بهذه السورة.

فلا يخفى عليك أن قوله تعالى: "إنا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه" (القيامة: 17-19) يحتوي على ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ ويقرأ عليه بنسق واحد. فإنه لو أنجز هذا الوعد بعد عهد النبي لم يأمره باتباعه وذلك قوله: "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه".

والثاني: أن النبي مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية التي تكون بعد الجمع. وليس للنبي أن يلقي عليه شيء من الوحي ولا يبلغه الأمة عقلاً. ولما أمره الله تعالى في قوله: "يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ" قوله:

(المائدة: 67). وقوله تعالى "ما أنزل إليك" عام لا يخصه العقل. فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لا بد أن يبلغه الأمة ونظم القرآن وسورته منه. فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه فلا شك في أن النبي ﷺ أمر الأمة قراءة السورة بنسق آياتها. والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بين الله ما شاء بيانه من التعميم والتخصيص والتكميل والتخفيف. وقد علمنا وقوع هذه الأمور الثلاث. فإن النبي ﷺ كان يقرأ عليهم سورة القرآن كامله. وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص فأخذوها منه. وكان يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبينة ضمها بالقرآن".¹

وشرح الفراهي وفسر كلمات عديدة في كتابه الشهير "مفردات القرآن". نونس فيها النور المبين للسيرة النبوية. يقول عن خاتم النبيين: "اعلم أن النبوة قد ختمت بمحمد ﷺ".² ولذلك جاء في القرآن: "مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد". فالنبوة قد ختمت بالمسيح في بني إسرائيل، ولكن بقيت لبني إسماعيل ثم ختمت بمحمد للأبد. ولذلك قال النبي ﷺ: "لا يكون بعدي إلا الرؤيا الصالحة".³

وألقى الفراهي الضوء على مدينة النبي ﷺ وقال إن اسمها القديم كان يثرب. يقول سلامة بن جندل:

ألا هل أتى أفناء خندف كلها وعيلان إذ هم الخميسين يثرب⁴

وإضافة إلى ذلك نقل الفراهي أشعار عبيد بن الأبرص للاستدلال بها. وبما أن أول من سكنها كان يثرب بن قانيه بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 231-233

² مفردات القرآن، ص 181

³ تدبر قرآن، 6/239

⁴ شعراء النصرانية، ص 491

سام بن نوح، فلذلك ذاع صيته يثرب. ويقول الفراهي. إن يثرب كان اسم بلد وسيع حسب سعة سكانها ولما قل بنو يثرب ضاق فبقي لمدينة الرسول.¹

ما هو معنى الوسيلة، تناول المفسرون هذه الكلمة بالبحث والدراسة الجادة. وترى فئة أن عشق الرسول هو الوسيلة ويظنه وسيلة لنجاتهم، ويرى فئة أخرى أن هذا التصور غير حقيقي. ولو حاولنا فهم معنى الوسيلة في ضوء القرآن الكريم فيزول هذا النزاع والاختلاف. ونلاحظ معنى الوسيلة الحقيقي في السطور التالية: ابتغوا إليه الوسيلة أي بالزكاة والجهاد. فإن الكفار لا وسيلة لهم ليقتدوا بها ولو أن لهم ما في الأرض جميعاً.² ويقول حافظ صلاح الدين يوسف: "الوسيلة هي شيء تقترب بها إلى الله أو نحصل على هدف خاص. وابتغوا إليه الوسيلة، معناها اعملوا أعملاً تقربكم إلى الله وترضيه".³ يقول الإمام الشوكاني: "إن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يقترب العباد بها إلى ربهم، كما يقترب العبد إلى الله بابتعادهم عن المنهيات والمحرمات. فلذلك اجتنابهم منها أيضاً وسيلة التقرب إلى الله. ولكن الجاهلين يرون الموتى وسيلة ويتقربون بهم إلى الله ولا أساس لها في الشريعة الإسلامية. ولا ننكر أن المقام المحمود الذي شرف به النبي ﷺ في الجنة وسماه في الحديث بالوسيلة. ولذلك قال النبي ﷺ: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة".⁴

ومباحث السيرة النبوية مبعثرة في مؤلفات الفراهي. وتشمل جهود الفراهي الجبارة في ترتيب "سيرة النبي" الذي ألفه العلامة شبلي النعماني ولعله من المناسب أن

¹ مفردات القرآن، ص 241-242

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/154

³ تفسير أحسن البيان، ص 302

⁴ الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء

نقدم آراء الفراهي هذه في صورة المقتبسات. ويفيد هذا الشيء من يشغفون بالسيرة النبوية. إن الفراهي كان يريد أن يرتب السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم ولكن الحياة لم تمهله لتكميل هذا. وأتمّ خالد مسعود هذه الخطة في صورة "حيات رسول أمي" الذي ينفرد في مجال السيرة النبوية. ومن أبرز الميزات التي يتميز بها هذا الكتاب أنه تناول كثيرًا من الأحاديث الضعيفة والموضوعة المتعلقة بالسيرة النبوية ثم استعرضها بأسلوب علمي. يقول:

"لم أزل أحاول الاستفادة من الأحاديث الواردة في كتب السيرة النبوية وعامة ما قبلتها في ضوء مقاييس كتاب السيرة النبوية وتحقيقهم. ولكن حيثما أجد أن رواية عن الرسل لا توافق سنة الله فيهم، أحاول أن أبين سقمها. ومن هذه الناحية سيجد القراء هذا الكتاب منفردًا عن كتب السيرة الأخرى. ونوثق جميع مباحثه بالدلائل والبراهين إن شاء الله تعالى".¹

ومن ميزاته أنه ألقى الضوء على ترتيب القرآن الكريم بأسلوب، لا نجد له نظيرًا في كتاب آخر.² وعلى كل حال أن المنهج العلمي الذي اختاره السير سيد بشأن السيرة النبوية، تناوله كلّ من العلامة شبلي والفراهي وخالد مسعود وأبلغوه إلى القمة.

وألّف الفراهي كتيبًا صغيرًا حول السيرة النبوية باسم "سلسلة أنساب النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الكتاب". كشف فيه النقاب عن افتراءات أهل الكتاب والمستشرقين وخياناتهم العلمية. ويجب على من يؤلف مثل هذا السفر الجليل أن يعرف اللغة العبرية وذلك بما أنه لا يمكن الاستفادة من التوراة حال عدم معرفته بهذه اللغة ولا ينجح في إمطة اللثام عن تحريفات أهل الكتاب. تصل سلسلة أنساب النبي ﷺ إلى إسماعيل ولذلك لم يزل يحاول اليهود أن يبرز بني

¹ حيات رسول أمي، ص 12

² المصدر نفسه، ص 525-539

إسرائيل من طرق مختلفة. ولذلك حُرف في الإنجيل. وحاول الفراهي إبراز الحقيقة من خلال تقديم أنساب آدم عليه السلام الواردة في التوراة وأشار إلى ضعفها. وتناول هذا الكتيب مكوث بني إسرائيل في أرض الحجاز وبنائهم لبيت الله فيها. وذلك لكي لا يبقى أي شك في سلسلة أنساب النبي ﷺ ويخبرهم بأن بني إسماعيل هم الذين بنوا هذا البيت العتيق وبذلوا كل جهودهم في جعلها مركزاً للتوحيد. وللفراهي مساعٍ مشكورة في إزالة الشكوك والشبهات لأهل الكتاب من اليهود والنصارى وهي:

أولاً: لم يدخل إبراهيم جزيرة العرب ولا استوطن بالحجاز وأن بئر سبع القريبة من بيت المقدس كانت هي موطن إبراهيم.

ثانياً: كان إسحاق هو الذبيح وأن الجبل الذي اختير لذبحه هو جبل سوريا ببيت المقدس.

ثالثاً: كان إبراهيم قد طرد إسماعيل وأمه هاجر من البيت فتوجهوا إلى صحراء فاران التي تقع في شمال الجزيرة العربية خارج الحجاز وتوطنا هناك.

رابعاً: كانت هاجر أمة مصرية وأنها زوجت إسماعيل أيضاً من امرأة مصرية.

خامساً: لا علاقة للكعبة بإبراهيم عليه السلام بل هي كانت معبداً لعباد الأصنام العرب. ولأن هدمها كان يشق على العرب فلذلك حطم محمد صلى الله عليه وسلم الأصنام وقضى على عبادتها ولكنه أبقى على المعبد مع طقوسه على وجه الاضطرار واكتفى بالإصلاح الضروري.

سادساً: العرب ليسوا من أولاد إبراهيم. إذ لم يرد هذا الادعاء إلا في القرآن كما جاء فيه أن إبراهيم رفع قواعد الكعبة.

سابعاً: سفر التثنية الذي يقول إن النور الإلهي تلاً من جبل فاران ليس بكتاب موثوق به.

ثامناً: القصص القرآنية حكايات مسموعة من اليهود والنصارى. ومعظمها لا يطابق الأصل عمداً أو بدون عمد. وبالتالي كل الحكايات التي تخالف التوراة لا أساس لها من الصحة.¹

ثم ردّ الفراهي على هذه الاعتراضات التي أثارها اليهود والنصارى بأسلوب علمي مقنع، تتضح منها سلسلة أنساب النبي صلى الله عليه وسلم ويقطع بها دابر مزاعمهم الباطلة. وكتيبه، على الرغم من كونه صغيراً في الحجم، جدير بالعناية والإشادة والتقدير.

ويبدو من خلال دراستنا لبحوث الإمام الفراهي وخدماته أنه كان يريد أن يقدم الإسلام وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم إلى العالم وخاصة إلى المستشرقين في أسلوب علمي. ولا يزال ينهمك في تقديم حبه للنبي صلى الله عليه وسلم من خلال البحث والتحقيق. وإتماماً لهذا الهدف رتب الفراهي كتيباً صغيراً باسم "إحكام الأصول بأحكام الرسول" يشمل خمس عشرة صفحة. وهذه مسودة غير تامة ولو تم الكتاب لكان إضافة قيمة في مؤلفات السيرة النبوية. ولعله من المناسب أن ننقل هنا ما قال الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي في التعريف بهذا الكتاب.

"كان الفراهي يريد بهذا الكتاب أن يبين أصول استنباط الأحكام الفقهية في ضوء الاستنباطات القرآنية للنبي صلى الله عليه وسلم. تشمل مسودة هذا الكتاب سبع عشرة صفحة. فيه أرقام الصفحة إلى ثماني صفحات ثم وضعت مباحث متفرقة متعلقة بهذا الكتاب. وتتضمن المبيضة تسع صفحات. وجاء اسم الكتاب وموضوعه على غلافه هكذا: "إحكام الأصول بأحكام الرسول في علم أصول الفقه المأخوذة من استنباطات الرسول عليه السلام من القرآن الكريم". ويبدأ التمهيد على الورقة الثالثة بعد البسملة وخطبة الكتاب:

¹ رسالة سلسلة أنساب النبي وأهل الكتاب، ص30

"أما بعد فهذا كتاب في أصول الفقه المؤسسة على أحكام الرسول عليه السلام مما استنبطه من كتاب الله، وهذا علم جديد، وإنما لم يلتفت العلماء إليه لظنهم بأن الله تعالى لما فرض عليهم طاعة رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، أغناهم عن طلب السند لما كان يأمرهم به وينهاهم عنه. فإن قوله عليه السلام أصل مستقل سواء استنبطه من الكتاب أم لم يستنبطه. وهذا أمر مسلم لا يشك فيه مسلم ومع ذلك معلوم أنه عليه السلام كان يستنبط من كتاب الله كما جاء التصريح منه عليه السلام في كثير من الأحكام وقد أمره الله عز وجل بذلك في القرآن كما سنذكر جملة ونذكر تفصيلها للتدبر".¹

ثم جاء ذكر ستة أحكام هذا النوع، يتبعها بعض المباحث بعنوان "في أن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها مستنبط من القرآن، وفي أن الرجم أو تغريب عام مستنبط من القرآن".

وموضوع هذا الكتاب مهم جداً. وأراد الكاتب من خلال الخوض في صلب الموضوع ولكنه لم يستطع ووافته المنية بعد أن كتب بعض الإشارات حول الموضوع.²

تتمتع سيرة النبي للعلامة شبلي النعماني بالسمعة الكبيرة والمنزلة العظيمة في كتب السيرة النبوية. وينفرد في مواده وأسلوبه عن الآخر. وخاصة تتعجب وتندهش الأوساط العلمية والأدبية بأسلوبه الرائع الجميل الذي اختاره في كتابة "ظهور قدسي".³ وكذلك صوّر الفراهي شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" بأسلوب رشيق، يتمتع بروعة الجمال وسلاسة البيان ويريد القارئ أن يعيدها مراراً وتكراراً. ومن المفيد أن ننقل هذا المقتبس وننهي به المقال، ليحظى بقرائتها القارئ:

¹ مولانا حميد الدين الفراهي - حيات وأفكار، ص 67-68

² ذكر فراهي، 1/114

³ سيرة النبي، 1/411

"ورسوله سيدنا محمد النبي العربي صلى الله عليه وآله صلاة تدوم وسلّم تسليمًا مستمرًا، إلى آخر الأمد ومدى العدد دهرًا فدهرًا، الذي أرسله رحمة للعالمين طرا، سراجًا منيرًا فأشرقت بنوره الأرض بحرًا وبرًا، مباركًا مطيبًا فنشر منه في الأفاق نشرًا، عطوفًا رؤوفًا فقوي به الضعفاء جبرًا، غيورًا صبورًا فقمع به الجبابرة كسرًا، بعثه بحنيفية سمحاء فأعطاه دينًا يسرًا، ووضع به ما كان أغلاًا وإصرًا، وجعل له أمة مسلمة يتلو عليهم آياته ويزكّهم ويعلمهم حكمه وبرًا، أزاح عنهم نخوة الجاهلية فلم يترك لبعضهم على بعض بطرًا ولا فخرًا، إخوة أخلاء لا يحمل بعضهم لبعض حقدًا ولا وترا، واختار له منهم صحبًا كرامًا لهماميم غرًا، أشدّ لله حبًا وأوفى ذمة وأكمل صبرًا، فأخلصوا الريم منهم سرًا، وشدّوا لنبيه أزرا، وأعزّوا لدينه نصرًا، فأقرّ الله بهم الصالحين عينًا وأضحك لهم ثغرا، وأهان بهم الظالمين وملا صدورهم وغرا، واستخلفهم متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله فرضي الله عنهم ونضر وجوههم نضرا".¹

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 22

المصادر والمراجع

1. أعلى حضرت إمام أحمد رضا فاضل البريلوي: كنز الإيمان (إفادات)، إداره استقامت، كانفور، يوبي، بدون سنة
2. الإمام حميد الدين الفراهي: تفسير نظام القرآن (نقله إلى الأردية: أمين أحسن الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، 1990م
3. الإمام عبد الحميد الفراهي: تعليقات في تفسير القرآن الكريم (إعداد: الدكتور عبید الله الفراهي، ومراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2010م
4. الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير سورة الكوثر (منهج جديد ورؤية جديدة)، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2010م
5. الإمام عبد الحميد الفراهي: رسالة سلسلة أنساب النبي وأهل الكتاب، مركزي مكتبه إسلامي، نيو دھلي، الطبعة الأولى، 1991م
6. الإمام عبد الحميد الفراهي: مفردات القرآن (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2002م
7. الإمام عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2008م
8. أمين أحسن الإصلاحي: تدبر قرآن، تاج كمبني، دھلي، الطبعة الأولى، 1989م.
9. أمين أحسن الإصلاحي: قاموس ألفاظ واصطلاحات قرآن (ترتيب وتحقيق: أورانغ زيب الأعظمي)، إسلامك بك سينتر، نيو دھلي، الطبعة الأولى

10. حافظ صلاح الدين يوسف: تفسير أحسن البيان (ترجمة: خطيب الهند مولانا محمد جونا كرهى ومراجعة: مولانا صفى الرحمن المباركفوري)، دار السلام، الرياض، بدون سنة
11. خالد مسعود: حيات رسول أمي، قرآن وسنت أكيدمي، نيو دهلي، الطبعة الأولى، 2004م
12. الدكتور عبيد الله الفراهي (ترتيب): مولانا حميد الدين الفراهي - حيات وأفكار، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، 1992م
13. شرف الدين الإصلاحي: ذكر فراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، 2001م
14. العلامة شبلي النعماني: سيرة النبي، دار المصنفين، أكاديمية شبلي، أعظم كره، 1996م
15. لويس شيخو اليسوعي: شعراء النصرانية، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1890م
16. محمد عبد الرزاق الكانفوري: البرامكة، كراتشي، نفيس أكيدمي، الطبعة الثانية، 1961م

أسلوب الإمام الفراهي في ضوء كتاباته

- د. محمد قاسم العادل¹

الملخص: الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930 م) "كان آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل وسعة العلم، فكما أعطاه الله تعالى ذهنًا ثاقبًا وفكرًا عملاقًا، ملأ قلبه بحب العلم والمعرفة فقد جمع بين العلوم القديمة والحديثة لكي يتمكن من مواجهة التيارات المناهضة للإسلام." ² هو "الرازي والغزالي لهذا العصر". ³ وإلى جانب كونه فلسفيًا ومتكلمًا، أديبًا وشاعرًا، كان الفراهي متنفسًا في ظلال القرآن العظيم ومتدبرًا في آياته النيرة، وصاحب ملاحظات دقيقة وآراء سديدة في علومه المختلفة. فهو عالم مدقق، وباحث محقق، وإمام فذ، وكاتب ذو أسلوب خاص ومنهج ممتاز، فيتجلى لمن يتدبر في كتبه المطبوعة والمخطوطة أن أسلوبه في مؤلفاته يتسم بالبساطة والسهولة والبعد عن التكلف والغربة والتكرار المحض الذي لا طائل تحته. فأسلوبه مبني على الإيجاز وعلى استعمال الألفاظ ما يكفي لتوضيح المراد. ويصير أسلوبه جميلًا بارعًا حين يعالج الموضوعات الأدبية، أو يثبت شيئًا من الحماس والقوة حتى يتلذذ القارئ ويرغب في تكراره وإعادته. وسنتعرف على أسلوب الإمام الفراهي في ضوء كتاباته بدقة واستيعاب في هذه الورقة إن شاء الله تعالى.

الإمام الفراهي ودور أساتذته في تكوين شخصيته وأسلوبه الممتاز:

قُـم للمعلم وقِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية ذاكر حسين دلهي التابعة لجامعة دلهي، الهند (qasim4arabic@gmail.com)

² من أقوال سيد سليمان الندوي فيه: الإمعان في أقسام القرآن، ص 4

³ ذكر فراهي، ص 783

أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشئ أنفسا وعقولا¹

لا يخفى على من له أدنى إلمام بتاريخ الأجيال والأمم أن للأساتذة والمعلمين فضلاً عظيماً في تنوير العقول وتهذيب النفوس، ودوراً فعالاً في بناء العمالة والجهابذة. وينوب المعلمون عن المعلم الحقيقي ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾² عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ³ فللمعلم مساهمة لا يستهان بها في بناء الجيل الجديد، وفي تقرير مسير التلميذ إلى المستقبل الزاهر. وقد وهب الله الوهاب المتعلم الفراهي مواهب فطرية من فطنة العقل وتوقد الذكاء بالإضافة إلى فرص ذهبية لتلقي العلوم من أفضل المعلمين في عصرهم والأئمة في مجالاتهم.

وبدأ الفراهي مسيره الدراسي تحت رعاية العلامة شبلي النعماني (1885-1914م) وهو أبرز علماء الهند في العصر الحديث، ومن أعلام نهضتها الأدبية والعلمية الذين ساهموا بجهود ملموسة في مجال الأدب والتاريخ والدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية. ومن الحق أنه كان أكاديمياً في شخصيته ذات الأبعاد المتنوعة. فآثرت فيه أفكار الأستاذ التعليمية والإصلاحية ومناهج تفكيره العلمي. واتضحت أمام الفراهي سبل الحياة المظلمة، كما عرف أن النزاع والخلاف المذهبي الذي ساد أوساط العلماء لا يمت إلى الإسلام بأية صلة، بل إنه نتيجة لضعف عقلية بعض المسلمين وسطحية تفكيرهم. وكان النعماني يوجه تلميذه وأخاه الفراهي للدراسة الواسعة لجميع العلوم الدينية والأدبية، كما يتضح بالمقال الذي كتبه سيد سليمان الندوي في مجلة "معارف" فيقول: "إن الفراهي حينما طبع ديوانه الفارسي في كراتشي. وبتوجهات العلامة شبلي وكثرة طلبه مال إلى البحث والنقد في العلوم".³

¹ هذا البيت المشهور مطلع قصيدة من عيون الشعر العربي الحديث لأثير الشعراء أحمد شوقي (1868-1932م)، أنشدها في حفل أقامه نادي مدرسة المعلمين العليا، بين الناس من يومها، لما فيها من قيم عليا تحث على العلم والتعليم. وترفع مكانة المعلم بين الناس.

² سورة العلق: 4-5

³ مجلة معارف، مقال سيد سليمان الندوي، 1931م: 12

ومن أساتذة الفراهي العلامة فيض الحسن السهارنفوري (1816-1887م) المعروف بصانع الرجال العظام. وانتهل من منهله العذب السير سيد أحمد خان (1817-1898م) مؤسس جامعة علي جراه الإسلامية، والعلامة شبلي النعماني (1885-1914م) صاحب "سيرة النبي" و"شعر العجم"، والمولوي إعزاز علي الديوبندي (1886-1955م) الأديب الكبير وغيرهم من العباقرة الذين غيروا مجرى التاريخ وخلدوا أسماءهم في تاريخ التمدن الإسلامي. وكان السهارنفوري معروفاً بحب العلم والأدب. وهذا هو الحب الذي أوصله إلى مكانته العالية في العلوم العربية والإسلامية. وكان يملك ذوقاً سليماً يفهم المعضلات الأدبية بأول نظرة، وكانت له جولة وصولية في الأدب العربي. وقد أصاب من قال: "إنه لم يكن له نظير في معرفة الفنون الأدبية".¹ فقد أثر في عقلية الفراهي ومناهج تفكيره وسلوكه في الحياة، وتبين هذا الأثر من القصيدة التي رثاه الفراهي فيها بعد وفاته.² فإنه عرف بأول لقاء مع السهارنفوري أنه أديب عديم المثال، وبعدما درس عليه تبين له أن الأستاذ وصل إلى هذه الدرجة من العلم والمعرفة بعد بذل جهود جبارة في هذا السبيل، ومن هنا نشأ في ذهن المتعلم هذا حب العلم والأدب ودراسة اللغة العربية دراسة مستفيضة جدية، كما تغيرت مناهج تفكيره وأساليب كتابته وبحثه. وتحدث العلامة سيد سليمان الندوي (1884-1953م) عن هذا الأثر: "فقد كان يكتب العربية. قبل أن يذهب إلى فيض الحسن - بأسلوب أعجمي جاف، ولكنه بعدما درس على فيض الحسن بدأ يكتب العربية على سبك بلغاء العرب وفصحائهم".³

ومن أساتذة كلية علي جراه الإسلامية الذين درس عليهم الفراهي، المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد، وهو من المستشرقين الذين درسوا الإسلام وألفوا فيه

¹ الثقافة الإسلامية في الهند، ص 49

² لا توجد هذه القصيدة في مجموعة قصائده إلا أن تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي قد أشار إليها

³ ترجمة الفراهي لسيد سليمان الندوي، ص 2

وعنه. وكان أرنولد أستاذًا للفلسفة في هذه الكلية، فحضر الفراهي محاضراته في الفلسفات الحديثة عامة والفلسفة الإسلامية خاصة، فأعجب به وبسعة اطلاعه على العلوم الإسلامية، فضلاً عن العلوم الغربية التي كان أرنولد صاحب بيتها، فنشأ في قلبه حب الدراسة للفلسفات الغربية حتى يستطيع أن يقارن بين أبحاث علماء الغرب وأبحاث علماء الإسلام. وأيقن أن الخدمة الصحيحة للإسلام وثقافته وتعاليمه لا تمكن بدون الوقوف الكامل على مناهج علماء الغرب في البحث والتفكير، ومن هنا بدأ يبذل جهداً لدراسة الفلسفات الغربية والآداب الغربية "فصار مجمع البحرين" وبينهما برزخ لا يبغيان"، وكان عالماً بالعلوم العربية والدينية وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية. فاجتمعت فيه خصال الجنسين المثقفين من العلماء الراسخين والمتنورين من الفضلاء الكاملين.¹

والأستاذ الآخر للفراهي هو يوسف هارفيز الألماني الذي كان يحب الإسلام وثقافته. وكان ماهراً في اللغة العبرانية، فدرس عليه الفراهي هذه اللغة حتى تمكن من قراءة الكتب العبرانية وفهمها وقد استفاد منها كثيراً في تفسير القرآن الكريم وكتبه التاريخية. ولهؤلاء وغيرهم من الأساتذة دور ملموس في تثقيف الإمام الفراهي ثقافة متنوعة وتكوين شخصيته العبقريّة.

الفراهي وكتابته في اللغة العربية: كان الإمام الفراهي بدراسته العميقة للغة العربية وآدابها وعلومها قد صار عربياً في التعبير وصار ذوقه الأدبي كالعرب الخالص، ولكن مع كل هذه المزايا التي تجسدت في شخصيته كانت مزية أخرى قد غلبت تلك المزايا كلها وهي حب القرآن وكان الإمام يحب كتاب الله وتلاوته منذ أن كان صغيراً لا يفهم معانيه ولا يدرك بلاغته ولكنه كان يلتذ بالصوت المعجز الذي ينبع من تنسيقه المعجز ونظمه البديع، فلما درس اللغة العربية وآدابها وتضلع منها جعل هدفه الوحيد القرآن الكريم وتدبره، فكان الكتاب العزيز نقطة

¹ نفس المصدر

تدور حولها كل العلوم التي تخصص فيها. فقد استخدم هذه العلوم القديمة والحديثة لفهم معانيه وتعاليمه وشرح كلماته وتفسير مجمله، فلا أبالغ إذ أقول إنه تدبر القرآن حق التدبر، ودرس كل العلوم والآداب بالدقة والنقد للتعمق فيه وفهمه الحقيقي. وكان يحفظ كثيرًا من الأشعار والخطب الجاهلية، وأنفق أموالًا طائلة للحصول على الدواوين الجاهلية من الشعر، كما تعلم اللغة العبرانية من الأستاذ الألماني يوسف هارفيث الذي كان مدرسًا بكلية عليكره الإسلامية. فدرس الكتب المقدسة وشروحها في هذه اللغة واستدل بها على نظرياته، وعرف كيف حرّف أهل الكتاب أسفارهم، وكان يستغل التاريخ والجغرافية خير استغلال لمعرفة الأمكنة التاريخية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كما أن القرآن يحتوي على الأمور الاجتماعية والسياسية والطبيعية، كما يشمل الأمور الغيبية أو ما بعد الطبيعة. فإنه كان يملك نظرًا عميقًا في الفلسفات القديمة والحديثة، ودرس كل الكتب بهذا الصدد التي أمكن الحصول عليها، وهكذا قد درس الحديث النبوي والفقهاء الإسلامي. تاريخهما وتطورهما. أحدهما كأساس التشريع الإسلامي والثاني كصورة تطبيقية للأصول الإسلامية.

وقد بلغ الاستعمار الإنجليزي في عصر الفراهي كماله واشتدت حملات المستشرقين على الإسلام والمسلمين واتسعت دائرتها، فكان عصره أخطر عصر. ففيه جذّت الأحداث والفتن وحدثت الحركات المعادية للإسلام وانتشرت الأفكار الإلحادية المعادية لفكرة التوحيد التي هي ميزة الإسلام الكبرى. فلم يكن من أسباب هذه الآراء والأفكار أن المستشرقين والمبشرين الإنجليز والفرنسيين قاموا بدور خطير لنشر النظريات المناهضة للإسلام، وبذلوا جهودًا جبارة لإثارة الشكوك والشبهات في الأجيال الناشئة عن تعاليم الإسلام الخالدة فقط، بل للأسف الشديد سبقته عقلية المسلمين أنفسهم عن دينهم وقيمهم الأخلاقية والإنسانية، لأن الاستشراق أو التبشير لم يدخل أي بلاد من العالم الإسلامي والعربي إلا بعد ما رأى أن المسلمين قد خارت قواهم الذهنية والفكرية والعقلية

وضعف تمسكهم بالدين الحنيف، فحينما دخل الاستعمار الإنجليزي الهند كان المسلمون قد وهنت صلتهم بالإسلام وكانوا غافلين عن التراث الإسلامي القيم، وكانوا يسبحون على سطح العلوم والآداب ويحرمون على أنفسهم التعمق، وكانت الغاية عندهم الشروح والحواشي، فعند ذلك قام التفكير الغربي الاستشراقي الذي كان ينتهز هذه الفرصة، فالأجيال الناشئة لها العذر إذ أعرضت عن التمسك بالإسلام، كما لها العذر في الزاوية عن أهله والاستهزاء بالمنتسبين إليه من علماء وشيوخ متبطلين علمياً ومادياً، لم يكونوا قادرين على فهم الإسلام فهماً حقيقياً لبعدهم عن روح القرآن الكريم وتعاليمه النبيلة الخالدة التي بلغ بفضلها بعض المسلمين في العصر الأول ذروته، وتغلبوا بفضل تعاليمه على القياصرة والأكاسرة، وملأوا الدنيا كلها من مشارق الأرض ومغاربها بنور الإسلام. ولكن لما بعدوا عن الدين وتركوا العمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خارت قواهم وزالت هيبتهم عن أعين أعداء الإسلام، وكذلك جدت بينهم الخلافات المذهبية والطائفية التي مهّدت السبيل للمستشرقين وعلماء الغرب أن يغرسوا أفكارهم في أذهان الأجيال المسلمة، فلم يكن القضاء على هذه الفتن والخلافات المذهبية والطائفية ممكناً إلا بجمع المسلمين على كلمة الإسلام، فكيف يتحقق ذلك مادام سائداً فيهم دراسة القرآن الكريم دراسة تقليدية؟ فكان من الواجب المحتوي أن يوجه المسلمون توجيهاً سليماً، وأن يثار فيهم التشوق إلى دراسة القرآن وتدبره، حتى يتحقق تقرب المسلمين من تعاليم الإسلام وإنارة أذهانهم بنوره.

فلم يقم الأستاذ الفراهي بالرد على المستشرقين والمبشرين فقط كما فعل بعض العلماء، بل أراد أن يقوم بدور إيجابي بهذا الصدد وذلك أن يصحح أفكار المسلمين ويجعل لهم مدخلاً لفهم كتاب الله، وكما أن الفراهي لم يكن مؤلفاً محترفاً، بل كان يريد إصلاح المسلمين عامة عن طريق إصلاح العلماء إذ بيدهم زمام أمورهم الدينية، وجاء في وصفهم أنهم ورثة الأنبياء، ولذلك أراه قد بدأ يكتب عن جميع العلوم التي لها علاقة بالقرآن الكريم، كما أنه اختار لكتابته

اللغة العربية لأنها هي اللغة الموصلة إلى فهم الإسلام حقًا وهي كذلك اللغة المشتركة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وعندما بدأ يؤلف كتبه باللغة العربية ولاسيما تفسيره للقرآن الكريم اعترض عليه بعض معاصريه قائلًا: لماذا تفسّر القرآن الكريم بهذه اللغة وعارفوها في الهند لا يتجاوزون عدد الأنامل؟ فرد عليه قائلًا: "إني أفسّر كتاب الله للعلماء لأنهم هم الذين بعدوا عن جادة الطريق فكرة وعملاً، فبدون إصلاحهم لا يمكن إصلاح المسلمين، فبتفسير لي لكتاب الله أريد إصلاحهم إصلاحًا فكريًا وعمليًا لتزول الانحرافات التي تجسدت في المجتمع الإسلامي، كما أنني لا أريد أن أجعل رسالتي مقتصرة في بلد دون آخر من العالم الإسلامي، بل أريد أن تعم هذه الرسالة وتنتشر في جميع البلاد الإسلامية. ومن المعلوم أن لغة علماء المسلمين المشتركة هي اللغة العربية لغة كتاب الله ولذلك اخترتها لنشر أفكاري ورسالتي".¹

وبالإضافة إلى ذلك كان الفراهي متحمسًا للعرب ولغتهم غاية التحمس لا نرى نظيره في هذا الميدان، فقد كان يرى أن الدفاع عن العرب دفاع عن الدين لأنهم حاملوا هذا الدين، والرسول ﷺ بعث فيهم ومنهم إلى الناس كافة، فبعض كتبه أمثال "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، وتفسيره لسورة الفيل، و"جمهرة البلاغة" وغيرها خير دليل على تحمسه للعرب.

أسلوب الفراهي في التأليف: وأما الكلام عن خصائص أسلوب الفراهي وميزاته الرئيسية فيتجلى لمن يتدبر في كتبه المطبوعة والمخطوطة أن أسلوبه في مؤلفاته يتسم بالبساطة والسهولة ويبعد كل البعد عن التكلف والتكرار المحض الذي لا طائل تحته. وعلى الأصح أنه أسلوب مبني على الإيجاز وعلى استعمال الألفاظ ما يكفي لتوضيح المراد ويصبح أسلوبه جميلًا لافتًا للأنظار حين يعالج الموضوعات الأدبية، أو يثبت شيئًا من الحماس والقوة حتى يتلذذ القارئ ويرغب في تكراره وإعادته.

¹ أنظر ترجمة الفراهي بقلم أمين أحسن الإصلاحي، ص 36-37 بتصرف

وترجمة حياة الإمام الفراهي ودراسة كتاباته تشير أيضًا إلى أنه قرأ القرآن الكريم وعاش في ظلاله، ووعى بيانه، وتأثر بما في أسلوبه من الدقة والإحكام، والجزالة، وروعة الانتقال، وجمال التمثيل، والعناية بالبلاغة الساحرة، كما قرأ الأحاديث النبوية، ووعى بلاغتها، وتأثر بما في أسلوبها من البساطة والإيجاز والتوافق بين الألفاظ وحال المخاطبين. وقد قاده هذا التأثير بأسلوب القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى الإيمان بالأسس الثلاثة للبلاغة، وهي: مطابقة العبارة لمقتضى الحال، والبيان أو وضوح الدلالة، والإيجاز وعدم التكلف. وسعى إلى ترسيخها، تبعًا لتأثره بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الذي يجعل لكل مقام مقالًا، وبطالِب المتكلم بمعرفة أقدار المعاني والموازنة بينها وبين أقدار المستمعين، ويعدُّ البيان اسمًا جامعًا لكل شيء كشف للقارئ قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله. وهو يتحدث عن صناعة الكلام في كتابه "جمهرة البلاغة":

"وبيان حال المتصنعين يستدعي تفصيلًا وذلك الذي يهْمنا ويغنينا فإن الصناعة وضعت لهم كما أنها أخذت من المطبوعين كالملك المختار، تدور الصناعة معهم حيثما داروا والمتصنعون كالرعية يطيعون قوانين البلاغة ... فإن قلت إن بعض المتكلفين من المتخيلة والعقل والبصيرة بصناعة الكلام ما به يستطيع أن يأتي بأحسن مما يرتجى في المطبوع اللسن، ولولا ذلك لما خدع زخرف القول أحدًا في الناس، قلت ألا ترى أن الجاهل يحسب الزجاج جوهراً. ولكن مع ذلك بينهما فرقاً عند البصير ... قلت أجدر بالجواد أن ينخدع المرء وربما ينخدع المرء السليم لحسن ظنه بالناس وغرارته ولكننا بيّنا أن النطق أمر فطري في الإنسان".¹

"فإن تبينت ما سبق من الكلام علمت شرف البلاغة لكونها بين العقل وعنصر الإنسانية وترجمان الصدق وإكليل العز، وشمريت لاقتناءها وحللت بغناءها

¹ جمهرة البلاغة، ص 19-20

وتيقنت أنها حري بأن تكون معجزة لنبي عظيم أكبر من قلب العصا حيّة وجعل الجثة حيا".¹ و"إن القرآن ذو وجوه كجوهرة ذات جوانب ترى بالشعاع من جهات مختلفة شتى، ومع ذلك يهدي إلى سبيل".²

وأشار الإمام الفراهي إلى المنهج الذي اختاره لعرض أفكاره وآرائه في تفسيره وهو أنه لم يشأ أن يكون على نهج كتب المفسرين التي يوجد فيها تكرار وإطناب وإسهاب وتفصيل، فيبين فيها كل مسألة مبعثرة منتشرة في كل مكان يأتي ذكرها بل أراد أن يكون الإيجاز وعدم التكرار من أهم صفاته فإنه كان محباً شديداً للإيجاز والاختصار مبغضاً مفرطاً للحشو والفضول.³

ولكنه يصل إلى هذا الهدف ويجعله موجزاً مختصراً خالياً من التكرار الذي من شأنه تشويش الكلام. وخطط تخطيطاً علمياً وعقلياً وذلك أنه جعل لتفسيره مقدمة ناقش فيها الأمور الهامة والأسس التي يعتمد عليها في فهم مسألة من مسائل التأويل والنظم أو كانت هي جامعة لمعارف عظيمة. وأما المسائل الرئيسية الجوهرية التي يحتاج إلى ذكرها في أماكن عديدة أو وجدها ناقصة تحتاج إلى بحث وتحقيق مزيد أو جديد، فأفرد لها كتاباً خاصاً مستقلاً مع جعلها تابعة لمقدمة التفسير مثل "أقسام القرآن" و"أساليب القرآن" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" فكانه كتب تفسيراً ومقدمة له.

وهكذا أخرج كل بحث طويل وكذلك كل مسألة من مسائل القرآن التي وجدها أنها تكون مانعة من الوصول إلى تأويل سليم فجعل لها كتاباً مستقلاً ل يتيح فرصة الكلام عليها من كل جانب ويناقشها مناقشة علمية موضوعية شاملة.

وهذا المنهج الفني يختلف عن مناهج المفسرين قبله خاصة منهج فخر الدين الرازي (1149-1209م) الذي يتحدث عن المسئلة الواحدة في عدة أماكن. وقد

¹ نفس المصدر، ص 14

² رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 68

³ أنظر: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص 1-3

كان هذا خللاً منهجياً في تأليف المفسرين ولكنه كان أسبقهم وأسرعهم في أخذ هذا العيب فيها وإيجاد حلّ سليم.

ولذلك يمتاز الفراهي عنهم بمنهج علمي عقلي واضح، وإنني أرى في اختلافه عن مناهج المفسرين الآخرين واتخاذ منهج جديد لنفسه لأجل الثقافة العصرية التي تُقَفُّ بها نفسه، وكذلك لملكة النقد والابتكار التي توجد فيه بدرجة أتم.

وهكذا استكمل الفراهي العدة قبل كتابة تفسيره ورسخ نفسه في كل علم يحتاج إليه واطلع على كلّ ما سطره المفسرون من المتقدمين والمحدثين. وتأثر منهم تأثراً طبيعياً مباشراً وغير مباشر، فإنه كان إنساناً والإنسان يتعلم بالبيئات سواء كانت متحضرة أم غير متحضرة وبعبارة أخرى يتعلم بخبرته وخبرة السابقين. فليس التأثير بالغير أمراً مشيناً ولا معيوباً وهو شيء طبيعي ولكن المهم أن ننظر أنه كيف درس واستفاد وتأثر واستخرج منها شيئاً جديداً وميّز بين الجيد والردئ، والغث والسمين، وأخذ اللب الصافي من الآراء، واعتمد على تفكيره الخاص كقاض يختبر أدلة كلا الفريقين غير منحاز إلى فريق دون فريق ويكشف الحق ويمر عليه ويوضح مواقع الزلة والخطأ ويحترز منه فنجد عنده أحياناً استقلالاً مطلقاً ينطلق وحده ليس معه أحدٌ وأحياناً يرجح أحد الأقوال على الآخر وذلك بأدلة أخرى قوية وتلوينه بصبغة خاصة يمكن أن نعبر عنه بصبغة فراهية.

ويتجلى من خلال دراسة مؤلفات الإمام الفراهي وعلى الأخص تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" أن أسلوبه يعتمد على مصادر خمسة رئيسية:

الأول: القرآن نفسه يستقي منه الفكرة والأصول. "وأما القرآن فيعوض عليه بالنواجز فيحافظ على حروفه وحركاته ويعتمد على ما يستنبط من نظمه وإشاراتهِ"،¹ "فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبنى عليه دينك"،²

¹ رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 212

² نفس المصدر، ص 275

"فإن جعلت القرآن أصلاً لتمام علم الدين كما هو في الحقيقة، صار من الواجب أن يؤسس أصول للتأويل، بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن"¹ ويقول ردًا على أرسطو ومن شايعه في أن المحاكاة من أبرز صفات الإنسان: "إعلم أن النطق زهرة تخرج من كمال الفهم وصلاح البنية فليس لأحد من الحيوان فطانة كفطانة الإنسان واللسان كلسانه. فمن كان أكملهم علماً وجسماً كان أشرفهم ولا يخفى عليك أن اللسان طوع الفهم بعدما سوّيت خلقته فهو آلة يقلبها العقل. وهذا الأمر يهديك إلى أنّ حسن النطق ليس في الحقيقة من جهة نغمته كنغمة البلبل بل حسنه في كونه آلة صحيحة للعقل لكيلا يقصر أدنى الإقصار عن إفصاح ما أرادته العقل وعن إبلاغه إلى قلب السامع، فالنطق هو الرسول بين العقل والقلب فاجعل هذا الأمر الفطري وقطب رحاه لا المحاكاة فإنها أمر ثانوي لتكسب به وسائل النطق فلو لم يكن النطق في الإنسان لما استطاع المحاكاة".²

وكذلك يردّ على الفلاسفة الذين زعموا أن العلم الأولي يحصل بالبداهيات، وعلى المناطق الذين قالوا إنه يحصل بحد الشيء، بتقديم رأيه أن القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضري الفطري الذي لا يسع للعقل أن يعصيه وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلّاله وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء الستور ولكن يجري منه الجداول فتقدم الكلام فيما هو أقرب متى استعد للنظر فيما هو أطف وأدق. فاعلم أن لليقين الفطري مجاري إلى المدركات وذلك إلهامات ولولاها لم يكن لنا علم ولا بداهة ولا نظر ولا استدلال بل ولولا هي لم تكن لنا حياة فكيف بفكر وإرادة وفعل وعمل.

الثاني: كتب التفسير، والفراهي جعل معظم كتب التفسير المشهورة مرجعاً لتفسيره، وذلك أنه إذا لم يطمئن إلى تفسير آية رجع إلى جميعها. ولكنه جعل منها

¹ نفس المصدر، ص 214

² راجع: نفس المصدر، ص 124-126 وجمهرة البلاغة، ص 9

تفسير الطبري والزمخشري والرازي من مصادرها الأولية في التفسير وهذه الأسماء أكثرها وروداً. ثم من بين هذه الثلاثة يذكر الرازي بكثرة. ذلك أنه يستوعب معظم الأقوال المأثورة في تأويل الآية. "وعلم أن الرازي ذكر دلائل الفريقين تابعاً للعلامة الزمخشري ومع أن عبارة الكشف أوجز وأبين، اخترنا النقل عن الرازي لأن تفسيره أعظم شهرة وتداولاً بين الناس".¹

الثالث: أساليب العرب وقد ألم بها إلماماً واسعاً كما اطلع على مجموعة ضخمة من الشعر والنثر قلما نجد مثاله عند غيره من المفسرين، فيسرد في الاستشهاد بأكثر من واحد من الأبيات ويبني عليها أفكاره.

الرابع: والفراحي يبذل اهتماماً بالغاً في الاستفادة من الكتب المنزلة على الأمم السابقة مباشرة لأجل ثقافته المتنوعة وتمكنه من اللغتين العبرية والإنجليزية إلى جانب العربية والفارسية. وهذه الصفة لا توجد عند المفسرين إلا كالشاذ ولكن هذا اللون من الألوان البارزة في تفسيره.

الخامس: ويعتمد الفراحي على تفكيره الخاص اعتماد الباحث الواصل بوضوح رأيه ويظهر ذلك في ترجيح الأقوال وتضعيفها وتعليلها وتحليلها سواء كانت المسئلة متعلقة بالتفسير أو الأدب أو البلاغة أو المنطق أو الفلسفة، ففي كل ذلك يظهر عنصره الذاتي بكل وضوح.

وقام الفراحي بتفسير القرآن الكريم بطريقة جديدة ومنج علي وأسلوب واضح بحيث يشرح كلمات القرآن وألفاظه استناداً إلى أسلوب العرب الذي نزل به، ثم يبين مقاصده العلمية ومطالبه السلمية في ضوء أصول قوية استمدتها من الكتاب والسنة. وإذا كان الإمام الفراحي يرى أن كثيراً من الفتن قد جدت في المجتمع الإسلامي بسبب بُعد العلماء المسلمين عن دراسة القرآن الكريم دراسة

¹ أنظر: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص 59

جدية، فقد بدأ يضع أصولاً متينة لتفسيره قبل أن يبدأ التفسير، فألف لهذا الغرض مقدمة التفسير التي سمّاها "فاتحة نظام القرآن" وهي تحتوي على سبعة عشر أصلاً على الترتيب التالي:¹

1.	أسباب النزول	2.	المآخذ الخيرية
3.	المآخذ اللسانية	4.	الكتب المنزلة على بعضها ببعض
5.	القرآن قطعي الدلالة	6.	المناسبة والترتيب
7.	إثبات أن السورة الواحدة لها نظام واحد، ونفي الاقتضاب.	8.	نسبة القرآن إلى الكتب السابقة في أمر الأحكام والحقائق.
9.	مقدار السور	10.	عيون تعليم القرآن
11.	المعروف ما عرفته العرب صالحاً، والمنكر ما أنكرته	12.	النظام له دلالة خاصة
13.	أجزاء النظام	14.	أسماء السور من عمود السورة
15.	تعيين الخطاب المحتمل وجوها	16.	كيفية النزول
17.	تأويل القرآن بالحديث		

وقد وقف الإمام الفراهي عند كل أصل من هذه الأصول المذكورة وتناوله بالبحث المستفيض كما أنه قد التزم بكل هذه الأصول بدقة في تفسيره، وألف لشرح بعض هذه الأصول كتباً خاصة أمثال "دلائل النظام"، و"التكميل في أصول التأويل"، و"أساليب

1 راجع للتفصيل: تفسير نظام القرآن، ص 25-72

القرآن"، و"كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ"، و"مفردات القرآن"، و"إمعان في أقسام القرآن". وبحمد الله تعالى قد تم طبع كل هذه الكتب في الهند.

وبدأ تأليف "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"¹ عندما كان أستاذًا في كلية علي جره الإسلامية، ولكن طريقته تختلف عن طريقة الناس في تأليف الكتب من حيث أنه لم يبدأ من أول القرآن، كما فعل المفسرون الآخرون، بل للكشف عن نظريته وهي أنّ القرآن منظم ومرتببط ببعضه ببعض من أوله إلى آخره، وكما أن في كل سورة نظامًا خاصًا، بدأ من السور التي كان فيها النظام واضحًا جليًا، لكي يتضح للناس هذا الجانب الخطير من كتاب الله، ويقتنعوا بفكرته، كما أنه جعل نصب عينيه أن يفسر أولًا السور القصار التي تدعو إلى الإيمان بأصول الإسلام وهي التوحيد والرسالة والمعاد، وتنذر الناس عاقبة العناد والكفر بهذه الأصول. وقد ألّف لهذا الغرض تفسير سورة الفاتحة، الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، والشمس، التين، العصر، الكوثر، الكافرون، أبي لهب، الإخلاص، وقد طبع تفسير هذه السور في حياته وبعد حياته مرارًا، كما أنه تُرجم إلى اللغة الأردوية ليستفيد به جميع الناس. ثم بدأ الأستاذ الفراهي بعد ذلك تفسيره من أول القرآن ولكن المنية قد حالت دون تكميله كله.

وقد ظهر أنه كان يلجأ في تفسيره للآيات الكريمة إلى القرآن الكريم نفسه أولًا، مؤكدًا أنّ الآيات يفسّر بعضها بعضًا ثم كان يلجأ بعد ذلك كما صرح هو إلى سنة الرسول ﷺ، وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في الصدر الأول... وبأساليب لغة العرب، وسُنن الله في خلقه أي الالتزام بالمنطق الداخلي المتناسك، والمنسجم للنص القرآني، والاعتصام بعواصم الأثر والخبر الصحيح، والأخذ بطرق اللغة العربية في دلالة الألفاظ والتراكيب على المعاني، ومقتضيات العقل السليم من خلال تحكيم سنن الله تعالى العاملة في الكون والتاريخ، واعتبارها

¹ قد نشرته الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، في عام 2008م.

إحدى مرجعيات، ومعايير التفسير السليم... وكل ذلك في كلام بليغ وأسلوب أنيق وتراكيب سهلة.

ومن العدل أن يعترف الباحث بأن أسلوب الإمام الفراهي قد يضعف فيكون ركيكًا ملتويًا غير واضح، بل قريبًا من الأساليب والتعبيرات الهندية. ذلك "أن تلمس شأن النزول من نفس السورة. فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقًا لموضعه كما أن الطبيب مثلًا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة. فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلود والأبدان. والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض" ¹، وإذا احتمل كلمة أكثر من معنى واحد سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم، وتركها القرآن، علمنا أن القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه، فترك ذلك المعنى وأولناها إلى ما هي أصوب مثل قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه) البقرة: 184 في معنى المستطيع كما ذهب إليه صاحب "حجة الله البالغة" (وهو الشاه ولي الله الدهلوي) ² فإن الإطاقة يستعمل في القوى الجسمانية" ³.

ولذلك عندي أسباب منها أنه كتب هذه العبارة على سرعة، ناويًا أنه ينقحها ولم تتح له الفرصة، أو أنه من كتاباته الأولية، أو مرد ذلك إلى أنه لم تتح له فرصة الإقامة في دولة عربية.

وهناك نوع آخر من الضعف في أسلوبه ويدركه القاري في أول وهلة وذلك أنه يشهد على رأيه بأية ثم يرد بها آية أخرى للإثبات على أن استشهاداه صحيح أو أن

¹ تفسير نظام القرآن، ص 25

² الشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (1703-1762م) هو العالم العبقرى المجدد شيخ الإسلام وإمام المحدثين بالهند.

³ أنظر للتفصيل: رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 240

المعنى الذي اختاره هو تويده آية أخرى. وهذا الأسلوب في كثير من الأحيان يكون مملاً. وأظن أن الدافع إلى مثل هذا الأسلوب هو شدة حرصه ورغبته في أن يقدم تأويلاً صحيحاً ولا يترك أدنى مجال للخطأ في التأويل. وقد يوجد في كتاباته تفكك واقتضاب بين ويظهر ذلك واضحاً في مؤلفاته المخطوطة أو التي ظهرت بعد وفاته وذلك لأسباب وهي:

الأول: إنه كان من عادته أن يفكر ويكتب في وقت واحد على مسائل مختلفة، فإذا انتهى من جمع عناصره وفصوله أخرجها في صورة التأليف، فكان يكتب في وقت واحد عدة كتب أكمل بعضها وهي قليلة وطبعت، ولم يستطع أن يكمل بعضها وهي كثيرة فبقيت ناقصة غير كاملة في شكل مخطوطات.

الثاني: إنه ترك معظم مؤلفاته غير منسقة ومرتبعة، وقد رتبها بعض تلاميذه دون أن ينجح في إيجاد ترتيب منطقي فيها. وقد يتعجب ويندهش القارئ حين يجده يحول إلى مؤلفات له في حين أنه لم يؤلفها ولم أجد لذلك سبباً إلا أن نقول إن موضوعها وهدفها كان واضحاً أمامه ففكر أنه سيكملها كلما تسنح له الفرصة ولكنه لم يوفق.

وعلى أية حال نجد في أسلوبه سموً وهبوطاً ووضوحاً والتواءً يرتفع فيجمع رشاقة اللفظ وجمال الأسلوب والأناقة، وينزل فيقرب إلى الركاقة والضعف، حتى يصعب فهمه إلا بتأمل وبشيء من الصعوبة، ويقول المحقق الناقد الأستاذ شبلي عن أسلوب بعض مؤلفاته: "طالعت تفسيرك نظام القرآن من أوله إلى آخره، ولا شك في حسن العبارة وجمال الأسلوب".¹ ويقول عن أسلوب تفسير سورة أبي لهب وجمهرة البلاغة: "وفي العبارة ضعف وركاقة في بعض الأماكن ومن العجب أنك لا تفرق بين إذا ولما".²

¹ رسائل شبلي رسالة، رقم: 19

² نفس المصدر، رقم: 28

ولكن إذا قوبل أسلوبه بأساليب المفسرين عامة وبمفسري الهند المعاصرين له خاصة مثل الشيخ أشرف علي التهانوي (1863-1943م)، أو الشيخ الإمام محمد عبده (1849-1905م) فإنه كان معاصرًا له إلى حد ما، ونرى الأحوال والظروف وأساليب الكتابة في ذلك الوقت فنجد أسلوبًا جميلًا رائعًا سهلًا واضحًا فيه عذوبة خاليًا من التقاليد القديمة ومن السجع والصنعة ومائلًا إلى السلاسة والتجديد وحسن التعبير ومتانة التركيب.

وصفوة القول أنّ الإمام الفراهي كان دائرة معارف، لا نزال نتلمذ على تراثه العلمي حتى اليوم، ونهل من فيض أدبه وغزير علمه، ونمتع الروح والنفس بدراسة مؤلفاته. ويندر أن نجد مثله مفسرًا موفقًا، وأديبًا لبيبًا، وباحثًا محققًا وناقداً مدققًا في علوم اللغة والأدب اليوم. ويكفي دليلًا على سبقه وفضله، وصلاحيته وأسلوبه وفكره، أنّ اسمه سيظل باقياً على امتداد الأجيال، وخالدًا ما تعاقب الليل والنهار.

المراجع

1. الإصلاح، الدكتور شرف الدين: ذكر فراهي، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الطبعة الأولى، 2001م.
2. الحسني، عبد الحي: الثقافة الإسلامية في الهند، مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، 1983م.
3. الرازي، محمد بن عمر فخرالدين: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، تحقيق: أحمد الزهراني، مكتبة الدار، ودار طيبة، ودار ابن القيم، السعودية، 1408هـ.
4. الشريحي، محمد يوسف: الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية-المجلد 20- العدد الثاني، 2004م.
5. الفراهي، عبد الحميد: إمعان في أقسام القرآن، دار القلم دمشق، والدار الشامية، بيروت، لبنان، عام 1994م.
6. الفراهي، عبد الحميد: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المجموعة الأولى، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، الطبعة الأولى، 2008م.
7. الفراهي، عبد الحميد: جمهرة البلاغة، مطبعة معارف، أعظم جره، 1360هـ.
8. الفراهي، عبد الحميد: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، مطبعة معارف، أعظم جره، 1338هـ.
9. الفراهي، عبد الحميد: رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، الطبعة الثانية، 2005م.
10. الفراهي، عبد الحميد: القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، الطبعة الأولى، 1395هـ.

11. الفراهي، عبد الحميد: مفردات القرآن، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، الطبعة الثانية، 2004م.
12. الفراهي، عبيد الله: علامه حميد الدين الفراهي: حيات و أفكار، ترتيب: عبيد الله الفراهي، مجموعة مقالات الندوة حول الفراهي، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم جره، الهند، الطبعة الأولى، 1992م.
13. مجلة معارف: مجلة شهرية صادرة عن دار المصنفين، أعظم جره، الهند، 1931م.
14. النعماني، شبلي: مكاتيب شبلي (ترتيب: سيد سليمان الندوي)، مطبعة معارف، أعظم جره، 1927م.

الشعر العربي للإمام الفراهي، دراسة تحليلية

د. أورك زيب الأعظمي¹

الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) من علماء الإسلام الذين لا يولدون إلا بعد قرون طويلة، وتفتخر الهند بأنها أنجبت بهذه الشخصية الجليلة. كان الإمام الفراهي عالماً كبيراً للعلوم الإسلامية ومجتهداً فيها لاسيما القرآن الكريم ففلسفته لنظام القرآن مما لا يوجد لدى أحد من علماء الإسلام، وكذلك نظريته البلاغية مما نعتبره من بدائعه. ليس هذا فحسب بل في كل حقل خطأ فيه الفراهي علماً كان أو فناً، نثرًا كان أو نظمًا أبدع وقدم ما عجز عنه الآخرون وأصبح ميزة له. وزد على هذا تضلعه من عديد اللغات المحلية والعالمية. ولكن ليس هنا مجال للبحث عن هذه كلها فنخص كلامنا بشعره العربي الذي أبدع فيه الفراهي كعاداته وشق طريقاً لم يطأه الآخرون من الشعراء الهنود للعربية.

طبيعته الشعرية: كان الإمام الفراهي مطبوعاً على الشعر فقد بدأ يقرضه حينما كان غلاماً وكتب قصيدة بالفارسية على منوال قصيدة الشاعر الفارسي المفلح قآني، بهتت كبير نقاد الشعر الفارسي محمد فاروق التشرياكوتي فاعتبرها مما قرضه أحد نوابغ الشعر الفارسي القدامى. يقول عن طبيعته الشعرية تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"كان ذوقه الشعري طبعياً ففي مدة قليلة جعل يقول الشعر على منوال الشعراء المفلقين القدامى - فلما عرض العلامة شبلي إحدى قصائده التي قرضها في طفولته على الشيخ محمد فاروق التشرياكوتي الذي كان شاعراً كبيراً وناقداً

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

للشعر وسأل عن قائلها فتأملها التشريكوتي قليلاً ثم قال: لا أستطيع أن أسّي قائلها بالتحديد إلا أني أظنها مما قرضه شاعر مفلق قديم".¹

ويقول الشيخ ضياء الدين الإصلاحي مستعرضاً لديوانه العربي:

"كان الإمام الفراهي عالماً كبيراً للقرآن فالشعر لم يكن، بالنسبة له، مما يفتخر به ولكنه كان مطبوعاً على الشعر فعندما تأثر بحدثٍ ما ينطلق لسانه بالشعر. كان الفراهي يقرض الشعر في كل من الأردوية والفارسية والعربية ---".²
فكان الإمام الفراهي مجبولاً على كتابة الشعر.

محتويات شعره العربي: يبدو من دراسة الشعر العربي للفراهي أنه يتصف بنظرية الأدب الإسلامي فلا نجد في شعره العربي ما نجد في شعراء الغزل الذين قال فيهم القرآن:

"وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾".³

فالفراهي من الشعراء الذين لا يقرضون الشعر لإمتاع القراء والسامعين بل شعره يحتمل رسالة وهدفاً، ورسالته ليست مختلفة عن رسالة القرآن فهو ينصح البشر ويرشدهم إلى ما فيه خير للإنسانية وينبههم عن المساوي التي تغضب الخالق الحكيم الديان.

وعلى كل، فشعره يبتدئ بالاستعاذة حيث يستعيد الفراهي عن كل نوع من الشر وأربابه فيستعيد من همزات النفس ونفثات كل باغٍ مختال وسطوات كل طاغٍ مختال وفتنة الجبن والحرص والأهل والدنيا والعلم والجهل، وفوق تلك يستعيد من فتنة الشيطان وكل طاغوت. وهذه كلها مذكورة إما في القرآن أو في الحديث النبوي الشريف.

¹ مختصر حيات حميد (لناصر الإصلاحي)، ص 28

² مجلة "معارف" الشهرية، ديسمبر 1989م، ص 480

³ سورة الشعراء: 224-226

ثم ينبّه الفراهي الإنسان عن النوم الثقيل في هذه الدنيا وغفلته عن العواقب فيلفته إلى أنّ الدنيا ليست سوى دار الامتحان، وبعد انتهاء الامتحان يجب على كل مخلوق أن يرجع إلى الرب الديان ويقوم أمامه للحساب وأنداك لا يفيد شئ من معونات هذه الدنيا سوى ما اكتسبه من أنواع الخير فينبغي للناس أن لا يفتنهم الدنيا وفتنها وأن يتذكروا كل يوم أنهم سيقومون أمام الرب في يوم من الأيام لحساب ما قدّموه في هذه الدنيا. وبالجملة فالمرء مسؤول عن نفسه وعمّا تحمّل مسؤوليته.

وتلهمها قصيدة أخرى نبّه فيها الفراهي عن تقلب الأيام فأرشد البشر إلى أن يعتبروا بأحداث الأيام ووقائع الدهر ولا يقعوا على زهرة الدنيا الفتانة صمًا وعميًا. فيقول:

العيش إحلاء وإمرار	والدهر إقبال وإدبار
بيننا الفتى يرفل في ثروة	إذ نابّه بؤس وإقتار
وكم رضى العيش في قصره	يفغمه مسك وأزهار
إذ رُفِعَ النعش له بغتةً	فضمّه تربّ وأحجار
وكم قوى البطش يعنوله	في كلّ قطر الملك جبار
إذ سلب الملك فلم يُغنيه	جندٌ وأحراسٌ وأسوار
ما بال أتراب لنا قطعوا	عنا حبال الودّ إذ ساروا
هل شغلوا عنا فلم يُخبروا	عن نبأ أم سُدّ أخبار
ياليت شعري كيف دار بهم	دهرٌ بأمر الناس دوار
هل بلغوا ما كان مقصدهم	أم عن سبيل القصد قد جازوا
فهل أناخوا في ذرى غبطة	فهم ظلّ ¹ وأنهار
أرضاهم الرّب فزگاهاهم	عن ذنبهم فالرّب غفار
أم ضلّت الركب فحمّ لهم	ويل قوادي الغي فالنار

¹ لعلها "ظلل"

فيمن مضى وقد قضى نحبَه للمرء تفكيرا وإنذار

بعد تلك نجد منظومة شرح فيها الفراهي قول الله التالي في سورة النور:

"وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَلِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَغْدَاةِ وَالْأَصَالِ ﴿٣٨﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٩﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَخْسَبُهُ الظَّلْمَانُ مَاءً حَمَاقًا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٨﴾".¹

¹ سورة النور: 34-46

ولنعلم أن الفراهي كان عالماً كبيراً للقرآن وساهم في شرح القرآن وتفسيره مساهمة جليلة وبديعة. وهذه المنظومة مثال جميل لهذه المساهمة فقد شرح الفراهي هذه الآية شرحاً منظوماً مقنعاً. لنقرأها بعد قراءة هذه الآية كي نتلذذ بروعتها وجمالها الأدبي:

لو كان فيكم سامعٌ واع	ما أبلغ القرآن من دأع
لنصح والتفكير جماع	كم حكمة فيه وكم مثل
عبدٌ على نهج الهدى ساع	يعى به الغاوي ويهدى به
والإظلام ضرار ونقاع	كالمرن فيه البرق والودق
قلب سليم للتعلى راع	فمثل الإيمان يلْمَعُ في
الكوكب الدري لماع	مثل سراج في زجاج كمثل
زيتونة في خير أقطاع	في وسط مشكوة ويوقد من
ولا بغريبة أصقاع	من البلاد لا بشرقية
تمسه النار لإشماع	كاد يضيئ زيتها قبل أن
الله له يهتد بأسراع	نور على نور ومن يهديه
كيلمع رقرق بالقاع	ومثل الكفار أعمالهم
تيه بإهراع وإيضاع	يخسبه الظمان ماءً فيأ
شيئاً سويًا غير خداع	حتى إذا ما جاءه لم يجد
أه جزاء الصاع بالصاع	ووجد الله لديه فوق
غطت على قلب وأسماع	ومثل الكفر عماياته
الأرواح من هوجاء زعزاع	كظلمات البحر هاجت به
دقاع موج بعد دقاع	يقمص بالفلك على لجّه
جماع غيم فوق جماع	في ليلة سحماء قد غمها
والقلب في الغماء والهاع	فالجو في ظلماء حالكة

قَدْ مَطَّتِ الظُّلْمَةُ أَطْرَافَهَا وَالطَّرْفُ لَا يَمُطُّو مَدَى الْبَاعِ
مَنْ أَخْرَجَ الْكَفَّ لِيَبْصُرَهَا لَمْ يَرَهَا، مَاذَا بِمَسْطَاعِ
فَظْلَمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ طَبَقَتْ لَيْسَتْ بِشَعِشَاعِ

ثم تأتي قصائد عديدة ذكر فيها ما وقع على أهالي طرابلس وبلقان من أنواع الظلم وقتل فيها عدد لا يحصى من الرجال والنساء كما أسر أمثالهم وضيّعت النفوس وهذمت البيوت ودمّرت المدن، وفي غضونها قصيدة يتحدّى بها ما قام به العرب من الهجوم على الطليان وقال مفتخرًا:

كُتِرَ عَلَيْهِمْ شَجْعَةُ الْـ أَتَرَكَ كَالْأَسَدِ الْهَوَاصِرِ
وَأَتَيْتُهُمُ الْأَعْرَابَ تَخْـ طَفَهُمُ كَعَقْبَانِ كَوَاسِرِ
فَتَفَلَّلُوا بَدْوًا كَمَا ذَعَرْتُ مِنَ الصَّقْرِ الْغَرَاغِرِ
فَاقْنِي حَيَائِكَ يَا إِطَا لِيَةِ الْمَرْغَمَةِ الْمَنَآخِرِ
أَوْضَعْتَ نَفْسَكَ بَيْنَ أَقْـ وَآمِ كَرَامٍ فِي الْمَفَاخِرِ
وَلَأَنْتَ فِي الدُّوَلِ الْعِظَا مَ كَمَا مِنَ الْأَيْدِي الْخَنَاصِرِ

هذه القصائد كما تدلّ على قدرة الفراهي على قرض القصائد بمختلف المناسبات فكذلك تدلّ على علاقته الوطيدة مع العرب وحماسه لهم.

بعد هذه القصائد يتحدث الفراهي عن أشرار الساعة فيعدّد كافة أشرار معيى القيامة ونبه الناس عن غفلتهم كما وعد الأشرار الظالمين عما قاموا وما يقومون به من أنواع الظلم على البشرية المعصومة.

ثم تأتي قصيدة بعنوان "في ذكر الملحمة الكبرى" فتحدث فيها الفراهي عما حدث في الحرب العالمية الأولى ومن هنا يبدو جانبه المترحم للبشرية. ثم تأتي قصيدة ذكر فيها تداول الأيام. وهذه شرح للمثل السائر "إنما الدهر دول".

وبعدها قصيدة هنأ فيها تلقب العلامة شبلي النعماني بشمس العلماء وهذا تعبير عن الحق وله قصيدة أخرى هنأ فيها نفس الشخصية على ذات البشرى. ثم له

قصيدتان إحداهما عن استخدام العقل والأخرى عن الحذر عن فتنة الدنيا كما له بيتان عن الافتخار بأستاذه العلامة فيض الحسن السهارنفوري. وبالجملة فيدور ديوانه حول الإنسان فالترحم على أمله والسرور بصلاحه وإرشاده إلى ما فيه الخير وتنبيهه عما يغضب الله الحكيم العزيز.

أدبية ديوانه: عندما نرجع النظر إلى ديوان الفراهي نجده متصفًا بكل ما نجده من أوصاف الشعر الرائع ففيه معالي الأفكار التي يلها اختيار المفردات والتعابير والأمثال وبدائع الحكمة متخليًا بالبلاغة ودألاً على شغف قائله بالقرآن وتخلقه بأخلاقه وامتناله بإرشاداته. وفيما يلي لمحات عن هذه الجوانب كلها:

أولاً: معالي الأفكار: الشيء البارز الذي نراه حين دراسة هذه القصائد هو اشتغالها على معالي الأفكار فنراها توصلنا بالخالق ومخلوقه، وتدللنا على ما يظهر وما يكمن من العبر والأسرار في الكون، وتبشّرنا بحسن العقبي وسوء العذاب فكأنها تشرح محتوى القرآن الكريم. يقول، مثلاً، وهو يرشدنا إلى ما يضرنا في هذه الدنيا وعسى أن تفسد بها آخرتنا:

أَمْ لِلنَّاسِ أَحْلَامٌ	أَهُمْ فِي السَّكْرِ نَوَامٌ
وَهُمْ زُرَادٌ خَوْضِ الْمَوْ	تِ أَصْرَامٌ فَأَصْرَامٌ
فَأَبْنَاءٌ وَأَبْنَاءٌ	وَأَخْوَالٌ وَأَعْمَامٌ
وَإِخْوَانٌ وَخُلَاَنٌ	وَأَخْدَانٌ وَأَحْلَامٌ
فَخَلَاتِهِمْ قَرَابَاتٌ	وَأَنْسَابٌ وَأَرْحَامٌ
وَرِيْبُ الدَّهْرِ يَبْرِهِمْ	وَتُوْهُيُ الْعِظَمَ أَسْقَامٌ
فَحَبْلُ الْمَوْتِ مَمْدُودٌ	وَحَبْلُ الْعَيْشِ أَرْمَامٌ
وَهُمْ بِاللَّهِوِّ وَاللَّذَا	تِ مَشْغُولُونَ مَا دَامُوا
بِجَمْعِ الْوَفْرِ مِنْهُمُو	نَ وَالْأَثَامُ هِيَ أَمَامٌ

لهم بالبغي تهمامٌ وبالفحشاء إِبْرَام
 وهم لا بدّ محشورون ن يومًا وهو أيّام
 عن النعماء مسؤولو ن والسائل عَلام
 سواءًا فيه إِيْلامٌ وإلزامٌ وإفحام
 وتفجيعٌ وتقريبٌ وتخصيبٌ وإرغام
 هذه المنظومة تنبّه الناس عن ملذات الدنيا وتعهدهم بما يواجهون يوم القيامة
 حينما يقومون أمام الرب الديان وحينئذ لا يجدون مبررًا لما قدّموه.

ولنا مقطوعة أخرى ينهنا الشاعر فيها عن ملذات الدنيا فيقول:

يا بؤسُ للدنيا شقيًّا سعيدُها فيا ويلُ من يسعى لها يستزيدُها
 فلا يرجعُ إلا إلى الضرِّ نفعُها ولا يرجعُ إلا إلى الشحِّ جوذُها
 فسيانِ عندي عدمُها ووجودُها وصنوانِ عندي وصلُّها وصدودُها
 وإليكم مقطوعة أخرى ترشدنا إلى استخدام العقل في كل أحداث الدنيا وتهدينا
 إلى عبادة الرب تعالى فإنّ إليه الرجعى:

سرّ مع العقل أينما سارا دُرّ مع الحق حيثما دارا
 لا تهولُنَّك ليلَةٌ عكُرتُ إنَّ بعد الظلام أنوارا
 إن في الليل والنهار وفي الشمس والنّيّرات تذكّارا
 راکعات مسبّحات يد عوننا للسجود أسحارا
 هذه أفكار عالية.

وثانيًا: اختيار الكلمات والتعابير والأمثال: ونجد في شعر الفراهي اختيار الكلمات
 والتعابير على مستوى عالٍ كما نجد فيه ذكرًا كثيرًا للأمثال فلنقرأ البيت التالي:

يقول متحدثًا عن فجأة الموت وقطع علائق الحياة بغتة:

مَا بَالُ أَتْرَابٍ لَنَا قَطَعُوا عَنَّا جِبَالَ الْوُدِّ إِذْ سَارُوا
فاستخدام كلمة "أتراب" بهذه المناسبة أفصح وأبلغ لأن الشاعر يوّد أن ينبّه أن
الموت لا يأتي فقط في الشيخوخة بل هو يأتي أحداً وهو طفل أو شاب وحتى لا
يفرق بين صديق وصديق، وحبیب وحبیب بل يأخذ صديقاً ويترك صديقاً آخر
وإنه كناية عمياء وطأت من وقعت عليه أقدامها وتركت من أفلت منها. فاستخدام
كلمة "أتراب" تدل على جوانب عديدة من مفاجأة الموت.

دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَفْتُلُونَ نَهَا الْأَكَابِرَ وَالْأَصَاغِرُ
لَمْ يَتَّقُوا إِنَّهُمْ وَقَدْ أَلْقُوا عَلَى الشَّرِ الشَّرَاشِرُ
لَا دِينَ عَنْهُمْ وَلَا حِلْمَ عَنِ الْعُدْوَانِ زَاجِرُ
فاستخدام كلمة "إثم" وهي تعني السوء الخلقي هنا أنسب وأفصح لأن الشاعر
يوّد أن يشير إلى سوء أخلاقهم حيث يقتلون المشائخ والأطفال الذين قتلهم خطأ
كبير في قوانين العالم كما في الدين أيضاً حيث يمنع الدين عن قتلهم ولو في حالة
الحروب، وفي جانب آخر يقتلون من هو يستحق عطفهم ورحمتهم. والشطر
الثاني من هذا البيت يحتوي على تعبير عربي جميل وهو "ألقى عليه شراشره" أي
أحبّه حتى استهلك في حبّه كما قال الكميت الأسدي:
وَتُلْقَى عَلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ عَظِيمَةٍ شَرَّاشِرٌ مِنْ حَيٍّ نَزَارٍ وَأَلْبَبُ¹
وله كذلك:

وعليك إشرافُ النفوس غداً وإلقاءُ الشرّاشر²
فكأنهم قد وقعوا في حفرة حفروها للمعصومين وأهلكهم حبهم للحرب وأبادهم.
ولنقرأ وحشية الروم المهاجمين على المسلمين التي يبيّنها الفراهي باستخدام كلمات
فصيحة فيقول:

¹ ديوانه، ص 48

² ديوانه، ص 146

دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَفْتُلُونَ نَهَا الْمَشَائِخَ وَالرَّعَارِغَ
 قَتَلُوا الْمَرَضِعَ فِي الْمَضَا جِعَ وَالضَّرَّوَارِعَ فِي الشَّوَارِعِ
 ف"الرعارع" تعني حسن الاعتدال والشباب و"المراضع" تعني من ترضع الصبي
 و"الضوارع" تعني الصغير والنحيف من كل شيء فكأن الروم لم يعتنوا بأصول
 الحرب فقتلوا كل من وقعت عليه أيديهم من الفتيان والنساء والأطفال بينما قتل
 النساء والأطفال حرام حتى في قوانين العالم وكذلك لا يقتل من لم يخض في
 الحرب أو أحب السلم ولكن الروم قد تجاوزوا كافة الحدود وذبحوا المعصومين.
 فكلمات "الرعارع" و"المراضع" و"الضوارع" كلمات مناسبة للموقع وتركيبها يبلغ
 المعنى جيداً الذي يريد القائل أن يقول.

وقال أيضاً:

دَهَمَتْهُمْ الرُّؤْمُ الْفَاوَا تَكُ بِالْمَرَائِبِ وَالْمَدَافِعِ
 جَاءُوا عَلَى صِرْدٍ يَجْمُ عِيَهُمْ فَضَاقَ بِنَا الْمَفَازُ
 دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَفْتُلُونَ نَهَا الْمَشَائِخَ وَالرَّعَارِغَ
 فتعبر "ضاق بهم المفازع" تعبر تأثر فيه الإمام الفراهي بقوله تعالى "ضاقت
 الأرض بما رحبت" فعندما يحيط العدو من كل جانب بالقوم الذي يهجم عليه ولا
 يترك له مكاناً للفرار منه فالتعبير الأنسب عن هذه الحالة هو ما استخدمه
 الفراهي والفرق بين "ضاقت الأرض بما رحبت" و"ضاقت بهم المفازع" أنه في التعبير
 الأول لا يجد المرء الذي يبحث عن الملجأ أحداً يعينه ضد المقابل بينما في التعبير
 الثاني يودّ المرء الفرار ولكن لا يجد مكاناً يفرّ من خلاله فتعبر الفراهي كما هو
 مأخوذ من القرآن فكذلك مناسب للموقع.

ويقول معبراً عن حالة الخوف:

كَيْفَ الْقَرَارُ وَحَوْلَنَا الْأَعْدَاءُ تَرْتَقِبُ الْخُلُوسَ

مَنْ كُـلِّـ ذَنْـبٍ إِنْ رَأَى مِنْ غِرَّةٍ فَيَنْـا اخْتَلَسَ
أَوْ أَفْعُوَانٍ مُطْـرِقٍ إِنْ لَمْ تُبَادِرْهُ نَهَسْ
فإذا كان المرء محاطاً به من جانب من عدو أبناء جنسه يحب أن يغلبه ومن
جانب آخر من حيوان وحشي يحاول أن يفتسه ومن جانب ثالث من عدو تحت
قدميه ألا وهو الحية فكأن المرء يغشاه الخوف من كل جانب. فاستخدام العدو
والذنب والحية للتعبير عن هذه الحالة استخدام أنسب وأولى.

ولنا نماذج بليغة حيث ضرب الفراهي أمثالاً جميلة بمختلف المناسبات فلنقرأ ما
يلي من البيتتين:

ما الترك إلا مثل كفـ ف الباسل العاري الأشاجع
والعرب مثل أصابع لا كفـ إلا بالأصابع
وكذا قوله التالي:

والكلب يجهل أن بعـ ض العظم ينشب في الحناجر
وإليكم مثل آخر:

أ وضعت نفسك بين أقـ وام كرام في المفاجر
ولأنت في الدول العظا م كما من الأيدي الخناصر
وليس هذا فحسب بل يدلنا الفراهي على مكان الحكم والأمثال فيقول عن
القرآن الذي كله حكمة:

كم حكمة فيه وكم مثلٍ للنصح والتفكير جماع
وكذا نجد عددًا ملموسًا من الأمثال في سير الأسلاف وحوزة الزمن الماضي فيقول
الفراهي مشيرًا إلى هذا:

فيمن مضى وقد قضى نحبـ للمرء تفكير وإنذار

وثالثاً: بدائع الحكمة: العرب كانوا مولعين بالحكم والمثل فنجد كلامهم، منثورًا كان أو منظومًا، مليئًا بالحكم والأمثال إلا أن الشعر قد غلب عليه هذا اللون فنجد في ديوان كل شاعر عربي ما يدل على المثل أو الحكمة حتى قد اشتهر به بعض منهم كممثل زهير وأبي تمام والمتنبي. وأما شعر الإمام الفراهي العربي فنجد فيه أيضًا ما يدل على بدائع ومحاسن الأمثال فمثلاً شعره التالي:

العيش إحلاء وإمرار والدمهر إقبال وإدبار
وكذا قوله التالي:

فالموت خير من حيا ة تحتوي ذلاً وشيئنا
هذا مثل جميل للموت حرًا بدل أن يحيى رقيقًا.
وكذا البيت التالي:

لا تهولنك ليلة عكرت إن بعد الظلام أنوارا
وهكذا قوله:

يا بؤس للدنيا شقيًا سعيدها فيا ويل من يسعى لها يستزيدها
فلا يرجعن إلا إلى الضرر نفعها ولا يرجعن إلا إلى الشجّ جوذها
فسيان عندي عدمها ووجودها وصنوان عندي وصلها وصدودها
وقد مضت بعض الأمثلة للأمثال في المبحث السابق، والأمثال جزء من الحكم والأقوال الحكيمة.

ورابعاً: جوانب بلاغية أخرى لشعر الفراهي: في شعر الإمام الفراهي جوانب بلاغية عديدة ولو قمنا ببيانها وتوضيحها لطال المقال فقد بيّنا شطراً منها في اختيار الكلمات والتعابير والأمثال فلا نودّ إعادته وهنا نحبّ أن نستدل بأبيات أخرى لإلقاء الضوء على بلاغة شعره. نبدأ ببيت للفراهي جاء فيه التذييل بصورة جميلة فيقول الإمام الفراهي:

وَاسْتَجْمِعُوا عُودَدًا فَمَا تَجْرِي السَّفِينُ عَلَى الْيُبْسِ
ف"فما تجري السفين على اليبس" تذييل.

ولنقرأ منظومة للفراهي بعنوان "غفلة الإنسان" حيث يختار أسلوب السؤال فيطرحه على الناس النائمين عن الآخرة بدنياهم الفتانة الخداعة ثم يجزهم شيئاً فشيئاً إلى الموضوع فينبههم عن الغفلة ويدعوهم للتقوى. يقول الفراهي:

أَهُمَّ فِي السَّكْرِ نَوْمًا	أَمَّا لِلنَّاسِ أَخْلَامٌ
تِ أَصْرَامٌ فَأَصْرَامٌ	وَهُمُ وُزَادُ حَوْضِ الْمَوِ
وَأَخْوَالٌ وَأَعْمَامٌ	فَأَبَاءٌ وَأَبْنَاءٌ
وَأَخْدَانٌ وَأَخْلَامٌ	وَإِخْوَانٌ وَخُلَانٌ
وَأَنْسَابٌ وَأَرْحَامٌ	فَخَاتَمُهُمْ قَرَابَاتٌ
وَتُوهِي الْعِظَمَ أَشْقَامٌ	وَرَيْبُ الدَّهْرِ يَبْرِيهُمُ
وَحَبْلُ الْعَيْشِ أَرْزَامٌ	فَحَبْلُ الْمَوْتِ مَمْدُودٌ
تِ مَشْغُولُونَ مَا دَامُوا	وَهُمُ بِاللَّهِوِ وَاللَّذَا
نَ وَالْأَثَامُ هِيَ إِيَامٌ	يَجْمَعُ الْوَفْرَ مَنُومُو
وَبِالْفَحْشَاءِ إِيْرَامٌ	لَهُمْ بِالْبَغْيِ تَهْمَامٌ
نَ يَوْمًا وَهُوَ أَيَّامٌ	وَهُمُ لَا بُدَّ مَحْشُورُو
نَ وَالسَّائِلُ عَالَامٌ	عَنِ النَّعْمَاءِ مَسْؤُولُو
وَالْزَامُ وَإِفْحَامٌ	سُؤَالًا فِيهِ إِيلَامٌ
وَتَخْضِرُ يَغْوَغَامٌ	وَتَفْجِيْعٌ وَتَفْرِيعٌ

فانظروا كيف نبههم على غفلتهم وعواقبها في اليوم الآخر. بهذا سنذكر أبا العتاهية الذي يعرف بأشعاره في الزهد ولكن شاعرنا يمتاز عنه بمهارته في القرآن الكريم وأحاديث رسوله عليه أفضل الصلوات والتسليم.

وليس هذا فحسب بل لو نظرنا فيها مرة أخرى لوجدناها مستخدمة ما استخدمه الشعراء القدماء ولكن بأسلوب يجعله فوقهم أو أبلغ منهم فالتعبير عن ورود الحوض تعبیر استخدمته الخنساء فقالت مخاطبة أخاها صخرًا:

يا صخر، قد كنت بدرًا يستضاء به فقد ثوى، يوم متّ، المجد والجود
فاليوم أمسيت لا يرجوك ذو أمل لما هلكت، وحوض الموت مورود¹
والآن اقرء ما كتبه الفراهي، وأما إضافة "أصرام" وما بعدها من الكلمات فقد وجهها الفراهي وجهة بلاغية أخرى لا نجدها في شعر الخنساء.

ثم ارجع إلى خيانات القربات وأشبابها وحين ذلك ارجع البصر إلى ما جاء في القرآن الكريم من خذل الأقرباء والأرباب المزعومة تجد كيف اقتبس الفراهي من نور القرآن فأضاء به أشعاره.

وأما اصطفاء الكلمات من الأرحام والأخدان والأمرام والعلام فلكل منها موقع بلاغي يضيق عن تفصيلها ذرع المقال. وقد شهد من قرأ العدد الأخير لهذا العدد الخاص بالفراهي لمحات عن هذا حينما قمنا بشرح كلماته ومصطلحاته في ضوء كلام العرب.

ولنقرأ منظومة أخرى كتبها الفراهي عن تقلب الأيام بالناس ومنها تدريجه بهم إلى الآخرة التي هي دار الإقامة مقابل الدنيا التي هي دار الفناء:

العَيْشُ إِخْلَاءٌ وَإِمْرَارُ والدَّهْرُ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارُ
بَيْنَا الْقَتَى يَرْفُلُ فِي تَرْوَةٍ إِذْ نَابَهُ بُؤْسٌ وَإِفْتَارُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ مُقِيمٌ إِذَا جَشَّ مَهَ لِلْبَيْنِ أَسْفَارُ
وَكَمْ رُحَى الْعَيْشِ فِي قَصْرِه يَفْغَمُهُ مِسْكٌ وَأَزْهَارُ
إِذْ رُفِعَ النَّعْشُ لَهُ بَغْتَةً فَضَمَّه تَرْبٌ وَأَحْجَارُ

¹ ديوانها، ص 38-39

وَكَمْ قُوىِ الْبَطْشِ يَعْنُو لَهُ
إِذْ سَلِبَ الْمَلِكُ فَلَمْ يُغْنِهِ
مَا بَالَ أَثْرَابٍ لَنَا قَطَعُوا
هَلْ شَغَلُوا عَنَّا فَلَمْ يُخْبِرُوا
يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ دَارَ بِهِمْ
هَلْ بَلَّغُوا مَا كَانَ مَقْصَدَهُمْ
فَهَلْ أَنَاخُوا فِي ذُرَى غِبْطَةٍ
أَرْضَاهُمْ الرَّبُّ فَزَكَّاهُمْ
أَمْ ضَلَّتِ الرُّكْبُ فَحُمَ لَهُمْ
فِيْمَنْ مَضَى وَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ
فِي كُلِّ قُطْرِ الْمَلِكِ جَبَّارُ
جُنْدٌ وَأَخْرَاسٌ وَأَسْوَارُ
عَنَّا جِبَالُ الْوُدِّ إِذْ سَارُوا
عَنْ نَبَأٍ أَمْ سُدَّ أَخْبَارُ
دَهْرٌ بِأَمْرِ النَّاسِ دَوَّارُ
أَمْ عَنْ سَبِيلِ الْقَصْدِ قَدْ جَارُوا
فِيْمَا لَهُمْ ظِلٌّ وَأَنْهَارُ
عَنْ ذَنْبِهِمْ فَالرَّبُّ غَفَّارُ
وَيْلٌ قَوَادِي الْعَيِّ قَالَنَارُ
لِلْمَرْءِ تَفَكُّيرٌ وَإِنْدَارُ

اقرءوا البيت الأول للفراحي ثم اقرءوا ما كتبه الشعراء العرب من مثل الخنساء
وعلي بن أبي طالب والراعي النميري:

قالت الخنساء ترثي أباها صخرًا:

تبكي خناسٌ على صخرٍ وحُقَّ لها
لا بدَّ من ميتةٍ في صرفها عبر
ترتع ما رتعت حتى إذا اذكرت
يومًا بأوجد مني يوم فارقي
إذ راها الدهر، إنَّ الدهر ضرار
والدهر في صرفه حول وأطوار
إنما هي إقبال وإدبار
صخر وللدهر إحلاء وإمرار¹

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ألم تر أن الدهر يوم وليلة
وقال أيضًا:

¹ ديوانها، ص 45-46

² ديوانه، ص 30

صرمتُ حبَّالك بعد وصلك زينبُ والدهر فيه تصرّم وتقلّب¹
وقال الراعي النميري:

ما الدهر إلا مثل واردة إذا قضى عنق منها أتى عنق²
ويستعار بالإقبال الغنى وبالإدبار الفقر كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:
الناس في زمن الإقبال كالشجره وحولها الناس ما دامت بها الثمره
حتى إذا ما عرت من حملها انصرفوا عنها عقوقًا وقد كانوا بها برره³
وله ما يلي وهو أوضح:

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله ما نالها
من لم يواس الناس من فضله عرض للإدبار إقبالها
فاحذر زوال الفضل يا جابر واعط من دنياك من سالها⁴
وبعد هذه الأبيات ارجعوا النظر إلى بيت الفراهي الأول ثم نظمته من الأبيات التالية
ثم وحدة موضوعه. كل هذه تميزه عن الشعراء العرب.

هذا وفي المنظومة كلمات وتلميحات مما لا يمكننا الحديث عنها فأشير مرة أخرى
على القراء أن يدرسوا العدد الأخير لفضل الفراهي على غيره من الشعراء.

وخامسًا: شغف الفراهي بالقرآن الكريم: والشيء الذي يبرز لكل من يقرأ شعر
الفراهي أنه يأخذ الكلمات والتعابير والأمثال والحكم والجمل والأساليب من
القرآن الكريم كأن الشاعر قد استقى من مناهل القرآن لمدة طويلة وهذه هي
الحقيقة فقد انقطع الفراهي إلى التدبر في القرآن لجزء كبير من حياته وتوفي وهو
كان يتلو هذا الكتاب العزيز. وفيما يلي طرف من أبياته التي تم فيها استخدام
مفردات أو تعابير أو حكم أو جمل أو أساليب للقرآن الكريم:

¹ ديوانه، ص 26

² شعره، ص 105

³ ديوانه، ص 46

⁴ ديوانه، ص 81

قال الفراهي متعوذاً من أشياء بما فيها طاغوت:

أَعُوذُ بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ الْإِفْضَالِ الْغَافِرِ الذَّنْبِ الشَّدِيدِ الْإِنْكَالِ
مِنْ هَمَزَاتِ النَّفْسِ ذَاتِ الْإِغَالِ وَنَفَثَاتِ كُلِّ بَاغٍ مُحْتَالِ
وَفِتْنَةِ الْغَاوِي الْمَسِيحِ الدَّجَالِ وَكُلِّ طَاغُوتٍ إِمَامِ الْجُهَالِ

و"طاغوت" كلمة قرآنية يشرحها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره للقرآن: "طاغوت من طغى على زنة ملكوت وجبروت وهو من يتجاوز الحدود فالشيء الذي قد تجاوز حدّه المناسب له يقال له "طغى" مثل "طغى الماء" أي قد كسر الماء الحدود فالأفة التي أهلكت قوم ثمود سميت بالطاغية ومن هنا استخدمت هذه الكلمة لتجاوز حدود العبودية ومن فعل هذا فهو جعل يسمّى بـ"طاغوت" ثم توسع نطاقها حتى جعلت تستخدم لكل ما هو السبب من وراء تجاوز الحدود وعلى هذا فيشرحها اللغويون عادة بـ"الطاغوت عبارة عن كل معتدٍ وكل معبود من دون الله".

وقد استخدم القرآن هذه الكلمة في مواضعه المختلفة وذكر في كل منها ما يقابلها من الكلمة وهكذا فقد أشار إلى معانيها المختلفة فمثلاً قال في الآية التي نحن بصدد البحث عنها "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ" (البقرة: 256) فالمراد هنا من "الطاغوت" كل معبود من دون الله، وقال في سورة النحل "أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" (رقم الآية: 36) وهنا كذلك أريد بها كل معبود من دون الله. وقال في سورة النساء "الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ" (رقم الآية: 76) وقال بعدها فوراً "فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ" (76) فتعيّن أن المراد من الطاغوت الشيطان وكلمة الشيطان تشمل شياطين الإنس والجن كليهما، وكذا استخدمت هذه الكلمة لما دون كتاب الله ورسوله فقال "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٧﴾" (سورة النساء:

60-61) فقد أوضح بـ"تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ" مقابل "يَتَحَاكُمُوا إِلَى الظُّلُمَاتِ" أن المراد من الطاغوت ما هو خلاف كتاب الله ورسوله. فقد بدا من هذا التفصيل أن من يخرج عن حدود عبادة الله وطاعته أو يكون وسيلة للخروج عنها كل ذلك يشمل هذا المعنى".¹

وقال في منظومة طويلة عن غفلة الإنسان:

أَهْمُ فِي السَّكْرِ نَوَامٌ	أَمَّا لِلنَّاسِ أَخْلَامٌ
تِ اصْرَامٌ فَاصْرَامٌ	وَهُمْ وَرَادُ حَوْضِ الْمَوْتِ
وَأَخْ وَالْ وَأَعْمَامٌ	فَأَبَاءٌ وَأَبْنَاءٌ
وَأَخْ دَانٌ وَأَخْلَامٌ	وَإِخْوَانٌ وَخُلَلَانٌ
وَأَنْسَابٌ وَأَرْحَامٌ	فَخَلَاتُهُمْ قَرَابَاتٌ
وَتُوهِي الْعِظَمَ أَسْقَامٌ	وَرَيْبُ الدَّهْرِ يَبْرِيهِمْ
وَحَبْلُ الْعَيْشِ أَرْحَامٌ	فَحَبْلُ الْمَوْتِ مَمْدُودٌ

فكلمة "خدن" جمعها "أخدان" تعني الصديق والصديقة معاً قال الله تعالى:

"وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنَ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنَ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (سورة النساء)

وقال: "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ

¹ تفسير تدبر قرآن، 591/1

إِذَا عَاتَيْتُوهُمْ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٠﴾". (سورة المائدة)

ويقول في منظومة بعنوان "في تقليب الأيام بالناس":

يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ دَارَ بِهِمْ دَهْرٌ بِأَمْرِ النَّاسِ دَوَارٌ
هَلْ بَلَّغُوا مَا كَانَ مَقْصَدَهُمْ أَمْ عَنْ سَبِيلِ الْقَصْدِ قَدْ جَاوَزُوا
فَهَلْ أَنَاخُوا فِي ذُرَى غِبْطَةٍ فِيمَا لَهُمْ ظِلٌّ وَأَنْهَارٌ
أَرْضَاهُمْ الرَّبُّ فَزَكَّاهُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ فَالرَّبُّ غَمَّارٌ
أَمْ ضَلَّتِ الرُّكْبُ فَحُمَّ لَهُمْ وَيْلٌ فَوَادِيِ الْغِيِّ فَالنَّارُ
فِيْمَنْ مَضَى وَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ لِلْمَرْءِ تَفَكُّيْرٌ وَإِنْذَارُ

فلو أن تعبير "قضى نحبه" ليس بما ابتدعه القرآن فقد استخدمه الشعراء الجاهليون ولكن هذا التعبير عام إلى حد نعرفه كتعبير قرآني فقال الله تعالى في سورة الأحزاب:

"مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٨﴾".

ويقول من خلال إثارة العرب والمسلمين على حماية الأندلس:

وَاسْتَجْمِعُوا عُودَدًا فَمَا تَجَرِي السَّفِينُ عَلَى الْيُبُسِ
أَغْنِي الْمَرَكَبَ وَالْمَدَا فِعَ وَالْكَتَائِبَ وَالْحَرَسُ
وَتَعْلَمُوا حَيْلَ الْخُرُ بِ لَتَغْلِبُوا الْخَصْمَ الشَّرِسُ
فَتَأْهَبُوا وَتَأْلُبُوا وَتَلْبَبُوا لِوَعَى ضَرِسُ
وَاسْتَنْصِرُوا اللَّهَ الْمَهِي مِنْ فِي الْعِشِيِّ وَفِي الْغَلَسِ

وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مَنَ يَنْصُرُهُ فَلَْيَحْـتَمِسْ

فنقل جزءاً من آية سورة الحج:

"وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٨﴾".

وقال مستفيداً من قوله تعالى:

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾". (سورة النور)

غَرَّبَتْهُمْ الْأَمْـَالُ مِثْلُ سَرَابٍ مَّعْمَعَةٍ الْهَوَاجِرِ
وكلا التعبيرين عن الأحزاب المعارضة.

وليس هذا فقط بل نظم الفراهي مفاهيم القرآن الكريم ويكأنه شرح عربي منظوم
فمثلاً يقول عن قوله تعالى في سورة النور:

"وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّمَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرَّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٤١﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٤﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ

لِيَجِيَّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتْهُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا
أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ لَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهُ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ
وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن
يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٤﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾

قال الفراهي فيما يلي:

مَا أَبْلَغَ الْقُرْآنُ مِنْ دَاعٍ	لَوْ كَانَ فِيكُمْ سَامِعٌ وَاعٍ
كَمْ حِكْمَةٍ فِيهِ وَكَمْ مَثَلٍ	لِلنُّصُوحِ وَالتَّفَكُّيرِ جَمَاعٍ
يُعْمَى بِهِ الْغَاوِي وَيُهْدَى بِهِ	عَبْدٌ عَلَى نَهْجِ الْهُدَى سَاعٍ
كَالْمُزْنِ فِيهِ الْبَرْقُ وَالْوَدْقُ	وَالْإِظْلَامُ ضَرَارٌ وَنَفَاعٍ
فَمَثَلُ الْإِيمَانِ يَلْمَعُ فِي	قَلْبٍ سَلِيمٍ لِلثَّقَاةِ رَاعٍ
مِثْلَ سِرَاجٍ فِي رُجَاجٍ كَمِثْلِ	الْكَوْكَبِ الدُّرِيِّ لَمَاعٍ
فِي وَسْطِ مَشْكَاةٍ وَيُوقَدُ مِنْ	زَيْتُونَةٍ فِي خَيْرِ أَقْطَاعٍ
مِنَ الْبِلَادِ لَا بِشَرْقِيَّةٍ	وَلَا بِغَرْبِيَّةٍ أَصْقَاعٍ
كَأَدِ يُضِيئُ زَيْتُهَا قَبْلَ أَنْ	تَمْسُوهَ النَّارُ لِإِشْمَاعٍ
نُورٌ عَلَى نُورٍ وَمَنْ يَهْدِهِ	اللَّهُ لَهُ يَهْتَدِ بِإِسْرَاعٍ
وَمَثَلُ الْكُفَّارِ أَعْمَالُهُمْ	كَيْلَمَعٍ رُقِرَ بِالْقَاعِ

يَحْسَبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً فَيَآءُ
حَتَّى إِذَا مَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْ
وَوَجَدَ اللَّهُ لَدَيْهِ فَوْقَ
وَمَثَلُ الْكُفْرِ عَمَائُثُهُ
كَظُلُمَاتِ الْبَحْرِ هَاجَتْ بِهِ
يَقْمُصُ بِالْقُلُوبِ عَلَى لُجِّهِ
فِي لَيْلَةٍ سَاجِدًا قَدْ غَمَّهَا
فَالْجَوْ فِي ظُلُمَاءٍ خَالِكَةٍ
قَدْ مَطَّتِ الظُّلُمَةُ أَطْرَافَهَا
مَنْ أَخْرَجَ الْكَفَّ لِيَبْصُرَهَا
فَظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ

وسادساً: مقارنة بينه وبين الشعراء العرب: ولو أن هذا ليس من مباحث هذه المقالة ولكننا نود أن نشير إلى فضل الفراهي في مجال الشعر كذلك حيث نجد مجيداً وفي بعض الأحيان متفوقاً على الآخرين ولهذا نقارنه مع الآخرين من شعراء العرب فلنقرأ أولاً كيف تعبّر الخنساء عن الهم والحزن الذي لحقها إثر موت أخيها فهي تقول:

يا عين جودي بالدموع
فيضاً كما فاضت غروب
وابكي لصخر إذ ثوى
رمساً لدى جدث تذييع
السيد الجحجاح وابن
الحامل الثقل المهم

الجابر العظم الكسير	من المهاصر والممانح
الواهب المئة الهجان	من الخناذيد السوابح
الغافر الذنب العظيم	لذي القرابة والممانح
بتعمد منه وحلم	حين يبغي الحلم راجح
ذاك الذي كنا به	نشفي المراض من الجوانح
ويردّ بادرة العدو	ونخوة الشنف المكاشح
فأصابنا ريب الزمان	فنا لنا منه بناطح
فكأنمنا أم الزمان	نحورنا بمدى الذبائح
فدساؤنا يندبن نوخا	بعد هادية النوائح
يحنّ بعد كرى العيون	حنين والهة قوامح
شعثت شواحب لا ينين	إذا ونى ليل النوائح
يندبن فقد أخي الندى	والخير والشميم الصوالح
والجود والأيدي الطوال	المستفيضات السوامح
فالآن نحن ومن سوانا	مثل أسنان القوارح ¹

بعد قراءة هذه القصيدة لنقرأ ما يلي من قصيدة الإمام الفراهي:

يَا عَيْنِي بِكَيْي بِالْهَوَامِغِ	لَا تَرْقَانَّ لَكَ الْمَدَامِغِ
قَتَلَنِي طَارِبَلَسَ الذِّ	بُنَ تَطْخَطَحَتْ بِهِمِ الْقَوَارِغِ
نَبْكَي عَلَى إِخْوَانِنَا	أَهْلِي الْمَكَارِمِ وَالْدَسَائِغِ
دَهَمَتْهُمْ الرُّؤْمُ الْقَوَا	تِكَ بِالْمَرَائِبِ وَالْمَدَافِغِ
جَاءُوا عَلَى صِرْدٍ بِجَمِّ	عِيهِمْ فَضَاقَ بِنَا الْمَقَانِغِ
دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَفْتُلُو	نَ هَا الْمَشَائِخَ وَالرَّعَارِغِ

¹ ديوانها، ص 25-27

قَتَلُوا الْمَرَضِعَ فِي الْمَضَا جِعَ وَالضَّرَّوَانِ فِي الشَّوَارِغِ
وَعَلَّوْا بِطَيِّئِ أَرَايِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ لَنَا الْمَوَاقِعَ
صَارَتْ تُحَلِّقُ فَوْقَنَا مِثْلَ الْغَرَائِيقِ الطَّوَالِغِ
يَزُمُونَ مِنْهَا بِالْكِرِيِّ نِ تَمْجُ بِالزَّهْرِ الْقَوَارِغِ
لِيَبْدُدُوا أَفْرَاسَنَا وَيُحَرِّقُوا مِنَّا الْوَشَائِعِ
لَا دِينَ عِنْدَهُمْ وَلَا حِلْمٌ عَنِ الْعُدْوَانِ وَانْغِ
يُبْدُونَ نَصْرَانِيَّةً زُفْرًا وَقَدْ رَفَضُوا الشَّرَائِعِ
بَلْ يَشْمِزُ الْكُفْرُ مِمَّا يَرْكَبُونَ مِنْ الشَّنَائِعِ
الْبَغْيِ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَالْعَدْرِ سَيْطَ مِنَ الطَّبَائِعِ
غُرُّوا بِأَنَّ الْبُعْدَ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْأَثْرَاكِ شَائِعِ
وَبِأَنَّ بَيْنَ قُلُوبِنَا صَدْعًا مِنَ الْأَضْغَانِ وَاسِعِ
يَا ضَلَّةً لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْخِلَافَةَ خَيْرٌ جَامِعِ
فَلَنْبُذَلْنَ لَهَا النُّفُوسُ سَ وَدُونَ حَوَازِمَها نُدَافِعِ
مَا التُّرْكُ إِلَّا مِثْلُ كَفِّ فِ الْبَاسِلِ الْعَارِي الْأَشَاجِعِ
وَالْعَرَبِ مِثْلُ أَصَابِعِ لَا كَفِّ إِلَّا بِالْأَصَابِعِ
فنجد أن قصيدة الفراهي لها كلمات فصيحة وتعبير جميلة وهدف عالٍ وفيها أمثال وحكم.

ولنقرأ قصيدة أخرى للخنساء أيضًا:

يَا عَيْنَ ابْكِي فَارِئَا حَسَنَ الطَّعَانِ عَلَى الْفَرَسِ
ذَا مَمَرَةٍ وَمَهَابَةٍ بَيْنَا نَوْمَلَهُ اخْتَلَسَ
بَيْنَا نَرَاهُ بَادِيَا يَحْمِي كَتِيبَتَهُ شَرَسَ
كَالْيَتِّ خَفَّ لَغِيْلَهُ يَحْمِي فَرِيَسَتَهُ شَكَسَ

يَـنْـذِرُ الكَـمِـي مَجـدًـلًا تَـرِبِ المَـنـاـخِر مَـنـقَـعِـس
خَضِبِ السَّـنـانِ بَطَـعَـنَـة فَـالـنَـفـسِ يَحْـفَـزُـهَا النَـفـسِ
فَـالطَّـيـيرِ بَـيـنَ مَـرـاوِدٍ يَـدْـنُـوْا خَـيـرَ مَـنْـتَـهَـسِ
يَـعِـمُ الفَـتَى عِـنـدَ الوَـغَى حَـيـنَ التَّـصـايِـحِ فِـي الغَـلـسِ
فَـلأَبْـكِـنَـكَ سَـيِّـدًا فَـصـلِ الخُـطـابِ إِذَا التَّـبـسِ
مَـنْ ذَا يَـقُـومُ مَـقـامَـه بَـعـدَ ابْنِ أُمِّـي إِذْ رَـمَـسِ
أَوْ مَـنْ يَـعُـودُ بِحَـلَـمَـه عِـنـدَ التَّـنـازَعِ فِـي الشَّـكـسِ
غَـيْـثُ العِشْـيَـرةِ كَـلِّـهَا الغَـائِـرِـيـنَ وَمَـنْ جَـلَـسِ¹

بعد قراءة هذه القصيدة لنقرأ ما يلي من قصيدة الإمام الفراهي:

كَيْـفَ القَرَارُ وَقَدْ نُكِـسَ أَغْـلَـمُـنَا بِطَـرَـابِـسِ
كَيْـفَ القَرَارُ وَحَوَّلَـنَا الأَـغْـدَاءُ تَرْتَقِـبُ الخُلُـسِ
مِـنْ كُـلِّ ذَنْـبٍ إِنْ رَأَى مِـنْ غَـيْـرَةٍ فِـيْـنَا اخْتَلَسِ
أَوْ أَفْعَـوَانٍ مُطْـرِقِ إِنْ لَـمْ تُبَـادِـرْهُ مَـهَـسِ
نَبْـكِـي عَـلَى إِخْوَـانِـنَا بَـيْنَ القَتِـيْلِ وَمَـنْ حُـسِ
كَمْ مِـنْ تَقِـيِّ طَـاهِرِ فِـيْهِمْ وَخَـيْـرِ نَـدِـسِ
نَبْـكِـي لِرَبِّـاتِ الخُـدُ رِ شَرَفْنَ بِالمَـاءِ السَّـلِـسِ
جَـرَتِ الخُـنُوفُ عَـلَى الأُلُـو فِـي مَـنَ الرُّخُوفِ وَمَـنْ جَلَسِ
يَا أُمَّةَ الإِسْـلَـامِ يَا أُنْـبَـاءَ آبَـاءِ شُـمُـسِ
هَلْ تَنعَسُـوْنَ وَخَصَـمُـكُمْ عَنِ كَيْـدِـهِ مَا إِنْ نَـعَسِ
هَلْ تَرْتَضَـوْنَ بِذُلِّـة وَالْأُمُـرُ لَـيْسَ بِمُلْتَبِـسِ
إِنْ لَا تَهَبُّـوا اليَـوْمَ فَا لِإِسْـلَـامٍ يَـتَـعَسُ بَلْ تَـعَسِ

¹ ديوانها، ص 73

قَدْ زُلْزِلَتْ أَرْكَائُهُ حَتَّى تَفْعَقَعَتِ الْأُسُوسُ
فَالْخَصْمُ يَجْهَدُ أَنْ يَرَى الْإِسْلَامَ فِي بُؤْسِ بَيْسِ
هَلْ لَا ذَكَرْتُمْ مَا أَصَا بَ الْمُسْلِمِينَ بَأْنْدُسْ
سَلَبُوكُمْ شَطْرَ الْبِلَا دِ وَمَا لَهَا مِنْ مُلْتَمِسِ
أَفْكَالٍ يَوْمٍ يَنْكُصُ الْإِسْلَامَ حَتَّى يَنْدَرِسَ
هَذَا وَلَمَّا يَنْكَأ الْجُنْحُ الْقَطِيعُ بَأْنْدُسْ
هَلْ يَذْهَبُ الْحَقُّ النَّقْـ يُ وَيَغْلِبُ الْكَذِبُ الرَّجِسْ
هَلْ تَرْتَضُّونَ بِذَلِّ دِينِـ كُمْ وَلَيْسَ بِمُلْتَبَسِ
وَاللَّهُ لَا نَرْضَى بِهِ مَا دَامَ فِينَا مِنْ نَفْسِ
فَالْيَوْمَ إِنْ لَمْ تَدْفَعُوا فَلْيَأْتِيَنَّ يَوْمَ نَجِسِ
إِلَّيَّ أَرَى فِتْنًا تَمْـ جُ وَقَدْ ظَهَرَ لِمَنْ حَدَسِ
نَارًا تَأْجِجُ فِي الْبِلَا دِ وَقَدْ تَلَهَّبَتِ الْأَطْسِ
الْخَصْمُ لَيْسَ بِمُؤْتَلِـ حَتَّى يَرَى الْحَقُّ طَمِسِ
يَبْغُونَ قُسْطُنْطِينَـ سَةً وَبَعْدَهَا أَرْضَ الْقُدْسِ
وَاللَّهُ يَأْبَى أَنْ يُـ قُدْسُهُ الْقَوْمَ النَّجِسِ
قَدْ صِيحَ فِي حُجْرَاتِهَا وَلَتَسْمَعَنَّ لَهَا الْجَرَسِ
فَلَنَنْضَحَنَّ أَوْ نُقْـ عَن قُدْسِنَا الْقَوْمَ النَّجِسِ
فَاخْمُوا ذِمَّارَ الْمَلَّةِ الْبَيْضَاءِ كَالْأُسْدِ الشُّكْسِ
وَاسْتَجْمِعُوا عُـ تَجْرِي السَّفِينُ عَلَى الْيُبْسِ
أَعْنِي الْمَرَكَبَ وَالْمَدَا فِرْعَ وَالْكَتَائِبَ وَالْحَرَسِ
وَتَعَلَّمُوا حَيْلَ الْخُرُـ بِ لِتَغْلِبُوا الْخَصْمَ الشَّرِسِ
فَتَأْهَبُوا وَتَأْلَبُوا وَتَلَبُّوا لِوَعَى ضَرِسِ

وَاسْتَنْصِرُوا اللَّهَ الْمَهْيُتَ ————— مِّنَ فِي الْعِشِيِّ وَفِي الْغَلَسِ
 "وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ" فَلْيَحْ تَمَسْ
 فجدها تضاهي بقصيدة الخنساء في الفصاحة وتتفوق عليها في الرسالة. وعلاوة
 على ذلك لا تقل عنها في السلاسة والموسيقى. وكذا يزيد المقتبسات القرآنية
 حسناً وجمالاً.

ولنقرأ قصيدة لعنترة بن شداد العبسي حيث يفتخر بنفسه:

ما زلتُ مرتقيًا إلى العلياء حتى بلغتُ إلى ذرى الجوزاء
 فهناك، لا ألوي على من لامي، خوفَ الممات وفرقة الأحياء
 فلأغضِبَنَّ عواذلي وحواسدي، ولأصيرنَّ على قلبي وجواء
 ولأجهدنَّ على اللقاء لكي أرى ما أرتجيه، أو يحين قضائي
 ولأحمينَّ النفس عن شهواتها حتى أرى ذا ذمة ووفاء
 من كان يجحدني؛ فقد برح الخفا، ما كنتُ أكتمه عن الرقباء
 ما ساءني لوني وإسم زبيبةٍ إذ قصَّرتُ عن همتي أعدائي
 فلئن بقيتُ لأصنعنَّ عجائبًا ولأبكمنَّ بلاغة الفصحاء¹
 وللفراهي قصيدة يهتئ فيها أستاذه العلامة شبلي على تلقيه بلقب "شمس العلماء"
 ويفتخر به، ولو أنَّ موضوعي كلتا القصيدتين ليسا متحدين تمامًا إلا أنهما
 تشتركان في الروي وشيء من الموضوع فيقول الفراهي:

يَا خَيْرَ مَنْ يَسْمُو إِلَى الْعَلِيَاءِ كَالشَّمْسِ بَارِغَةً بَوْسَطِ سَمَاءِ
 قَدْ كُنْتَ قَدَمًا لِلْمَعَالِي سَامِيًا أَوْرُثْتَهُ عَنْ شَيْمَةِ الْآبَاءِ
 فَلَيْنِ سَمَوْتَ إِلَى الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى فَلَقَدْ نَشَأْتَ بِعَزَّةٍ قَعَسَاءِ
 لَا غَرَوْ نَصْلُ السَّيْفِ إِنْ يَكُ صَارِمًا أَوْ يَسْتَهْلُ الْبَرْقُ بِاللَّأَلَاءِ

¹ شرح ديوانه، ص 22

فَلَأَنْتَ بِالْعَزَمَاتِ سَيْفٌ صَارِمٌ
لَأَذْتُ بِجَانِبِكَ الْعُلُومُ فَإِنَّهَا
قَدْ أُمَحَلَّتْ أَرْضُ الْعُلُومِ وَأَصْبَحَتْ
لِعِبْتِ بِهَا هُوجُ الرِّيحِ تَنْوِيهَا
فَجَعَلْتَ تُمْطِرُهَا بِسَحٍّ وَكَفٍ
فَرَبْتَ رِيَاضَ الْعِلْمِ مِنْكَ وَأَنْبَلْتَ
كَمْ مُعْضِلَاتٍ فِي الْمَسَائِلِ قَدْ أَبَتْ
مَرَّقَتْ أَسْتَارًا لَهَا فَتَمَرَّقَتْ
عَلَّمْتَنَا سُبُلَ الرَّشَادِ وَإِنَّمَا
كُنَّا بِمَهْجَلَةٍ يُخَافُ بِهَا الرَّدَى
فَلَنَشْكُرَنَّكَ مِنْ صَمِيمِ قُلُوبِنَا
فَلَأَسْأَلَنَّ اللَّهَ طُؤُلَ بَقَاءِكُمْ
وَأَهْنِئْنَاكُمْ بِمَا أُعْطِيتُمْ
إِنْ كَانَ تِلْكَ الشَّمْسُ شَمْسَ سَمَاءِهَا
إِذْ أَنْتَ شَمْسُ الْعُلُومِ سَمَاؤُكُمْ

وَلَأَنْتَ بِرَقٍّ لَامِعٌ بِذِكَا
لَوْ لَمْ تَصُنْهَا أَذَنْتُ بِفَنَاءِ
عَرْصَاتِهَا كَسَمَالِقِ الْبَيْدَاءِ
مِنْ كُلِّ عَاصِفَةٍ مِنَ النَّكَبَاءِ
صَوَّبَ الرِّبْعِ بِدِيْمَةٍ هَطْلَاءِ
مُهَيَّزَةً بِعُصْفُوفِهَا الْخَضِرَاءِ
أَنْ يَكْشِفُوا عَنْهَا دُؤُومَ الْإِرَاءِ
كَالْبَرْقِ يَهْتِكُ سَدْفَةَ الظُّلَمَاءِ
كُنَّا كَخَابِطٍ لَيْلَةٍ لَيْلَاءِ
فَهَدَيْتَنَا لِمَحَجَّةٍ بَيْضَاءِ
بشكر الخليل بثنه برداء
فِي كُلِّ بُكْرَتِنَا وَكُلِّ عِشَاءِ
مِنْ خَيْرِ مَا وَجَدُوا مِنَ الْأَسْمَاءِ
فَلَصِرْتَ شَمْسُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ
فَالشَّمْسُ شَمْسِي وَالسَّمَاءُ سَمَائِي

فنتلذذ بما تتحلّى هذه القصيدة البليغة للفراهي بالبلاغة وإن قمنا نحصيها لطال
المقال فننصح القراء أن يقرأوا العدد الأخير للعدد الخاص بالفراهي، وأما مقارنة
القصيدتين بالفراهي يسبق العبسي في اختيار الكلمات والأمثال والأساليب. ولقد أبكم
بيت الفراهي النهائي البلغاء وأفحم النقاد ولو لم يقدر على هذا بيت العبسي النهائي.
وسابغاً: موسيقى الشعر: وبجانب سلاسة شعر الفراهي وروعته وبلاغته نجده
مليئاً بالموسيقى فلو أنّ الموسيقى جزء من الشعر ولكن شعر الفراهي أكثر تحليلاً
بهذه الصفة من أشعار الآخرين فيقول، مثلاً، عن الأشياء التي تعود عنها:

أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ الْإِفْضَالِ	الْغَافِرِ الذَّنْبِ الشَّدِيدِ الْإِنْكَالِ
مِنْ هَمَزَاتِ النَّفْسِ ذَاتِ الْإِغَالِ	وَنَفَثَاتِ كُلِّ بَاغٍ مُحْتَالِ
وَسَطَوَاتِ كُلِّ طَاغٍ مُحْتَالِ	وَفِتْنَةِ الْجُبْنِ وَبَلْبَالِ الْبَالِ
وَفِتْنَةِ الْحِرْصِ وَطُولِ الْأَمَالِ	وَفِتْنَةِ الْأَهْلِ وَمَالِ مَيِّالِ
وَفِتْنَةِ الدُّنْيَا كَرْفَرَاكِ الْآلِ	وَفِتْنَةِ الْعِلْمِ وَزَيْغِ الْأُقْوَالِ
وَفِتْنَةِ الْجَهْلِ وَسُوءِ الْأَعْمَالِ	وَفِتْنَةِ الشَّيْطَانِ رَأْسِ الضَّلَالِ
وَفِتْنَةِ الْغَاوِي الْمَسِيحِ الدَّجَالِ	وَكُلِّ طَاغُوتٍ إِمَامِ الْجَهَّالِ

فكل بيت من هذه القصيدة مليئة بالموسقى الرنانة.

ويقول في قصيدة طويلة:

يَا تُرْكُ لَا تَبْغُوا الْهُوَيْنَا	لَا تُنْعِمُوا الْحَسَّادَ عَيْنَا
أَنْتُمْ الْمُنَّوْنُ الظَّالِمُونَ	نَ الْغَانِمِينَ لِمَا حَمَيْنَا
النَّاهِينَ بِلَادَنَا	وَالْغَاصِينَ لِمَا حَوَيْنَا
أَنْتُمْ الْمُنَّوْنُ عَدُونَا	وَتَرْكُتُمُونَا بَيْنَ بَيْنَا
هَلْ لَا ذَكْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ	تُمْ أُمُورُكُمْ إِلَيْنَا
كُنْتُمْ لَنَا الْإِخْوَانُ إِذْ	فِي الدِّينِ وَالْوُدِّ اسْتَوَيْنَا
فَنُفُوسُنَا وَنُفُوسُكُمْ	خُلِطَتْ مَعًا لِمَا التَّقَيْنَا
حَتَّى تَخَالَطَنَا كَأَمْوَا	جِ الْخَلِيبِ إِذَا جَرَيْنَا
نَحْيِي الْخِلَافَةَ بِالسُّيُ	فِ الْبَاتِرَاتِ إِذْ انْتَضَيْنَا
فَرَبَّتْ حَدَائِقُ مَجْدِهَا	بِدِمَائِنَا لِمَا سَقَيْنَا
تُنْبِي عِيُونُ الْكَاشِحِ	نَ الْحَاسِدِينَ لِمَا سَعَيْنَا
أَقْبَعَدَ ذَاكَ تُخَاذِلُو	نَ وَتَذْهَبُونَ قَائِنَ أَيْنَا
إِنَّ الْعَدُوَّ هُمْ هُمْ	لَوْ تَبْصُرُونَ كَمَا رَأَيْنَا

هَلْ تَأْمُنُونَهُمْ فَقَدْ
كَالْصَّهْلِ يُطْرَقُ ثُمَّ يَقْطُرُ
فَلَيْنٌ بَدَا لَكُمْ مُسَا
لَا سِلْمَ بِالطَّلِيَّانِ حَتَّى
نَنْفِئَهُمْ عَنْ أَرْضِنَا
فَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَا
إِنَّا لَأَخْرَارٌ نَعُدُّ
صَبْرٌ إِذَا لَجَّ السَّجَّ الوَعَى
مِثْلُ الْجِبَالِ الشَّيْمِ نَحْـ
لَا نَرْهَبُ الطَّلِيَّانِ إِنْ
نَلَقَاهُمْ يَهْشِمِينَ نَفْـ
يُبْضَا كَسَحْمِ الْكُومِ لَمْ
حَتَّى يُقَالَ لَنَا بِحَقِّ
كَمْ نَابَنَّا حَرْبُ الْمَلُوءِ
لَمْ يَبْسُطُوا الْأَيْدِيَّ إِلَّا
لَمْ يَرْفَعُوا الْأَعْنَاقَ إِلَّا
حَتَّى ائْتَنُوا طُرًّا سَوَى
لَوْ لَا الْحَمَاسَةُ وَالْجَمَا
فَحَرْزُهَا وَصُحُورُهَا
نَصْلِي بِنَارِ الْحَرْبِ أَجْسَا
لَا نَبْتَغِي الدُّنْيَا وَزُھْرَ
لَا هَمٌّ فِي تَرْفٍ فَأَسْبَا
فَاللَّهُ نَعْبُدُهُ وَعَبَّـ

غَرُّكُمْ زُورًا وَمَيْنَا
نَابِيهِ سُمًّا وَحَيْنَا
لَمَّةَ الْعَدُوِّ لَقَدْ أَبَيْنَا
يَتْرُكُوا بَلَدًا ثَوْنَنَا
لَا نَرْعَوِي عَمَّا قَضَيْنَا
ةَ تَحْتَوِي ذُلًّا وَشَيْنَا
الْقَتْلَ لِلْأَخْرَارِ زَيْنَا
لَا نَشْتَكِي نُصْرَبًا وَأَيْنَا
تَقْرِ السُّيُولَ إِذَا أَتَيْنَا
يَسْتَكْثِرُوا فَلَقَدْ كَفَيْنَا
رِيهِمْ كَمَا كُنَّا قُرَيْنَا
تَرَفُوقَهَا صَدَاءَ وَرَيْنَا
النَّازِلِينَ لَقَدْ وَفَيْنَا
لِ فَالْمُ نَمْلَ وَلَا وَنَيْنَا
مَا كَسَرْنَا أَوْ لَوَيْنَا
مَا قَطَعْنَا أَوْ كَوْنِنَا
جَمْعٍ قَتَلْنَا أَوْ سَبَيْنَا
يَهُ قَفَرِ لَيْبَا مَا امْتَطَيْنَا
مَمَّا ارْتَدَيْنَا وَاحْتَدَيْنَا
دَا صَهْرَنَا وَاشْتَوَيْنَا
تَمَّا فَيَا اللَّهَ اكْتَفَيْنَا
بِ الْعَوَايَةِ مَا ارْتَضَيْنَا
دَ الصَّ لَيْبٍ فَقَدْ قَلَيْنَا

وله قصيدة رائعة عن أشراف الساعة اقرأها وتمتع بموسيقاها:

لَقَدْ لَجَّ بِالرُّومِ إِشْطَاطُهَا	فَتَعَدُّ إِلَى الْهَلْكِ أَشْوَاطُهَا
وَكَمْ أَهْلَكَ الْبَغْيُ مِنْ أَمَّةٍ	وَخَيْرُ الْأُمُورِ لِأَوْسَاطُهَا
فَإِنْ صَعَدَ الرُّومَ رَبُّ الدُّهُوِ	رَلَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ إِهْبَاطُهَا
فَقَدْ خُطَّ فِي زُبْرِ الْأَوَّلِيْنَ	مَنْ أَنْ تُسْقِطَ الرُّومَ خُطَّاطُهَا
فَقُبِلَ الْقِيَامَةَ مَبْعَادُهَا	فَقَدْ قَرُبَ الْيَوْمَ إِسْقَاطُهَا
فَإِنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ أَرْلَفَتْ	إِلَيْنَا فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا
فَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ جَهَّالَهُمْ	هُدَاةً فَيَخْبِطُ خَبَاطُهَا
فَضَاعَ الْأُمُورُ وَشَاعَ الْمُجُورُ	وَدَاعَ الْخُمُورُ وَإِفْرَاطُهَا
وَقَدْ أَوْرِطَتْ أَمَّةُ الْمُسْـ	لِيمِينَ فِي هُوَّةٍ، شَدَّ إِيرَاطُهَا
وَأَوْقَعَهَا الدَّهْرُ فِي عُقْدَةٍ	تَعَسَّرَ لِلْقَوْمِ إِنْشَاطُهَا
وَقَامَتْ لِتَعْرِيزِ دِينِ الْإِلَهِ	مِنْ أَهْلِ سُودَانَ أَقْطَاطُهَا
هَتَافُهُمُ اللَّهُ قَوْلًا بِهِ	جَمَاعُ الْأُمُورِ وَخَوَاطُهَا
وَعَادَ الْهُودُ إِلَى أَرْضِ لَيْمٍ	أَحَاطَتْ بِصَمِيهُونَ أَسْبَاطُهَا
وَمِنْ قَبْلُ كَانَتْ مُمَرَّقَةً	فَقَدْ جُمِعَ الْيَوْمَ شِمْطَاطُهَا
وَمَا أَكْثَرَ الرُّومَ فِي الْعَالَمِيْنَ	مَنْ طَبَّقَتْ الْأَرْضَ ضُبَّاطُهَا
فَدَبَّتْ عَقَارِبُهَا فِي الْبِلَادِ	وَصُبَّتْ عَلَى النَّاسِ أَسْوَاطُهَا
وَمِنْ جَوْرِهَا أَمَمٌ أَهْلِكَتْ	وَشَرُّ مِنَ الْجَوْرِ أَقْسَاطُهَا
تَدُوسُ الْبَحَارَ كَأَنْ بُسِطَتْ	عَلَى بَشَجِ الْبَحْرِ أَنْمَاطُهَا
يَطِيرُ لَهَا مَرْكَبٌ فِي السَّمَاءِ	وَأُودِعَتْ الْبَرْقَ أَخْيَاطُهَا
وَمَا بَيْنَ قُدْسٍ وَبَيْنَ الْبَحَا	رَ قَدْ ضَرَبَ الْيَوْمَ فُسْطَاطُهَا
وَضُمَّتْ بَيَاجُوجَ مَا جُوجُهَا	تَحَرَّبَ لِلشَّرِّ أَرْهَاطُهَا

فَأَبْنَاءُ جَوْمَرَ فِي جَمْعِهَا وَنَسْلُ تَجْرَمَا وَأَخْلَاطِهَا
كَأَنِّي بِهَا كَأَتِي الْجَبَا لِي أَرْسَلَتِ السُّبُلُ إِفْرَاطِهَا
تَرْجُرَجُ فِي بَعْضِهَا بَعْضُهَا كَغَطْمَ طَلَّةِ الْبَحْرِ الْغَاطِهَا
فَإِنْ كَانَتْ الشَّامُ مَوْرِدَهَا فَقَدْ بَلَغَ السَّدَّ فُرَاطِهَا
فَإِنْ بَسَطَتْ بَاعَهَا بِسُطَّةً تَأْبَطَتِ الْقُدْسَ أَبَاطِهَا
إِذَا يُنْزِلُ اللَّهُ نَارَ الْعَذَابِ عَلَيَّهَا، فَحَتَّامَ إِسْخَاطِهَا؟

آراء العلماء والناقدين عن شعر الفراهي العربي

وعند الختام يناسبنا أن نذكر طرفاً من أقوال وآراء العلماء والناقدين عن شعره العربي وهكذا نرى هل حقّ تحليلنا لشعره أم بطل وضلّ عن سواء النقد. يقول العلامة تقي الدين الهلالي:

"وللشيخ المذكور (حميد الدين) ديوان شعر سمعته عنه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين وبثّ الحياة في قلوبهم وذكر عداء الأفرنج لهم وذكر حرب طرابلس والحرب الكبرى".¹

ويقول عروج أحمد القادري:

"ميزة أدب الفراهي التي أثّرت في الكاتب هي أن نظريته الأدبية إسلامية بحتة فلم يضل عن الجادة التي أرشد إليها أدب القرآن العالم كله فلا نجده ثنويًا فيتبع القرآن في كل من نثره وشعره".²

ويقول الشيخ بدر الدين الإصلاحي:

"إنّ أستاذنا الإمام كان أديبًا بليغًا وشاعرًا حكيمًا --- ولكنه مع ذلك لم يقرض إلا قليلًا --- وهو إذ كان ماهرًا باللسان الذي أنزل فيه القرآن وبارعًا فيه، فيقرض على

¹ مجلة "الضياء"، رجب 1352هـ، ص 208

² مجلة "زندكي" الشهرية (رامبور)، نوفمبر 1967م، ص 60

منوال الجاهليين وينشد على سبك فصحاءهم. --- إن شعره كان جيد السبك، رائق الأسلوب، بديع الخيال، قوي المنطق، يمتاز بقليل الحشو، إنك تجد في شعره ما لا تجد في غيره من جزالة اللفظ ورشاقة الأسلوب. --- قد جاء نظمه سهلاً خفيفاً، يطمع السامع أن يأتي بمثله لكنه إذا حاول، عجز، إنه قد أتى بقريضه للغة العربية دقة في التركيب، رقة في الأداء، جمالاً في الأسلوب، حسنًا في الخيال، رونقاً في البيان، وطلاوة في المعنى، وإن هذه كلها تدلّ على أنه كان من الشعراء المطبوعين المجيدين الذين لا يقرضون إلا بفيض قريحتهم ووهي فطرتهم".¹

ويقول الدكتور جلال سعيد الحفناوي:

"لقد شدّ الشاعر حميد الدين الفراهي عن القاعدة التي نشأ عليها الشعر السياسي العربي في المهجر الشرقي في شبه القارة الهندية حتى يمكن اعتباره الشاعر السياسي الوحيد في هذا الصدد، فالفراهي المتوفى 1349هـ/1930م لم ينظم كثيراً من أغراض عصره كالمديح والرثاء والمواضع، بل كان معظم شعره في السياسة ---".²

ويمضي قائلاً: "--- شاعرنا الفراهي أكثر اهتماماً بالموضوع على حساب المعاني والقوافي".³

ويقول الشيخ ضياء الدين الإصلاحي:

"كان الإمام الفراهي عالماً كبيراً للقرآن فالشعر لم يكن، بالنسبة له، مما يفتخر به ولكنه كان مطبوعاً على الشعر فعندما تأثر بحدث ما فينطلق لسانه بالشعر. كان الفراهي يقرض الشعر في كل من الأردوية والفارسية والعربية --- معظم محتويات

¹ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 7

² مجلة "ثقافة الهند"، 55/2/55

³ المصدر نفسه، ص 61

شعره العربي ما وقع في بلقان وطرابلس من أحداث الحرب المدمية، وهذا يدل على حميته الدينية. ومنه ما يشتمل على الحكمة والموعظة فقد نبّه الفراهي البشر عن تقلب الأيام وفناء الدنيا ---¹.

ويقول فخر عالم بدر الدين الأعظمي في مقالته الرائعة عن شعر الفراهي:
"--- لم يقل الشعر إلا قليلاً نادراً فنجد ديوانه صغيراً ولكن هذا القدر يكفي أن يجعله في صفوف شعراء الدرجة الأولى من شعراء العربية (في الهند) --- كلامه مليئ بالحكمة والبلاغة --- ليس في شعره ما نجد في شعراء التغزل فلا نجد فلا نجده يهيم في كل واد من الكلام البذيء بل هو يأخذ بيد قارئه إلى حقائق الكون --- شعره رسالة وليس بما يروح البشر --- ويعكس على شعره شغفه بالقرآن".²

¹ مجلة "معارف" الشهرية، ديسمبر 1989م، ص 480

² مجلة طلبة مدرسة الإصلاح السنوية، 1990م، ص 143-154

المصادر والمراجع

1. تفسير تدبر قرآن للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، شركة تاج، دلهي القديمة، 1989م
2. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
3. ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند، 1989م
4. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم)، ط1، 1988م
5. الراعي النميري: شعر الراعي النميري وأخباره، جمع وتقديم وتعليق: ناصر الحاني، دمشق، 1964م
6. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
7. مختصر حيات حميد لعبد الرحمن ناصر الجامعي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1973م
8. مجلة "الضياء" التي كانت تصدر عن ندوة العلماء بلكناؤ
9. مجلة "ثقافة الهند" الفصلية التي كانت عن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيو دلهي
10. مجلة "زندكي" الشهرية التي صدرت أولاً من رامبور ثم من نيو دلهي
11. مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين بأعظم كره، الهند
12. مجلة طلبة مدرسة الإصلاح السنوية الصادرة عن منظمة طلاب مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره، الهند

الإمام عبد الحميد الفراهي وإدارة مدرسة الإصلاح

د. محمد فضل الله شريف¹

الملخص

في هذه المقالة سلّط الضوء على جانب خاص من جوانب حياة الإمام عبد الحميد الفراهي المتعددة ألا وهو إدارة مدرسة الإصلاح، ودوره الريادي في تعليم وتربية طلابها، وتطوير واازدهارها، رجع الفراهي من حيدرآباد في 1/ ستمبر 1919م تاركاً وظيفته بها، وعاش حياته المتبقية مديراً لمدرسة الإصلاح التي كانت تابعة لمنظمة إصلاحية محلية "أنجمن إصلاح المسلمين". ولقد ضحّى الفراهي بنفسه ونفيسه، في سبيل تطوير هذه المدرسة وترقيتها، وقرّر أن يجعلها مركزاً لأفكارها القرآنية الخاصة به كما يشير إليه العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي بقوله: "وأنه قد أسّس مدرسة سمّاها مدرسة الإصلاح، لا يدرس فيها إلا القرآن الكريم الذي هو ضالته المنشودة"، وكان الفراهي يرى أنّ القرآن هو الأصل وأنّ العلوم الأخرى هي الفروع، فالقرآن لديه كالشمس، والعلوم الأخرى كالكواكب، وبهذه الشمس تضيء دنيا الإسلام والمسلمين، ولكن المسلمين قد تركوا هذا المنهل الصافي وراء ظهورهم، ووردوا موارد شتى، وكذا تلقي هذه المقالة الضوء على مقرراتها الدراسية.

الكلمات المفتاحية: مغادرة الفراهي لحيدرآباد، النظرة الإجمالية على أواخر أيام حياته، تأسيس أنجمن إصلاح المسلمين، تعريف بمدرسة الإصلاح، إدارته للمدرسة، مدرسة الإصلاح في عهد الفراهي، أهداف مدرسة الإصلاح عام 1928م، النظرية التعليمية لمدرسة الإصلاح، المقررات الدراسية لمدرسة الإصلاح، المقررات

¹ أستاذ مساعد، كلية إيه كيه إيم الشرقية التابعة للجامعة العثمانية، غاتشي غوره،

حيدر آباد

الدراسية للغة العربية، أسلوبها في إلقاء الدرس، نظام التربية، مصادر المدرسة، تغيير اسم المدرسة.

التمهيد: العلامة الفراهي من العلماء الذين أثروا في مجالات مختلفة، إلا أن القرآن الكريم كان مركز حياته، فبنى له مدرسة (مدرسة الإصلاح) التي أصبحت فيما بعد جامعة كبيرة، لم يزل ولا يزال يتخرج منها أفاضل العلماء الذين عملوا في إصلاح المجتمع البشري، ونشر الإسلام وتعليماته في أرجاء العالم، فالفضل في ذلك كله إلى يرجع العلامة عبد الحميد الفراهي، ولقد عمل الفراهي جاهداً في تطوير هذه المدرسة، وازدهارها، حتى يقصد إليها الطلاب من أرجاء العالم زرافات ووحداناً، وكان لفضلاء هذه المدرسة دور كبير على المستوى العالمي في نشر الدين، والذود عن الشريعة الغراء البيضاء، وتعميم رسالة الإسلام والقرآن.

مغادرة الفراهي حيدرآباد: قد حاولنا أن نفوز بشاهد أو أكثر يحدّد تاريخ رجوع الفراهي من حيدرآباد إلا أننا لم نظفر به فنذكر فيما يلي رسالة كتبت في 1/ سبتمبر 1919م تحدّد أنه رجع منها قبل 1919م:

"الرجاء منكم أنكم قد قفلتم من مدينة حيدرآباد بكل خير وعافية، فعلمت رجوعكم من رسالة مولوي عبد الحق، فجاء تدشين الجامعة العثمانية في الأسبوع الماضي".¹

النظرة السارحة على آخر حياته: ترك الفراهي وظيفة حيدرآباد وقفل منها راجعاً إلى قريته "فريها"، وعاش بقية حياته خادماً لمدرسة الإصلاح في سرائ مير. فريها قرية آبائه، وتقع على بعد سبعة أميال من سرائ مير، وأسّس بها أهله وذووه مدرسة عين الفراهي مديرها، ولكن إقامته في حيدرآباد، لم تهيئ له الفرصة للإشراف عليها خير إشراف، وتطويرها وازدهارها. كان الفراهي ينتمي إلى أسرة

¹ الدكتور شرف الدين إصلاحي، ذكر فراهي، ص 337.

إقطاعية، فلما رجع من حيدرآباد جعل يعتمد كلياً على الزراعة، ولو كان يحصل على راتب التقاعد من الحكومة، ولكنها كانت أقل قليل نظراً لحاجياته، وكان ابنه قد كبرا، وجعل يعيناه في شؤون البيت، فكان الفراهي قد جعل نفسه فارغاً لإتمام أعماله وبحوثه، وبجانب هذا كان الفراهي يرّي جيلاً يقوم مقامه في نشر أفكاره. يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عن رجوعه من حيدرآباد، وعكوفه على القراءة والكتابة وإشراف المدرسة:

"لما استقال عن الوظيفة رجع قافلاً إلى وطنه المؤلف، فهيئت له الفرصة للاعتناء بمدرسة الإصلاح ودار المصنفين، كان يشرف عليهما علمياً، وثقافياً، وإدارياً منذ البداية، ولكنه لم يجد الفرصة الملموسة لوظيفته في حيدرآباد".¹

تأسيس أنجمن إصلاح المسلمين: أسست مدرسة الإصلاح من قبل أنجمن إصلاح المسلمين، فلا بد من تسليط الأضواء على هذه اللجنة قبل إلقاء الضوء على مدرستها. يقول العلامة سيد سليمان الندوي:

"كان رجلاً متديناً من هذه الديار يدعى "مولوي شفيع" فأسس بالتعاون من العلماء المواطنين، والمحبين للعلم، وأصحاب الأموال المخلصين (ومنهم أقارب الإمام عبد الحميد الفراهي من جده للأُم)، أسسوا لجنة باسم "أنجمن إصلاح المسلمين" تعقد حفلتها كل شهر في ضواحي المدينة ونواحيها، فتلقى الخطب حول إصلاح الحال، وترك البدع والخرافات، وتعقد حفلاته السنوية بكل نشاط ورغبة، فيحضر هذه الحفلات من حين لآخر كبار العلماء مثل الشيخ عبد الحق الحقاني، والشيخ ثناء الله الأمرتسري وغيرهما، ويستفيد الناس بخطبهم، ومن هنا احتاجوا إلى تأسيس المدرسة".²

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

التعريف بمدرسة الإصلاح: هنا نقدم بعض الاقتباسات والروايات التي تشير إلى المراحل الابتدائية للمدرسة من تأسيسها وجهود العلماء والمواطنين في تطويرها: يكتب العلامة سيد سليمان الندوي من خلال حديثه عن حياة الإمام الفراهي وخدماته: "عندما كان العلامة يقيم بإله آباد، أراد أقاربها تأسيس المدرسة، فتحمل هذه المسؤولية كل من العلامة شبلي والعلامة حميد الدين الفراهي، وهكذا تأسست المدرسة عام 1906م في سرائ مير بعيداً عن أحياء الناس في حديقة خضراء، فأراد شبلي أن تلقى مسؤولية إدارة المدرسة على كواهل الفراهي. يكتب في 19/ أبريل، عام 1910م في رسالة: "هل بإمكانك أن تمكث أياماً في مدرسة سرائ مير، لعلني أزورها، فنقوم بتنسيق أمورهما، ونجعلها مدرسة خالصة للعلم".¹ فتطورت المدرسة بجهود هذين العالمين وإرشادهما، وهما كان يتناوبان رعايتها".² فطبقاً لقول السيد الندوي أنهما اعتنيا بالمدرسة منذ تأسيسها. وكذا يذكر في موضع من ترجمة شبلي:

"وبالصدفة قد ترك مدرّس من قرية منجيريدي يدعى "عبد الأحد" ترك مهنة التدريس بجونفور، ورجع إليها، فرافقه منها بعض الطلاب الذين جعل يدرّسهم في قريته، فاعتنم أهل المدرسة هذه الفرصة، واختاروا أرضاً ما يقارب 24 مربع يارد، يمتلكها كل من أصحاب السنة والتشييع، فقام كل واحد منهم بوقف هذه الأراضي للمدرسة بكل إخلاص، فشيدت هناك دُكّة من سقف من قشّ بشكل الكوخ عام 1326هـ-1909م، فأصبح ذلك الكوخ مدرسة، فحضر في تلك الفترة الشيخ سيد أصغر حسين أحد الأولياء الصالحين، الذي كان يعمل مدرّساً نحو خمسة وعشرين عامًا، فدشّنت المدرسة بيده، وجعل يتردد إليها الشيخ عبد الأحد، ويلقي

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

الدروس على الطلاب، فحضر الخطيب المصقع، والواعظ البليغ الشيخ فيض الحسن في الحفلة السنوية للجنة، فاغتنم الناس الفرصة، فمكث هناك، وجعل يجمع التبرعات للمدرسة، فشيد بناء من الحجرات الطينية".¹

وإن كان مؤسس هذه المدرسة الحقيقي هو الشيخ محمد شفيع، ولكن حينما جعل الفراهي يرأس المدرسة ويعتني بأمورها، ومناهجها بدأ الناس ينسبون المدرسة إليه، كأنه هو المؤسس الحقيقي لما رأوا له من خدمات جسيمة هائلة في تطوير المدرسة، وترتيب مناهجها، وتطبيق نظامها. يقول الدكتور تقي الدين الهلالي عن المدرسة وعلاقته بها:

"زرت العلامة الأوحـد الشيخ حميد الدين الفراهي الأعظم كري رحمه الله رحمة الأبرار في سنة 1342هـ بقرية بهريا، فذكر لي ترجمته حتى انتهى إلى تأسيسه لمدرسته، فقال لي إني منذ زمن قد وقفت ما بقي من حياتي على خدمة القرآن، فأُسست هذه المدرسة لتعليم القرآن".²

ويقول بالنسبة لمدرسة الإصلاح:

"وقد أسس مدرسة سمّاها مدرسة الإصلاح، لا يدرس فيها إلا القرآن الذي هو ضالته المنشودة".³

إدارته للمدرسة: ولو أنّ حديثنا يتعلق بالفترة ما بين 1919م و1930م، ولكني أشير إلى أشياء لا بد منها لعقد الصلة بين سنوات هذه الفترة. فلو كان الفراهي يشرف على مدرسة الإصلاح منذ بدايتها، ولكنه اعتنى بها شديداً منذ العام 1919م حينما رجع من حيدرآباد، وعلى هذا يذكر اسمه من بين المقيمين على هذه المدرسة، كما يظن الشيخ أحسن بأنه كان يدير المدرسة منذ البداية:

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

³ المصدر نفسه، ص 337.

"في سرائ مير بأعظم جراه (الهند) مدرسة دينية باسم "مدرسة الإصلاح" وهي أسست على أفكار شبلي والفراهي، وهي تهدف بتأسيسها إلى تدريس الأدب العربي والقرآن الكريم. وتخدم القرآن اتباعاً لهدفه منذ تأسيس المدرسة. وكان الفراهي يدير هذه المدرسة منذ تأسيسها، ولكنه لم يرتبط بالمدرسة لتوظيفه في حيدرآباد، ولم يشارك كثيراً في تطويرها وتنظيمها مباشرة، ولكن لما ترك حيدرآباد واستوطن قريته جعل يرغب في شؤون المدرسة، فأنقق مدة تستغرق الفترة من 1925م إلى 1930م (السنة التي توفي فيها)، في تطوير المدرسة، وبذل الجهود المكثفة والوقت الثمين من حياته في خدمتها".¹

كان المولوي محمد شفيع مدير المدرسة الأول فقد كان الفراهي بعيداً عنها لمدة عامين فقد ذكر اسمه كمديرها في 1910م، يقول العلامة سيد سليمان الندوي: "ألقى شبلي مسؤولية إدارة المدرسة على كواهل العلامة حميد الدين، فيكتب في إحدى رسائله في 29/ أبريل عام 1910م: هل بإمكانك أن تمكث في مدرسة سرائ مير، عسى أن أزورها، وهكذا فنقوم بتنسيقها وترتيب الأمور".²

ولكن الفراهي ترك إدارتها بسبب الضعف في 1914م.³ فانعقدت جلسة الإدارة في دار شبلي بأعظم جراه في 4/ أكتوبر عام 1914م. يذكر في تقرير الجلسة: "لا بد من تعيين مدير جديد مكان الفراهي، فيقوم بهذه المسؤولية في هذه الآونة المولوي محمد شفيع نائب المدير، ثم يعين على هذا المنصب رجل آخر"،⁴ ولكن يعلم من تقرير الجلسة في 28/ مايو 1916م أنه قبل منصب الإدارة بعد تركه لعامين:

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

³ المصدر نفسه، ص 337.

⁴ المصدر نفسه، ص 337.

"البند الأول: الاقتراح من قبل المولوي أسلم، التائيد من قبل الحاج صدر علي، عيّن حميد الدين كمدير للمدرسة بإجماع الآراء، البند الثاني، الاقتراح من قبل المولوي حميد الدين، بتوثيق رشيد الدين الأنصاري، عيّن صوفي عبد المجيد نائب مدير المدرسة، الاقتراح من قبل المولوي حميد الدين، بتوثيق الحاج صدر علي عيّن المولوي شفيع خازنًا".¹

فبقي الفراهي على منصب مدير المدرسة إلى أن وافته المنية.

مدرسة الإصلاح في عهد الفراهي: لما استقال الفراهي عن وظيفة حيدرآباد، واشتغل في قريته بقراءة القرآن، وتعليمه، وجعل المدرسة والعناية بأمورها عمل ليله ونهاره، حتى أصبحت المدرسة جزء لا يتجزأ من حياته، جعلت المدرسة تنسب إليه، والفراهي إليها، حتى اعتبره بعض الناس مؤسسها، وهذا لأنه ضحى بنفسه ونفسه، في سبيل تطوير المدرسة وترقيتها، وترك لها المنصب الكبير في حيدرآباد، ورفض كل شيء من زخارف الدنيا، واشتغل بالقرآن الكريم والعناية بالمدرسة. يذكر من أسباب استقالته: "بها أشغال علمية مهمة، أحاول أن اعتزل لأجلها".²

ذكر الفراهي مقاله التاريخي في يوميات العلامة تقي الدين الهلامي، كما سبق ذكره، نوّد أن نذكر بهذه المناسبة مقتبسًا من اليوميات ما يتعلق بهذا المكان، يقول الفراهي:

"ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد بمطالعة القرآن المجيد لا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث، وما يعين على فهم القرآن، فتركت الخدمة ورجعت إلى وطني".³

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

³ المصدر نفسه، ص 337.

ويدلي برأيه عن الحياة التي قضاها قبل الرجوع إلى المدرسة: "فيا أسفى على عمر ضيعته في اشتغال ضرها أكبر من نفعها".¹

لما استقال من الوظيفة في حيدرآباد، ورجع قافلاً إلى وطنه، يكتب عنها العلامة سيد سليمان الندوي في ترجمة الفراهي المطبوعة في نهاية "إمعان في أقسام القرآن":

"ثم استقال من الخدمة، ولزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسس في قرب من قريته مدرسة عربية دينية سميت "مدرسة الإصلاح" فكان ينظر في شؤونها ويجريها على أمثل طريق اخترعه، وأحسن أسلوب أبدعه، ومن جل مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية، وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة، وإلغاء العلوم البالية القديمة، والعكوف على طلب علوم القرآن، والبحث عن معانيه ونظمه، وأحكامه وحكمه".²

ويشبه هذا القول ما كتبه شير محمد الندوي الإصلاحي في مقالته "الإمام حميد الدين الفراهي":

"ومن أعماله مدرسة الإصلاح، وهذه مدرسة عربية دينية، ولها من المزايا ما لا توجد غيرها من المدارس المنبثة في الهند، وكان ناظرًا لها إلى آخر حياته.... وكان ينظر في شؤون التعليم العربي، ويفكر دائمًا في قائمة الدروس الجارية في المدارس العربية.... فجاءت قائمة دروس هذه المدرسة بديعة".³

أهداف مدرسة الإصلاح عام 1928م: قد سبق أنه ترك الوظيفة بهدف نيل المطامع والأغراض النبيلة التي لا تتحمل بيان أهميتها هذا القلم العاجز، وكفى أهمية لها قوله عليه أفضل الصلوات والتسليم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

³ المصدر نفسه، ص 337.

كان الفراهي يهدف بتأسيس هذه المدرسة إلى نشر رسالة القرآن الكريم وعلومه، ومعانيه ومبانيه، يكتب العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي عن الأهداف وراء تأسيسها: "وقد أسّس مدرسة سمّاها مدرسة الإصلاح، لا يدرس فيها إلا القرآن الكريم الذي هو ضالته المنشودة"¹.

فلما أمعنت النظر في هذه العبارة للهلالي دهشت وتحيرت كيف اعتبر الهلالي دروس القرآن هي الهدف الأساسي للمدرسة؛ بأنه "لا يدرس فيه إلا القرآن" ولكن أقوال العلماء وآراءهم أيدت ما قال العلامة الهلالي. الفراهي نفسه يكتب عن ذلك: "ولما كان هذه المشاغل تمنعني عن التجرد بمطالعة القرآن المجيد لا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن، فتركت الخدمة ورجعت إلى وطني"².

فقد فصّل الهلالي بيانه الإجمالي، فننقل فيما يلي مقتبسًا طويلًا بيّن فيه الفراهي طموحه وأهداف المدرسة، وآراءه عن القرآن وعلومه، فيقول:

"زرت العلامة الأوحد الشيخ حميد الدين الفراهي الأعظم كري رحمه الله رحمة الأبرار في سنة 1342 بقرية فريها، وذكر لي ترجمته حتى انتهى إلى تأسيسه لمدرسة، فقال لي إني منذ زمان قد وقفت ما بقي من حياتي على خدمة القرآن، فأسست هذه المدرسة لتعليم القرآن وما يتعلق به من علوم اللغة العربية فقط، ولم أر خدمة للإسلام أحسن من هذه، فافتنعت كثيرًا من المدرسين لعلوم اللغة العربية بأنهم في حاجة إلى تعلم اللغة العربية تعلّمًا صحيحًا يمكنهم من الوصول إلى كنوز القرآن الكريم، وبيّنت لهم بطلان ما كانوا يتوهمونه من أنهم قد انتهوا من تحصيل علوم اللغة العربية، ثم قال لي رحمه الله: إن شئت أن تشاركنا في هذه الخدمة الشريفة

¹ المصدر نفسه، ص 337.

² المصدر نفسه، ص 337.

فعلت" فاعتذرت له بأني أريد أن أتم سياحتي في بلاد الهند، وبعد إتمامها أنظر، فلم يقدر لي لقاءه بعد ذلك إلا في سنة 1345 هـ بالمسجد الحرام، ثم كان ذلك آخر العهد رحمه الله رحمة واسعة، والمقصود الاستشهاد بقوله: أنه أقنع أولئك المدرسين أنهم بعد في حاجة إلى التعليم، وقد نشرت في هذه المجلة من قبل قطعة من محاضرة ألقيت عام أول في وجوب تعلم كل لغة بنفسها، وأقيمت فيها البراهين القاطعة على ذلك، وبينت مفاصد تعليم لغة بلغة أخرى، فراجعها من يريده".¹

النظرية التعليمية لمدرسة الإصلاح: مدرسة الإصلاح التي تنسب إلى الفراهي، اجتهد الفراهي في تشييدها وتطويرها، وجعل منهجها. ننقل فيما يلي مقتبساً يعرف بالمدرسة: "والحق أن تسلك المدرسة مسلك القرآن، ونجعله نصب عيننا، ويكون القرآن منبعاً أساسياً نستقي منه، أولاً نعلم ما يعلمنا، ونعمل ما يطلب منا، نحضر عتبته أولاً في جميع المشاكل والقضايا، ونهتدي بهديه، ونرجع إذا خفي علينا شيء إلى أقواله وأعماله التي كانت حياته أعلى نموذج للقرآن الكريم، وتفسر حياته وتوضح كنموذج للقرآن الكريم، وإن خفي علينا شيء بعد ذلك نرجع إلى تراجم الحاملين للقرآن المقدس من الصحابة والتابعين، وأئمة الأنام، ونتحرى هناك شفاء لمرضنا، لأن أقوالهم وأعمالهم مستقاة من القرآن الكريم.

لا يجمع بنا أن نترك الأصل، ونقنع بالفروع، فالقرآن هو أصل الأصول في التعليم الإسلامي، ولذا علينا أن نقدم كل شيء يعترضنا على القرآن الكريم، وإن يصدقه فهو حق، وإن يردده فهو باطل، وهو ضياء يضيء قلوبنا وأنفسنا، فأضاء أسلافنا بهذه النور الصافي القناديل الكثيرة، فلما تركنا أصل القرآن وقعنا في هوة الضلال والمذلة، حتى أصبحت العلوم من الحديث والفقه، والعلوم الأخرى تباين الأخرى، وتختلف عن غيرها، فأقمنا فرقاً وجماعات بأسماء مختلفة، على الرغم من أن كلها تضطرم بضوء مشكاة واحد.

¹ المصدر نفسه، ص 337.

إلى هذا تستدعي مدرسة الإصلاح، وأنها توفر العلوم الدينية والعلوم الأخرى أيضاً بقدر الحاجة، بحيث لا تؤثر تلك العلوم في العلوم الأصلية، وتحل محلها، وتعتبر القرآن شمساً منيرة في مقرراتها الدراسية، تستضيء بها جميع العلوم من الحديث وأصوله والفقه وأصوله، والمنطق، وعلم الكلام، والتاريخ والسير، والفلسفة، وأسرار الشريعة، والأدب والبلاغة، والنحو والصرف، لأنها وسيلة لفهم الكتاب الإلهي، ولما أن بعض العلوم تعمل لتوضيح وتفسير الكتاب والسنة، وإنما تدرس بحيث نرتقى بها إلى ما يهمننا في فهم القرآن والحديث المنبعين الأساسيين للشريعة الغراء¹.

المقررات الدراسية لمدرسة الإصلاح: كيف كانت المقررات الدراسية في مدرسة الإصلاح، وكيف وقعت التغيرات فيها من البداية، لا نعلم قصتها، ولكن الفراهي كان له علاقة وطيدة بالمقررات الدراسية لمدرسة الإصلاح منذ تأسيسها، إلا أنني أرى أنّ المقررات الدراسية لم تتغير منذ البداية، ولو سحبت بعض الكتب وزيدت البعض، ولكن التعليم البدائي كان لأربع سنوات، وتستغرق العملية سبعاً أو ثماني سنوات، واللغة الإنجليزية كانت تدرس منذ البداية إلى حد الآن، وهي تدرس في ساعة، ثم ضُمَّت اللغة الهندية بعد تحرير الهند، وإنما تدرس الهندية في السنوات الثلاث الأخيرة للكتاب.

لنر لمحة عن قائمة المقررات الدراسية:

المقررات الدراسية لفصول اللغة العربية

العام الأول: أسباق النحو، الجزء الأول والثاني مع تحفة الأعراب، دروس الأدب، مبادئ القراءة الرشيدة، من الأردية إلى العربية، ومن العربية إلى الأردية.
العام الثاني: قواعد اللغة العربية بمراجعة النحو الواضح، أمثال آصف الحكيم، كليلة ودمنة، الإنشاء العربي.

¹ المصدر نفسه، ص 337.

العام الثالث: المفصل بمراجعة كفاية المنتهي والكتاب وغيرهما، دول العرب قبل الإسلام، وخصال العرب في جاهليتهم مع الإنشاء، القرآن الكريم من سورة حديد إلى السورة الأخيرة.

العام الرابع: البلاغة الواضحة، بمراجعة جمهرة البلاغة، دلائل الإعجاز وغيرها، جمهرة خطب العرب مع الإنشاء، المختصر للقدوري، القرآن الكريم من سورة الزمر إلى سورة الواقعة.

العام الخامس: مرقاة المصابيح، هداية الحكمة، العقائد النسفية بمراجعة نجات ابن سينا، حجج القرآن للفراحي، منتخبات ديوان الحماسة مع الإنشاء، الموطأ مع علم الفرائض، القرآن الكريم من سورة ق إلى سورة ص .

العام السادس: بداية المجتهد المجلد الأول، الترمذي المجلد الأول، أصول فقه أربعة، وأصول علم الحديث، مقدمة ابن خلدون مع القرآن الكريم من سورة الرعد إلى سورة النور.

العام السابع: بداية المجتهد المجلد الثاني، الترمذي المجلد الثاني، تاريخ الفقه الإسلامي، وتاريخ فنون الحديث، جمهرة أشعار العرب مع الإنشاء، القرآن الكريم من سورة الأنعام إلى سورة يوسف.

العام الثامن: حجة الله البالغة، صحيح البخاري، صحيح مسلم، ديوان امرئ القيس، تاريخ الأدب العربي مع الإنشاء، القرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة المائدة¹.

استعراض للمقررات الدراسية للمدرسة: نودّ هنا أن نحصي بعض خصائص المقررات الدراسية العربية، يكتب بدر الدين الإصلاحي مشيرًا إلى مميزاتها:

¹ المصدر نفسه، ص 337.

"هذه المقررات عصارة التجارب التعليمية لمدة كبيرة، فيقدر مدى أهمية هذه المقررات كل من أهل العلم بعد النظر والتفكير فيها، وهنا لا أستطيع أن ألقى الأضواء على جميع خصائصها.

1. تدرس رسالتان في النحو في اللغة الأردية، وهما تشتملان على الجمل التدريبية، والمسائل المهمة في النحو، فيدرس الأستاذ الطالب هذه الرسائل بكل إمعان، فلا تنتهي هذه الرسائل إذ يقدر الطالب على حل العبارة البسيطة بنفسه، ويفهمها فهمًا تامًا، ويستطيع من خلال تلك بتكوين الجمل، وينشأ فيه المواهب للنطق للجمل البسيطة في العربية، ثم يوضع أمامه كتاب عربي، فيعالجه بنفسه، ويحل مشاكله تحت إشراف الأستاذ، فيتم له فهم النحو والصرف تدريجيًا في الفترة ما بين السنوات الثلاث، فتنشأ فيه المواهب الضرورية لفهم اللغة.
2. ثم تبدأ الكتب الدراسية في الفن في العام الرابع عندما يحصل للطلاب القدرة على النطق والفهم على العربية، فيكفي له الرمز إلى المصطلحات الفنية من المنطق والفلسفة، والفقه والحديث، فيجد بنفسه حلاوة تلك الفن.
3. فلا تمتزج الكتب المعقدة في المقررات الدراسية لمرة واحدة، بل تدرس الفنون المختلفة في السنين المختلفة، لكيلا يشوش الطالب، ولكن تركّز العناية الكبيرة على اللغة والأدب من البداية، لأن القرآن محور أساسي لنا، لا نستغني عنه في الحياة في أي مرحلة من مراحلها.
4. تجمع المقررات الدراسية الفن وأصوله، لكي يقدر الطالب على الارتباط والاستنباط، مثلًا تجمع المقررات الدراسية الحديث وأصوله، والفقه وأصوله.
5. وإنما تختار في المدارس الأخرى من الكتب المعقدة للدرس، فلا يستفاد بتلك الكتب بل تضيّع الأوقات في حل معقداتها، فاختيرت في المقررات الكتب المهمة، التي تنشئ في الطالب ذوق الفن.

6. ولما يلقي الأستاذ الدرس، فيوضح المعنى عند الطالب إيضاحًا، وينبه الطالب إلى المراجع والمصادر الأخرى للكتاب، ويرشده إلى دراسة تلك الكتب المتعلقة، لكي يستقر الفن في ذهن الطالب، ولذا يطالع الأستاذ الأول الكتب الأخرى المتعلقة بفن الكتاب في المقررات الدراسية، فيستفيد الطالب بكتب أخرى مع هذا الكتاب.

7. وإنما تدرس الكتب في المدارس الأخرى مع العصبية المذهبية، كما تدرس سرًا من غير تعمق، وأما مدرسة الإصلاح فهي تعتبر هذا المنهج منافيًا للحديث الشريف، ولذا تدرس جميع الكتب من غير عصبية فرقية بالبحث والتحقيق.

8. تدرس في الفقه كتب أئمة الفقهاء الأربعة، لكي يطالع الطالب على جميع المذاهب للفقهاء الأربعة مع الدلائل والأسباب، وهذا لكي يتحلّى الطالب بالتراحم، والتصالح، والألفة، والاتئام بين فقهاء المذاهب الأربعة، ويحترمهم، ولكي يوجد فيهم ذوق البحث والتحقيق.

9. أسلوب تعليم القرآن في البداية سهلة ميسرة، تبدأ من مبادئ النحو والصرف، والترجمة، والشرح، والربط بين الآيات، ثم يتدرج الطالب للتضلع من الربط بين الآيات، والنظام والحجج، والأساليب والمعاني، والأسرار والحقائق، والقوانين والحكم، والتطبيق بين كتاب الله وسنة رسوله".¹

أسلوبها في إلقاء الدروس: يحث الطالب على القراءة قبل حضور الدرس، ولا يلقي الأستاذ الدرس قبل الدراسة، وإنما تنشأ بذلك القدرة على فهم المعاني والمطالب، والمراد من الكتب بكل سهولة ويسر، وهذا هو أسلوب إلقاء الدرس في المدرسة.

إنما يولّد في الطالب الثقة بالنفس بالبحث والنقاش فيما بين الطلاب، فيسأل طالب ويجيب آخر، ولا يخجل الطالب من طرح السؤال على الأستاذ في قضية ما.

¹ المقرر الدراسي لمدرسة الإصلاح، ص 2، 5.

وإنما يركز الأستاذ العناية الخاصة بكل طالب، فيرغب الطالب في المزيد من الاجتهاد، لكي لا يختلف عن الطلاب الآخرين، إنما يهتم الأستاذ بكل طالب حسب مؤهلاته، ولا يفرق بين طالب ذكي وغبي بل يعامل معهما معاملة عدل وإنصاف ويحاول أن يصبح الغبي ذكيًا.

تكون العلاقة بين الأستاذ والطالب على التراحم، والشفقة، ورعاية القيم الخلقية، ويعتبر الأستاذ الطالب إنسانًا كمثله فلا يطلب منه أي خدمة شخصية ويفضّل الأستاذ أن يعمل عمله بنفسه.

وتدرس الكتب في اللغة الأردية، ولا تدرس في العربية ولو أنّ الطالب يقدر على التكلم والنطق والكتابة في العربية.

نظام التربية: وكل مدرسة تكون على معايير حسنة وعالية في التدريس، ولكن تخلو تمامًا من التربية، فينشأ في تلك المدرسة الطلاب الجاهلون مع الثقافة، فترى المدرسة التي تراعي الأدب والأخلاق في جميع أحوالها وتصرفاتها في التدريس، وفي المأكل والمشرب واللهو واللعب، ولا تقبل السلوك المأساوي الشنيع في أي حال من الأحوال، هي المدرسة حقًا.

وكان الفراهي يراقب الأساتذة والطلاب بنفسه، ويحاول كل المحاولة أن تنشأ في الطلاب الأخلاق الحسنة، فيشتغل الطلاب بالأمور في أوقاتها، ويهتموا بالصلاة، ويؤدوها بأوقاتها، ويقرؤوا في وقت القراءة، ويلعبوا في وقت اللعب، والأوقات كلها منظمة مرتبة لا يدخل فيها أي خلل، ولا يحدث فيها أي نوع من التخلف مهما يكون الأمر، ويحترم الطالب الطالب، والأستاذ الأستاذ، والطلاب الأساتذة، والأساتذة الطلاب، وهكذا استمرت المدرسة وجرت نشاطاتها.

دخل المدرسة: وإنما تعتمد المدرسة على تبرعات الأغنياء المخلصين الذين يهتمون بنشر العلوم الإسلامية، ولكنها لا تمتد يديها إلى كل أحد، بل يتوكل على الله، ويستغني عن الناس فيقول سيد سليمان الندوي في هذا الصدد:

"هذه المدرسة تعتمد وتتوكل كاملاً على الله، وإن الفراهي كان يثق بالله عز وجل كاملاً، وإنه لا يفكر في الغد، بل يقول بكل صراحة: "يعطينا الله عز وجل" وشاهدنا بأم أعيننا أنه يأتي إليه الرزق من عند الله، وإنه لم يسأل أحداً للمدرسة، ولم يمدّ يديه للقوم ولا للمدرسة أمام الأغنياء، فذات مرة سافر عن طريق كولكاتا إلى رنغون للحصول على تكاليف المدرسة، ولكنه لم يبن لأحد غرضه، إلا أنه حصل على الأموال الهائلة من الأغنياء بفضل الله".¹

ولذا يكتب العلامة سيد سليمان الندوي:

"لم يكن الفراهي يحب مدّ يدي السؤال أمام الأغنياء، وكان يبغضه كثيراً، فجاهد نفسه لكي تستغني المدرسة عن السؤال ولحماية حقوق العلماء، اشترى العقار والأراضي للمدرسة، ليحصل بها على المنافع، ويصرفها على المدرسة، فأنشأ مصادر التجارة والصناعة لكي تستقل المدرسة في مصاريفها، فأنشأ طاحوناً في المدرسة، وكذلك أقام مصنعاً لصناعة الأحذية في المدرسة، كان يصنع أحذية جيدة كانت تباع في ميدان المدرسة".²

تغيير اسم المدرسة: كما ذكرت سابقاً أن المدرسة كانت تسمى في البداية بـ"مدرسة إصلاح المسلمين"، ولكن في 20/ فبراير عام 1927م دخلت تغييرات في مبادئها فسمّيت بـ"مدرسة الإصلاح".

"فسميت المدرسة بعد ذلك بـ"مدرسة الإصلاح" بدل "مدرسة إصلاح المسلمين".³

مبنى دار الحميد: وكذا بني مبنى في ذكرى الفراهي في 14/ ديسمبر عام 1030م بعد وفاته سمي بـ"دار الحميد". عقدت لهذه المناسبة حفلة سمي فيها المبنى بهذا الاسم.¹

¹ ياد رفتهان، (ذكريات المتوفين)، ص 149-150

² المصدر نفسه، ص 151

³ كتاب إجراءات مدرسة الإصلاح، المجلد الثاني، ص 65

ثم شيد مبنى آخر سموه بـ"دار الشفيع" وذلك تذكراً لخدمته المخلص المولوي محمد شفيع.

قام الفراهي بالرحلات المختلفة في الجهات العديدة لصالح المدرسة، فسافر إلى بورما عام 1924هـ، ففي هذا السفر أقام بكونكاتا، واستفاد منه أبو الكلام آزاد في بعض المواضع المشككة للقرآن الكريم، وهو كان في ذلك الحين مشغولاً في إنهاء تفسيره للقرآن الكريم كما قام الفراهي بحج بيت الله الحرام في 10/يونيو عام 1927هـ فلقبه بمكة العلامة تقي الدين الهلالي الذي أشار إلى هذا اللقاء في يومياته قائلاً:

"فلم يقدر لي لقاءه بعد ذلك إلا في سنة 1345هـ بالمسجد الجرام".²

كما لقي بها المولانا عبيد الله السندهي فيقول المولانا السندي:

"وقدمت مكة لأداء شعائر الحج إذ لقيت الفراهي، فناقشنا طويلاً".³

¹ المصدر نفسه، ص 66.

² مجلة ضياء الصادرة من لکناؤ، نوفمبر عام 1932م، ص 28.

³ مجلة الفرقان، العدد الخاص على حياة شاه ولي الله الدهلوي، 1369هـ، ص 287.

المصادر والمراجع

8. رسالة الدكتوراه عن مساهمة مدرسة الإسلام في تاريخ السند العلمي والأدبي والسياسي التي قدّمها سيد ممتاز حسين شاه في جامعة السند في 1979م
9. السيد سليمان الندوي، ياد رفتهغان (ذكريات المتوفين)، مكتبة الشرق، آرام باغ، كراتشي، 1955م
10. العلامة شبلي النعماني، مكاتيب شبلي (مجموعة رسائله، جمع وتدوين: السيد سليمان الندوي)، المجلد الثاني، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1937م
11. مجلة الضياء، نوفمبر: 260، 1933م، الصادرة من ندوة العلماء بلقناؤ.
12. مجلة الفرقان، العدد الخاص بحياة شاه ولي الله الدهلوي، 1369هـ
13. مجلة الندوة العدد: شوال: 1323هـ، ديسمبر 1905م: 4، الصادر

"أولى به" و"أولى لك" في القرآن الكريم

-د. أورك زيب الأعظمي¹

كلمة "أولى" استخدمت بصلتين في القرآن الكريم تارة بصلة "الباء" وتارة أخرى بصلة "اللام". وقبل أن نتحدث عن معنى الكلمة مع هاتين الصلتين يجمل بنا أن نتبع استخدام هذه الكلمة في كلام العرب ونعرف معناها بكتا الصلتين. فقال كليب بعدما قتل الناقة:

وظلّوا أنني بالحنث أولى وأني كنتُ أولى بالنجاح²
وقال عنترة بن شداد العبسي:

ماذا أريد بقوم يهدرون دمي ألسن أولاهم بالقول والعمل³
وقالت الخنساء عن خالد بن الوليد:

فخالدٌ أولى بالتعدّر منكم غداة علا نهجًا من الحق واضحاً⁴
وقال عامر بن الطفيل:

ولعمي فضل الرئاسة والسـ نـ وجدي على هوازن عالي
غير أني أولى هوازن في الحر بـ بضرب المتوَجِّ المختال
وبطعن الكمي في حمس النُقـ عـ على متن هيكلٍ جوال⁵

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي

² ديوانه، ص 95

³ شرح ديوانه، ص 137

⁴ ديوانها، ص 27

⁵ ديوانه، ص 102

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم
فكيف بهذا والمشىرون غيب
فغيرك أولى بالنبي وأقرب¹

وقال أيضًا:

أنا علي وأنا ابن عبد المطلب
نحن لعمر الله أولى بالكتب²
وله أيضًا:

يا طلح إن كنت كما تقول
فأثبت لننظر أيننا المقتول
لكم خيول ولنا نصول
وأيننا أولى بما تقول³
وله أيضًا:

ولا تظنن برّك غير خير
وقال إبراهيم بن كنيف:

فلو كان يُغني أن يرى المرء جازعًا
لكان التعزي عند كل مصيبة
لحادثة أو كان يغني التذلل
ونائبة بالحرّ أولى وأجمل⁵
وقال الفرزدق:

أبوك وعي يا معاوي أورثا
ترأى فأولى بالتراث أقارب⁶

¹ ديوانه، ص 11

² ديوانه، ص 11

³ ديوانه، ص 147-148

⁴ ديوانه، ص 78

⁵ شرح ديوان الحماسة، 88/1

⁶ ديوانه، ص 49

وله أيضًا:

وما عن قلّي عاتبتُ بكر بن وائل
ولكنني أولى بهم من حليفهم
ولا عن تجيّ الصارم المتجرّم
لدى مغرمٍ إن ناب أو عند مغنم¹

وله أيضًا:

ورثوا تراث محمد كانوا به
أولى، وكان لهم من الأقسام²

وله أيضًا:

رأك الله أولى الناس طرّاً
بأعواد الخلافة والسلام³

وله أيضًا:

ستعلم أيّ الواديين له الثرى
وقال مسلم بن الوليد:
قديماً، وأولى بالبحور الخضارم⁴

غدث والثرى أولى بها من وليها
إلى منزل ناءٍ لعينك داني⁵

وقال جميل بثينة:

فأنتم ولأي موضع الذل حجرة
وقرّة أولى بالعلاء وبالمجد⁶

وقال شبيب بن البرصاء:

أتنصّرُ مني معشراً لست منهم
وغيرك أولى بالحفيظة والنصر⁷

¹ ديوانه، ص 526

² ديوانه، ص 593

³ ديوانه، ص 601

⁴ ديوانه، ص 614

⁵ شرح ديوان الحماسة، 1/598

⁶ ديوانه، ص 120

⁷ كتاب الوحشيات، ص 214

وتارة يحذف الصلة فقالت الخنساء:

وليس بأولى ولكنـه يكفي العشيـرة ما غالها¹

وقال ذو الرمة:

أولى لمن هاجت له أن يكـمدا أولى ولو كانت خلاء بيـدا²

يبدو من تتبع هذه الاستخدامات أنّ "أولى به" يعني "أحقّ وأجدر" وعلى هذا يشتركان في الصلة فقال أبو الأسود الدؤلي:

أست حقيـقاً بتوديعه وإتباع ذلك صرماً طويلاً³
وله أيضاً:

نُعيم بن مسعود حقيق بما أتى وأنت بما تأتي حقيق بذالك⁴
وقال الفرزدق:

رأوا أنّا أحقُّ بآلِ سعدٍ، وأنّ لنا الحناظـلَ والربابا⁵
وقال أيضاً:

رأوا حاجباً أغلى فداءً، وقومـه أحقُّ بأيام العلى والمكارم⁶
وكذا جاء في ديوانه "أحق الناس بالمستأثرات" (ص 618) و"أحقّ بني نزارٍ بإصلاح
صدعٍ" (ص 620).

¹ ديوانها، ص 101

² ديوانه، ص 59

³ ديوانه، ص 54

⁴ ديوانه، ص 106

⁵ ديوانه، ص 93

⁶ ديوانه، ص 617، 618، 620

وقال تأبط شراً:

لكم خصلة، إما فداء ومنة وإما دم، والقتل بالمرء أجدر¹

وأما "أولى له" فقال زهير بن أبي سلمى:

أولى لهم ثم أولى أن تصيهم مني بواقر، لا تبقي ولا تنذر²

وقالت الخنساء:

هممتُ بنفسي كلَّ الهموم فأولى لنفسي أولى لها

سأحمل نفسي على آلة فأما عليها وإما لها³

وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

ويومٌ ثقيف إذ أتينا ديارهم كتائب نمشي حولها بالمناصل

ففرّوا وشدّ الله ركنَ نبيه بكل فتى حامي الحقيقة باسل

ففرّوا إلى حصن القصور وغلقوا وكائن ترى من مشفق غير وائل

وأعطوا بأيديهم صغاراً وتابعوا فأولى لكم أولى حداة الزوامل⁴

وقال الكميت بن زيد الأسدي في وصف الطير لأولاده:

أولى وأولى له حُسنِي وسيئته تبالي الهيق والمكلؤ ذي الزغب

لما تفلّق عنه قيضُ بيضته آواه في ضيق مضبوء به نصّب

وإن تعرّض مُعتسُ الذئاب له أوفى بأولق ذي الزينة الحرب

حتى إذا علم التدراج واتخذت رجلاه كالودع آثاراً على الكثب

¹ ديوانه، ص 95

² ديوانه، ص 53

³ ديوانها، ص 100

⁴ ديوانه، ص 253-254

وخاله ضدَّ من قد كان يكلؤه بالأمس إنَّ الهوى دأعٍ إلى الشجب
ولَّى مباعدهً منه ومُزريَّةً من غير مزيٍّ به والحينُ ذو سبب¹
وقال الفرزدق:

غفرتُ دُنُوًّا وعاقبتُها فأولى لكم يا بني الأعرج²
وقال الأخطل:

ولقد مننتَ على ربيعة كلها وكفيتَ كلَّ مواكِلٍ خَدَّالٍ
كزَمَ اليدين عن العطية، ممسِكٍ ليستَ تبضُّ صَفائهُ ببلالٍ
مثل ابنِ بَزْعَةٍ أو كآخر مثله أولى لك ابنُ مُسَيِّمَةَ الأجمال³
فيبدو من دراسة هذه الأبيات أنَّ "أولى له" من "ويل" وجاء مقلَّبًا كما ذهب إليه
صاحب "أقرب الموارد" (مادة: ولي) وعلى هذا تتحد صلتهما كما قال عامر بن
الطفيل:

ويلٌ لخيْلٍ سيلٍ خيلٍ مُغيرةٍ رأتَ رغبةً أو رهبةً وهي تُلجَمُ⁴
وقال روبه بن العجاج:

ويلٌ له إنَّ لم يُصِبْه سِلْتِمُهُ⁵

وقال جرير:

ورأت بلحيته خضابًا راعها، والويل للفتيات من خضبِ اللحي⁶

¹ ديوانه، ص 86-87

² ديوانه، ص 111

³ ديوانه، ص 258

⁴ ديوانه، ص 131

⁵ شرح ديوانه، 2/256

⁶ ديوانه، ص 9

وقال الأقرع بن مُعاذ القُشيري:

فويلٌ لهذا ثم ويلٌ لأمه علينا إذا ما حرَّكته حوارُبه¹
وكذلك جاءت هذه الكلمة بدون اللام كما جاءت "أولى به" بدون الباء فقال
الشاعر الجاهلي المفلح عوف بن عطية بن الخرع الرباني:

وجلَّلَنَ دَمْعًا² قنَاعَ العُرو س أدنَتْ على حاجبِها الخمارا
فكادت فزارَةُ تصلى بنا فأولى فزارَةُ أولى فزارا
ولو أدركتهم أَمَرْتُ لهم من الشرِّ يومًا مُمَرًّا مُغارا
أُبرِنَ نُميرًا وحيَّ الحبِيش وحيَّ كِلابٍ أبارتُ بوارا³

وقال الشاعر الجاهلي مَقَّاسُ العائذي:

أولى فأولى يا امرأ القيس بعدما خصفنَ بآثار المطيِّ الحوافرا⁴
وقالت الخنساء:

أولى فأولى أن يساويه لولا جلالُ السن والكبر⁵
وقال الأخطل:

أولى فأولى بني ماويةَ انتشرت منكم قريبًا، وأولى منك يا رُقَر⁶
وقال جرير:

فأولى وأولى أن أصيب مُقَلَّدًا بغاشيةِ العَدَوِي سَرِيعِ نُشُورُها⁷

¹ كتاب الوحشيات، ص 105

² دمغ: جبل، جَلَلَنَ: غطى أي أنهم غطوا هذا الجبل بجيشهم.

³ ديوان المفضليات، ص 413

⁴ المصدر نفسه، ص 304 والأصمعيات، ص 57

⁵ ديوانها، ص 65

⁶ ديوانه، ص 189

⁷ ديوانه، ص 228

استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم: ومن حسن الحظ أن كلا الاستخدامين يوجد في القرآن الكريم فيقول الله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرُضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (سورة النساء)

وقال أيضًا: "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُرُوا وَجَهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (سورة الأنفال)

وجاء في سورة مريم: "فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا" (١٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَهِمَ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (١٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٢٠).

وجاء في سورة الأحزاب: "الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا" (٦٠).

ففي هذه الآيات استخدمت "أولى" مع الصلة "الباء" وفي كافة هذه المواضع تعني "أجدد وأحق".

وجاء في سورة محمد: "وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ" (١١).

وجاء في سورة القيامة: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (١) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٣) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٤) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٥) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٦) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٧) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٨) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٩) وَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (١٠) إِلَىٰ

رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَقَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾". (سورة القيامة)

ففي هذين الموضعين استخدمت "أولى" بصلة "اللام" ويبدو من سياق الكلام أنها تدل على الزجر والويل.

وأما تكرار "أولى" فهو كمثل قول امرئ القيس حيث يقول:

ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ فقالت: لك الويلات إنك مرجلي¹
أي لك الويل لا تفعل كذا فإن لا تنته عن فعلك فسأرجل وقالت هذا مرارًا ولذا ذكر امرء القيس "الويلات".

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي:

فأولى ثم أولى ثم أولى فهل للدار يُجَلَبُ من مَرَدٍّ²
وأما الخطاب في "أولى لك" فهذا التفات وهذا الأسلوب شائع في كلام العرب حيث يقوم شعراؤهم بتوجيه الخطاب من الغائب إلى الحاضر ومن الحاضر إلى الغائب وهنا نكتفي بذكر توجيه الخطاب من الغائب إلى الحاضر وهذا الالتفات يفيد الشدة في الكلام فيقول الحارث بن حلزة اليشكري:

لما جفاني أخلائي وأسلمني دهري ولحم عظامي اليوم يُعْتَرَقُ
أقبلتُ نحو أبي قابوسَ أمدحه إنَّ الثناء له والحمد يتفق
سهل المباءة مخضراً محلَّته ما يصبح الدهر إلا حوله حلَّق

¹ ديوانه، ص 112

² شعره، ص 72

للمُنْزِرِينَ وللمعصُوب لَمَثَّه
ف"أنت" خطاب للممدوح.

ويقول الأعشى الكبير في مدح حبيبه:

حَرَّةٌ طِفْلَةٌ الأَنَامِلِ تَرْتَبُ
وَكَأَنَّ السُّمُوطَ عَكَّفَهَا السِّلَـ
وَكَأَنَّ الخَمَرَ العَتِيقَ مِنَ الإسـ
بَاكَرَتِهَا الأغْرَابُ فِي سَنَةِ النُّو
ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا وَيَقُولُ مَخَاطِبًا:

فَاذْهَبِي مَا إِلَيْكَ أَدْرِكُنِي الجِلـ
ويقول زهير بن أبي سلمى في مدح سنان:

أَفِيقَا بَعْضَ لَوْمَكَمَا وَقُولَا،
فَإِنِّي لَا يَغُولُ النَّأْيُ وَدِّي
وَإِنِّي فِي الحُرُوبِ إِذَا تَلَخَّطْتُ
وَجَارِي لَيْسَ يَخْشَى أَنْ أُرْتَبِي
وَهَمٌّ قَدْ نَفِيتُ بِأَرْحَجِي
شَدِيدَ الأَسْرِ، أَغْلَبَ، دُوسَرِي
فَزَادَ أُنْعَمًا، وَخَلَكَ ذَمُّ،
فَتَى لَا يَرْزَأُ الخُلَّانَ شَيْئًا
ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ:

¹ ديوانه، ص 72

² ديوانه، 102/1-104

³ ديوانه، 104/1

⁴ ديوانه، ص 133-134

أبى لك أن تُسامَ الخسفَ يومًا
عطاءً لا تكدره بمنّ
وقودك للعدو الخيل قُبًا
ولا أودّ إذاما القومُ جدّوا
فدى لك والدي وفدتك نفسي
ويقول أبو العيال يرثي ابن عم له:

فنى ما غادر الأجنا
ولا زُميلةً رعديةً
ولا بكهاميةً بـرم
ولا حصـرٌ بخطبته
دُلا نكسٌ ولا جنـب
سدة رعى إذا ركـبوا
إذاما اشتدت الحـقب
إذاما عزت الخطب²
ويقول بعد أبيات:

أبو الأيتام والأضـيا
له في كل ما رفع الـ
أقام لدى مدينة آ
ثم يخاطبه فيقول:

ألا لله ذك مـن
وقالوا من فنى للحر
فلم يوجد لشرطتهم
فكنت فتاهم فيها
فنى حي إذا رهـبوا، ديوان الهذليين
ب يرقبنا ويرتقب
فنى فمهم وقد ندبوا
إذا تُدعى لها تـب

¹ ديوانه، ص 134

² ديوان الهذليين، 241/2-242

³ المصدر نفسه، 244/2

مأقط محضةً وجفا ظُ ما تأبى به الرّيب
فإنك مُنجحٌ بأخي لك محمودٌ بك الطلب¹

ويقول حسان بن ثابت الأنصاري في رثاء حمزة عم رسول الله ﷺ:

تسائلُ عن قرنٍ هجانٍ سميدي لدى البأس مغوار الصباح جسور
أخي ثقة يهتزّ للعرف والندی بعيد المدى في النائبات صبور
دعاه إله الخلق ذو العرش دعوة إلى جنة يرضى بها وسرور
فذلك ما كنّا نرجي ونرتجي لحمزة يوم الحشر خير مصير²
ثم يقول مخاطباً إياه:

فوالله ما أنساك ما هبت الصبا ولأبكين في محضري ومسيري³
ويقول موسى بن جابر:

تمت لي الموت المعجل خالد ولا خير فيمن ليس يُعرفُ حاسده
فخلّ مقاماً لم تكن لتسده عزيزاً على عبس وذبيان ذائده⁴

ففي البيت الثاني خطاب لخالد المذكور في البيت الأول.

ويقول عامر بن شقيق:

ألا حلّت هنيذة بطنَ قو بأقواع المصامة فالعيونا
فإنك لو رأيتَ ولن تريه اكفّ القوم تخزق بالقنينا⁵
ففي البيت الثاني التفات من الغائب إلى الحاضر. والأمثلة لهذا كثيرة.

¹ المصدر نفسه، 244/2-245

² ديوانه، ص 153-154

³ ديوانه، ص 154

⁴ شرح ديوان الحماسة، 1/157

⁵ المصدر نفسه، 1/407

المصادر والمراجع

13. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكّري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
14. ديوان الأخطل، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994م
15. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
16. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
17. ديوان الحارث بن حلزة بشرح الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م
18. ديوان الحطيئة، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م
19. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طقّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
20. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
21. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
22. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
23. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، 1996م
24. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م

25. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم)، ط1، 1988م
26. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكراً، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م
27. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
28. ديوان جميل بثينة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1982م
29. ديوان حاتم الطائي، شرح: أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
30. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، شرح: ضابط بالحربية، مطبعة السعادة، مصر، د.ت
31. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
32. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التبع العلمية، بيروت، ط1، 1988م
33. ديوان عامر بن الطفيل، دار صادر، بيروت، 1979م
34. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
35. شرح ديوان روبة بن العجاج، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ط1، 2011م
36. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
37. شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974م
38. شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق: مطاع الطرايشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط2، 1985م
39. كتاب الوحشيات، أبو تمام الطائي، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزیادة: محمود محمد شاکر، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1968م

أهمية النظم في فهم القرآن

- الأستاذ نسيم ظهير الإصلاحي الغازي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد معتصم الأعظمي²

إن نظم الكلام يكون جزءاً من الكلام لا ينفك عنه فلا يمكن تصور كلام بدونه،³ فإن القرآن الكريم الذي يعدّ إعجاز الفصاحة والبلاغة وإنه معجز في الحقيقة والذي قد غيّر دنيا الأذهان والقلوب وأسّس الفكر والعقل وأعطى الإنسان شيئاً جديداً، فلن يصحّ التصور عنه أبداً أنه خالٍ من النظم، فلذلك نقل العلامة بدر الدين الزركشي قول الشيخ كمال الدين الزمكاني:

"فما ظنك بالآيات وتعلّق بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أنّ القرآن كلّهُ كالكلمة الواحدة."⁴

وكذلك يكتب ناقلاً قول بعض المشايخ:

"قال بعض مشايخنا المحققين:..... ومن المعجز البين أسلوبه، ونظمه الباهر؛ فإنه "كِتَبٌ أَحْكَمْتُ عَائِلَتُهُ، ثُمَّ فُضِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ" ⁵. "قال: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كلّ شيء عن كونها مكتملة لما قبلها، أو مستقلة. ثم المستقلة: ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم".⁶

¹ أستاذ التفسير والحديث بمدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند

² مدرس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بردوان، بنغال الغربية

³ الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: تدبر قرآن، تاج كمبني، دهلي، الطبعة الأولى، 1989م، 17/1

⁴ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، مكتبة دار التراث القاهرة، د.ت، 39/1

⁵ سورة هود: 1

⁶ المصدر نفسه، ص 38

فلذلك يجبر الإمام فخر الدين الرازي بقوله في تفسيره:

"أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".¹

فيبدوا بذلك أن نظم القرآن هو مفتاح معرفة القرآن وعلومه، وإن سرّ إعجاز القرآن مخفي في هذا النظم، فيجعل النظم القرآن بحرًا لا ساحل له ولا يمكن أن يقاس اتساعه وأعماقه ولا يمكن أن يتصور نهاية اللؤلؤ والمرجان الموجودة في أعماقه ولهذا السبب قال أبو بكر الصديق:

"لو ضاع مني عقال بغير لوجدته في كتاب الله".²

فما المراد بهذا القول لأبي بكر الصديق؟ يمكن أن يوضحه قول الإمام الشاطبي التالي:

"أنه لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلًا".³

وقد قال عبد الله بن مسعود أيضًا مثل هذا:

"إذا أردتم العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين".⁴

ويؤيد القرآن هذين القولين بهذه الآية:

"وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ".⁵

وكتب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية في تفسيرها:

"قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 36

² الإمام حسن البناء، نظرات في القرآن، مكتبة الاعتصام، ص 97

³ الإمام الشاطبي: كتاب الموافقات، 271/1، الطبعة الثانية

⁴ الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 8/1

⁵ سورة النحل: 89

⁶ إسماعيل بن كثير: تفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، د.ت.، 582/2

وقال السيد مجاهد: "كل حرام وحلال"¹

ويعلق المفسر المعروف العلامة ابن كثير على هذين القولين فيقول:

"قول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي في كل حرام وحلال وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم"².

ونقصد بهذا التفصيل التعبير عن الحقيقة "أن علوم القرآن ومعارفه التي أشار إليها أسلافنا نقصر بمعرفتها لو لا نهتمّ بسياقه ونظامه أثناء التدبر فيها بينما نتعرف على الكنوز الثمينة من المعاني والحكم بالتدبر في نظم الكلام التي لا يمكن يتصورها إنسان، فهذا هو قول معروف لعلّي ﷺ:

"إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفتى عجائبه ولا تنقضي غرائبه"³.

إذا اختفى حبل من أبي بكر الصديق ﷺ قال: إني سأجده في القرآن، فمن الواضح أن ظاهر كتاب الله لا يكشف عن حبل إبل ولكن ما يمكن الدلالة عليه فهو القرآن، ولا يكمن أن يسترشد به القرآن إلا بالقرآن نفسه فقط، وإلا سيكون هناك خطر الوقوع في الضلالة، فلذلك، يمكن القول بدون التأمل أنه إذا كان التدبر والتفكر في القرآن في ضوء نظم الكلام فظهر عالم شاسع من العلوم والمعاني لا نهاية له، نحو:

(ألف) يتم توضيح موضوع الكلام وتحديدده تمامًا برعاية نظم الكلام.

(ب) يمكن التعرف على التأويل الراجح والصحيح للآيات المحتملة الاتجاهات العديدة التي يختلف مفسرونا الكرام في تأويلها وتفسيرها.

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه

³ نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبد، دار المعرفة، بيروت، 36/4

- (ج) يتم التوجيه إلى شأن النزول الصحيح بالنظم.
- (د) يكشف نظم الكلام عن الأحكامات والمسائل والمعاني والحقائق الجديدة.
- (هـ) يدل النظم على اشتقاق الأحاديث الصحيحة واستنباطها من القرآن الكريم.
- (و) وتتضح بعض معاني المفردات والأساليب ومدلولها حكمة تغير الألفاظ والأساليب ومصلحتها تدبراً في النظم.
- (ز) يكشف سر الآيات المتكررة والتغير الجزوي لبعض الألفاظ وتقديمها وتأخيرها.
- (ح) تبدو فصاحة القرآن الكريم وبلاغته بسبب نظم القرآن.

وبصرف النظر عن هذا، هناك العديد من النقاط العلمية والدينية ولطائفها التي تم العثور عليها من سياق نظم الكلام والتي لم يتم ذكرها هنا. فلذا سيتم المناقشة عن بعض النقاط المذكورة أعلاه فقط وسيتم النظر في بعض الأمثلة عليها.

شرح موضوع الكلام وتعيينه: ويعتبر معنى كلام نبيل وموضوعه يربط ويوافق مع سياقه ونظامه العام. فلذلك، ينبغي أن يصدق معنى الآيات القرآنية وموضوعها وأن يقبلها والتي يدل عليها نظم الكلام. نتيجة عدم رعاية نظم الكلام هي أن يوجد العديد من الأقوال المتناقضة في تحديد معنى الآيات القرآنية العديدة. وقد قام المفسرون الكرام بجمعها تماماً في تفاسيرهم وقد حاولوا أيضاً تحديد الموضوع والمعنى الراجح والصحيح ولكنهم عامة قد صرفوا النظر عن نظم الكلام في جهودهم المستغنية ولذلك، وفقاً لوجهتنا، إنهم قد قصروا بأخذ النتائج الصحيحة في أمكنة كثيرة فهناك عديد من أمثلتها فلاحظ هنا مثلاً منها:

"إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" 1.

¹ سورة آل عمران: 55

فيوجد خلاف شديد في تحديد مفهوم كلمات هذه الآية الكريمة: "جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ".

1. ف قيل إن المراد من "الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ" هم النصارى فهم فوق اليهود وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم تبق لهم مملكة وملك النصارى باق فعلى هذا القول يكون "الاتباع" بمعنى المحبة والادعاء ولا اتباع الدين لأن النصارى وإن أظهروا متابعة عيسى عليه السلام فهم أشد مخالفة له وذلك أن عيسى عليه السلام لم يرض بما هم عليه من الشرك".¹
2. وقيل: أي في الدين والشرعية وهم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع.²
3. وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتبعين فيدخل في ذلك أمة محمد لأنها متبعة لعيسى.³
4. وقد أراد العلامة ابن كثير "الاتباع" في معنى الإيمان وكذلك أراد من "الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ" بالمسلمين وأصرَّ به "فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقًا سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤهم إلى الروم..... ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة".⁴
5. ويناسب هذا البشارة التي بشر بها المتبعون لعيسى عليه السلام في الآية المذكورة فالمراد بها "فوقية روحانية دينية..... وأبعد فوقية دنيوية".⁵

¹ العلامة خازن: لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، مطبعة التقدم العلمية، مصر

1331هـ، 300/1 وابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز، دار الفكر بيروت، 1992م، 178/1

² أبو حيان الأندلسي: البر المحيط، دار الفكر، بيروت، 1992م، 178/3 وتفسير الخازن المصدر نفسه،

³ المحرر الوجيز، 445/1

⁴ تفسير ابن كثير، 367/1

⁵ الشيخ رشيد رضا المصري: تفسير المنار، دار المعرفة، 318/3

و توجد دونها أيضًا أقوال ضعيفة للغاية ولا أساس لها فلذلك لا يتم إلا صرف النظر عنها، بينما لا يوجد أساس علمي قوي للأقوال المذكورة أعلاه ولم يوجد الضعف فقط في نظم الكلام والآية بل ترد عليه الإشكالات والاعتراضات أيضًا. قبل أن نناقش معنى الآية الواردة أعلاه في ضوء نظم الكلام يناسبنا أن نوضح ضعف الأقوال المذكورة.

أنظر إلى القول الأول في معنى "الاتباع" المحبة والادعاء الذي يخالف استخدامه في القرآن ولغة العرب والمعنى غريب إلى حد غير معروف. في معنى هذا اللفظ في كلام العرب "اتباع الآثار والنقوش، مرافقة شخص، وملازمة الشيء والمشى وراء مقتداه مثل الظل. وقبل آية فقط للآية المذكورة استخدم القرآن هذا اللفظ في نفس المعنى.

"رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" ¹

وأما القول إن ملك اليهود قد ذهب وملك النصارى باق فما هو الضمان أنه سيبقى كذلك في المستقبل أيضًا ولا يزال حتى القيامة. ألم يطردهم المسلمون في أوجههم من ملكهم أو ألم يمتلك اليهود اليوم ملكا قويًا أو ألم يتفوقوا على النصارى بسبب غلبتهم ونصرهم؟

وكذلك القول إن المراد من "الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ" المسلمون أو يعني المسلمين بعمومه أو يراد بـ "الاتباع" معنى الإيمان كما قال العلامة ابن كثير فلا يؤيدهما القرآن والسنة. كما قال النبي ﷺ: "والله لو كان موسى فيكم حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني". ²

وتؤيد الآية الآتية هذا الحديث:

¹ سورة آل عمران: 53

² نور الدين الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العربية، 1988م، 1/174 والإمام أحمد بن حنبل: مسند أحمد، دار التراث العربي، بيروت، 1993م، 377/4، والنسخة القديمة، 387/3

"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ"¹

فيبدو بها أن الأمة الإسلامية ليست مسؤولة إلا عن متابعة رسولها محمد ﷺ، أما قضية الأنبياء والرسل الآخرين فليس لنا إلا الإيمان بهم وبكتبهم يعني أمرنا بالإقرار بهم الأنبياء وكتبهم منزلة من الله وما أمرنا باتباعهم. فيتضح به أن الإيمان شيء والاتباع شيء آخر وهناك فرق بينهما. وأما القول الأخير أن "فوقية روحانية دينية وهي كونهم أحسن أخلاقاً وأكمل آداباً وأقرب إلى الحق والفضل" فهذا هو تكلف بين وخلاف للغة العرب فلذا لا حاجة الكلام عليه.

تأويل الآية: كما نرى بعد التدبر في سياق الآية المذكورة ونوعيتها الداخلية أن المراد من "الذين اتبعوك" المتبعون المخلصون لعيسى عليه السلام الذين سَمَّاهم القرآن بـ"الحواريين" وقبل آية فقط للآية المذكورة نُقل دعاءهم: "رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" ^(٥٣) ونقل الشوكاني وبعض المفسرين الآخرين قولاً مثله في تفاسيرهم.²

وهكذا يراد من "فَوَقَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" – كما كتب مفسرنا الكرام – اليهود في ذلك العصر الذين كانوا يعارضون عيسى عليه السلام وإنهم لم يكونوا يوذونه إيذاء فقط بل كانوا يفعلون كل ما يتعلق باتهامه في عزه ونصره وقتله، كما ورد في نفس الآية "مُظْهِرًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا".

فانظر الآن إلى الآية المذكورة الكاملة وخاصة إلى آية ما قبلها فورد فيها صراحة حينما تجاوز كفر اليهود وعنادهم وأرادوا ما أرادوا به سرّاً مع عيسى عليه السلام ومتبعيه فبشر الله عيسى: "يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَفَعُكَ إِلَىٰ مُطَهَّرٍ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا".³

¹ سورة آل عمران: 31

² محمد الشوكاني: فتح القدير، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الخامسة، 2007م، 309/1 والبحر المحيط، 3/179

³ سورة آل عمران: 55

فيرد سؤال هنا ويمكن أن يسأله عيسى عليه السلام بنفسه حينما يُرْفَع إلى السماء، ماذا سيحدث لأصحابه المخلصين والحواريين والمتبعين له؟ والذين لبّوا دعوته بأموالهم وأنفسهم والذين كانوا معه في وقت انتصاره. ولا يزالون يدعون ربهم "رَبَّنَا ءَامِنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" ¹. فهل يترك ربه في حالة أن يقتل فيهم أعداؤهم؟ ومن الواضح أنه قد لا يحدث هكذا فبالتالي كما بشر عيسى عليه السلام أن ينصره الله ويدافع عنه ويبعده عن جميع شرور أعدائه ويرفعه إليه. فكذلك بشر بنفس الصورة وبنفس البشارة وفي نفس سياق الكلام بأن ينصر الله أصحاب عيسى عليه السلام ومتبعيه يعني الحواريين ويجلّعهم الله فوق مخالفيهم، فلما يفصل عيسى عليه السلام عنهم فيرضى تماماً بمآلهم ويقولون الوداع بأن الله يكون ولياً لهم وينصرهم الله كما نصر رسوله.

ويؤيده القرآن فالنصر والغلبة التي ذكر وعدها قد ذكر في مكان آخر بأن الله قد أتم وعده وغلب الحواريين على أعدائهم وأعطاهم الملك، فلاحظ الآية الأخيرة من سورة الصف:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاَمَنَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ" ².
وكتب أبو حيان الأندلسي نفس الشيء في تفسيره "البحر المحيط":

"والآية تقتضي إعلام عيسى أن أهل الإيمان به كما يجب هم فور الذين كفروا بالحجة والبرهان والعزة والمنعة والغلبة، ويظهر من عبارة ابن جريج أن المتبعين له هم في وقت انتصارهم وهم الحواريون جعلهم الله فوق الكافرين" ³.

¹ سورة آل عمران: 53

² سورة الصف: 14

³ البحر المحيط، 3/179

إشكال والرد عليه: فيمكن ورود إشكال بأن المنعة والغلبة التي تم بوعدها في الآية فيشترط فيه "إلى يوم القيامة" بينما المنعة والغلبة للحواريين ليس إلا باب في كتب التاريخ.

فلا يوجد وزن في هذا الإشكال لأن "إلى يوم القيامة" كناية عن المدة الطويلة، والكلام مثله موجود فيقول عبيد بن الأبرص عن صاحب الثروة والمال:

أننت المليك عليهم وهم عبيد إلى القيامة¹

وإذا أصرَّ أحدٌ على أن معنى كلمات "إلى يوم القيامة" من الآية المذكورة قد استخدم في معناه الحقيقي فلا تتأثر الآية المذكورة معنى وموضوعاً، لأنه إذا غادر الغالب العالم في حالة المنعة والغلبة ولم يتمكن المغلوب مطلقاً من تحرير نفسه من غلبة ذلك الغالب ومات في نفس الحالة، فيقال الأول غالباً حتى يوم القيامة والثاني مغلوباً إلى يوم القيامة. فكذلك لما نصر الله الحواريين بالعز والشرف ومنح المنعة والغلبة على اليهود وتركوا الدنيا في حالة العز والشرف فمن هو الذي يسلب منهم هذا الشرف والعز الممنوح من الله؟ ومثله إذا انهزم هؤلاء اليهود على أيدي الحواريين وتذلّلوا وقبلوا ملكهم وماتوا في حالة نفس الذلة والنكبة فمن هو الذي يبعد هذا الشيء من الذلة والمسكنة عنهم؟ كلما ذكر هذان الخصمان فيذكر الحواريون غالبين فائقين واليهود مغلوبين مذلولين.

معرفة أسباب النزول: إن القصص العديدة موجودة في كتب التفاسير عن سبب النزول مختلفة، فمنها ما حدث بعد نزول الآية أو حدثت قبلها بسنوات حتى وصف بعض الأحداث الواقعة في مكة المكرمة سبب نزول الآية المدنية بل بعض الأحداث لا علاقة لها في سبب نزول الآية والذي يوصف بسبب النزول لتلك الآية، فعلى سبيل المثال يقال عن سورة الفيل أنها نزلت في قصة أصحاب الفيل.² أو عن

¹ ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر، بيروت، ص 78

² الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 306

سورة الممتحنة نزل في حاطب بن أبي بلتعة فسيأتي تفاصيله في العبارة الآتية. وتثير هذه الأشياء مشاكل أمام قارئ القرآن. فيقول الإمام فخر الدين الرازي عن نزول الآية "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا"¹ من سورة فصلت:

"نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت، قال لو نزل القرآن بلغة العجم فنزل هذه الآية، وعندني أن أمثال هذه الكلمات حيف عظيم على القرآن، لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض"².

وكذلك يقول الإمام عن الآية "وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"³ من سورة الأنعام:

"ولي ههنا إشكال، وهو: أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه؟"⁴

فلذلك وضع العلماء المحققون من مفسرينا أصولاً حذراً من هذه المشكلة منها ما هو هامّ وجامع للغاية وهو فيما يلي:

قال الإمام الزركشي:

"لا سيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم؛ لا أن هذا كان السبب في

¹ سورة فصلت: 44

² الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثانية، إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء السابع والعشرون، ص 133

³ سورة الأنعام: 54

⁴ التفسير الكبير، الجزء الثالث عشر، ص 2-3

نزولها..... وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل؛ فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية؛ لا من جنس النقل لما وقع".¹

فتحل تلك المشكلة بهذا الأصل الذي ذكره الإمام الرازي ولكن يبقى هذا الارتباك كيفما يعرف سبب النزول الحقيقي والواقعة التي تروى كسبب النزول هل هي سبب النزول في الواقع؟ فيمكن أن يكون سياق الآية ونوعيتها الداخلية والآيات والسور ما قبلها وما بعدها حاسماً في تعيينه ومعرفته الصحيحة ويمكن معرفة سبب النزول الحقيقي بها ويمكن الحكم هل تتعلق الواقعة بسبب النزول حقاً أم لا؟ فلاحظ مثلاً واحداً له.

سبب نزول سورة الممتحنة: يروى لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كان يعدّ على الهجوم على مكة المعظمة ولم يخبر إلا بعض الصحابة بوجهته وفهم حاطب بن بلتعة ﷺ وكان من أهل بدر، فأراد أن يخبر أهل مكة بهذا قبل مواعده ولكن الله أطلع النبي ﷺ قبل وصول تلك الرسالة إلى أهل مكة فبعث النبي ﷺ شخصاً على الفور ورجع تلك الرسالة من أيدي الرسول. فيروى أن الله عاقب على هذا العمل من حاطب بن بلتعة ونزلت الآيات الأولى من سورة الممتحنة، فانظر إلى الآية الأولى منها:

"يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" ①²

ويظنّ عامة العلماء أن الخطاب من "يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا" في هذه الآية عام ولكن الإشارة هنا إلى حاطب بن بلتعة والمراد من "عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ" أهل مكة الذين أرسل

¹ البرهان في علوم القرآن، 1/31-32

² سورة الممتحنة: 1

إلهم حاطب بن بلتعة كتابًا سرّيًا يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إلهم، فأنا لا أنكر صدق الحدث ولكن القول بأن هذه الحادثة المذكورة هي سبب نزول الآية أيضًا لا يؤيدها سياق الكلام، لأنه إذا نظرنا من هذه الناحية إلى هذه السورة ظهر لنا جليًا أن الكلام لا يشير إلى ابن بلتعة أو إلى كفار مكة، بل يراد بـ"الَّذِينَ ءَامَنُوا" الذين لم تنقطع علاقتهم مع اليهود والمنافقين، لأن هذه العلاقة كانت مستمرة منذ زمن طويل ومن صلة الرحم ومن آباءهم فلذلك كانوا يريدون إبقاءها بسبب ضعف إيمانهم، ويشير "عَدُوّ وَعَدُوّكُمْ" إلى اليهود والمنافقين الذين سعوا لإيذاء قضية الإسلام مستفيدين من علاقاتهم مع هؤلاء المسلمين.

فأول ما يقودنا إلى فكرتنا هذه هو الآية الأخيرة من نفس السورة:

"يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ" ¹.

منع في الآية الأولى من اتخاذ صديق من عدو الله والمؤمنين، ومن هؤلاء الأعداء لم يتضح هنا، ولكن وضحتهم كلمات "قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" من الآية الأخيرة، وكل طالب مهتم بالقرآن يعرف ذلك جيدًا أن المراد من "الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ" و"غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" في القرآن هم اليهود. وهذا الأسلوب من القرآن يسعى "عود على البدء" والذي شاع استعماله في القرآن وكلام العرب. وكذلك يمكن القول أنه يطابق قاعدة معروفة من القرآن "القرآن يفسر بعضه بعضًا" أن هذه الآية الأخيرة فصّلت إجمال الآية الأولى.

وكذلك إذا تفكرنا في ضوء نظم الكلام الأوسع ظهر لنا نفس الشيء الذي أشرنا إليه. أنظر إلى سور ما قبل سورة الممتحنة وما بعدها فسوف تمثل مجموعة من السور من الحديد إلى التغابن يبحث فيها عن اليهود وندمائهم المنافقين، وكل ما

¹ سورة الممتحنة: 13

سعى في كشف مؤامراتهم ومع ذلك، إن المسلمين الضعفاء الذين حافظوا على علاقاتهم الودية مع اليهود والمنافقين من ضعف إيمانهم مع تعهدهم بالولاء للنبي ﷺ نُهبوا بأنهم يقتدون باليهود، وإن لم يصلحوا أعمالهم فيحدث معهم مثل ما حدث مع اليهود. وبالجملية حُذِرَ مرارًا المسلمون في هذه المجموعة من سير مسلك المنافقين وقطع العلاقة مع اليهود والانتباه لهم.

وتفاصيله هكذا أولًا في سورة الحديد يخجل المسلمون الضعفاء على عدم الحساسية والعصيان مثل اليهود ثم في سورة المجادلة وسورة الحشر أُنذروا عذابًا شديدًا على جعل اليهود أصدقاء وعلى تضامنهم معهم، والآن في سورة الممتحنة أُمروا شديدًا بقطع العلاقات من اليهود. وهم الذين لم يقطعوا العلاقة السابقة بعد الدخول في الإسلام وكان لديهم مشاعر الحب والأخوة في صدورهم، والأشياء التي تمنعهم من التقدم في سبيل الله قد قيل لهم بأن هذه العلاقات لا تفيد شيئًا يوم القيامة.

فدلّ هذا على أن قصة حاطب بن بلتعة لا علاقة لها بسبب نزول سورة الممتحنة بل يمكن القول إن أمرًا عامًا متعلقًا بمثل هذه الحوادث موجود في هذه الآيات.¹ معرفة أصل الأحاديث الصحيحة وأساسها في القرآن: من الفوائد الكبرى من التدبر والتأمل في نظم الآيات هي أنه يوجد بها أساس أحاديث وروايات في كتاب الله لأن جميع الأحاديث الصحيحة مأخوذة من كتاب الله. فإن القول الشهير للإمام الشافعي: "كل ما حكم به رسول الله فهو مما فهمه من القرآن".²

¹ كتبت مقالة حول هذا الموضوع في مجلة فصلية "نظام القرآن"، 4/2 يناير مارس 2004م، وكان عنوانه "سوره ممتحنه كا شان نزول اور حضرت حاطب بلتعه كا واقعه (سبب نزول سورة الممتحنة وواقعة حاطب بلتعة)

² العلامة ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، الطبعة الثالثة، القاهرة، ص 32 والعلامة السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، (طبعة محققة) دار الكتاب العربي، بيروت، 2004م، ص 853

وقول التابعي الشهير سعيد بن جبير رضي الله عنه:

"ما بلغني حديث على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله".¹

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إذا أحدثتكم بحديث أنبأكم بتصديقه من كتاب الله".² جميع هذه الأقوال مبنية على الصواب. فترى أن أكثر الموضوعات من الأحاديث الصحيحة تظهر في الآيات القرآنية وكلماتها ونظمها. ليس هذا فقط، بل بعض الأحاديث التي يشتهر عنها أنها إضافة إلى القرآن أو القرآن صامت في هذا الصدد يشير إليها نظم الآيات أو كلماتها وقد وضّح فقط النبي صلى الله عليه وسلم نفس الإيماء لأن توضيح الآيات واجب عليه، أنظر بعض الأمثلة على هذا:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السبع"³ وكما يزعم العامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرمه بنفسه، وما ذكرت حرمة في القرآن، ولو يُدبّر في نظم الآيات الأولى من سورة النحل فتوجد إشارة حرمة الحمير، والبغال والخيول.

"وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾"⁴ فانظر إلى نظم هذه الآية التي ذكرت فيها الأنعام أولاً وقال عنها إن فيها منافع كثيرة وتأكلون منها، ثم أتى بذكر الخيل والبغال والحمير بصورة مستقلة ولكن لم يذكر أكلها والذي يدل على أن الحمير وغيره لا يؤكل.

¹ الشيخ محمد جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث، ص 59

² المصدر نفسه

³ سنن أبي داود، كتاب السنة، 4604، ترمذي: 1795

⁴ سورة النحل: 5-8

وانظر إلى جانب آخر لهذا النظم: هذه الآية تشير فقط إلى أن تحل تلك البهيمة التي تتعلق بالأنعام ولكن تصرح الآيات الأخرى "أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِيمَةُ الْأَنْعَامِ"¹ و"أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ"².

تدبر الآن في الآيتين المذكورتين من سورة النحل وانظر إلى نظمهما فذكرت الأنعام أولاً ثم ذكر الخيل والبغال والحمير بصورة مستقلة بحرف العطف وهذا يدل على أن العطف يريد المغايرة فلذا لا يمكن أن يعدّ الخيل والبغال والحمير أنعاماً فلا يحل أكلها. فيقول الإمام القرطبي:

"فلما استأنف ذكرها وعطفها على الأنعام، دلّ على أنها ليست منها"³.

وأما حرمة المفترس فأصلها موجود في "أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِيمَةُ الْأَنْعَامِ". يقول الإمام القرطبي:

"والأنعام: الإبل والبقر والغنم، سمّيت بذلك للين مشيها"⁴.

ويمضي قائلاً:

"وكان المفترس كالأسد وكلّ ذي ناب" خارج عن حد الأنعام"⁵.

فيحل أكل البهائم التي يأتي تحت الأنعام لأن الخيل والبغال والحمير والمفترس لا تأتي تحت الأنعام فلا تحل لحومها فكانت الإشارة إليها موجودة في القرآن فقم النبي ﷺ بتفصيلها.

¹ سورة المائدة: 1

² سورة الحج: 30

³ أبو عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، احياء التراث العربي بيروت، 2006م، 74-73/10

⁴ المصدر نفسه: 34/6، 249

⁵ المصدر نفسه، ص 250

والمثال الآخر: قال النبي ﷺ:

"يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء".¹

فالجزء الأول لهذا الحديث مأخوذ من نظم الآية الكريمة:

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣١﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..... إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..... وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنْكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ"²

والجزء الثاني يعني: "ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" مأخوذ من الآية الآتية من سورة الأحزاب:

"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِيتِينَ وَالْقَنِيتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَفَظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣١﴾".³

قد أمر المؤمنون والمؤمنات بغض البصر والحفاظ على الفروج في الآيات الأولى من سورة النور ثم أمرت النساء خصوصاً بالحذر من الأمور التي تلفت أبصار الآخرين إليها ثم أمر في الآية الثالثة عموماً بنكاح الأيامى والصالحين ليطابق التعليمات المذكورة أعلاه وتدل هذه السلسلة في الحكم أن النكاح هو وسيلة غض البصر

¹ صحيح مسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح، لمن تاقت نفسه، بحديث 3399

² سورة النور: 30-32

³ سورة الأحزاب: 35

وحفظ الفروج. فذكر النبي ﷺ بالوضوح في هذه الألفاظ "من استطاع منكم البائة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء".

وتدبر في الآيات من سورة الأحزاب فذكر في هذا الصدد "الصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ" والمعروف أن الجزء من القرآن يأتي في مكان يأتي تحت حكمة عظيمة، فلا يخلو مجيء لفظ بعد لفظ أو كلام بعد كلام أو أمر بعد أمر من نسبة معنوية ومسألة دينية وبلاغة لفظية أبداً، أليس يدل مجيء "الصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ" على أن الصوم وسيلة ضبط النفس وحمل عفة غض البصر وحسن الفرج وإن هذه الآية هي التي بني عليها قول النبي ﷺ "ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء".

وتفكر مرة أخرى في تلك الآية وتدبر الألفاظ الأخيرة من "وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"، ثم لاحظ هذا الحديث النبوي أن رجلاً يقول النبي ﷺ:

"يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به قال لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله".¹

فنصيحة النبي ﷺ هذه "لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله" مأخوذة من ألفاظ تلك الآية المذكورة لأن الله قال في آخر هذه الآية بعد ذكر صفات المؤمنين المتعددة المتنوعة: "وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ" ويدل هذا النظم والترتيب أن ذكر الله هو أساس جميع الأوصاف الحميدة ومبدأ جميع الشرائع، ومن ذا الذي يتصف بهذه الأوصاف فيسهل الأمر له ولا يشعر بكثرة الشرائع عليه.

¹ سنن الترمذي: باب فضل الذكر، 3375

والمثال الثالث: قال النبي ﷺ: "بعثت لأتمم حسن الأخلاق".¹

كما قال النبي ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا".²

وهذا الحديث والأحاديث مثلها مأخوذة من ذلك الدعاء لإبراهيم عليه السلام الذي دعاه للملة الإسلامية عند إنشاء الكعبة، ففيما يلي ألفاظ ذلك الدعاء:

"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (١٣).³

قد قرّر فيه أربع فرائض للنبي ﷺ 1. تلاوة الآيات، 2. تعليم الكتاب، 3. تعليم الحكمة 4. التركية. وأمعن في نظمها فيبدو أنّ الفريضة الأخيرة تعني التركية هي هدف حقيقي لبعثة النبي ﷺ وغايتها والفرائض الثلاث السابقة هي وسائلها وقد قرّره النبي ﷺ هدفًا حقيقيًا لبعثته وقال "إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا" فلا يخطأ في قول هذا أن الحديثين المذكورين مأخوذان من هذه الآية أو الآيات الأخرى مثلها.

المثال الرابع: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلوة فمن تركها فقد كفر".⁴

اعتبرت الصلوة في هذا الحديث عهدًا وقد صرح هذا العهد في حديث آخر هكذا أن من يتصف بإقامة الصلوة فكان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن يتركها فليس له عهد، هذه هي ألفاظ الحديث:

"خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء به ولم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء دخل الجنة".⁵

¹ مؤطا الإمام مالك: ماجاء في حسن الخلق

² علاء الدين البرهان فوري: كنز العمال، دائرة المعارف، حيدرآباد، 1312هـ، 10/1.

³ سورة البقرة: 129

⁴ سنن الترمذي: باب ما جاء في ترك الصلوة، 2621

⁵ مؤطا الإمام مالك: باب ما جاء في فضل القرآن، 2906

فتدبر في سياق الآية التالية لسورة البقرة "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ" ¹ للتعرف على أصل هذه الأحاديث، قد ذكر قبلها تحويل القبلة وبعض الأحكام اللازمة المتعلقة بها ثم ذكرت ثلاثة طرق لتلك الأحكام: 1. لا يبقى دليل وحجة عند أهل الكتاب على المؤمنين، (2) إتمام النعمة (3) الاهتداء:

"لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِيَّ عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" ².

ثم ذكر الله بعد ذكر حكم تحويل القبلة وحكمته أنكم إن تذكروني أذكركم، فإن نفس العهد والميثاق بين الله وتلك الأمة كما كان عهد الله مع بني إسرائيل:

"يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ" ³.

فيدل معي هذه الآية بعد ذكر حكم تحويل القبلة وحكمته التي تحتل على مكانة العهد والميثاق، إن القبلة هي مركز العهد وعلامته وتذكاره العظيم، فلذلك يقرر الصلاة عهداً والتي لها علاقة خاصة مع القبلة والكعبة وقال: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلوة فمن تركها فقد كفر".

الكشف عن حقائق ومعاني جديدة: التدبر في كتاب الله في ضوء نظم الكلام يكشف عن المعاني والحقائق والأحكام والمسائل الجديدة. فلهذا يقال:

"لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه" ⁴.

¹ سورة البقرة: 152

² سورة البقرة: 150

³ سورة البقرة: 40

⁴ سنن الترمذي: باب ما جاء في فضل القرآن، 2906

وهذا يعني أن القرآن كنز من العلوم والمعرفة فكلما ازداد التدبر فيه ازدادت فرص المعرفة والحكمة، ومن المعروف أن جميع الموارد التي يمكن الوصول من خلالها إلى هذا الكنز الغالي نظم الكلام وهو أشدّ أساساً وأهم مصدرًا. فنكتفي بذكر بعض أمثله فيما يلي:

المثال الأول:

تدبر في الآيات من سورة القيامة: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾" ¹ وانظر كيف استنبط الإمام عبد الحميد الفراهي الحقائق الهامة والجديدة بكلماتها ونظامها:

الأول: إن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ ويقراء عليه بنسق واحد، فإنه لو أنجز هذا الوعد بعد عهد النبي لم يأمره باتباعه وذلك قوله "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾".

والثاني: إن النبي مأمور بالقراءة حسب القراءة الثانية التي تكون بعد الجمع، وليس للنبي أن يلقي عليه شيء من الوحي ولا يبلغه الأمة عقلاً ولما أمره الله تعالى في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ² وقوله تعالى: (مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) عام ولا يخصه العقل، فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لا بد أن يبلغه الأمة ونظم القرآن وصورته منه، فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه، فلا شك في النبي ﷺ علم الأمة قراءة السورة بنسق آياتها.

والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بين الله ما شاء بيانه من التعميم والتخصيص والتكميل والتخفيف" ³.

¹ سورة القيامة: 16-19

² سورة المائدة: 67

³ عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن (ترجمة أردوية)، الدائرة الحميدية، سرائير، 1996م، ص 212-213

وربما لم يسبق الإمام الفراهي أحدٌ بمثل هذا القول المحكم المتعلق بجمع القرآن وترتيبه، ويؤيد "تاريخ القرآن" للشيخ عبد اللطيف الرحمانى والبحوث من المحققين الآخرين النقاط التي قدّمها الإمام الفراهي والآن قد أثبت تمامًا أنّ عمل جمع القرآن وترتيبه قد اكتمل في عهد النبي ﷺ.

والمثل الآخر:

وتدبر الآيات الأولى من سورة الجمعة:

"يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝" ¹

وانظر كم عددًا من لآلئ الحكمة من هذه الآية التي قدّمها الشيخ نجم الدين الإصلاحي نقلًا عن معلّمه الإمام عبد الحميد الفراهي:

"إن الله يذكر أربع صفاته ثم يذكر بعثة النبي ﷺ ويذكر أربع صفاته أيضًا. وإذا تدبر طالب في هذه الصفات الأربع من الله ﷻ والرسول اكتشفت له هذه الحقيقة أن هناك علاقة ورابطة شديدة بينها. وقارن الآن هذه الصفات بالترتيب:

(1) "الملك" الله هو ملك والخلق رعيته، فتقتضي صفة الملك أن يُرسل عملائه إلى الرعية وأن يخبرهم بمشيئته بوسيلتهم فلذلك ذكر أول صفة للنبي "يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ"، وتُستخدم كلمة الآية بعدة طرق. فهنا يقال وصايا الله وتعليماته الآيات فلذلك معنى تبليغ الآيات وتلاوة الآيات واحد،

(2) "القدوس" هو الله وتقتضي هذه الصفة أنه يريد أن يكون عباده طاهرين وإن لم يكن الإنسان طاهرًا فسيكون هناك بُعد بين الإنسان وخالقه، وتجدر الإشارة

¹ سورة الجمعة: 1-2

هنا أيضًا إلى أنه إذا أراد الله أن يرانا طاهرين فما فعل أن يُبقينا مطهرين مثل الملائكة وما منحنا القدرة على أن نكون نجسين بل جعل لنا إمكان الطهر والنجس وفتح الطريقين لنا وخلق التقديرين فينا ووضع فينا الفكر والإرادة وقوة الفصل لكي نختار من نفوسنا طريقًا واحدًا من بينها فتنحصر نتائجنا على الفوز في الامتحان أو على الفشل فيه فصّرّحها القرآن في أماكن مختلفة:

"بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، نَفَالَهُمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، وَهَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ" فعمل النبي الذي يعبر عنه القرآن بكلمة "تزكية" يصلح آراءنا ويصحح إدراكنا ويمثل لنا أسوة من الحياة النقية وهي أكثر الوسائل فعالية لإصلاح الأخلاق والأعمال.

(3) "العزیز" معنى العزة قوة في اللغة العربية والتي محظورة في الاستسلام، و"عزیز" مأخوذ منه يعني الذات لا يغلب عليه غيره ويكون غالبًا وقاهرًا دون مغلوب ومقهور ووفقًا للترتيب ذكرت هنا الصفة للرسول قابلاً لصفة الله هي: "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" فإن الله عزیز وغالب والخلق ضده مذلول ومغلوب أن يكون شريعة الله تجري في الخلق ويجب على المحكومين أن يعرفوا كيف يطيعون الحاكم الأعلى؟ فلا يكفي لهذا الغرض تلاوة الآيات يعنى إسماع الأحكام فقط بل يجب إفهام تلك الأحكام وتعليم محلها ومقامها وإعلام مقاصدها وروحها وحلول مشاكلها وإزالة الشكوك، فلذا ذكرت الصفة الثالثة من صفات الرسول هي: "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ".

(4) "الحكيم" وتقتضي حكمته أن يرى الإنسان متصفاً بالحكمة والبصيرة ولا يريد أن يتبعوا الشريعة عمياناً بل يريد أن خلقه يهتدي في شريعته ويتبع الشريعة بالعلم والحكمة والمعرفة والبصيرة. فلذا ذكرت الصفة الأخيرة للرسول هو: "وَيُعَلِّمُهُمُ الْحِكْمَةَ" فهذا يدل على أن عمل الرسول ليس مجرد

تبليغ الكتاب بل توضيح مطالب الكتاب ومقاصده وتحسين حياة الناس وتعليمهم، وهذه تكملة كتاب الله التي لا يمكن فصلها منه ونجد هذه التكملة في الحديث¹.

والصفات الأربع للنبي ﷺ التي ذكرت في هذه الآية من سورة الجمعة ذكرت أيضاً في بعض الأماكن الأخرى نحو: سورة البقرة: 151 وسورة آل عمران: 164. وفي هذه الأمكنة وجد نفس الترتيب لتلك الصفات الذي ذكر في سورة الجمعة يعني: 1. تلاوة الآيات 2. التزكية، 3. تعليم الكتاب و4. تعليم الحكمة.

ولكن حينما ذكرت هذه الصفات في دعاء إبراهيم عليه السلام فغير ترتيبها وجاء ذكر التزكية على الرقم الرابع دون الرقم الثاني. (سورة البقرة: 129).

فما هو السر في هذا التقديم والتأخير وما هي الحقائق التي تستخرج منه فراجع إلى "تفسير البرهان في نظام القرآن" للشيخ عنايت الله السبحاني، ص 206-210. وهذا التفسير مفيد جداً لفهم نظم القرآن.

حكمة تغير الألفاظ: إن كلمة "زوج" و"إمرأة" كلمتان تنتميان إلى اللغة العربية وتستخدمان للزوج. وقد استخدم القرآن هذين اللفظين أيضاً في نفس المعنى. ومن المعروف عامة أن هذين اللفظين مترادفان في المعنى. فلذلك استخدم القرآن بدون الفرق المعنوي كلمة في مكان وأخرى في مكان آخر. ولكن إذا أمعنا النظر في استخدامهما في القرآن ونتدبر في ضوء سياقهما ونظم كلامهما فيكشف لنا أن الحكمة مكنونة في استخدامهما.

عندما تتكون علاقة الزوجية تماماً بين الزوج والزوجة مع جميع مصالحها فيستخدم فيه القرآن كلمة "زوج" للزوجة مثل علاقة الزوجية بين آدم وحواء

¹ الشيخ نجم الدين الإصلاحي: دلائل السنن والآثار، 14/11-14، نقلاً عن مجلة "نظام القرآن" الفصلية، 1/3 أبريل-جون 2002م

عليهما السلام في سورة البقرة الآية 35، وسورة الأعراف الآية 19 وفي سورة طه الآية 117 وغيرها.

وبالعكس حيث وقع الاختلاف في العلاقة الزوجية بالنسبة للعقيدة أو وقعت خيانة أو فقدت بعض مصلحة أو جميع مصالحه عقماً أو وفاة الزوج فيستخدم فيه القرآن كلمة "امرأة" دون "زوج"، نحو "امرأة العزيز" (سورة يوسف: 30) و"امرأة نوح" (سورة التحريم: 10) و"امرأة لوط" (سورة الأعراف: 83) و"امرأة فرعون" (سورة التحريم: 11) وغيرها قد أستخدمت فيها كلمة "امرأة" لوجود الاختلاف في العقيدة وغيرها لهذه الأزواج.

فما زالت زوجة زكريا عليه السلام عقيماً فاستخدم القرآن كلمة "امرأة" لها (سورة آل عمران: 40 وسورة مريم: 5) ولما ذهب عنها عقمها فاستخدم كلمة "زوج" لها (سورة الأنبياء: 9) قد أستخدمت كلمة "امرأة" لـ"سارة" لأن الفترة التي ذكرت هنا كانت فترة عقمها (سورة هود: 71 وسورة الذاريات: 29).

المصادر والمراجع

1. ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز، دار الفكر بيروت، 1992م
2. أبو حيان الأندلسي: البر المحيط، دار الفكر، بيروت، 1992م
3. أبو عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، إحياء التراث العربي بيروت، 2006م
4. إسماعيل بن كثير: تفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
5. الإمام أحمد بن حنبل: مسند أحمد، دار التراث العربي، بيروت، 1993م
6. الإمام حسن البناء، نظرات في القرآن، مكتبة الاعتصام، د.ت.
7. الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثانية، إحياء التراث العربي، بيروت
8. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، مكتبة دار التراث القاهرة، د.ت.
9. ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر، بيروت، د.ت.
10. الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: تدبر قرآن، تاج كمبني، دهلي، الطبعة الأولى، 1989م
11. الشيخ رشيد رضا المصري: تفسير المنار، دار المعرفة، د.ت.
12. عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن (ترجمة أردوية)، الدائرة الحميدية، سرائر مير، 1996م
13. علاء الدين البرهان فوري: كنز العمال، دائرة المعارف، حيدرآباد، 1312هـ
14. العلامة ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، الطبعة الثالثة، القاهرة
15. العلامة السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، (طبعة محققة) دار الكتاب العربي، بيروت، 2004م
16. العلامة خازن: لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، مطبعة التقدم العلمية، مصر 1331هـ

17. محمد الشوكاني: فتح القدير، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الخامسة، 2007م

18. نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبد، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

19. نور الدين الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العربية، 1988م

20. الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت

"تدبر قرآن" للشيخ أمين أحسن الإصلاحي (أول تفسير كامل على منهج الإمام الفراهي)

أبو الأعلى السيد بن محمد عناية الله¹

الحمد لله الذي أنزل القرآن، والصلاة والسلام على رسوله الذي بلغ القرآن، أما بعد:
فإن العلامة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي رحمه الله كان من أعلام الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية، وقد هاجر إلى باكستان بعد الاستقلال سنة 1947م.
وكان مفسراً كبيراً، وقد بدأ بتفسير القرآن الكريم باسم "تدبر قرآن"، وأكمل هذا التفسير في ثلاث وعشرين سنة، مدة نزول القرآن.

وكان العلامة من تلامذة ترجمان القرآن الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله،² ومن المعلوم بين أهل العلم أن الإمام الفراهي كانت له مدرسة خاصة في تفسير القرآن الكريم، فتفسير الشيخ أمين أحسن الإصلاحي "تدبر قرآن" مما استفاده الشيخ من أستاذه الإمام.

¹ باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

² هو الإمام العبقري والمفسر الملهم عبد الحميد الفراهي ولد في شمال الهند وكان ابن خال العلامة شبلي النعماني رحمه الله، فقد عاش في الهند، وتعلم على يد كبار علماء الهند وقتذاك، وكان بارعاً في عدة لغات: العربية والفارسية والعبرية والإنجليزية وكان شاعراً للفارسية والعربية وله ديوان فيما وله إسهام كبير في تفنيد دعاوي اليهود والنصارى، وقد قال عنه العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله: إنه كان آية من آيات الله. توفي رحمه الله في الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م. ومن المعلوم لدى المطلعين على كتبه أنه قد عزم على مشروع كبير لخدمة القرآن الكريم، ولكن للأسف لم يحظ مشروعه بالاكتمال، ومع ذلك فقد ترك وراءه ثروة كبيرة من العلوم والمعارف، ومنها تفسيره لخمس عشرة سورة من القرآن والذي طبع باسم "تفسير نظام القرآن".

ولأهميته تلك جعلته موضوعاً لبحثي هذا الذي سيتناول أسلوبه ومزاياه، ومدى علاقته بمدرسة الأستاذ الإمام.

ترجمة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: إن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ولد في قرية من قرى مديرية أعظم كره بالهند سنة 1904 م، وكان والده السيد محمد مرتضى رحمه الله حافظاً للقرآن الكريم، وكان له شرف أداء فريضة الحج المبارك وقتذاك. مع أن والده لم يستطع أن يكتسب من العلم كثيراً، ولكنه كان محبباً ومكرماً لدى أهالي قريته، وذلك لمواظبته على العبادات من الصلوة والصوم وما إلى ذلك.

كانت أسرته ممن أسلموا بعد، ولكن الشيخ الإصلاحي لم يكن متأكداً من أصالة مذهبه القديم، أو مكانة أسرته قبل الإسلام، ولم ير حاجة إلى التثبت في هذا الأمر لأنه لم يكن يعتني بهذه الأشياء التافهة بعدما أعطى الإسلام كل عنايته، والحقيقة أنه لم يكن في رأيه شرف بعد شرف الإسلام، ولكن نظراً إلى نظام الأسر في الهند ومراتبهم فقد كان العلامة من طبقة "راجبوت".

والجدير بالذكر هنا أنّ أهل أسرته بعد اعتناق الإسلام ديناً كانوا من المواظبين على الصلوات والصيام. فيقول عن أسرته: "كل أفراد الأسرة كانوا مواظبين على الصلوة، صغيراً كان أو كبيراً، وكان الوالد والعم الكريمان يذهبان إلى المسجد لكل صلوة مع أن المسجد كان على بعد من بيتنا".¹

التحق العلامة أولاً بمدرسة رسمية في قريته. وكان في قريته واحد من متخرجي دارالعلوم التابعة لندوة العلماء، وهو الشيخ شبلي متكلم الندوى، فكان الشيخ الندوي هو الذي ذهب بهذا الطالب، في العاشرة من عمره، إلى مدرسة الإصلاح. فتمّ تسجيله في السنة النهائية من الكتاب. فتعلّم هناك اللغة الفارسية في سنة واحدة، ثم دخل في مرحلة الدراسات العربية.

¹ حوار مع الشيخ أمين أحسن الإصلاحي للأستاذ منظور الحسن، عدد ممتاز حول شخصية الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، إدارة علوم القرآن علي كره، يناير 1998 م - ديسمبر 2000 م، ص 488

يعبر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عما تعلم في مدرسة الإصلاح بهذه الكلمات: "تعلمت اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الإسلامي وعلم الكلام واللغتين الفارسية والإنجليزية، وأما الأردية فكنت أعرفها وتعلمت البنجابية متأخرًا حينما انتقلت إلى بنجاب ومكثت هناك ثماني سنوات".¹

لم يلتحق الإصلاحي بأي من الجامعات بعد مدرسة الإصلاح، فيقول: "وما وفقت للذهاب إلى جامعة بعد مدرسة الإصلاح وما كنت أرى حاجة إلى ذلك".²

لم يكن بين الإصلاحي والفراحي تلك العلاقة العلمية والفكرية في بداية الأمر، العلاقة التي تطورت فيما بعد، مع أن الشيخ الإصلاحي قضى ثماني سنوات للدراسة في مدرسة الإصلاح. ولكن الواقع أن الفراحي رحمه الله كان يرى في شخصيته وارتباطًا صالحًا لعلمه القرآني وفكره العظيم. وهذا ما يتضح باللقاء الذي جاء بالشيخ الإصلاحي إلى مدرسة الإصلاح بعد مدة من التخرج فيها. وهذا اللقاء هو الذي كان نقطة تحول في حياة الشيخ وشخصيته، وكان ذلك في السنة الخامسة والعشرين بعد تسعمائة وألف من الميلاد. فيقص علينا الإصلاحي عما حدث في ذلك اللقاء:

"كنت موظفًا عند الشيخ عبد الماجد الدرابادي³ في جريدته "الصدق"، فحينما أتيت إلى أعظم كره، اشتقت إلى لقاء الإمام الفراحي، فذهبت إلى قريته. فلما رأيته، سألتني بكل استعجاب:

هل أنت أمين أحسن؟

فقلت: نعم.

¹ المرجع نفسه، ص 490

² المرجع نفسه.

³ من كبار علماء الهند وله تفسير باللغتين الأردية والإنجليزية وكان من معاصري الشيخ الإصلاحي وينتسب إلى قرية من قرى أترابراديش.

ففاجئني بسؤاله: هل تريد أن تكون صحفيًا بحثًا أم تريد أن تتعلم مني القرآن؟ فتعيرت حينما سمعت من شخصيته مثل هذه الكلمات، فأجبت له بالفور: سمعًا وطاعة.

فأجابني بقوله: يكون خيرًا إن شاء الله، ثم أشار إلى منزله وقال: سنمكث هنا ونتناول معًا¹.

هذه كانت نقطة تحول في حياة الشيخ الإصلاحي من ميدان الصحافة إلى ميدان العلم والبحث والتحقيق، فقد لازم الإمام الفراهي حتى وافته المنية، وبعد وفاته قام الشيخ الإصلاحي لتكميل مشروع أستاذه الإمام، والواقع أن الشيخ الإصلاحي هو وحيد بين معاصريه وخاصة بين تلامذة الفراهي الذي يرجع الفضل إليه لتعريف فكرة الإمام بين علماء شبه القارة الهندية.

كان الشيخ شبلي متكلم الندوي والأستاذ عبد الرحمن النكرامي الندوي من أحب الأساتذة إليه قبل هذا اللقاء وأما بعد هذا اللقاء فإن الأستاذ الإمام أصبح عنده من نعم الله الكبرى، والآن كلما يقول "الأستاذ الإمام"، فهذا يعني الإمام عبد الحميد الفراهي وهذا يعرفه كل من اطلع على تفسيره "تدبر قرآن"، فكلما يذكر أستاذه يذكره بقوله "الأستاذ الإمام".

وبعدما أتى به القدر إلى الإمام الفراهي والتحق بمدرسة الإصلاح كأستاذ، ما كان أمامه إلا أن يحضر دروس الأستاذ ولقاءاته ومحاضراته، ويستفيد منه على قدر وسعه، وكان يقضي معظم وقته في تدريس الطلاب الناشئين، فأصبح أستاذ الأدب العربي والقرآن الكريم بالمدرسة. واستمر على هذا المنوال ثماني عشرة سنة واشتغل في هذه المدة بأعمال أخرى كذلك، منها إدارة الدائرة الحميدية التي كانت تنشر كتابات الإمام الفراهي، وكذلك انتظم بمجلة "الإصلاح" كرئيس التحرير.

¹ حوار مع الشيخ أمين أحسن الإصلاحي للأستاذ منظور الحسن، ص 491

وكان الشيخ الإصلاحي رحمه الله خطيبًا بارعًا، ويقال أنه كان مثل أبي الكلام آزاد¹ في الخطابة، وكان صاحب مصنفات رائعة، وكذلك قام الشيخ بترجمة كتابات الأستاذ الإمام من العربية إلى الأردية.

يقول الشيخ الإصلاحي رحمه الله إن الاشتياق إلى الكتابة والتصنيف من محركات الأستاذ الإمام "فكان يعلمنا بالأناخذ القلم حتى تنكشف أمامنا حقيقة من الحقائق، فكل ما انفتحت من الأبواب لفهم القرآن وكل ما انكشفت من الحقائق الجديدة هي التي أصبحت محركة للكتابة".

توفي الشيخ الإصلاحي في شهر ديسمبر سنة 1997م من الميلاد في بلاد باكستان التي استوطنها بعد استقلال الهند (تغمده الله برحمته الواسعة).²

المآثر العلمية للشيخ الإصلاحي: إن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي رحمه الله ترك وراءه ثروة عظيمة من العلم والفكر والدعوة، منها:

1. تدبرقرآن: تفسير كامل للقرآن الكريم في تسعة مجلدات.
2. تزكية النفس: في مجلدين.
3. مبادئ تدبر القرآن.
4. مبادئ تدبر الحديث.
5. حقيقة التقوى.
6. حقيقة الشرك.
7. حقيقة التوحيد.
8. حقيقة الصلوة.

¹ من كبار علماء الهند والقادة السياسيين الذين شاركوا في حركة تحرير الهند من الإنجليز، وأصبح أول وزير التعليم بعد تحرير الهند. وله تفسير باسم "ترجمان القرآن".

² لمزيد من الاطلاع على حياة الشيخ الإصلاحي وأعماله، يرجى الرجوع إلى العدد الخاص لعلوم القرآن على الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وعلى موقعه على الإنترنت باسمه باللغة الإنجليزية.

9. تنقيدات.
10. توضيحات.
11. تفهيم الدين.
12. أحكام الحجاب في القرآن.
13. الرئاسة الإسلامية.
14. المرأة الباكستانية.
15. المرأة في المجتمع الإسلامي.
16. القضية ضد الجماعة الإسلامية.
17. تدوين القانون الإسلامي.
18. الافتراءات على الجماعة الإسلامية والرد عليها.
19. الدعوة الإسلامية ومنهجها.
20. الدعوة الإسلامية - أصول ومقتضيات.
21. الدعوة الإسلامية وأهميتها.
22. حقوق المدنية وفرائضها.
23. حقوق غير المسلمين.
24. المسائل الأساسية للفلسفة - في ضوء القرآن.
25. مشاهدات الحرم.
26. ترجمة تفسير نظام القرآن للفراحي.
27. ترجمة كتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح".
28. ترجمة كتاب "إمعان في أقسام القرآن".
29. دروس مختارات البخاري.
30. دروس المؤطا للإمام مالك.

مدرسة الفراهي في تفسير القرآن الكريم: كان الإمام الفراهي عميق النظر في القرآن، والحق أنه كان يعيش مع القرآن وفي ظله، قضى عمره يفكر ويتدبر القرآن حتى وصل إلى ما لم يصل إليه الكثيرون. فكانت له آراء ومواقف يخالف فيها الآخرين، فأصبحت له مدرسة في التفسير تمتاز عن غيره بميزات كثيرة:

منها اعتقاده بأن القرآن مرتب بيبانه، ومنسقة النظام آياته. وكل ما تقدم وتأخر من سوره وآيه مبني على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام. فلو قدم ما آخر، وآخر ما قدم لبطل النظام، وفسدت بلاغة الكلام.

وكان يرى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فأعرض عن القصص وما أتى به المفسرون من التاويلات البعيدة. وهذا كان دأبه في تفسيره الذي أسماه (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان).

هذا ملخص القول عن مدرسة الفراهي في التفسير وها هي بعض الميزات لهذه المدرسة كما أشار إليها الشيخ محمد عناية الله أسد سبحاني في إحدى مقالاته، نشرت طبع بعنوان: "الإمام الفراهي والتفسير — خمس ميزات".¹

الميزة الأولى: وصول الإمام الفراهي بعد نظر طويل وتدبر عميق إلى أن القرآن محكم وبين، ولا يوجد فيه غموض ولا إبهام، وهذا ما يتبين من القرآن نفسه بوصفه نوراً وكتاباً مبيناً وبرهاناً، وقوله جلّ وعلا عن إنزاله "ليحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه".²

فالإمام الفراهي يقول بكمال القطعية في دلالة القرآن، ولا توجد في القرآن آية يقال عنها "هذه ظنية الدلالة" فهو يفصل القول عن هذا الموضوع في كتابه "التكميل في أصول التأويل".³

¹ مجموعة مقالات الندوة حول الفراهي رحمه الله، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره.

² سورة البقرة: 213

³ التكميل في أصول التأويل، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، ص 20-24

وأراء الناس مختلفة تمامًا كذلك في أمر المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وأقوال الناس فيه كثيرة فقد قال الإمام الرازي عن المشاكل التي تحدث بسبب هذا الخلاف فيقول: "واعلم أن هذا موضع عظيم فنقول: إن كل واحد من أصحاب المذاهب يدعي أن الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، وأن الآيات الموافقة لقول خصمه متشابهة، فالمعتزلي يقول قوله { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } [الكهف: 29] محكم، وقوله { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: 29] متشابه، والسني يقلب الأمر في ذلك فلا بد ههنا من قانون يرجع إليه في هذا الباب".¹

ويقول الفراهي رحمه الله بأن الآيات كلها محكمة وبينه وواضحة في ألفاظها والتشابه لا يوجد إلا في المعاني والحقائق. هكذا نرى الفراهي يحسم الأمر في هذا الباب. والميزة الثانية: أنه يجعل القرآن أصلًا لجميع العلوم الشرعية فالقرآن شمس والعلوم الأخرى مثل كواكب تدور حول هذه الشمس المنيرة فيقول:

"فإن جعلت القرآن أصلًا لتمام علم الدين كما هو في الحقيقة صار من الواجب أن تؤسس أصول للتأويل بحيث تكون علمًا عامًا لكل ما يؤخذ من القرآن".²

والميزة الثالثة لهذا التفسير هي توسيع نطاق الطرق لفهم القرآن وهذه الميزة لها تميزه عن المفسرين وهذا الجانب من تفسيره يشير إليه الشيخ المودودي فيقول: "كان على درجة كبيرة من البحث والتحقيق، واختار هذا الأسلوب في تفسيره للقرآن الكريم وهذا يخالف فيه كثيرًا من المفسرين، والذي يميز تفسيره هو توسيع نطاق الفكر والنظر للقراء، ويهديهم إلى ميادين واسعة من العلم والتحقيق والمواد العلمية حتى يسهل عليهم فهم القرآن الكريم".³

¹ مفاتيح الغيب للرازي، سورة آل عمران: 7.

² التكميل في أصول التأويل، ص 5.

³ ترجمان القرآن، ص 1-8.

والميزة الرابعة هي فكرة نظام القرآن، وفكرة النظام ليست بشيء جديد بل قال به كثير من المتقدمين ولكنه بتقديمه لهذه الفكرة يمتاز عن المتقدمين والمتأخرين على السواء، فهو إذا يتكلم عن النظام فلا يكون هذا بمجرد القول بالنظام كما هو من عادة المفسرين، ولكنه يقدم فكرة شاملة لنظام القرآن، ويفند الشبهات ويزيل الإشكالات التي تطرأ على هذه الفكرة حيناً لآخر، وله كتاب قيم بعنوان "دلائل النظام".

يقول الفراهي رحمه الله عن هذه الفكرة في كتابه "التكميل في أصول التأويل":

"في الكلام يكون الاشتراك في الألفاظ، والحذف، والمقدر، والتعريض، والاشتراك في الأساليب المختلفة من جهة تعدد دلالاتها مثلاً في الأمر والاستفهام والعطف دلالات مختلفة. فبعد العلم بجميع دلالات الكلمات وأساليب البيان يمعن النظر لفهم ما هو المراد؟

ولتعيين المعنى المقصود من المعاني المحتملة في الاشتراك أصول خاصة، وكذلك لتعيين المحذوف والمقدر والمعرض به أصول وأرسخ هذه الأصول وأجمعها النظم، فلنذكر طرقاً منه.

نظم الكلام يدل على ما هو المقدر المفهوم، فإن الكلام ربما ينتظم بما هو المفهوم إشارة أو اقتضاء، وللمقدر أسباب يعرف بها، فمنها تعيين المخاطب وسبب الخطاب مثلاً: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" ① يُزِيلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ② خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ④ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ⑦ "سورة النحل: 1-7، فإن نظرت من جهة النظم تبين لك المقدرات وهي كما نذكر:

(أتى أمر الله (أي ما أنذركم به رسله) فلا تستعجلوه (أيها المنكرون به والمشركون لغفلتكم عن الآخرة ورعاية الحق والحكمة المبينة على صفة الرب من الرحمة والعدل) سبحانه وتعالى عما يشركون (به هؤلاء المنكرون بالرسالة التي تنبئهم على لزوم الجزاء من جهة ربوبيته ...".¹

وله في ذلك شروط:

1. أن يكون التأويل جميعاً خالياً من التكلف والتعسف.
2. ويكون النظام طريقاً للوصول إلى حكم ومعارف كثيرة.
3. كل سورة يكون لها عمود وهذا العمود هو الذي يرشد إلى النظم القرآني بين آية وأخرى.
4. النظم الصحيح هو الذي يربط الآيات القريبة والبعيدة ولا يكون النظام مستقيماً إذا ربط بين الآيات القريبة ولم يربط بين جميعها قريبة كانت أو بعيدة.
5. لا بد أن يكون النظام مقروناً بأدلة وشواهد والنظام الذي يكون مقروناً بها يكون راجحاً على ما لم يكن كذلك.
6. النظم الذي يكون موفقاً بالكتاب والسنة يكون أوفق بالنظم الذي لا يكون كذلك.

هذه هي بعض الشروط التي ألزمها الفراهي رحمه الله حين البحث عن النظم في القرآن الكريم.

الميزة الخامسة: يقول العلماء: أحسن تفسير هو تفسير القرآن بالقرآن فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

يقول المفسرون بأن القرآن يفصل ما يكون مجملاً في آية، وعلى العكس، ويكون فيه إطلاق ما يكون مقيداً كذلك.

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 24-25.

ولكن هذا الأسلوب لتفسير القرآن بالقرآن مع أهميته غير صالح لتفسير جميع القرآن الكريم فالعلامة محمد أمين الشنقيط قام بهذا النوع من التفسير ولكن لا نراه ناجحاً في هذا العمل الكبير "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" فمثلاً حين يفسر سورة آل عمران فيبدأ بالآية السابعة لأنه لم يجد للآيات الأولى ما يقال له تفسير القرآن بالقرآن. ثم نراه يتقدم من الآية السابعة إلى الرابعة عشر ولا يفسر إلا كلمة "الأنعام" ويصل مباشرة إلى الآية الواحدة والثلاثين.¹

ولا يتفرد بهذا الشنقيطي رحمه الله فقط بل يصاحبه في ذلك كل من قام بهذا النوع من التفسير.

ولكن الإمام الفراهي رحمه الله يرى النظم القرآني جزءاً من القرآن نفسه فهو يقوم بتفسير القرآن بالقرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس.²

ونرى الشيخ أمين أحسن الإصلاحى رحمه الله في تفسيره "تدبر قرآن" قد سلك طريق الأستاذ الإمام وحاول أن يأتي بتفسير يكون ممثلاً لمدرسة أستاذه في التفسير.

تدبر قرآن: أسلوبه وميزاته كما يقول المفسر بنفسه: كل مفسر يكون له أسلوب وتكون له ميزة فكرية وعلمية، فالتفسير الذي بين أيدينا لا بد أن نبحت فيه عن الشئيين وأحسن طريق في ذلك هو النظر فيما يقول به المفسر نفسه، فالأحسن أن نلخص ما يقوله المفسر عن تفسيره، فهذا خلاصة ما يقوله في مقدمته:

الهدف من هذا التفسير ووسائل فهم القرآن: فقصدي من هذا التفسير هو كتابة تفسير يخلو من كل عصبية وحزبية، وأقدم مفهوم الآية الذي يتجلى من

¹ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، سورة آل عمران.

² المستفاد من مقال الشيخ محمد عناية الله أسد السبحاني حول موضوع "الإمام الفراهي والتفسير — خمس ميزات"، مجموعة مقالات الندوة حول الفراهي رحمه الله، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره.

الآية بوضوح تام، فطبعًا أهم شيء في ذلك عندي من الوسائل الداخلية لفهم القرآن: لغة القرآن ونظامه ونظائره وشواهد، ومن الوسائل الخارجية: الحديث النبوي، والتاريخ، والصحف السماوية السابقة وكتب التفسير. فكل ما يكون من الخارج يكون تابعًا لما في الداخل فاستفدت مما في الخارج تبعًا لما في الداخل. فكل ما تعارضت مما في الداخل نظرت فيه كما ينبغي نظرًا إلى مستواه. وإذا كان شيء ذي شأن من الناحية الدينية أو العلمية نظرت فيه وحاولت فهمه من جديد، وتعيين وجهته الصحيحة. وإذا كان شيء بالعكس تركته على حاله.¹

الوسائل الداخلية لفهم القرآن: وبعد هذا القول من الاختصار يوضح الوسائل الداخلية والخارجية بقدر من التفصيل، فإن أسلوبه في التفسير ينبنى عليها، سنلخص هنا هذا البحث من مقدمته لكي يتضح أسلوبه في هذا التفسير.

لغة القرآن: فأول شيء في ذلك هو لغة القرآن الكريم:

نزل القرآن بلسان عربي مبين يبلغ إلى درجة الإعجاز في الفصاحة والبلاغة ولا يقدر أحد من الجن والإنس على أن يأتي بمثله، فهذا لبيد من أصحاب المعلقات السبع الذي سجد له العرب لكلام قاله في سوق عكاظ، هذا الرجل اعتنق الإسلام فيما بعد وترك الشعر وأجاب على حيرة الناس بتركه الشعر: أبعد القرآن؟

ولكن هذا الإعجاز لا يبلغ كنهه إلا من يعرف لغة القرآن ويتعرع على تذوقها.²

نظامه: نظام الكلام يكون جزءًا منه ولا ينفك عنه، ولكن من العجب العجيب أن عددًا كبيرًا من المفسرين يقولون بخلو القرآن من النظام والمناسبة، فعندهم لا توجد مناسبة بين سورة وسورة ولا بين آية وآية، بل جمعت عدد من الآيات في سورة واحدة بدون مناسبة تقتضي ذلك.

¹ تدبر قرآن، 1/13-14.

² المرجع نفسه، 1/14.

فهو يبدي إعجابه الشديد على المفسرين بسبب قولهم بعدم وجود النظام في القرآن، ثم يفند على دعاويهم بأدلته، ومنها:

لولم يكن النظم في القرآن الكريم لكان الترتيب الأحسن هو الترتيب الذي نزل به القرآن منجماً على ثلاث وعشرين سنة والذي يسمّى بالترتيب النزولي ولكن الأمر ليس كذلك بل ترتيب السور يخالف تماماً ترتيب النزول.

وإذا لم يكن الترتيب النزولي حسناً لكان الترتيب من السور القصيرة إلى السور الطويلة ترتيباً حسناً لكن الأمر ليس كذلك.

وإذا لم يكن للنظام مكان في القرآن لما كانت الحاجة إلى تقسيم السور إلى سور وسور حتى مئة وأربعة عشر بل كانت هذه الأجزاء الثلاثون كافية للسهولة والتيسير للذين يحفظون القرآن.

ثم يتحدث بأن فكرة النظام ليست بشيء جديد بل كانت هذه الفكرة موجودة من قبل وهذا هو العلامة السيوطي المفسر يقول في كتابه "الإتقان في علوم القرآن": "أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سَمَاه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن"، ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سَمَاه "نظم الدرر في تناسب الآي والسور".

والعلامة السيوطي بنفسه كان معترفاً بمناسبة الآيات والسور في القرآن الكريم، فهو يقول بعد ذلك مباشرة أنه أيضاً صاحب تصنيف في هذا الموضوع والإمام فخر الدين الرازي كان له باع طويل في المناسبات بين الآيات والسور:

"وكتابي الذي صنفته في أسرار التنزيل كافل بذلك جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخصت منه مناسبة السور خاصة في جزء لطيف سميته تناسق الدرر في تناسب السور وعلم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين فقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".

وللشيخ العلامة مخدوم المهايبي رحمه الله تفسير باسم "تبصير الرحمن وتيسير المنان" وذكر فيه النظم حسبما أرشده إليه ميله في هذا.

وكان العلامة ولي الدين الملوي من كبار العلماء الذين نهضوا بهذه الفكرة ونشروها على قدر المستطاع.

والمقصود من هذا كله بيان أن هذه الفكرة ليست بشيء جديد بل كانت موجودة من قبل.

ثم يتحدث عن الذين خالفوا النظم في القرآن الكريم فيقول بأنهم ما خالفوا النظم في القرآن بسبب بعض الأدلة أو أنهم يظنونهم خللاً لميزات وخصائص الكلام، بل كان السبب في ذلك أنهم وجدوا صعوبة في البحث عن هذا النظم في الكلام فما وجدوا طريقاً إلا أن يلجؤوا إلى إنكار النظم في الكلام.

ثم يقول بأن هذا الكلام هو الكلام القيم البليغ الذي سجد له البلغاء من العرب والحكماء من جميع العالم، وكان الجدير بهم أن يعترفوا بقصور علمهم في ذلك بدلاً من أن يتهموا القرآن بهذه التهمة.

وكان لهم العذر في قولهم هذا لأمرين:

أولهما أن النظم لا يتيسر لكل أحد.

والثاني أن الذين ادعوا بالنظم في القرآن والذين قدّموا هذه الفكرة ما جاءوا بشيء يحث الآخرين على العمل في هذا المجال.

والواقع أن المحاولة الناجحة الوحيدة بهذا الصدد هي محاولات العلامة عبد الحميد الفراهي رحمه الله، فقد جاء بأدلة مقنعة ومستفيضة في ذلك وله كتاب في ذلك سماه "دلائل النظام" وقد فسر بعض السور من القرآن مراعيًا هذا المنهج أثناء تفسيره وقد طبعت أجزاء تفسيره بعنوان "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

يمضي الشيخ الإصلاحي قائلاً: من يقرأ هذا كله لا يمكن له إلا أن يعترف بشيئين:

الأول: إن إنكار وجود النظم في القرآن ظلم عظيم.

والثاني: علوم القرآن وحكمه مكنونة في نظم القرآن.¹

النظام في القرآن:

كل سورة يكون لها موضوع ترتبط به جميع آياته يعني أنّ الآيات كلها تكون مرتبطة حتى تكون مجموعة واحدة ثم هذه المجموعة لا تكون بدون عنوان بل يكون لها موضوع وعنوان وهذا ما يقال له " العمود "، وهناك شيء آخر وهو النظم بين السور وتكون له ناحيتان، ناحية واضحة ظاهرة تبدو لكل من يقرأ القرآن وناحية أخرى غير واضحة وغير ظاهرة وهي تكون مخفية.

ناحية ظاهرة: القرآن بسوره المكية والمدنية يشتمل على سبع حلقات وكل حلقة من هذه الحلقات تبدأ بسورة أو أكثر مكية وتنتهي بسورة أو أكثر مدنية. الحلقة الأولى تبدأ من الفاتحة وتنتهي على المائة فسورة الفاتحة مكية والمائة مدنية.

والحلقة الثانية تبدأ من السورتين الأنعام والأعراف المكيّتين وتنتهي على الأنفال والتوبة المدنيتين.

والحلقة الثالثة تشتمل على خمس عشرة سورة منها أربع عشرة الأولى مكية وهي من سورة يونس إلى سورة المؤمنون وتنتهي على سورة النور المدنية.

والحلقة الرابعة تبدأ من سورة الفرقان وتنتهي على سورة الأحزاب وهي تشتمل على ثماني سور الأولى مكية والسورة الأخيرة من هذه الحلقة مدنية.

¹ المرجع نفسه، 1/ 17-24.

والحلقة الخامسة تبدأ من سورة سبأ وتنتهي على سورة الحجرات، فيها ثلاث عشرة سورة مكية من البداية والثلاث الأخيرة مدنية.

والحلقة السادسة تبدأ من سورة "ق" وتنتهي على سورة التحريم وفيها السبع الأولى مكية والعشر الأخيرة مدنية.

والحلقة السابعة تبدأ من سورة الملك وتنتهي على سورة الناس.

وترتيب السور هذا كما يعرفه كل منا توقيفي من عند الله وليس فيه شيء من عندنا، وعلى هذا الترتيب يوجد القرآن في اللوح المحفوظ وعلى هذا الترتيب كما جاء في الأحاديث النبوية كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم وجبرئيل عليه السلام يدرسان القرآن كل رمضان، وعلى هذا الترتيب كان يقرأه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وعليه أرسله عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد نسخه إلى الولايات الإسلامية، وعلى هذا لا يمكن أن يكون هذا الترتيب خالياً عن الحكمة.

ناحية خفية: كانت لهذا النظم ناحية خفية كما ذكرت من قبل وتبدو من قراءة القرآن بعض الحكم لذلك وهي كما تلي:

1. كما يكون للسورة عمود ترتبط به الآيات بعضها ببعض كذلك تكون للحلقة عمود ترتبط به بعض السور ببعضها، وكذلك نرى أن المعاني قد تكون مشتركة بين هذه الحلقات ولكن هذا العمود لا يخلو من تأثيره على هذه الحلقات، وقد ذكر المفسر وفصل القول في بداية كل حلقة على هذا العمود الذي ترتبط به بعض السور ببعضها.

فبعض الحلقات تغلب عليها ألوان القانون والشرعية وبعضها تغلب عليها الأخرى مثل تاريخ إبراهيم بأصوله وفروعه، وبعضها بالجدال بين الحق والباطل وبيان السنن الإلهية في ذلك، وبعضها بالنبوة والرسالة بميزاتها وخصائصها وهكذا.

2. السور المدنية غير مخالفة لحلقاتها بل هي موافقة بها مع أنها نزلت قبل الهجرة في أيام قاسية رهيبة وتكون في حلقاتها مثل الشجر إن تكن السور الملكية كالأصل فالمدنية منها كالفرع وما أشبه الأصل بالفرع.

3. وهذه السور بعضها مع بعض كالزواج أعني كل سورة يكون لها زوج وكل ما يكون من الخلل في الأولى تملأه الثانية وكل ما تكون مخفية في الأولى تكون واضحة في الثانية فتكون هاتان السورتان كالشمس والقمر ومثال هذه في الطوال من السور هي البقرة وآل عمران وفي السور القصيرة المعوذتين. فهذه السور يكون فيها نظام رب الكون كما هو في الكون، والكون مملوء بالزوج والزوج، كل شيء يكون له زوج. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلاحظ هذا في صلواته كما جاء في الروايات أنه كان يقرأ سورة القيامة والدهر معاً وكذلك سورة الصف والجمعة معاً وكذلك سورة الغاشية والأعلى معاً في الصلوة.

4. وسورة الفاتحة تختلف عن جميع السور بكونه ديباجة للقرآن فهي كالفاتحة لجميع القرآن وهي تشتمل على جميع الموضوعات القرآنية ومن أسماء هذه السورة "الكافية" وذلك يعني أنها تكتفي بنفسها ولا تحتاج في ذلك إلى سورة من السور.

هذه هي بعض الأمور مما ذكرها المفسر أمين أحسن الإصلاح رحمة الله في تفسيره وهو يقول على ختام البحث:

"حينما تأتي هذه الحلقات السبعة بين يدي مع كون السور زوجاً زوجاً فقد يطير بي قلبي إلى الآية الكريمة من القرآن الكريم "ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم".¹

¹ المرجع نفسه، 1/24-27.

تفسير القرآن بالقرآن:

الشيء الثالث الذي كان تحت رعايته هو تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن يقول بنفسه أنه كتاب متشابه، حيث قال ﷺ: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا". (الزمر: 23)

والقرآن يذكر الأشياء بأساليب شتى قد يكون شيء مخفي في مكان وواضح في آخر، ومقيد في مكان ومطلق في آخر، ومجمل في مكان ومفصل في آخر فالمفسر ينظر ويراعي هذه الأشياء بأجمعها ويفسر القرآن، يقول الشيخ الإصلاحي: سيري القارئ أثناء قراءة التفسير أنني ما اعتمدت على القرآن في البحث عن النظام وتعيين التأويل فقط بل اعتمدت عليه في مشكلات الألفاظ والأساليب كذلك. وليس السبب في ذلك أنني ما كنت قادراً على الرجوع إلى كتب اللغة والنحو بل السبب في ذلك أن القرآن كما في حقائقه ومعانيه، كذلك في مشكلاته الأدبية والنحوية أوثق المراجع وأحسنها، وهذه حقيقة قد اعترف بها الأقدمون.¹

الوسائل الخارجية لفهم القرآن:

إلى الآن كنا نتحدث عن الوسائل الداخلية لفهم القرآن التي ذكرها المفسر والآن نذكر الوسائل الخارجية التي استفاد منها المفسر بشيء من الإجمال. السنة المتواترة والسنة المشهورة: إن المصطلحات القرآنية مثل الصلوة والزكاة والصوم والحج والعمرة والأضحية والمسجد الحرام والصفاء والمروة والسعي والطواف وما إلى ذلك فإنه يعتمد في تفسير هذه كلها على السنن المتواترة. لأنه لا يمكن لأحد ولا يناسبه أن يفسر شيئاً من المصطلحات الشرعية والقرآنية، لأن الله تعالى أعطى حق هذا التفسير للنبي ﷺ ولم يشاركه أحد في ذلك. كما كان عليه الصلوة والسلام مأموراً بتبليغ هذا القرآن كذلك كان مأموراً بتبيينه وتعليمه وكان هذا التعليم والتبيين جزءاً من رسالته عليه الصلوة والسلام.

¹ المرجع نفسه، 1/ 27-28.

لكن يبقى هناك سؤال وهو وصول هذه السنة إلينا بالقطعية أن النبي ﷺ قال كذا وكذا أم لم يقل كذلك، فأما المصطلحات الدينية المعروفة فلا مشكلة فيها فإنها محفوظة بالقطعية بصورة السنة المتواترة بطريق تعامل الأمة وهذه السنة المتواترة ثابتة بنفس التواتر القطعي الذي يوجد في القرآن، فإن تواتر الأمة الذي نقل إلينا القرآن هو التواتر الذي نقل إلينا مصطلحات الدين كلها بالمفهوم العملي ولا يوجد هناك فرق غير أن القرآن جاء بالتواتر القولي وهذه المصطلحات نقلت بالتواتر العملي، فإذا كان الإيمان بالقرآن واجب علينا فكذلك الإيمان على هذه المصطلحات بصورها العملية واجب علينا.

والخلافاً لليسيرة في ذلك لا يكون لها من الأهمية شيء مثل الصلوات الخمسة يعرفها كل من آمن بالله وعمل بمقتضاه وأما الخلافاً لليسيرة في أمرها فلا تعني بشيء. فهو يقول في مقدمته:

"أما جرأة منكري الحديث بأنهم يذكرون مفهوم الصوم والصلوة والحج والزكاة والعمرة والأضحية بما تشتهي به أنفسهم ويريدون أن يجعلوا التغيير والإضافات فيما نقل إلينا بالتواتر العملي فالواقع أنهم ينكرون القرآن فإن التواتر الذي نقل إلينا القرآن هو التواتر الذي نقل إلينا هذه المصطلحات بصورتها العملية، فإذا لا يؤمنون بهذا فيعني ذلك أنه لا يوجد هناك سبب للإيمان بهذا القرآن، فهذا هو موقف المفسر الإصلاحي في تفسيره عن الأحاديث المتواترة والمشهورة.¹

الأحاديث وآثار الصحابة ﷺ: يقول المفسر رحمه الله عن الأحاديث وآثار الصحابة:

"أحسن شيء وأظهره في المصادر الظنية للتفسير هي ذخيرة الأحاديث والآثار، وإذا وصل أمر صحتها إلى درجة التيقن والطمأنينة لكانت له من الأهمية ما تكون للمتواترة في التفسير. ولكن إذا لا يكون أمر الصحة لهذه الأحاديث والآثار كذلك،

¹ المرجع نفسه، 1/29-30.

فهي تكون مقبولة إذا كانت موافقة للأصول القطعية التي ذكرناها من قبل. والذين يعطون الأحاديث من الأهمية ما تجعلها حاكمة على القرآن، ففي الحقيقة هم لا يعرفون درجة القرآن ولا درجة الحديث".¹

أسباب النزول: أما الأمر في شأن النزول فهو كما ذكر العلامة الفراهي في مقدمة تفسيره، فهو على طريقته تمامًا، والفراهي رحمه الله يقول:

"ليس شأن النزول، كما قيل تسامحًا، سببًا لنزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلًا للكلام، فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة، فلك أن تلتبس شأن النزول من نفس السورة فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقًا لموضعه كما أن الطبيب مثلًا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة. فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلود والأبدان. والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضه ببعض. وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجودًا حين نزول السورة، لكي يعلم أن الآيات كانت لها دواعٍ ومواقع.

وبهذا ينحل ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [سورة الأنعام: 54] حيث قال:

"ولي هنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السور أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه".

فإن الأمر عندي، كما علمت، أن الله تعالى حين أنزل سورة ما كان إلا ليبين الأمور التي اقتضت التبيان بكلام لم يلتبس نظامه، كما يفعل الخطيب الحكيم، فإنه

¹ المرجع نفسه، 30/1.

ينزل كلامه، ويسوقه على حسب دواع خاصة بين يديه، فكثيراً ما لا يذكر أمراً خاصاً ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات، وقليلًا ما يسمي أمراً خاصاً أو شخصاً خاصاً، فيأتي بكلام على سابع كغيث مطبق. وكان نزول القرآن العظيم هكذا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [سورة المائدة: 101].

فكان القرآن يأتي بجوابهم حين نزوله، جاريًا على رسله ومنهجه فإذا بلغت سورة حد الكلام، وقضت شأنها، وأوفت لدواعي الكلام بيانها سكنت، وألقت جرائنها، فما جاوزت ولا قصرت ولكن ربما كانت الحاجة باقية، فأنزل الله سورة أخرى، ولكن بدّل الأسلوب الأول، لكيلا يملّوا، وشأن النزول لم يتبدل ولذلك ترى في أول النبوة سورًا كثيرة في ذكر البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتئم بها، ولكن يتبدل الأسلوب وتصريف القول.

وكذلك ربما وقعت حاجة لتوضيح أمر، فنزل بعض الكلام، ووضع حيث كانت حاجته إنجازا لما وعد: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة: 19].

فلم يراع زمان النزول، بل نظام القول ثم ربما نبه أن هذا بيان بعض الآيات فإنك ترى بعد أكثر آيات الحقت بأخواتها للبيان مثل قوله تعالى:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة/187]. كما مر في الديباجة.

فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلب شأن النزول عن أصل نظم القرآن العظيم، فيهم عليك الأمر، ويغادرك في متفرق السبل، لا تدري أيها تسلك، بل تجسس شأن النزول من القرآن، ثم خذ من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبدد نظامه".¹

¹ المرجع نفسه، 1/31-32.

الكتب التفسيرية: أما مدى إستفادته من كتب التفسير فهو يقول:

"كانت ثلاثة كتب من كتب التفاسير عندي في معظم الأحيان، منها مفاتيح الغيب للإمام الرازي وتفسير ابن جرير الطبري وتفسير الزمخشري.

فلمعرفة الأحاديث تفسير ابن جرير وللمعرفة بأقاويل المتكلمين وعقلائيهم التفسير الكبير للرازي وللمسائل النحوية والإعراب تفسير الزمخشري.

فهذه التفاسير كانت تحت دراستي من قبل ولكن أعدت النظر فيها قبل كتابة التفسير وأما التفاسير الأخرى فما راجعتها إلا إذا اضطررت إلى النظر فيها".

ونرى أن الشيخ الإصلاحي رحمه الله لا يذكر في تفسيره أسماء التفاسير إلا نادرًا. فالسبب في ذلك أن المفسر ينظر إلى الآيات والصور بألفاظها وسياقها ونظمها وشواهداها في القرآن الكريم وبذلك يستنبط المعاني وينظر إلى التفاسير لمزيد من الطمأنينة ولم يذكر أسماء المؤيدين إلا إذا مسّت الحاجة إلى ذلك.¹

الصحف السماوية السابقة: يقول الشيخ رحمه الله عن مدى استفادته من الكتب السماوية السابقة في مقدمة تفسيره تحت هذا العنوان:

"القرآن يذكر الكتب السماوية السابقة، من التوراة والإنجيل والزبور، وقتًا لآخر، فعلى مواضيع مختلفة توجد قصص أنبياء بني إسرائيل وكذلك يوجد في بعض المواضيع الردّ على تحريفات بني إسرائيل والنقد على تاريخهم فما اعتمدت في هذه المواضيع على الروايات الموجودة في تفاسيرنا، فإن معظمها مبنية على الأشياء السائدة في المجتمع، فلا تقوم بها الحجة عليهم ولا تطمئن بها النفس، فعلى مثل هذه المواضيع اعتمدت في البحث والنقد على المراجع الأصلية أعني التوراة والإنجيل.

فكل ما يكون مشتركًا بينها وبين القرآن أشرت إليها وإذا وجد اختلاف بينت حجة القرآن وبرهانه الساطع. ففي الجزء الأول من التفسير يجد القارئ معارك

¹ المرجع نفسه، 32-33.

عديدة تتضح منها أن بيان القرآن لا يتضح ولا يتبين إلا إذا قمنا بمقارنته من التوراة والإنجيل".

ولا يكفي بهذا بل يتقدم بخطاه إلى الأمام ويوضح أمرًا آخر بأن القرآن كما هو كتاب الله كذلك التوراة والإنجيل من الكتب المنزلة من عنده ومن سوء حظ حاملها أنهم حرقوا فيها وإلا كانت هذه رحمة وبركة من عند الله كما هو شأن القرآن الكريم، ولكن بعد كل هذه الزيادات والتحريفات توجد فيها خزائن الحكمة، إذا يقرأه القارئ يتضح له أن المنزل لكل واحد منها هو الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء شهيد.

ويقول أيضًا: وأنا أدلي برأيي كلما أرى أن الحكمة التي تساعد في فهم القرآن لا توجد إلا في هذه الكتب السماوية.¹

تاريخ العرب: القرآن يذكر دمار قوم عاد وثمود ومدين ولوط من العرب القديم وكذلك يذكر معتقداتهم ودعوة أنبياءهم وماذا كانت نتيجة هذه الدعوات ويشير إليها إشارات سريعة في بعض المواضع.

وكذلك ورود إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلوة والسلام في العرب وتضحياتهما ودعوتهما وبناء الكعبة بيت الله الشريف، فبركته تغيرت أوضاع العرب الأخلاقية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية فكل هذه يذكرها القرآن بأساليب مختلفة.

فهذه المفاهيم كلها تحتاج إلى معرفة تاريخ العرب القديم فيقول عن موقفه في ذلك:

"وما تحصل من الكتب المختلفة لا تكفي مع إفاداته المتنوعة وطبعًا في كلام شعراء العرب وخطبائهم لا نجد إلا إشارات وهي مع أهميتها لا تزيد عن كونها إشارات. وكلما ظننت بحصول شيء في مكان ما حاولت بالوصول إليه ولا شك أنني نجحت بأشياء ساعدتني في توضيح بعض الإشارات القرآنية، لكن الواقع أنني ما

¹ المرجع نفسه، 33/1.

اعتمدت في ذلك كلياً إلا على القرآن الكريم فقط، ولم آخذ من كتب التاريخ إلا ما وجدته موافقاً لما جاء في القرآن الكريم، وهذا كله من توفيق الله ونصره.¹

مميزات التفسير كما يبدو من الأسلوب المختار: ومما يميز هذا التفسير هو الأسلوب والطريق المختار للمؤلف فإننا ننظر أنه كانت لديه فكرة قرآنية واضحة في تفسير القرآن من أول الأمر، وقد عاش مع هذه الفكرة سنين طوالاً.

وقد قدّمنا ملخص أسلوبه كما أملاه في مقدمة التفسير، والآن سنقدم بعض الميزات التي هي ميزات الأسلوب أصلاً، وميزات التفسير ثانياً، فميزات هذا الأسلوب على سبيل الإيجاز فيما يلي:

1. وضوح القصد للتفسير وهو كتابة تفسير يخلو من كل عصبية وتقديم مفهوم الآية كما يتجلى من الآية نفسها.
2. وطبعاً أهم شيء في ذلك هو الطريق للوصول إلى مفهوم الآية والوسائل المعتمد عليها في ذلك. فالوسائل عنده من القرآن بداخله: لغة القرآن ونظامه ونظائره وشواهد، ومن الخارج: الحديث النبوي، والتاريخ، والصحف السماوية السابقة ومكتبة التفسير.
3. إعطاء اللغة ما تستحقه من الاعتناء فإن الذين يغفلون عن هذا الجانب ولا يعتنون به قد يقعون في مشاكل شتى وقد يكون الأمر عندهم أمراً ما ثم ينقلب تماماً بعد الرجوع إلى اللغة بمراجعتها.
4. اعتماده على نظم القرآن فإن أكبر دليل لترجيح معنى على الآخر هو الاعتماد على نظم القرآن فإن الكلام بسياقه قد يساعد في فهم الآية ما لا تساعد الأشياء الأخرى. وأيضاً هذا النظم القرآني عند الشيخ الإصلاحي ليس كما هو عند السيوطي والرازي والباقين بل كانت عنده فكرة جامعة شاملة.

¹ المرجع نفسه، 1/33-34.

5. تفسير القرآن بالقرآن، ومما يمتاز به المفسر في تفسير القرآن بالقرآن أنه لا يفسر القرآن بالقرآن فقط في تفصيل المجمع أو إطلاق المقيد، بل كان له في ذلك معنى شامل فهو يرجع إلى القرآن في البحث عن النظم القرآني وفي مشكلات الألفاظ والمعاني والقرآن عنده أكبر دليل من كتب اللغات والنحو والبلاغة وهذا هو موقف أستاذه الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله في هذه الأمور والقضايا كلها.

6. اعتماده على الصحيح من السنن والآثار، ومن بلایا المفسرين قديماً وحديثاً هو الأخذ والقبول لجميع ما نقل إليهم رطباً كان أو يابساً فنرى المفسرين جاءوا بأشياء لا تطمئن بها القلوب ولا تقبلها العقول فالمفسر بما كانت لديه فكرة واضحة عن هذه المنقولات وكان عنده اطلاع واسع على هذه المنقولات وقد حضر محاضرات الأستاذ الإمام الفراهي رحمه الله وقضى معه سنين طوالة فهو لا يقع كثيراً ما في هذه الأشياء. مع أنه لا يستغني عن الأحاديث المشهورة والمتواترة في المصطلحات الدينية والشرعية فهو على منهج لا يقوم على الإفراط ولا على التفريط، فمن الناس طائفة لا يقبل الأحاديث تماماً وأخرى من لا ينظر في صحتها شيئاً بل يقبلها تماماً كما جاءت في كتب الآثار والروايات.

7. وكذلك استفادته من الكتب السماوية السابقة على ما هو معروف لدى المفسرين ولكن ما يمتاز به مفسرنا الإصلاحي رحمه الله هو الرجوع إلى المراجع الأصلية من التوراة والإنجيل والزبور مباشرة وأما المفسرون الآخرون فهم يعتمدون على الروايات وكثيراً ما لا توجد ما تشتمل عليها هذه الروايات في الكتب السماوية السابقة فهي لا تكون حجة على أهل الكتاب ولا تطمئن بها قلوبنا فالشيخ الإصلاحي والعلامة السيد رشيد رضا يرجعان إلى نفس الكتب بدلاً من الروايات.

هذه هي بعض الميزات التي تبدو لي بعد دراسة التفسير وخاصة مقدمته في التفسير، فلخصتها، وربما تكون هناك أمور وأمور لم أصل إليها. والله هو الموفق وهو حسن المآب.

مدى استفادة الشيخ الإصلاحي من الإمام الفراهي: وقبل أن ننهي حديثنا عن الإصلاحي وجهوده المشكورة في مجال التفسير نودّ من الأفضل أن نذكر كيف وكم استفاد الشيخ الإصلاحي من أستاذه الإمام الذي يذكره في كل كتاب أو بحث يكتبه:

كان الشيخ الإصلاحي كما ذكرت من قبل، من أرشد تلامذة الفراهي رحمه الله وإذا يقول في تفسيره "الأستاذ الإمام" فلا يعني ذلك إلا الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله، ولكنه مع ذلك كان يخالف أستاذه في بعض الآراء بأدلته، ولا يعني هذا أنه لا يستفيد من أستاذه شيئاً بل كانت له مواقف خاصة له يخالف فيها أستاذه، وله من المواقف يرى فيها ما يراه أستاذه. ووصلت بعد النظر في تفسيره إلى أنه يعتمد على آراء الأستاذ في معظم المواضع، وخاصة حين النقد على الآراء المختلفة، وحين تكوين الآراء الجديدة وفي التحقيقات اللغوية وما إلى ذلك.

فمثلاً نرى أن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ينقل رأي الأستاذ الإمام كما هي في التحقيق اللغوي في الآية "وَأَلْمُرْسَلَتِ عُرْفًا" ¹.

فيقول الفراهي رحمه الله:

"(وَأَلْمُرْسَلَتِ عُرْفًا) أرسل الشيء ضد أمسكه، والرياح إذا سكنت فكأنها ممسكة، فإذا جرت فكأنها أرسلت، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ [سورة الحجر: 22] و"العرف": ناصية الفرس، كما هو معروف. قال امرؤ القيس:

¹ سورة المرسلات: 1.

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

فهيها شبه الرياح بالأفراس، وشبه إسكانها وإجراءها بأخذ ناصية الفرس وإرسالها. ودل بذلك على أنها تجري بأمر ربها، فهو مالكها ومصرفها. قال تعالى: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [سورة هود: 56]. إرسال الريح يكون للنفع والضرر كليهما.¹

ونرى الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ينقل نفس الرأي مترجماً إلى اللغة الأردنية.² وكذلك نرى أن الشيخ يكوّن الآراء مثلاً في قضية الرجم على ما قاله أستاذه الفراهي وفي قضية الذين فروا من المسجد إلى العير التجارية حين خطبة النبي صلى الله عليه وسلم، نرى أن الإمام الفراهي يقول معلقاً في قضيتهم: "اتفقت الروايات أنهم تسللوا والنبي في الخطبة والظاهر أنهم لم يحسبوا الخطبة لازمة والخطاب إلى رجال معدودة".³

ونرى نفس الرأي عند الشيخ الإصلاحي مع بعض الإضافات ولكن يوجد تشابه كبير بينهما مع أن الواحد يكتب الحواشي والآخر يكتب التفسير. والحق أنه لا حاجة إلى أكثر من هذا فإن بناء التفسير على نظام القرآن بنفسه يشهد على مدى استفادته من الأستاذ الإمام، فهو ينتهج منهج الأستاذ وفكرة النظام هي أكبر شيء في تفسيره.

وها هو الشيخ الإصلاحي يقول بنفسه في مقدمة تفسيره:

"كان لي فخر عظيم إذا استطعت أن أدعي بأنه كل ما يوجد في هذا التفسير فهو من إفادات الأستاذ الإمام، لأن هذه هي الحقيقة، لكنني من الحيطة لا أدعي بها كي لا ينتسب أحد إليه بعض تلك الأخطاء التي صدرت مني".⁴

¹ نظام القرآن للفراهي، سورة المرسلات: 1.

² تدبرقرآن، سورة المرسلات: 1.

³ مجلة علوم القرآن: 2: 21، ص 46

⁴ تدبر قرآن (مقدمته).

خاتمة المقال: سئل الشيخ الإصلاحي بعد الانتهاء من تفسيره "تدبر قرآن"، ماذا كان من دوافع هذا التفسير؟ هل كان يوجد أي خلل في التفسير الأردية المتداولة أم كان هذا بسبب حبك للقرآن حتى وصل العمل كبيراً في نهايته؟

فأجاب الشيخ قائلاً: إن تدبر قرآن يختلف عن جميع التفاسير، أما التفاسير الأخرى فهي مبنية على الروايات أو على المباحث الكلامية. ولكن هذا التفسير يخاطب الإنسان مباشرة، أعني أن هذا التفسير مبني على لغة القرآن ونظامه وشواهد. وأما الأشياء الأخرى من الأحاديث والصحف السماوية السابقة والروايات فكل ما كانت موافقة للغة القرآن ونظمه وشواهد أخذناها، وما كانت غير ذلك لم ننظر إليها، وفي الكلام مع أهل الكتاب كان الاعتماد مباشرة على كتبهم التي يدعون بها.

وأما عن عقلية القرآن فقد كانت حتى الآن مبنية على علم الكلام. وعقليته وحكمته التي تنبني على أدلة وشواهد الآفاق والأنفس فلم يتعرض لها أحد. لأنهم كانوا متأثرين بفلسفة اليونان وما كان القرآن عندهم إلا للقراءة على القبور، وهذا التفسير محاولة لتوضيح حكمة القرآن وفلسفته حتى تكون دعوته عامة لجميع الكون.

والإمام الفراهي قد قضى من عمره خمس سنوات يعلمني ويرشدني فشعرت بمسؤولية تكميل ما فاتته من الأستاذ الإمام، مع أنني لم أكن جديرًا بذلك ولكنه حين اختارني هو بنفسه شعرت بأن نفسي مسؤول عن ذلك.

وأولاً كنت أفكر بكتابته باللغة العربية وتكميل "نظام القرآن للفراهي" لكنني شعرت بأن اللغة العربية غير سائدة في الهند حتى يستفيد منه عامة الناس، فبدأت باللغة الأردية وسميتها "تدبر قرآن".

ومن سوء الظن مع القرآن من القديم القول بأنه لا يوجد فيه نظم ولا ترتيب، وقد جمعت الآيات بدون سبب، ولكنني قد أبطلت هذا القول وأثبتت بأن كل آية

مربوطة مع الأخرى وأن كل سورة منظومة من الأخرى، والقرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس منظم مربوط بترتيب وارتباط لا يوجد له نظير.¹

إنني لا أقول شيئاً غير أن الشيخ الإصلاحي بدأ بعمل وانتهى به ولكن المسؤولية ترجع إلينا طلبة علوم القرآن أن نقوم بتنقيح العمل ونقله إلى العربية - لغة المسلمين ولغة القرآن - وأن نقوم بمزيد من التقدم في هذا المجال والله ولي التوفيق وهو حسن المآب.

¹ العدد الخاص لمجلة إشراق: حوار مع الشيخ الإصلاحي: يناير، فبراير 1998م.